رواية للكاتب الانكليزي

جيمس اولدريج

الجبال والسلاح

ابو علي الكردي

ترجمة: صادق الجلاد


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

جيمس اولدريج

الجبال والسلاح

دار ئاراس للطباعة والنشر



السلسلة الثقافية

***

دار ئاراس للطباعة والنشر - شارع گولان - [illegible]

الجبال والسلاح

رواية

للكاتب الانكليزي:

جيمس اولدريج

ترجمة:

صادق الجلاد

اسم الكتاب: الجبال والسلاح - رواية
تأليف: جيمس أولدريج
ترجمه عن الانكليزية: صادق الجلاد
من منشورات ئاراس رقم: ٥٠٢
الإخراج الفني: شاخوان كركوكي
الغلاف: آراس أكرم
التصحيح: أوميد البناء + شاخوان كركوكي
التنضيد: نسار عبدالله
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن الحاج محمود
الطبعة الأولى: اربيل - ٢٠٠٦
رقم الإيداع في المكتبة العامة في اربيل: ٦٩٧/٢٠٠٦

تعريف موجز بالروائي وروايته

هذه الرواية «الجبال والسلاح» بقلم الكاتب الانكليزي جيمس اولدريج، هي من الروايات الرائعة الجذابة التي لايحتاج مؤلفها الى تعريف. فهو قد طبقت شهرته الآفاق في العقود الوسطى من القرن الماضي، وذاع صيته في جميع الاوساط الادبية العالمية بصفته مدافعاً متحمساً عن الشعوب المستعبدة المناضلة من اجل انتزاع حريتها واستقلالها السياسي والاجتماعي من براثن الدول الاستعمارية وحبائل الشركات الامبريالية.

للشرق الاوسط وشعوبه المتعددة الاطياف نصيب كبير في نشاط الروائي اولدريج الادبي. وهو على النقيض من اولئك المغامرين من ابناء جلدته، امثال لورنس العرب الذي كرس مواهبه لخدمة الماكنة الاستعمارية البريطانية. فهو، اي جيمس اولدريج، قد سخر قلمه وفكره وموهبته وطاقته لخدمة ابناء شعوب هذه المنطقة. وتصفه الاوساط الادبية التقدمية البريطانية انه وريث جدير بمواصلة مسيرة الشاعر الانكليزي المشهور جورج بايرون الذي ضحى بحياته وجازف بها دفاعاً عن حرية الشعب اليوناني في نضاله ضد الهيمنة العثمانية في اواخر القرن التاسع عشر. وكان الشاعر بايرون قد نحت ابياتاً من الشعر فوق اعمدة خامية على قمة جبل تطل على البحر ماتزال مزاراً يؤمها السياح للاستمتاع بقراءتها واشباع نظرهم بتوقيعه تحتها «ج. غ. بايرون»

ولا نغالي اذا قلنا ان الكاتب اولدريج ترك للانسانية ارثاً ادبيا يخلد نضال الشعوب من اجل حريتها، ويرسم صوراً موحية بالبطولة والرجولة والتضحية الملهمة بحيث تتحول الوانها الزاهية الى اطياف دافئة تخالط عروق البدن فتبعث في النفس الحماس للهتاف باسم الحرية والاندفاع تحت راياتها واستقبال المصير بثغور باسمة امتنانا لغد سعيد.

ومن بين هذه الروايات الخالدة بقلم جيمس اولدريج، روايته «قضية شرف» و«النسر البحري» ورواية «الدبلوماسي» التي كانت اكثر اثارة من بين مؤلفاته في خمسينيات القرن

الماضي، حيث ان لبطلها أيغور ماك غريغور امتداداً نضاليا استمر حتى غطى روايته التالية هذه التي بين يدي القارئ، منذ بدايتها التي تعج بالاسرار، والى نهايتها المأساوية التي وان كانت كذلك، الا انها لاتدع القارئ يطوي الصفحة الاخيرة الا ويشيع بصيص من الامل يلوح له في الافق مذكرا اياه ان انفاس النضال لا تخمد ابدا طالما يوجد هناك رجال مؤمنون بمبادئ الحق والعدل والحرية.

واذا كانت رواية «الدبلوماسي» تدور أحداثها بين فتى بريطاني كان طالباً بجامعة موسكو، واقترن بفتاة حسناء انكليزية كانت تدرس معه، ولكنها من أسرة غنية ارستقراطية، وبين دبلوماسي بريطاني بارز هو اللورد ايسيكس، فان رواية «الجبال والسلاح» يقود أحداثها نفس ذلك الطالب الانكليزي أيغور ماك غريغور، بعد ان صار يعمل بوظيفة جيولوجي كبير في شركة النفط الوطنية الايرانية، حيث كان قد عقد صلات نضالية مع الحركة الوطنية التحررية الكردية في كردستان ايران، وساهم في دعم جمهورية مهاباد الكردية بايران في أواخر الاربعينيات من القرن المنصرم، وهي اول جمهورية كردية تقام على جزء من ارض كردستان هذا العصر.

وفي هذه الرواية «الجبال والسلاح» التي تدور أحداثها فوق جبال كردستان ايران وامتداداتها نحو جبال كردستان العراق وتركيا سيجد القارئ ان الكاتب جيمس اولدريج كان دقيقاً الى حد التوثيق في رسم صور حية للجبال والوديان والسفوح، وللحياة القاسية فوقها، ولأناسها الكرد وعاداتهم وتقاليدهم العريقة وللصراعات القبلية ما بين شيوخها وزعمائها، وللشخصيات الوطنية الكردية المناضلة من اجل تحقيق حلم الشعب الكردي باقامة دولة كردية مستقلة أسوة بجميع شعوب هذه المنطقة من العالم.

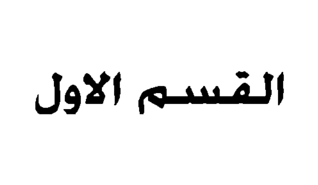
لقد وصف نقاد ادباء عالميون معروفون رواية «الجبال والسلاح» انها انجاز ادبي ناجح اثمرت عنه جهود اولدريج الأدبية السياسية. فان هذه الرواية فضلاً عن إستحواذها على فكر القارئ باحداثها التي تمتد لتغطي بيروت وباريس وسويسرا ولندن، فهي تجسد قساوة النضال المرير الذي يخوضه شعب عريق من اجل حريته واستقلاله، فهي تفضح المؤامرات الامبريالية العالمية والرجعية المحلية، لغرض سلب الثروات الهائلة التي يزخر بها باطن ارض كردستان من النفط والغاز والمعادن الثمينة الاخرى.

وتعكس هذه الرواية ايضا موهبة وقدرة هذا الكاتب على جعل خطوط روايته ناجحة شيقة واضحة في اظهار الروح الشرقية من حيث المعتقد الديني والشعور القومي وفي اظهار الروح الغربية بكل ما فيها من طمع وجشع نحو ثروات الشرق وخيراته.

لقد ترك الاديب الانكليزي جيمس اولدريج للاجيال اللاحقة كنزاً أدبيا ثمينا وفريدا لا مثيل له تجسد في رواية «الجبال والسلاح». وكم مرة داعبت الاماني نفسي لو ان الاديب الانكليزي توج هذا العمل الادبي بعنوان «الاكراد والسلاح» لا «الجبال والسلاح» لان احداثها تدور شكلاً ومضمونا عن الكرد وكردستان. ولربما سيوافقني القارئ الكريم على هذه الرؤية بعدما سينتهي من الابحار عبر ما فيها من موج متلاطم في هذا البحر الهادر من الاحداث المتلاحقة.

المترجم: صادق الجلاد

العراق - ٢٠٠٣


القسم الاول

الفصل الأول

بعدما جلسوا في الطائرة العمودية القديمة «ويستلان» لاحظت كيتي كيف قام ماك غريغور يحسر نفسه في بدلة العمل الضيقة المشبطة. فهو قد بدأ بالارتداء بأسلوب نظامي كامل. ولكن اسلوبه بالارتداء لم يسعفه بأي شيء، حيث ان البدلة كانت ضيقة جداً عليه، وانحشرت عند المرفقين والركبتين. وهي لم تتجاوز هذه النهايات كما هو الشأن دائماً. وعندما ارتجف هيكل الطائرة العمودية وتعالى دوي ضجيج الاهتزاز للاقلاع، خطت كيتي نحو ماك غريغور فوق ارضية الألمنيوم وسحبت بدلة العمل عند المرفقين بقوة، منهية بذلك صراع زوجها مع بدلة العمل. لكنه قال لها عندما امسكت بلسان السحابة:

- دعي هذا لي، انا ازرره.

- انتبه كي لاتشبك القميص مع السحابة.

حنى ماك غريغور رأسه بلا مبالاة، ومسك لسان السحابة بيده، بينما كانت الطائرة العمودية تتأرجح من جانب لآخر. وجذبت كيتي حسرة وقالت.

- لقد اصابني دوار فعلاً.

كان الفجر اصفراً شاحباً. وان الطائرة العمودية العتيقة المتخلعة قد ترجرجت بهم وتأرجحت بانطلاقه الى الأعلى فوق المستوطنات عميقة الأغوار عند اقدام الوادي. وكانت كيتي تعرف مسبقاً ان الهواء المشبع برائحة المعدن سيتحول الآن الى رياح صقيعية، اذ كان قد تسنى لها صعود جبال كردستان حيث تمتد على مساحة مليون آكر منطقة جبلية جرداء من المرتفعات الملونة الخامدة والقمم الوعرة الشاهقة حادة المنحدرات. وصاحت كيتي على زوجها من خلال ضجيج المروحة الدائرة:

- ماذا لو ان الاكراد اسقطوا الطائرة العمودية الآن؟

- انهم لايتحرشون على هذا المستوى والمدى القريب من مدينة رضائية.

قبل عشرة أشهر مضت كانت طائرة عمودية عائدة الى شركة النفط الوطنية الايرانية، قد جرى اصابتها بصاروخ عيار ٨٠ ملليم أطلقه على هذه الطائرة صبي كردي من فوق أحدى هذه القمم الجرداء. وادت الاصابة المباشرة الدقيقة الى تدمير هيكل الطائرة العمودية. ووجد قائد الطائرة نفسه في فراغ مع جهاز التوجيه الذي يساوي ثمنه عشرة آلاف جنيه استرليني، وسيطر الغضب على الطيار والقدرة على النكوص الى الخلف حتى اوصل الطائرة العمودية الى الرضائية ثم العودة على طائرة عمودية أخرى مع فصيل من الجنود الايرانيين للبحث عن هذا الخبيث. وقد أطلقوا النار على كردي وحيد اكتشفوه على سفح الجبل. وكان هذا راعياً، عمره ستة عشر عاماً. وكذلك فان الجنود قد اطلقوا نيران الرشاشات على قطيعه، الا انهم لم يعثروا على ذلك الذي اطلق الصاروخ.

- اننا لا نطير على الجانب المقصود من سلسلة الجبال - صاح ماك غريغور من فوق سلم صغير صعد عليه، ومد رأسه في كابينة القيادة، واخذ يتشاجر مع الطيار من خلال ضجيج محرك الطائرة. وسمعت كيتي جواب الطيار افاد فيه ان اكرادا يلاحظون على سفوح الجبال ولايرغب طاقم الطائرة ان يتعرضوا لصاروخ في مؤخرة الطائرة.

- آه، اللعنة على المرض - تمتمت كيتي متصابرة على النزلة التي اصابتها من جراء مرض الاعالي الذي اصابها فجأة بالاذى في وقت متأخر.

الا انه بعد اربعين دقيقة، انتهى كل شيء، حيث هبطوا نحو شق شاهق خالٍ من الاشجار. وما ان حطت الطائرة العمودية على الارض حتى فتح الميكانيكون الكابينة وسارعوا الى خلع بدلات العمل بحالة من تعارض لاطلاق نار. واستعجلوا بفزع وصراخ وتساعدوا بالنزول وصفقوا الباب الصغير عند غلقها، ثم ودعوهما ملوحين بالايدي من على متن الطائرة العمودية التي حلقت بضجيج مثل طير بجع مفزوع. ونظروا الى الطائرة وهي تنزلق فوق ذرى الجبال ومن ثم اختفت. والآن فانهما بقيا لوحدهما تحت هذه السماء الزرقاء الباردة الصافية.

- اذا لم يتريث زاتكو في انتظاره لنا هناك في كنيسة النساطرة القديمة، فعند ذاك سنضطر الى التزود بطعام لمدة يومين للانتقال الى زنجان - تكلم ماك غريغور مشيرا الى سلسلة الجبال التي تنتهي في الجانب الآخر من شق الجبل. لكن كيتي قالت:

- انا لا أشتكي يا حبيبي. كل ما الامر انا سعيدة لوجودي مرة أخرى اقف على ارض صلبة.

- ليكن ما سيكون - قال ماك غريغور عندما القى بمساعدة كيتي حقيبة السفر على ظهره واضاف - لربما يوجد هناك مكان ما، اكراد وحتى جندرمة من اولئك الذين يحتمل انهم

لايستحسنون وصولنا الى زنجان. ولهذا كان ينبغي بالنسبة لك ان تبقي بانتظاري في رضائية.

- لكنني ها انذا لم انتظر هناك. وعليك ان تأخذ ذلك بنظر الاعتبار.

صرف هو النظر عن الدخول بجدال معها، ونقل خطاه صامتا في الطريق وهو يقودها من خلفه عبر وهاد صخرية، ومن ثم صعد بها نحو الجانب الآخر. وفي خلال ذلك لم يكلمها الا نادراً لأبداء بعض الاشارات المقتضبة. وسار الاثنان على هذا المنوال حتى وصلا الى الهدف المقصود الذي هو شاخص صخري مع محراب مخضوضر منحوت في الحجر. الا انهما لم يجدا احداً بانتظارهما هناك.

- انا سأسخن القهوة - قال ذلك بنفس الوقت الذي اخرج فيه من حقيبة السفر جهاز وقود البريموس واضاف - اذا لم يحضر زاتكو في ظرف نصف ساعة، فأننا سنواصل حركتنا في الطريق.

كان ابناء ماك غريغور قد سافروا الى أوروپا للحصول على شهادات عالية في الدراسة. وكانت كيتي قد سافرت معهم وامضت في تلك السفرة نصف سنة. وهي تنظر الآن الى زوجها نظرة جديدة أخرى متطفلة. الا انها عندما نظرت اليه وهو منكب على ضوضاء البريموس تصورت ان هذا الضجيج لربما هو اشد خطراً عليه الآن من الاكراد. لذلك سألته:

- متى كان هذا الاضطراب الكردي قد بدأ من جديد؟

- في الواقع ان هذا الاضطراب لم ينته اصلاً.

- انا اعرف ذلك. ولكن الحرب المكشوفة واشتعال النيران بين الايرانيين والاكراد كانت قد توقفت منذ عدة سنوات. فما هو سبب اشتعالها مرة أخرى؟

- ارى ان الاجابة صعبة. واظن ان الاكراد يفكرون باقامة جمهورية مستقلة من جديدة.

- على الارض الأيرانية؟

- هذا غير معروف بالنسبة لي.

بعد ذلك القم الماء المغلي بالبن، ثم رفع ركوة القهوة بهمة من فوق النار وقالت كيتي:

- اتوقع مستقبلا ان اكراد الجبل واكراد المدن واكراد السياسة سيذبحون بعضهم بعضاً، باسم تحرير الكرد، بنفس الوقت الذي سيقوم الايرانيون بابادتهم.

- انت شديدة الغلظة على الاكراد. فانهم كانوا شبانا في النضال سنة ١٩٤٦.

- والى ماذا قد توصلوا؟ فان الايرانيين قد شنقوا قاضي محمد مع جميع وزرائه بمنطقة قارس القديمة. فهل هناك معنى لان يعودوا مرة أخرى الى ما مضى؟ وفضلاً عن ذلك فاني اراك ميالاً، لأنني اعرف زاتكو.

تجاهل ماك غريغور هذا الكلام. ثم نهض من مكانه. وتركز انتباهه على طير رسم دائرة دقيقة على مسافة نصف ميل منها فوق المنطقة المتجمدة من الارض.

وراحت كيتي تتطلع صامتة نحو زوجها. وفي الأخير قالت ممتعضة من حالة انتباهه المتركز:

- ارى الحال ما بيننا تصبح صعبة. فها انت صرت حتى لاتسمع.

- عذراً، سامحيني - استجاب لها فوراً واضاف - لقد راقبت شاهين الجبال في الصيد.

نضرت كيتي نظرة ثاقبة الى زوجها كأنما تمنع بها عليها الصد عنها بنظرة مرة اخرى وقالت:

- انت تستعمل حتى الوان هذه المنطقة. فها هو شعرك منها، وعيناك البلهاوان وحذاؤك وملابسك، بل حتى اخفاؤك العنيد لسرك يوم امس وهذا اليوم. أليس حتى عودتك الى بيئتك هي كذلك؟ - ومد ثم اشارت بانزعاج الى الجبال بيدها.

- وهو كذلك ياكيتي - تكلم بلطف وقال - انا اشتقت اليك وسعيد تماماً بزيارتك.

ولرغبته في تحاشي نظراتها المتفحصة، انتزع خريطة ووضع على عينيه نظارات مؤطرة بالفولاذ وانهمك بدراسة الخريطة والجبال. ومن ثم اكتسى وجهه النقي الخزفي الضارب الى السمرة اللامعة من الشمس وانفه الدقيق المتعظم وجبينه الصارم الوضاح، تعبيراً مركزا.

وانطلقت صيحة من كيتي.

-آه، استحلفك بالله ان تترك هذا.

- ما هو الذي اتركه؟

- اترك النظارات. ولاتستغرب بافكارك. كن معي.

اخفى هو النظارات، وطوى الخريطة. وفهمت كيتي انه مازال حتى الآن خجولاً جداً، ولم يتعلم الدفاع عن نفسه تجاه مثل هذه اللحظات المحرجة وسهولة استخدام هذا الاستسلام منه ضده. ولكن هل هناك طريقة اخرى افضل في ايقاظه، من هذه الطريقة؟

- مهما حصل او سيحصل، فمن الواضح ان زاتكو لن يحضر - تكلمت كيتي وقالت - ولهذا هيا بنا نتحرك من هنا قبل فوران مزاجي.

- دعينا ننتظر بضع دقائق.

- اما كان احرى به ان يخبرك عما يريد هو منك؟

هزّ ماك غريغور رأسه وقال:

- انه بعث لي نداءات ملحة راجيا ان احضر فقط الى زنجان قبل يوم الخامس عشر من هذا الشهر، اذا كنت صديقا، واذا كانت مصالح الاكراد عزيزة على قلبي... والخ

- اسلوب كردي تقليدي لاستحصال شيء ما من عندك.

- لربما

- وهل تستطيع الحدس عما هو يريده منك؟

- لا استطيع. ولكنني على ضوء تقديري لكل شيء، فانه مستقل حول هذا الموضوع.

- وتركت انت جميع اعمالك بطهران فداءً للالتقاء فقط مع الاكراد ؟

- كلا. فقد كان ينبغي ان اكون هنا لانجاز اعمال خاصة بشركة النفط الوطنية الايرانية، باي صورة من الصور.

ان ماك غريغور يعمل في هذه الشركة بصفته كبير الباحثين الاختصاصيين في قسم الاستكشاف والمعادن.

انحدرت كيتي بعدما زرت معطف الفراء عليها نازلة على السفح خلف ماك غريغور وقالت:

- سيطردك الايرانيون من العمل اذا فكرت الآن بالوقوف الى جانب الاكراد.

رد عليها بتقليب يديه بلا اعتراض او موافقة.

- وهل تعلم انني سوف لا احزن اذا طردوك من العمل. بل ولن احزن باي مقدار.

-حذار، حذار، يا كيتي لاتكوني هكذا.

- أتدري ماذا اريد ان اقول؟

- اعرف ذلك. انت تريدين ان اترك ايران نهائياً. الا ان أوروبا بامكانها الانتظار قليلاً من الوقت ايضاً - قال ذلك من دون الالتفات نحوها.

-كلا، ان أوروبا لاتستطيع ذلك - اخذت كيتي نفساً عميقاً لتستكين واضافت - انت الان في الخمسين من العمر، وانا كذلك. وان هذه البلاد قد ابتلعت ما تولعنا به شبابنا دون ان تترك منه اثراً. وما بقي لدينا هو التخبط الشرقي الدائم. ان كل شيء قد فاتنا يا

ايغور ماك غريغور - واصلت كيتي الكلام بينما كانت عندما تنظران الى ظهره الذي لاح عليه الاجهاد بوضوح واضافت - ان وراءنا ثلاثاً وعشرين سنة من الاحباطات، ولم نستحصل لقاءها على اي شيء، سوى انك قد قبرت مواهبك هنا. ولهذا فقد حان الوقت للارتحال.

- ان هذا يبدو لك بهذه الصورة بعدما غادرت أوروپا - تكلم ماك غريغور بلهجة ترتدي صيغة نكتة.

كانت كيتي قد سافرت في البداية الى أوروپا لترعى فقط شؤون ولدها اندريه وادخاله بجامعة اكسفورد في كلية بيئليول. اما ابنتها سيسي فهي بباريس في المدرسة العليا للفنون الجميلة. الا ان كيتي بقيت فيما بعد، مدة خمسة اشهر أخرى، لأن السنوات الثلاث والعشرين بايران قد استنزفت طاقتها في النضال من اجل قضية عادلة لا امل من ورائها. وقالت كيتي:

- انا لن اسمح لك بان تغرق في هذه الجبال ويضيع اثرك فيها. لأنه يوجد عالم آخر بالفعل، بعيداً عن كل هذا، وهو عالم متحضر عصي عن الزوال.

- هذا واضح.

- وهذا يعني ان لا مصلحة لك في التخبط مع القضايا الكردية.

اعتصم ماك غريغور بالصمت. ومن ثم اعار اليها الانتباه لأول مرة، فلاحظ انها قد قصت شعرها الطويل بحسب المودة السائدة. فسألها:

- لماذا انت فعلت ذلك؟

- هل قلت - لماذا؟

- لماذا قصصت شعرك؟

- لانني قد اصابني ملل من تصفيفة الشعر السابق. زد ذلك، فان هذا قد فعلته يوم أمس، حال وصولي. ولكنك لم تلتفت اليه.

تغطى وجهه بحمرة الغضب، فصد عنها وخطا نحو الامام قائدا كيتي من خلفه فوق السفوح الحجرية الموحشة الزلقة من جراء طبقة سوداء من الجليد الرقيق التي تغطيها. وكان هو يحذرها في الاماكن الخطرة. «كوني حذرة في المشي». وسار الاثنان دون تبادل للكلام بينهما. وكان هو يمشي بخطى حثيثة. الا انه رغم ذلك عرف ان هذا الهواء الجبلي النقي سيساعد زوجته تدريجيا على التخلص من التعب بالتأكيد. وتوقفا للاستراحة لمدة طويلة

ولكن بصمت، واستعادا نشاطهما، ثم واصلا طريقهما عند الظهيرة. وبالاضافة الى ذلك فانه كان يختار بصمت وتركيز خريطة السير بسهولة عبر دروب المنحدرات المتشابكة. وفي بعض الاحيان كان ينسى ان كيتي تسير من خلفه.

ولقضاء الليل فقد قصدا مركز شرطة ايراني مهجور وباتا فيه. وهو مبنى تعرض نصفه الى التخريب على يد الكرد خلال تلكما المعركتين المكشوفتين بكل ما ضحوا خلالهما دفاعاً عن جمهوريتهم عام ١٩٤٦. وبدأ البرد يقرصهما. وصارا يرتجفان. وتناولا عشاءهما قرب شعلة البريموس. وكان العشاء عبارة عن ارغفة من الخبز مع دجاجة مسلوقة نتنة اشتراها ماك غريغور في مدينة رضائية. وقالت كيتي:

- اللقمة كريهة في فمي. وصارت نفسي تتقيأ من مأكولات الاسواق الشرقية.

- مهما تكن الحال فيجب تناول الطعام. وينبغي عليك ازدراء الطعام دون الالتفات الى الطعم.

تكورت كيتي كالقنفذ، وانحنت على شعلة البريموس البائس المفعص. اما ماك غريغور فقد فتح كيسين للنوم من النايلون وشدهما الى بعضهما بسحابات لغرض الدفء.

وبعد ذلك طلب منها ان تدس جسمها هناك طالما مايزال محتفظاً بحفنة من الحرارة.

وبصمت واسنان مصطكة من البرد صدت عنه وقامت خارجة وتوقفت لدقيقة في الظلام على الدرب القديم شاعرة بالسماء الصافية فوق الجبال. واحست بتجميد كاحليها وذراعيها العاريتين وخياشيمها المكشوفة ورئيتها، بل وحتى على ضوء النجوم الخافت كانت صورة المنظر على درجة من الروعة وعمق الهدوء والارتفاع والنقاء، بحيث بدأ لها ان من الاهانة تلويث طهارة بيت الخلاء هذا بهذا القدر القليل من الفضلات الحيوانية.

- لقد امست عجوزا - قالت كيتي ذلك مع حسرة من الحزن.

وبعدما رجعت الى ظلمة المكان داخل مبنى مركز الشرطة وجدته بارداً كالسابق بالنسبة لها. ثم سألت ماك غريفور فيما اذا كانت الحال تفرض فعلا خلع الملابس فقال لها:

- اذا لم تتجردي من الملابس فستتجمدين في الكيس وانا سأتجمد ايضاً.

بعدما اندست داخل كيس النوم المزدوج تعرت تماماً من ملابسها والتحفت بغطاء النايلون البارد. وتبعها ماك غريغور، اذ اندس بجسمه هناك بسرعة. وسارعت هي الى الالتصاق به وقالت متشكية:

- انها لن تنال الدفء ابداً.

- مهلاً. يجب عليك الانتظار قليلاً.

وباضطجاعها في شرنقة الكيس طاوية ذراعيها على مرفقي زوجها انتظاراً منها لحلول الدفء محل البرد، فان ماك غريغور سألها عن ابنتهما سيسي فيما اذا قصت شعرها ايضا. ولكن كيتي اجابت:

- كلا، انها ماتزال نسخة من ابيها. وهي لن تقص شعرها بدون مباركة منك. فما ان تحصل على موافقتك حتى تقصه تماما.

- اخبريني هل ان مدرسة الفنون الجميلة قد لبت رغبتها المنتظرة؟

- في البداية يجب عليها الاعتياد.

- وهل ستلبث بالبقاء؟

- الا اذا التجأت الى الزواج من واحد من الصبيان الفرنسيين من ذوي السيقان الطويلة.

- اترين انها ستتعرض لهجوم جديد.

- كن مطمئناً - قالت كيتي بعدما سحبت احدى يديها واضافت - سوف لاتتعرض لاي شيء. وطالما انها مع العمة جوس فستكون بامان اكثر مما في طهران، وحيثما تكون بعيداً عن نيران الرعب من هذا الدجال الكردي طه. وانا امرتها بالالتقاء شهرياً مع شقيقها اندريه سواء في لندن ام في اكسفورد. وبصدد اندريه فقد اخذت منه وعدا بعدم اهمال اخته مهما كانت الظروف، وان يرعاها باوسع ما لديه من حنان الاخوة.

- كوني مطمئنة، فانه سيلتزم بوعده.

- ليس عندي شك حول ذلك. لكنني رأيته على درجة عالية من الثقة بالنفس لدرجة انه صار يثير مخاوفي. وبدأ لي انه يتصرف في غرفة الاستقبال العائلية بعدم اكتراث كما لو انه موجود بقاعة استقبال في محطة قطار، ويعاشر اياً كان من الاوغاد، وهو هكذا يواكب المسافرين عابري السبيل من السيل الذي لاينقطع من الاصدقاء والاخوان.

- انه ولد نظامي - تصدى لها غريغور مدافعاً عن ولده.

اضطجعت كيتي وضمت نفسها اليه بالتصاق تام، ومدت ذراعها على طول ظهر زوجها فوق العمود الفقري الدافئ. فشعرت بالدفء وبدأ الاطمئنان يتسرب الى نفسها.

- ما هو اسم «الحفيف» باللغة الكردية - وجهت له السؤال كيتي بهدوء، وكأن هناك من يسترق السمع لها.

- اي حفيف؟

- عليك ان تصغي لتسمع فقط.

كان شيء ما يثير خشخشة على السطح الطيني للسقيفة، حيث كانت النسمات الجبلية الخفيفة تداعب الحشائش اليابسة هناك والاوراق المتساقطة. وقال لها:

- غوش، نعم انه غوش.

- وماذا تسمى «الغرغرة»؟

- بياك، نعم بياك.

- الهمس؟

-كوش، نعم كوش.

- والشخير ايضاً؟

- كير، نعم، كير.

ضحكت كيتي بعدما شعرت بالدفء تماماً والتصقت بزوجها:

- لقد تذكرت. نعم تذكرت. ان هذه تحاكي صوت آلة المزمار المزدوج. وان هذا هو كل ما كان يعجبني عند الكرد . ولكن هناك شيئاً آخر عندهم، هو من تقاليدهم العجيبة. فمثلاً ان الزواج عندهم هو «بيد من سيأخذ»، والمبذر هو مفتوح اليد. اما زوج الام فهو «الاب القاسي». ولكن ما هو اسم «الجميل» عندهم؟

- الدم الحلو.

- انا كثيرا ما اتذكر ذلك اليوم فوق بحيرة اورومية. فبماذا ردت المرأة الجبلية على زوجها الذي كان يصرخ عليها انذاك؟

ذكر لها ماك غريغور بعدما غرز اصابعه بشعرها الذي يشبه العشب بنعومته ولدانته، ان ذلك الكردي سأل زوجته بغضب «من انت - هل انت عفريت ام جنية؟»

وردت هي عليه: «لست انا عفريتاً او جنية، انا امرأة مهضومة»

احس ماك غريغور بدموع كيتي الساخنة التي لا معنى لها وهي تتساقط على صدغه. ومن ثم اغمض عينيه لاعناً المحنة، وحاول بوسيلة الحب الزوجية عزل الفكر والجسد عن المسائل المشوشة الميؤس منها. اما من بعد ذلك فان كيتي قد مسحت دموعها وقالت بهدوء:

- لقد عدت راجعة بعدما اخذت عهداً على نفسي ان اتشاجر معك. كيف يمكننا تجنب المشاجرة ما بيننا طالما ننظر الى الواقع من زوايا مختلفة؟

سمع هو نباح كلب من بعيد جداً. وكان هذا هو اول صوت يدل على الحياة. وقد وصل اليهم بعد اثنتي عشرة ساعة امضياها بين الجبال. واورد لها مثلا فارسياً على سبيل المزاح فقال:

- سرعان ما سيظهر المسيح الخرافي المنتظر للشيعي قبل اشتباك الزواج والزوجة في شجار بينهما.

- آه. ان هذه امثال فارسية لايطاق سماعها - تكلمت كيتي وهي تغالب النعاس وقالت - وليكن في علمك ان الارتخاء بعد نوبة الهياج رغم الحماقة التي ينطوي عليها، فان من الافضل عدم القلق وعدم النهوض، بل وان من الممكن على العموم، عدم التفكير، والبصاق على كل شيء - ثم اضافت قبل ان تغفو - انني سأنتزعك من هذا كله وسأعثر على وسيلة لتحقيق ذلك بصورة من الصور.

الفصل الثاني

في الصباح الباكر تحرك الاثنان الى الامام على طريق ترابي بمحاذاة تضاريس جبلية. ووصلت اليهما اصوات اطلاق رصاص من السفوح. وفي بعض الاحيان كانت تمر رصاصة طائشة من فوق الرأس لتصطدم بالحجر. وبعدما وصلا الى بحيرة جبلية متجمدة شاهداً فارساً من بعيد في الاسفل باعماق الوادي يصعد نحوهما.

- الخيول هي وسيلة المواصلات الرئيسة لدى البكوات حتى الآن - اشار ماك غريغور واضاف - ولربما ان هذا هو بغل.

- يا الهي، أتظن انه ينوي الهجوم علينا...

- على كل حال فان هذا القادم نحونا ليس طه. فانه لايتواضع ويركب اي وسيلة اقل من سيارة جيب.

- من الافضل لنا لو نختبئ بمكان ما - قالت كيتي.

- من غير الممكن الاختباء من الكردي في جباله. ومن الافضل مواصلة السير كما سرنا دون ان نزوغ بنظرنا عنه.

نزع الكردي البندقية من فوق كتفه اخمصها على السرج، فادركت كيتي مدى الخطر المخيم، وخشيت ليس على نفسها، بل على ماك غريغور. ان الاكراد ليسوا اكثر من غيرهم ميلاً للقتل، ولكن كثيراً من الحسابات القديمة تجري تصفيتها في هذه الجبال الموحشة، فكيف بالنسبة لشخص له اعداء هنا بايران. وبناء على ذلك فان ماك غريغور خلال نشاطه في الحركات السياسية المعقدة طوال كل هذه السنين، لا يمكن ان تمر دون أن يخلق له اعداء.

وهمز الفارس الكردي حصانه بقدميه، وهو حصان تركماني ملطخ بالوحل، خلال الامتار المئة الاخيرة عنهما، فرمح الحصان سريعاً يركض متناسق وداهمهما بحيث كاد ان يخترقهما في سيرهما. ثم زعق عليهما:

- لقد التقينا فعلاً. انهم هم بالذات - وسدد هذا الفارس الشبيه بالدمية البندقية مشيرا بها نحو كيتي وسأل - هل انت تفهمين لغة الكرمانجي يا سيدة؟

- كلا، انها لاتفهمها - رد عليه ماك غويغور رداً حاداً. واقترح عليه الكردي بوقاحة:

-هيا، اردفها من خلفي على الحصان.

- يجب عليك ان تأخذ الحقيبة. واننا سنسير من ورائك - قال ماك غريغور.

ثم ضغط الكردي ساقيه على جنبي الحصان وعلق بندقيته على متنه. وبعد ذلك تناول رافعا الحقيبة الكبيرة بحيث كاد ان يسقط من فوق السرج تحت ثقلها.

- آه منك! ليس غير الذهب ما في هذه الحقيبة - لم يتوقف الكردي عن الصراخ والدمدمة في طريقهم المنحدر نحو الوادي وترديد الكلام - ان الذهب وحده هو ما موجود في هذا الكيس.

سار ماك غريغور وزوجته من خلف الكردي مدة ساعة تقريباً، وشاهدا وجود ساقية ماء امامهما حيث ينعطف الدرب عندها. وصاح الكردي ضارباً الحصان بكعبي قدميه وتركه ليقفز فوق الساقية، ثم اختفى مع صراخه وزعيقه خلف المنعطف.

- وداعاً أيتها الحقيبة. فقد هرب الكردي مع كل ما فيها من حاجاتنا المفيدة - قالت كيتي.

- ان هذا ليس اكثر من مزحة محلية - طمأنها ماك غريغور مقترحاً عليها مواصلة السير. وقبل ان يصلا الى المنعطف شاهدا سيارة جيب قديمة زرقاء قاتمة اللون، شاهداها تستدير استدارة حادة حتى توقفت على بعد عشرين ياردة منهما. وهرعت كيتي نحو زوجها وتمسكت بيده. لكنه قال لها:

- كل شيء على ما يرام، فهذا هو زاتكو.

نزل كردي قافزاً من فوق مقعد السيارة، وهرع راكضاً على قدميه بخفة، كما يحصل لدى الراقصين، واطبق، بقبلة رقيقة على خدي ماك غريغور وقال بلهجة مسرحية:

- الحمد لله لوصول ندائي اليك.

- اعترف بحماستك - تكلم ماك غريغور مع خفيفة.

- ها، ها! - تنهنه زاتكو وتنفس بارتياح. وهو يطلق عليه الاكراد لقب «المتأنق» و«حامينا الباسل» اذ يعتبرونه افضل مقاتل عندهم. وكان هو يرتدي سترة ملبدة مطرزة مع قميص موشح بالخطوط وبنطرون واسع عريض. كان الزي كردياً تماما باستثناء قدميه الصغيرتين

المتورمتين اللتين كان يضعهما داخل حذاء منسوج «گويوه» من المخزن الانكليزي «ماركس وسبنسر».

- لكن اين طه؟ - سألته كيتي باللغة الفارسية واضافت - هل بحثت عنه؟

كان طه، ابن زاتكو، الحادية والعشرين من العمر عندما غادر اباه. وكان قد سكن في طهران عند ماك غريغور، خلال تلك السنوات الخمس التي تعلم فيها بالمدرسة. ومن بعد ذلك التحق بالجامعة. واحبه ماك غريغور وافراد اسرته. الا ان ابنتهم سيسي وهي في السادس عشرة من العمر قد وقعت في غرامه. ومع ان هذا الحب قد كبحته الرقابة الواعية والحيطة. الا ان كيتي وماك غريغور كانا سعيدين عندما غادرت ابنتهم الى أوروبا بسلام. اما طه فانه قد عاد الى والده. ولكنه لم يرجع عمليا الى والده. فانه كان متمردا، حيث اصطحب معه ستة من الطلبة الاكراد، واختفى في الجبال المطلة على مدينة رضائية حيث اراد بثورة فورية تحقيق التحرر الوطني، على عكس ما كان يأمل والده في السابق. وتكلم زاتكو وهو ينقل خطاه الى الامام والخلف ويفرقع اصابعه المتخشبة فقال:

- من حيث البحث فقد بحثت عنه. وهو موجود الآن قرب مهاباد. وفي اليوم الخامس قرروا ان يغتالوا هناك المقدم رازمار.

- اغتيال؟ ولماذا هذا؟ - سأله ماك غريغور، لانهما كانا يعرفان المقدم الايراني رازمار ويعدانه صديقا لهما.

- ان هؤلاء الصبيان يريدون اختطاف رازمار رهينة عندهم مقابل الطلبة الكرد الذين اعتقلوا بتبريز خلال الشهر الماضين. تصوروا مدى هذه الحماقة الصبيانية - قال زاتكو بتوجع.

- يا رب انقذنا وارحمنا - تكلمت كيتي باللغة الكردية بلهجة ساخرة. ولكن زاتكو قال:

- غدا بعدما سأنتهي من شؤون محلية سأسافر واستصحب طه من هناك قبل ان تتربص به الجندرمة الفارسية وتصرعه.

جذب زاتكو حسرة مسرحية واخرج علبة سكائر امريكية واقترح التدخين مع ماك غريغور.

وعندما اعتذر هذا عن التدخين، تناول زاتكو انركاً على شكل غليون وثبت فيه السيكارة عموديا، واشعل عود ثقاب من علبة كبريت فارسية، وبدأ يدخن بحالة من هو غارق بالتفكير. وادرك ماك غريغور ان زاتكو يتهيأ ليخبره عن شيء ما، الا انه يريد ان يسبق ذلك بما يوحي شعوريا بالاهمية الكاملة لهذا الخبر. وفي الاخير قلب زاتكو الغليون على جنبه ونقض عقب السيارة من هناك، وزفر حسرة مأساوية من صدره. فسأله ماك غريغور:

- قل لي اخيراً ما الأمر؟

- ان كومالي وجان التابعة لنا - تريد منك ان تقدم لنا نوعاً من المساعدة - قال زاتكو واضاف - ولهذا استدعيتك انا الى هنا.

- هذا واضح بالنسبة لي. ولكن ما هو المطلوب مني بالذات؟

- انه شيء من الممكن ان يشكل جهدا بالنسبة لك، بل ومجازفة. الا ان هذا مهم بالنسبة لنا - توقف زاتكو برهة من الوقت تاركا ماك غريغور ينتظر سماع ما وراء ذلك.

- انا لايجوز لي كشف محتوى هذا الشيء. وقد اقسمت ان لا ابوح به. وان القاضي ينتظرك في زنجان، فظلاً عن وجود آخرين معه...

- هل تعني في كلامك ان من الضروري الحذر من هؤلاء الآخرين - سألته كيتي.

- ان ما اقصده في كلامي هو ان هناك يجتمع الاقطاعيون والسياسيون الكرد، وكذلك تجار التبغ ومقاتلون وشيوخ عشائر ومستعربون (انصاف عرب) - اجاب زاتكو واضاف - وهناك حتى شذاذ الكرد البهق. انهم كلهم اكراد. ولكنهم ليسوا كلهم اصدقاء لك. فهل فهمتني؟

- هذا لايثير الفرع.

- من الممكن ان لايثير هذا فزعاً بالنسبة لك. ولكن كيف سيكون هذا بالنسبة لي. أحب - طلبت كيتي منه.

- انك عندما ستكون هناك، فسوف لاتكون لك علاقة باحد سوى القاضي وما ستسمع منه - قال زاتكو واضاف - خذ بنظر الاعتبار ان ترتبك او تتخاذل عزيمتك امام حقد الكرد ممن يكرهونك.

- هل انت تشير بذلك لأليخان؟ هل هو هنا؟

- نعم، انه هنا.

- وماهي علاقته باللجنة؟ - سأله ماك غريغور مندهشاً.

- ان القاضي يعطي بذلك اشارة الى ان الواجب يفرض على الكرد ان لايتقاتلوا ما بينهم في المستقبل. وانت بالذات كنت تشير دائماً الى ذلك وتدعو الى الوحدة...

- الى الوحدة، ولكن ليس مع نفس اولئك الذين خانوا الجمهورية في عام ستة واربعين.

- هكذا هي الحال - اعترض زاتكو بلا رغبة وقال - ان اليخان اقطاعي. وهو يرى نفسه

صراحة، محور الارض الكردية حتى لو اطلقت عليه النار. وكم كنت انا ارغب في ان اشفي غليلي منه باطلاق رصاصة عليه. ولكن القاضي حال دون ذلك. ولربما هو على حق. وفي جميع الاحوال فان اليخان حامل لسجية كردية.

- انه يحمل سجية الانذال، وهو ثري وقاتل عريق.

- لا جدال في ذلك - تكلم زاتكو بحماسة. جلسوا في سيارة الجيب. وصاح بصوت طاف منحدرات الجبال: - اوقفوا اطلاق النار على مقبرة الكلاب. اقول لكم ان هذا لا طائل من ورائه - واعاد له الصدى الجواب قهقهات من فوق السفوح.

دخلت السيارة في طرقات زنجان القذرة المليئة بالنفايات، حيث البيوت الصغيرة المبنية بالحجر والمساكن المشيدة من الطين التي كانت مبثوثة مثل قطع السكر الرمادي عبر الازقة المتعرجة على الطريق المحاذي للنهر. وتوقفت السيارة الجيب بكبح اطاراتها الاربعة امام كوخ يضع ستارة متهرئة بمكان الباب. وقفز زاتكو وازاح هذه الستارة جانباً سامحاً للضيوف بالدخول. ثم نادى صائحاً:

- دوسا!

خرجت نحوه من الباب الداخلي عجوز بثوب فضفاض مهلهل، حاملة قدراً من المعتدين المطلي، تملأه البثور، لكنه يفيض بالماء، وتمتمت بعدة عبارات ترحيبية غير مفهومة - اين ميلو؟ - سألها زاتكو بلهجة امرة.

دست العجوز بنوع من الاستياء، يدها في جيب ثوبها المهلهل، ثم فتحت كفها كالاطفال، فظهرت على الكف تحت الضوء بقايا قطعة صابون بائسة خضراء.

- قولي، اين الخرج العائد للسيدة؟

اشارت العجوز الى حقيبة مركونة في الزاوية.

- من كان ذلك المجنون الذي هرب على الحصان مع الحقيبة؟ - ارادت كيتي معرفته.

قهقة زاتكو بضحكته المنطلقة وقال:

- انه احمد بيشاباشني.

- ان عند احمد تصرفات صبيانية - قالت كيتي.

- هذه هي طبيعته - اوضح زاتكو لها واضاف - انه عفريت حقيقي عندنا. بل وحتى من الصعب. الا انه مقدام - ويعرف مسالك الجبال افضل من اي فرد متمرس بها... ثم

دعوني اقل لكم، اهلاً وسهلاً بكم - ختم زاتكو كلامه بلهجة احتفالية.

- وفيما بعد سيأتي من يقطع له عنقه - اضافت كيتي بلهجة متهكمة. فضحك زاتكو وقال:

-كيتي صديقة واخت وكمت لنفسها بهذا المزاح.

الفصل الثالث

في عنبر مظلم، واطئ السقف يغص بجلود الضأن المدبوغة، كان زاتكو يخطو مضطرباً الى الامام والخلف، امام منضدة جلس وراءها خمسة اشخاص على نسق واحد، ثم خاطبهم مثل المحامين الذين يؤكدون للمحلفين في الافلام الأمريكية التي لابد ان شاهدها في تبريز (وكذلك يحصل ان ينقلوا الى الجبال سينما متنقلة بشاحنة مغلقة. وفي خلال ساعات العرض قد يصاب المشاهدون بالانفعال فيزرعون الشاشة بالرصاص من حين لآخر من فوق اماكن جلوسهم). واضاء هؤلاء الخمسة مصباحاً ساطع الضوء فوق رؤوسهم. اما المنضدة التي هي من خشب الصنوبر فقد كانت مغلفة بغطاء من اللدائن البلاستيكية. وفي وسط المنضدة وضع العلم الكردي المحظور مرفوعاً مثبتاً الى عمود من خشب البلوط. وكان زاتكو يتحدث عن ماك غريغور فقال:

- ان هذا الشخص معروف لكم كلكم. ولا حاجة للقول علنا ان الاكراد لايحبون الاجانب. ومن منا ذاك الذي يجرؤ على القاء اللوم على هذا الشعور؟ ولكن هذا الانسان الغريب ليس بأقل من اي كردي بكل شيء. ويجب ان تتذكروا ما قام به هذا الشخص بعد عام ستة واربعين عندما اخفى عنده اولاد ابو الكاظم وانقذهم من الموت الذي اعده لهم أولئك السفلة الخونة وازلام الخانات. وكذلك فانه هو الذي رعى ولدي طه، كما لو كان ابنه. ولهذا فانني عندما كنت اطرق عليه باب داره في طهران، فكان يسأل «من الطارق؟ من؟» فاجيب انا «الطارق اخوك». ولكن هذا الشخص عندما يسأل مرة اخرى «من الطارق؟» اقول مجيبا «ان الذي خلف الباب هو ذلك الذي يكن لك الاحترام، ومن انت تثق به، ومن يضحي بحياته من اجلك عندما يتطلب الامر ذلك...»

كان ماك غريغور يعير طرف اذنه لزاتكو الذي واصل رسم صورة لأفضال غريغور ومحاسنه، وهو يعرف ان هذا اسلوب معتاد من اساليب الاكراد عندما يريدون منح ثقة القبيلة للغريب. وابدى المستمعون اهتمامهم لسماع المزيد عن ماك غريغور الذي هو بدوره كان يعرفهم كلهم.

ففي وسط الجالسين اخذ مكانه كرئيس للجلسة، القاضي من سيكيز وعلى رأسه عمامة رجل دين. وعلى يساره عجوز طويل القامة يرتدي بنطرون البرجس للخيالة. ويتميز هذا العجوز بوجه صارم كبير مهاب كوجه مقاتل مصارع، وباذنين ضخمتين جداً ومسننتين من فوق وتحت. وكان هذا العجوز هو اليخان ذو النفوذ الكبير وخان قبيلة ميغريك. والى جانبه انتصب على المصطبة مثل غصن يابس بجسمه الهزيل ممثل الحزب الديمقراطي ببدلة اوربية مدعوكة. وهذا كان يقوم بمهام التنظيم الحزبي بين اكراد العراق، بحيث انهم كانوا يلقبونه علي العراقي. وهو من سكان المدن ومن ابناء مدينة الموصل العامرة. وكان يكره الجبال والمتسلطين عليها، وامضى جل حياته المرهقة باتصال وثيق مع عمال النفط الاكراد. كانت السلطات الايرانية والتركية قد اعلنته شخصاً خارجاً على القانون. وكان مقررا اطلاق النار عليه حيثما يظفرون به. وجلس على المصطبة وراء المنضدة شخص ضخم الجثة صامت، وجهه ضيق وشعره اشيب، وعليه بدلة ذات قلبتين جيدة الخياطة. وبخلاف الآخرين فهو كان نظيفاً حليق الوجه، ويبدو عليه ظل خفيف من الفراغ. وكان هذا تاجراً لبنانياً، وهو كردي من بيروت من أسرة ابي بكر. وتوجه زاتكو نحو ماك غريغور وقال له قبل ان يختتم اطراءه وتقييمه له والعودة للجلوس بمكانه:

التزم الحاضرون بالصمت ثم تنحنحوا. ومن بعد ذلك وجه اليخان الكلام لماك غريغور بلهجة خشنة باللغة الفارسية وقال:

- يا مستر... انت تعرفني. أليس كذلك؟

- نعم، انا اعرفك يا اليخان - تكلم ماك غريغور بلهجة خشنة باللغة الكردية واضافة - والجميع يعرفون من تكون انت.

- لماذا انت تهينني؟

- انا لم اوجه اهانة لك.

- ما هو الشيء الموجود ما بيننا؟

- لا شيء.

- يا مستر! - استأنف اليخان الكلام باللغة الفارسية وهو ينظر نظرة مرتبكة الى هذا الغريب، ولكنه اضطر تحت احتجاج الآخرين الى الانتقال بالكلام الى اللغة الكردية فقال

- ان لك صداقة وثيقة معقودة مع بعض الاكراد هنا. اليس كذلك؟

- نعم، وانها لصداقة كبيرة.

- وانت لاتمتنع عن مساعدتك لأصدقائك ضدي. وانت لاتعتبرني صديقاً. أليس كذلك؟

- نعم.
- وما هو سبب ذلك؟
- السبب هو انك يا اليخان مصدر دائم للشر. ولولا زاتكو لأستوليت على عشرات القرى من المتطوعين الشعبيين ومزارع القمح والتبغ: فكيف يمكنني ان اتسامح مع هذا؟ وخاصة عندما استعيد ذكرى حركات احداث عام ستة واربعين.
- لا علاقة لك انت بتلك الاحداث - صرخ العجوز اليخان بصوت عالٍ واضاف - انت اجنبي ولاتتجرأ على زج نفسك في هذا الشأن.
- وكذلك فاني لا انسى - واصل ماك غريغور كلامه دون ان يعبأ بالصياح وقال - انا لا انسى كيف قمت انت قبل ثلاثين سنة بنقلنا انا ووالدي تحت تهديد قوة السلاح، ليقوم والدي بالتنقيب عن النفط بمنطقة خلالي. ولو لم يصل الجيش لمساعدتنا لقتلتنا نحن الاثنين.
- انت اجنبي وجاسوس - انفجر اليخان صارخا مرة اخرى وقال - باي حق على العموم، تمتلك انت حق الحضور هنا؟ هذا هو ما اريد ان تحدثني عنه.
- بلا اي حق. واني سأذهب اذا كان اصدقائي راغبين بذلك.

ونهض من مكانه، الا انهم اوقفوه عن ذلك وقالوا له: «اجلس ولاتنزعج. وكن صبوراً، فاننا نحن الاكراد نناقش القضايا بهذه الصورة». وقفز زاتكو من مكانه على قدميه وقال مغتاظاً:
- ايها القاضي حان الوقت بالنسبة لك لتتدخل.

ان كلمة القاضي تعني «الحاكم» باللغة والكردية. وبالتحديد انها تعني حاكم الشرع الديني، وذلك لان القانون الاسلامي يشكل الاساس لحل المشاكل الحقوقية لدى الاكراد كلهم. ولاح وجه القاضي تحت ضوء المصباح الابيض شاحبا رماديا بلحيته. وكان هو مغلفا بجبة رمادية اللون تغليفاً كاملاً وجبته مزرة حتى البلعوم. وانه جلس جامداً يشبه من اعتاد من الاشخاص ان يصغي، لينطق فيما بعد بحكمة.
- لاتتكلم معي عن اي شيء - رد القاضي على زاتكو.
- ولكن...
- لايوجد هنا سوى المهاترات. واليخان ليس على حق. كما ليس من المناسب اثارة المشاجرات - وجه القاضي كلامه الى اليخان متكلماً باختصار وبدقة واتزان، ثم اضاف - هل تعكر

مزاجك بسبب هذه المشاجرة؟ - وجه القاضي هذا السؤال الى ماك غريغور.

- ولكنه غريب عنا - صرخ اليخان.

- اهدأ يا أمير - تكلم القاضي بلهجة لينة مع العجوز اليخان واضاف - اننا بحاجة الآن بالذات الى الانسان الغريب، لانه صديق موثوق به - ثم التفت الى ماك غريغور وقال - تفضل واشرح لنا سياستنا الجديدة، وفيما اذا كنت موافقاً عليها وتقرر مساعدتنا وتقسم اليمين على كتمان السر. ومن بعد ذلك فسأخبرك عن الشيء الذي نريده منك. فهل يصل هذا الكلام الى سمعك بوضوح مفهوم؟

- مفهوم.

- في البداية، تفضل واشرح الفرق بين قراراتنا الحاضرة وبين قرارات ساج بولات، تلك التي تقررت سنة اثنتين واربعين، واصيبت بالانهيار سنة ست واربعين. فاننا حاولنا انذاك اقامة جمهورية على الارض الايرانية. وفي الوقت الراهن قررنا تشكيل مجلس وطني سياسي عسكري، مهمته اتخاذ التحضيرات لاقامة جمهورية كردية موحدة تضم جميع الاكراد في جميع البلدان الثلاث، اي في العراق وايران وتركيا.

- ان هذا هو مأربكم المقدس القديم - تكلم ماك غريغور باندهاش وسأل - ولكن كيف ستحققونه؟

- اسمعني ايها القاضي - هدر صوت اليخان وقال - لاتقل له اي كلمة اكثر من ذلك.

ولكن القاضي شمر عن ساعديه الاردان الطويلة المنحرفة لجبته وقال:

- في هذه المرة سندرب ونسلح جيشاً، سيكون مؤلفاً ليس فقط من القوات المحلية والعشائرية، بل سيستوعب الاكراد كلهم. ويشمل ذلك على الاخص اكراد المدن وعمال النفط. واننا سندربهم هنا في جبالنا.

سمع ماك غريغور ضجة من الخلف. فان القاعة قد غصت بالناس. وهمس زاتكو باذنه:

- جميع الناس الذين هنا متشابكون. انهم زعماء قبائل وملاك مدنيون من تبريز واقطاعيون وكسبة باعة في الاسواق من سيكيز وغيرهم ممن لايعرفهم الا الله. انهم كلهم اكراد. ويجب عليك ان تدرك ان هؤلاء ليس كلهم من الاصدقاء لنا.

حرك ماك غريغور رأسه مصغيا دون الالتفات الى الداخلين وتوجه بسؤال الى القاضي:

- هل انتم تفكرون بالانتفاضة في جميع هذه البلدان الثلاثة وبوقت واحد؟

الا ان ضجة ضجت بصيحة واحدة تصاعدت من خلف ماك غريغور تدعو القاضي الى عدم الافصاح له عن اي شيء. لكن القاضي رفع صوته صائحاً:

- انا لا استطيع فعلاً اضافة اي شيء اكثر من هذا، طالما انت لم تتعهد بذلك الذي تعهدنا به نحن كلنا.

- مفهوم - قال ماك غريغور واضاف - ولكن قبل ان اتعهد بالالتزامات اسمحوا لي بالسؤال، هل قرر الكرد الآن من هو عدوهم الرئيسي في الواقع؟

ظهرت على وجه علي العراقي الكئيب الذي يعمل في التنظيم المدني، ابتسامة بائسة. وقال بلهجة متضايقة:

- انا اتذكر ايها الصديق جميع اعتراضاتك في السنوات السابقة بمهاباد.

- ضد من انت تناضل يا علي؟ هذا هو ما كان وما سيبقى الاساس للقضية الكردية - قال ماك غريغور.

قلص علي العراقي كتفيه وقال:

- الاكراد في العراق كافحوا ويكافحون ضد السلطات العراقية. والكرد في فارس ضد السلطات الفارسية، وفي تركيا ضد السلطات التركية. ويقف من خلف جميع هذه السلطات على مدى نصف القرن هذا، البريطانيون والاوربيون، ثم الامريكان حاليا.

- انا لا اقصد هذا يا علي - اعترض عليه ماك غريغور.

- انا اعرف عماذا انت تريد الكلام - قال علي العراقي واضاف - انت تريد ان تعرف هل نحن مستعدون ام لا، للصراع ضد اصدقائك الفرس. فانهم يناضلون ايضاً للتخلص من التسلط الاجنبي والحاكم والاقطاعيين.

- وهل ان المشكلة الرئيسية، يا ترى، لاتكمن في هذا كما هو شأنها في السابق؟

- انا اعرف انك لاتؤيد خطنا - تدخل القاضي بالكلام وقال - لانك تفكر مثل الفرس، وتريد منا لو نبقى ضمن القومية الفارسية...

- ومن يكون هذا ليوافق او لايوافق؟ صرخ اليخان وقال - انه جاسوس من باكي.

ضجت من خلف ظهر ماك غريغور قهقهات ضحك عام، كما سمعت صرخات بكلمات جارحة ضد ماك غريغور، فالتفت حالاً نحو اولئك الذين من خلفه، فرأى تجمعاً ملونا من الوجوه الكردية ومن ازياء ملابس القبائل، كما رأى سترات اوربية مستهلكة وقمصلات

عسكرية بما يتناسب مع السراويل الفضفاضة. بل وكان بيد احدهم جهاز راديو ترنسيزتر، لكن القاضي لخص قولاً باختصار:

- انا قلت لك كل ما استطيع قوله. وقبل ان اتمكن من الاستطراد بالكلام، يجب عليك ان تتبنى فكرة الجمهورية مع كل ما يرتبط بها.

- ان هناك اشياء كثيرة جداً لها صلة بفكرة الجمهورية. لذا اعطوني فرصه قصيرة للتفكير.

- نستطيع اعطاءك ثلاث ساعات - تكلم القاضي واغلق ملفه واضاف - فهل هذا الوقت كافٍ بالنسبة لك.

- يجب التفكير قليلاً - كرر ماك غريغور الكلام.

وعندما اراد الخروج استوقفه علي العراقي وتكلم بصوته الذي يشبه خرير جدول صغير متدفق:

- ها انت توجه عنايتك للفرس. ولكن يجب عليك ان تتذكر باننا كنا مضطرين دائما للنضال ضد الفرس والعرب والاتراك والانكليز من اجل المحافظة حتى ولو على تقاليدنا العزيزة علينا، ومن اجل العيش في جبالنا والعمل في مدننا.

- انا اعرف ذلك يا علي.

- وحسبما تذكر انت، فما اكثر الاكراد الذين علقوا اعواد المشانق واعدموا بالرصاص وذبحوا وضربوا حتى الموت، ودمرت مدننا وقرانا بالقنابل على سفوح جبالنا. وقد ابيد هؤلاء لا لسبب الا لأنهم اكراد. وهل نسيت انت ايها الصديق ان مليونين من اخواننا في تركيا غير مسموح لهم حتى ان يسموا انفسهم اكراداً؟ انت بنفسك تعرف انهم حرمونا من ان نحيا حياتنا الاجتماعية القومية الفعلية. واننا هنا في الجبال نفتقد الى الاطباء والجامعات والمستشفيات والمسارح والمدارس. لايوجد اي شيء خاص بنا...

- انا اعرف ذلك يا علي - كرر كلامه ماك غريغور.

- هذا غيض من فيض يا حبيبي، ولايمكن استمرار الحال على هذا المنوال. اننا مضطرون للثورة، ولتكن حتى ضد ضحايا الاضطهاد، اولئك الذين هم بحال مثل حالنا، لأن كردستان ستباد كلها في الواقع باقصر مدة ممكنة. ان العالم يطوقنا ويخنقنا من جميع الجهات.

اصغى الاكراد الى هذا الكلام صامتين رغم انهم استمعوا لآلاف المرات الى هذه القائمة

المضجرة ويتذكرونها دوماً. وبعدما انتهى علي من الكلام، فانهم صفقوا باكفهم على ركبهم وانشدوا اغنية بطولية عن الانهار الكردية التي تغسل روح الخضوع وتلقي بها بعيدا، وعن الجبال النامية مثل الزهور الصخرية من الارض الممزجة بدماء الاكراد المعذبين.

كان من المؤلم على قلب ماك غريغور ان يسمع مثل هذا الكلام. فانهم قد وخزوه الآن بقلبه بنفس تلك الاشواك التي انغرزت فيه منذ امد بعيد سبق هذا الكلام. وكان الاكرد من حوله بكل مكان يقضمون اسنانهم ويعضون بها اذيال عمائمهم صارخين بكلمات عالية واضحة داعين بها للقتال ضد المستعمرين الاجانب. وخرج ماك غريغور. لكن القاضي لحق به واخذه من يده بهدوء ورفق وقال:

- ارجو ان لاتنزعج منا ولاتؤثر عليك مشاعرنا. باستطاعتك ان توازن الموقف وتقرر بهدوء.

واذا ما بدا لك انك متفق معنا، فعند ذاك سنكشف لك عن القضية التي نريد منك تنفيذها.

الفصل الرابع

اخذت الدهشة ماك غريغور من النهار انه مايزال منيرا بعدما خرج من ظلمة العنبر الى باحة المكان، راح يبحث عن كيتي في مقاهي القرية التي هي عبارة عن سقائف من خوص القصب بها مناضد وكراسي متداعية. وكانت كيتي محاطة باطفال من القرية، بينما كانت هي تدير ماكنة خياطة يدوية من طراز سنجر. وبالقرب منها كانت توجد فتاة كردية في الرابعة عشرة من العمر وذات ضفائر مقسومة بمفرق مستقيم، وعليها شال ابيض مدعوك ينسدل على متنيها.

وقامت هذه الفتاة بتوجيه قطعة من قماش مبقع باتجاه زاوية الخياطة. وقالت كيتي لزوجها:

- احزر، من هذه الفتاة؟

رفعت الفتاة عينيها نحوه، فرأى ماك غريغور عيونا جريئة براقة كردية وفماً مستقيماً رقيقاً لفتاة عروس. وقال ماك غريغور مازحاً باللغة الكردية:

- لمن تعود هذه الباقة من الزهور الحمراء المحبوبة؟

- هذه هي كولا. ابنة ساكي.

اعتدلت كولا بكتفيها ورفعت صدرها يشموخ لتظهر نفسها انها صارت فتاة يافعة.

ورسم ماك غريغور على وجهه سيماء التعجب، فضلا عن اعجابه الحاصل فعلاً. وكان ساكي والد هذه الفتاة قد ادين باثارة شغب بين عمال الحفر في شركة النفط فاطلق النار عليه عميل انكليزي بنفس المكان في مدخل بناية العدل بمهاباد سنة ١٩٥٨، وبعد شهرين على ذلك توفيت والدتها، فنقلوها في منتصف الشتاء الى ماك غريغور بطهران، وكان عمرها انذاك خمسة اعوام وهي ملفوفة بفروة خروف. وفي حينها كانت مصابة بمرض اليرقان. فودعتها كيتي في المستشفى الروسي، وتابعت علاجها لاجل ان تعود معافاة الى الجبال عند جدها الرافوزي. وكولا لها صلة قرابة مع زاتكو. وقال ماك غريغور للبنت:

- اخبريني، هل نسيت اللغة الانكليزية؟

نخرت كولا شامخة برأسها ومطلقة ضحكة عالية مجلجلة يتجسد بها التحدي والحماسة كما ينبغي لفتاة كردوسة شجاعة ان تفعله. ومن ثم اجابت باللغة الكردية على سؤال ماك غريغور:

- انا تبادلت التحية مع عمتي باللغة الانكليزية. وهي ردت على تحيتي باللغة الكردية وقالت معها «انا نسيت ان افهم لغتكم الكردية».

وكان هناك اثنان من الاطفال الاكراد قد تشبثا بثوب كيتي باصابعهما القذرة وهما مستغرقان بالضحك ايضا. اما ماك غريغور العاشق لزوجته، فقد اخذه العجب من الاطفال الذين رآهم انهم كلهم يطمحون الآن للتشبث بأذيال ثوبها، بينما هي لم تتجنبهم ولاتبدي تقززا من الاختلاط بهم او تفزع من اكثر الوجوه قبحاً، وانهم لابد ان يحسوا بذلك منهاويطمئنوا اليها بهدوء

- لاتطلب من الهانم حلوى - قال ماك غريغو لولد بعمر ست سنوات، مد يده نحو كيتي.

- ان جيبها مليء بالحلوى - احتج ذلك الطفل بانفعال.

- ومع ذلك فلا ينبغي لك ان تطلب - تكلم ماك غريغور ثم سأل كيتي - هل انت اعطيتهم حلويات؟

- نعم اعطيتهم، فانهم هنا في القرى الجبلية لم يروا السكريات حتى بعيونهم.

- ان هذا الشيطان الصغير يطلب من جديد. واذا سمعه الكبار فسيقع بمصيبة.

- هراء سخيف - قالت كيتي - ان هذا لايستجدي.

- لايجوز للكردي ان يمد يده شاحذا.

- ان مقاييس مثلك العليا تتقاطع طبيعة الناس - تكلمت كيتي ونبشت في جيبها واعطت حلوى للصبي. ثم عادت من جديد تدير بيدها ماكنة الخياطة. واخبرها ماك غريغور مستديرا عن الاطفال باللغة الانكليزية، ان الاكراد قرروا اقامة جمهورية، ويفكرون باشعال ثورة بوقت واحد بتركيا وايران ومن ثم في العراق ان امكن.

- انهم يخططون. ولكن متى؟ - اجابت كيتي بعدم ثقة.

- هذا هو ما لم يقولوه لي.

- هذه سذاجة. فهم بالذات لايعرفون متى يحدث ذلك. انها احلام وردية وخيالات.

- نعم انها خيالات، خيالات - كررت كيتي ذلك ولم تتوقف عن ادارة ماكنة الخياطة.

- هذه القضية كما هو مفهوم، ماتزال بعيدة المنال - وافقها ماك غريغور على قولها لكنه اضاف - الا انهم قرروا البدء باتخاذ الاستعدادات الآن. ولربما من الممكن ان يحققوا نجاحاً في هذه المرة.

- ولكنهم ماذا يريدون منك؟

- لم يخبروني عن ذلك حتى الآن.

- وانت بالذات، الا تخمن السبب - تكلمت كيتي بسخرية واضافت - انهم يريدون منك ان تؤدي اليمين اولاً بقبر والدتك انك ستبقى مؤيداً لهم حتى النهاية.

- لقد حزرت ذلك يا كيتي.

- ولكنك لم تقسم اليمين لهم حتى الآن؟

- كلا.

- وعليك ان لاتحلف لهم اليمين.

- قفي - قالت كولا، فتوقفت كيتي لكنها استأنفت تدوير ماكنة الخياطة اليدوية بعدما قالت كولا: - تشك - تشك!

لم يرغب ماك غريغور بمواصلة الكلام مع ضجيج صوت الماكنة. وقال للبنت كولا:

- ستعود العمة سريعاً - واخذ كيتي وسار بها على ضفة النهر. اما الاولاد الذين لاحقوها فلم يهربوا الا بعدما نادى هو على واحدة من النساء اللواتي كن يغسلن ملابس متهرئة في الماء الجاري الشحيح في النهر. وشد على يد كيتي بقوه وسار بها عبر القرية. وقد كان أولئك الاكراد الذين غص بهم العنبر هم من ابناء القرية او من القادمين اليها وقد جلسوا يتدفأون تحت شمس الجبال (والى جانبهم بنادقهم) او جلسوا القرفصاء فوق حطام الماكنات والشاصيات او فوق اجزاء منها. وكان الاكراد يحتسون الشاي ويتضاحكون محاطين بالدمن العفنة وكلاب القرية من فصيلة السلوقي. وفوق سقف مسطح من الطين لحضيرة حيوانات جلس عشرة من الجبليين حول مدفع هاون عيار ٨٠ ملم تتجه فوهته الواسعة نحو فراغ في الاعلى.

وبعدما خلفا القرية وراءهما قال ماك غريغور:

- هنا يظهر عامل جديد، وهو سيغير الموقف كله بالنسبة للاكراد.

- هذه «العوامل» تظهر عندك دائماً بصورة خاصة، لانك تختلقها.
- ولكنني لم اختلق هذا العامل.
- سنرى فيما بعد ان كان عاملك هذا مقنعاً.
- ستلتهب جميع الدول الكبرى المستهلكة للنفط اهتماما بالجبال الكردية، ان لم يكن ذلك اليوم فسيحدث غدا.
- وما هو سبب هذا الظهور المفاجئ؟
- ستقوم شركة النفط الوطنية الايرانية بحفر آبار نفط هنا خلال وقت قصير، وكذلك فاننا اكتشفنا منطقتين مهمتين تماما لآبار النفط. والمنطقة الاولى منها غنية جدا بخامات النفط، وتمتد على اربعين كيلومتراً تقريباً تحت هذه الجبال، وبالذات تحت الحدود الكردية التركية ومع العراق وايران.
- ولكنك كنت تعرف عن ذلك حتى من قبل هذا الحين.
- لقد كنت افترض ذلك. اما الآن فقد تأكدنا منه عن طريق الحفر.
- هكذا اذن. وماذا بشأن المنطقة الثانية؟
- الثانية تعتبر اكثر اهمية من الاولى. انها منطقة واسعة جدا لمكامن الغاز الطبيعي. وهي مجموعة من الخزانات او الاحواض المتواصلة والمترابطة مع بعضها البعض على عمق الف وخمسمئة متر تقريبا. وبعبارة اخرى، فان الاستخراج سوف لايكون مصحوباً بصعوبات خاصة:
- من ذا الذي يهوى التورط مع الغاز الطبيعي في هذه الجبال؟
- في خلال عشر سنوات قادمة سيعاني العالم من نقص في المحروقات الهيدروكاربونية، بحيث ستنشب معركة حامية حتمية من اجل السيطرة على هذه المنطقة، مثل المعارك الجارية الآن بكل مكان يجري فيه البحث عن آبار نفط احتياطية.
- هل يعرف الاكراد عن هذه الاماكن التي تضم النفط والغاز؟
- أظن انهم يعرفون ذلك وهي معرفة عمومية. فمن المعروف عني شخصياً انني اعتبر هنا الشخصية المسؤولة عن اجراء العمليات الاستكشافية الجيولوجية، وان شركة النفط الوطنية الايرانية سترسلني الى هنا كل شهر تقريباً. وان الاكراد سيتابعون اعمال الحفر التي نقوم بها.

- الا تعتبر هذه الجبال من ضمن المنطقة التي تقوم ايران نفسها باستخراج النفط منها، وانها سوف لاتعطي امتيازا فيها لاي جهة؟ وهل سيستطيع الاجانب القيام بتدخل؟

خفف ماك غريغور خطواته في سيره لكي يعطي وزنا اثقل لاقواله:

- من المؤسف ان مناطق وجود النفط تمتد حتى خارج الحدود الايرانية. فما ان تبدأ ايران باستخراج البترول فسيهرع الجميع لانتزاع قطعة له من الآبار. وعند ذاك ستبدأ المقالب بمشاركة الاكراد والاتراك والايرانيين والعرب والامريكان والانكليز وكثيرين آخرين. وبامكانك ان تتصوري ماذا سينتظر الاكراد اذا لم يوحدوا صفوفهم واذا لم يستعدوا لذلك مسبقاً.

ازاحت كيتي حجراً ابيض صغير من الطريق بضربة حادة من حذائها. وتطلعت الى الجبال العارية بنظرة مستنكرة وقالت:

- ولهذا فلا دخل لك في هذا، اذا انت اضعف من ان تستطيع وقف سير الاحداث.

- انا لم اتدخل بعد اجابها ماك غريغور.

- ولكنك تمهد دربك للتدخل، وستستهلك مرة اخرى سنوات عمرك من حياتك سدى. فقد كنت قد تملصت من عواقب المساعدة التي قدمتها للاذربيجانيين الايرانيين، باللجوء الى الاعتقال المنزلي. ولكن الايرانيين اذا ما لاحظوا اشتراكاً لك من جديد فسيعاقبونك اشد العقاب.

- كانت تلك انذاك قضية اخرى. وحتى مساهمتك فيها لم تكن اقل مني.

- كنا شباباً انذاك - اعترضت كيتي وقالت - اما الآن فقد شخنا، وكذلك فان الوقت قد تأخر بالنسبة لك لتتورط في المشروع الكردي الذي لا امل فيه.

- لربما انت على حق - اجابها بنفس منقبضة وقال - لربما...

قطعا في سيرهما صامتين مسافة نصف طريق الصعود الصخري. وبعد ذلك قال:

- ماذا ستتمخض عنه الايام في المستقبل. فان التدخل الاجنبي يتمخض عن المآسي دائماً. ولكنهم لايتوقفون عن التدخل. وسيعثرون على الوسائل لشق صفوف الاكراد واستنزافهم. وان هذا هو ما سيحصل دائماً.

وتوقفت كيتي وهي تتنفس بصعوبة. وقال هو بلهجة رقيقة مذكراً اياها:

- لقد كنت تشعرين بالسعادة بهذه الديار اكثر مني.

- لكنني اكرهها في الوقت الراهن. وفضلا عن ذلك لاني اجدك تلقى لك متعة هنا وان تعمل في كل مرة فيها مثل ما عمل روب روي.

في عام ١٩٥٢ كان قد حدث انفجار لدى ماك غريغور في مختبر الشركة الانكلو - ايرانية السابقة. وفقد بصره مؤقتاً نتيجة للانفجار. وقرأت له كيتي بعض الوقت وبصوت عالٍ مقدمة والتر سكوت لكتاب «روب روي». ويصور سكوت هنا كيف ان امثال ماك غريغور الجبليين الذين ينتسب اليهم روب روي قد حرموا من الحريات والارض وحقوق الارث، وحتى منعوا عليهم اقامة برلمان يحمل الاسم القبلي ماك غريغور.

- انا لا امارس عملاً مثل روب روي - اعترض ماك غريغور منزعجاً، رغم انه اعتاد ان لايأخذ مأخذ الجد اشاراتها الساخرة وقال - انا ارى ببساطة ان الكرد هم في موقف حرج، ولا مخرج أمامهم اذا لم يشرعوا بالعمل.

- نعم انا اعلم الآن. لقد عرفت!- صاحت كيتي.

تصور ماك غريغور متسرعاً ان كلامها يفهم منه أو تعبر به عن موافقتها بالوقوف معه في ابداء العون للاكراد. انها موافقة بالاكراه. ورغم ذلك فانه شكرها على هذا. بعد ذلك عادا من على السفح صامتين ومتلازمين بالايدي نحو السطوح الطينية المائلة، وفي اثناء ذلك سمعا فجأة صوت اطلاقتين. ومن ثم سمعا صراخا: «كوزان! كوزان» - قاتل! قاتل!

وفي نفس اللحظة لاحظا في سماء القرية طائرة نفاثة ذات لون رمادي وبدون علامات فارقة، شاهداها تميل على السفح الواطىء بسرعة تفوق هديرها، ثم استوت في الطيران والقت ثلاث حاويات واحدة بعد اخرى. ونزلت هذه الحاويات بمحلقة مستديرة على بعضها نحو الاسفل. وعرف ماك غريغور ماذا تحمل هذه الحاويات الى زينجان. وشد هو على عنق كيتي وطرحها على الارض، وامتد هو الى جانبها، وكوت موجة الهواء الساخن المشبع بالدخان الاسود ظهريهما وضغطتهما على الارض وانتزعت احذية كيتي واستخرجت انفاس الهواء من الرئات واحلت مكانه ناراً حارقة.

ان كل هذا جرى خلال ثوانٍ معدودة، وبعدما رفع كل منهما رأسه شاهدا غيمة كثيفة من الدخان الاغبر تتجمع صاعدة الى فوق مثل منطاد اسود. وشاهدا ايضاً ان القرية قد التهمتها النيران من احد اطرافها وامتدت على مساحة نصف هكتار.

- ما هذا؟ - صاحت كيتي غير مصدقة ما ترى وقالت - ماذا حدث؟

- انه نابالم - تكلم ماك غريغور. ومن ثم ساعد زوجته في الوقوف على قدميها وقال - اننا

هنا مكشوفان تماما - واشار الى كتلة من الصخور على السفح من فوق، فانطلقت كيتي الى هناك حاملة حذاءها بيدها. وبعدما احتميا بين كتل الصخور، تريثا هناك انتظاراً لعودة الطائرة. ولكنها لم تكر راجعة. فنهض ماك غريغور وقال - ما هي الحكمة في بقائنا هنا؟ هيا ننزل الى القرية.

شرعا يركضان نازلين فوق درب جبلي نحو الاسفل، كي يصلا فيما بعد الى جرف النهر. وغطت غشاوة النابالم التي اشاعت رائحة مثل زيت المحركات الدرب والسهل وطرف القرية. بل وحتى ان بعض المناطق الجافة من النهر قد نالها الحريق. واجتازا الاثنان النهر حيث خاضا فيه من المناطق التي لم تصلها النيران وركضا نحو المنطقة المحترقة بآخر القرية. وكان الحريق هناك ناشباً بحيث كان من المستحيل الوصول اليه.

- لمن تعود هذه الطائرة؟ ومن نفذ مثل هذا العمل؟

- من فعل ذلك؟ انه من فعل من يخدمهم تنفيذ هذا العمل - اجاب ماك غريغور واضاف بألم - لقد نمى اليهم حتماً ان اللجنة ستعقد اجتماعاً لها هنا.

هرع السكان مع الناس القادمين الذين هبوا للانقاذ، هرعوا الآن عائدين الى القرية وهم يصرخون ويولولون. وامام ماك غريغور وزوجته اعول في الصراخ حوالي مئة من الرجال والنساء والاطفال الذين اجتمعوا هناك. وركض ماك غريغور وكيتي حتى حدود ألسنة لهب النيران، فشاهدا هناك خمساً او ستاً من الجثث البشرية المطروحة على الارض، وهي عبارة عن اكوام من اللحم المحروق التي كان دخان لهب النابالم مايزال يتصاعد منها بكثافة. ومن داخل الدور الحجرية الصغيرة تتعالى اصوات الانين والصراخ. وكانت الاغنام المحترقة تماماً عن آخرها تبدو مثل الطابوق - الآخر المحروق.

- هيا انظر! - صرخت كيتي.

كانت اثنتان من النسوة تلفهما النيران قد ركضتا بهياج. وكانت ارجلهما وايديهما محروقة حتى التفحم. وركضت ثالثة من النهر وتوجهت نحو النيران المشتعلة وخطفت طفلاً متحرقا والقت بنفسها معه في النهر. وسارع ماك غريغور الى التعاون مع الاكراد الذين ينقذون المحروقين. وطلب من كيتي صارخاً ان تنقذ ذلك الطفل.

- لاتدعيها تلقي به في النهر. فانها بذلك ستقتله.

علق اللهب الناري الكثيف من الطفل بالمرأة التي ركضت لتنقذه. واخذت تصبح وتنفض ثوبها وهي تركض لتبعد عنها النار التي لم تخمد حولها، ومن ثم وصلت الى النهر عندما

انتزعت كيتي الطفل من بين يديها. ولكن هذه المرأة قد القت بنفسها في الماء.

اكتوت كيتي بيديها من الفتاة المحترقة. ومن بعد ذلك خلعت المعطف الجلدي عن جسمها ولفت به تلك الفتاة التي احاطها اللهب لاخماده. الا ان المعطف الجلدي نفسه قد احترق، فانتزعته ورمت به جانبا، وهي تنظر مباشرة الى النابالم وكيف يذيب جسم الفتاة عميقاً. وحاولت كيتي ان تنزع بيديها اللحم المشوي من الطفل، الا ان اللهب العارم قد التصق فوق اصابعها، ولكنها بعدما مسحتها سريعاً بالارض، تناولت حجرا واخذت تقشط النابالم بالحجر من الامكنة المحترقة قرب الاكتاف، مزيحة بذلك حتى العظم واللحم الطري الاسود من هذا الطفل.

اما البنت تلك فقد صمتت. ولم تفقد وعيها، ولكنها مهزوزة حتى الاعماق. وبالاخير تمكنت كيتي من انتزاع النابالم. وفي نفس تلك اللحظة غابت البنت عن الوعي.

ومرت ساعة كاملة على ماك غريغور كان غارقا خلالها بهذه الفظاعة. وبعدما وصلا اخيراً الى المقهى حيث توجد كولا رأت كيتي ان ضفيرتها قد احترقت كلها تماما. واما الشال فقد اندمج ذائباً بجسمها المحترق. واغمضت كيتي عيونها رغم جرأتها، والهبها الغضب والفظاعة الخانقة، وراحت لحظة تتصور مغمضة العينين، هذه الحالة من هرج الانين الناجم عن الغضب. ولكنها استبعدت الهلع وحاولت تقديم كل نوع من المساعدة النافعة للضحايا. ولكنها بعدما ادركت عقم محاولاتها، قررت بدل ذلك، مساعدة النساء وإنقاذهن من الملابس المشتعلة وانقاذ ادوات المطابخ والافرشة التي تكدست كلها في كومة واحدة مع الناس المحترقين والجرحى والاموات.

منذ مدة طويلة غاب ماك غريغور عن نظر كيتي، فافتقدته وذهبت اخيراً الى داخل القرية تبحث عن زوجها بعد ان قارب الوقت منتصف الليل. ونفد صبرها من جراء الهواء المسموم والتهاب العيون وكذلك الفم من جراء الدخان.

- يا ايغور... نادت عليه عدة مرات.

لم يكن هناك اي جواب. لكنها رأت قرب سيارة جيب وعلى ضوء مصابيها كلباً واقفاً من كلاب الصيد قد احترق جانب منه حتى داخل البطن. توقف الكلب السلوقي جامداً ينظر من حوله بعيون حزينة تعبر عن الالم، وهو يخشى ان يتحرك من مكانه شاعرا ان امعاءه ستنزلق من بطنه فوراً على الارض. وانحنت كيتي عليه ومسحت على رأسه بيدها. وكان ملطخاً بالوحل والاوساخ، وقالت:

- مسكين انت، نعم مسكين.

ضرب الكلب رأسه على يدها بخفة، كأنما يعبر بها عن عدم فهمه لما جرى له بهذه الاصابة. وبعد ذلك اقتربت كيتي من احدى سيارات الجيب، واخرجت بندقية من تحت احد مقاعدها. فالبندقية لدى الكرد مطروحة الى جانبهم دائماً. ولثقتها في انه ليس من العبث القول «ان بندقية الكردي محشوة بالرصاص دائماً» فانها سددت فوهة البندقية نحو قذال الكلب وبنصف التفاتة نظرت بها اليه، ثم ضغطت على زناد البندقية. وقذفت الاطلاقة الكلب مسافة عشرة ياردات عن سيارة الجيب وعن ضياء الحياة.

الفصل الخامس

في هذا الوقت غادر ماك غريغور القرية. وكان موجودا انذاك في اسفل الجبل الرئيسي على بعد اربعة كيلومترات من القرية، بدار قديمة لجابي ضرائب. وكان علي العراقي قد غادر القرية، وكذلك اليخان. واقترب النهار من الحلول، الا ان القاضي واربعة آخرين من اعضاء اللجنة غطاهم السخام بالسواد جلسوا على الارض تحت ضوء مصباح نفطي يحثون انفسهم على الانتهاء من قضية كي يتسنى لهم بعد ذلك الاختفاء قبل ان تصعد القوات الايرانية الى هنا، او ان تقدم طائرة مجهولة لاتعرف عائديتها بالتحليق مع الفجر. واصدر القاضي امراً بالجلاء عن زنجان. ووضعوا الجرحى في الشاحنات وسيارات الجيب ونقلوهم على الطرق الجبلية نحو الوادي حيث توجد قرية المزارعين التي فيها طبيب فارسي. وقال القاضي متوجها الى ماك غريغور الجالس على البساط:

- يقول زاتكو ان احدهم اطلق عليك رصاصتين في الليل وصاح بانك انت الذي وشيت بنا.

كان ماك غريغور مع زاتكو لوحدهما يزيحان عن امرأة التراب الذي طمرها عندما اصطدمت الرصاصة واثارت الغبار قرب مرفقه، وعندها صاح احدهم من قلب الظلام «اجنبي! خائن! من ثم واصل هذا اطلاق الرصاص من فوق السقف الى ان رد عليه زاتكو باطلاق النار من مسدسه.

- هل ان الاكراد يصدقون هذه الافتراءات ايها القاضي؟

- الحمقى وحدهم يصدقون هذه القرية. واني اعتذر لك عنها - قال القاضي واضاف ارجوك ان لاتتأثر من ذلك.

- انا غير منزعج، ولكنني قلق بشأن زوجتي.

- اين هي؟

- انها بقيت في القرية مع دوسا وفي دارها. وغطت بالنوم منهكة القوى.

كان زاتكو قد فتش عن كيتي والح عليها ان تأخذ قسطاً من الراحة لدى دوسا ، وعين واحداً من رجاله يدعى بدر لحراسة الدار.

- لا احد يمكن ان يعتدي عليها - قال القاضي.

- رغم ذلك احب الذهاب اليها فوراً.

- ينبغي علينا معرفة أمر واحد - انتقل القاضي بالكلام الى صلب الموضوع وقال - المطلوب ان نعرف قرارك.

اراد ماك غريغور اعطاء الجواب، الا ان القاضي استوقفه:

- استبعد عن ذهنك تأثير مأساتنا الجديدة هذه على القرار الذي تريد اتخاذه. ويجب ان لاتلتفت الآن نحو مشاعر الغضب.

- كيف يمكنني الانصراف عن هذه المأساة والغضب.

- رغم كل شيء فان الغضب ليس ناصحاً جيدا في مثل هذه الامور.

- انا كنت قد اتخذت قراري قبل هذا الوقت - قال ماك غريغور واضاف - انا سأنفذ مهمتكم ايها القاضي شرط ان تكون في مستوى اقتداري.

- هذا جيد - تكلم القاضي بلهجة عملية وقال مواصلاً - انا سوف لا اطلب منك اداء اليمين الذي اقسمنا بها نحن كلنا. ان كلمتك كافية بالنسبة لنا ان تتمنى الوصايا الست لعام ستة واربعين. فهل انت تتذكرها ؟

- ليس تماما بالدقة المطلوبة - اجاب ماك غريغور.

- انها وصايا بسيطة جدا. ان تتعهد بالاخلاص للشعب الكردي. وتناضل من اجل الحكم الذاتي لكوردستان. وتتكتم على جميع الاسرار. وتلتزم بهذه التعهدات مدى الحياة. وتتعهد باعتبار جميع الاكراد اخوة لك، والوصية الاخيرة، عدم الانتساب الى اي حزب او مجموعة تناصبنا العداء. فهل انت تقبل بهذه الوصايا كلها ؟

- انا اقبلها - قال ماك غريغور معترفاً انه كان منذ يوم امس مستعدا ليعطي موافقته من دون اي تردد.

التفت القاضي نحو الحاضرين الآخرين واحاطهم بنظراته ليتأكد من انهم لم ينهاروا بعد، من التعب. ثم قال:

- في هذه الحال، سأقول لك الآن ما هي القضية التي نريدها منك. لنفترض انها تبدو بسيطة

قليلة الاهميـة من الوهلة الاولى، لكنها مـهـمـة كل الاهميـة بالنسـبـة لنا - ثم صـمت القاضي قليلاً واضاف - ومن ثم فانها من الممكن ان تبدو لـك فضلاً عـن ذلك، مزعـجة وخطرة.

- هذا واضح بالنسـبـة لي - رد مـاك غـريغـور الذي بدأت التـحـذيرات المتكررة تؤثر على اعصابه.

- اننا بحاجة الى اوربي يقدم لنا المساعدة ويحظى بثقتنا المطلقة. والكردي في هذه المسألة يستلفت النظر بشكل حاد.

سمعوا ضجيج شاحنة في الطريق، فسكتوا منتظرين الى ان تمر سيارة الشحن. وكان صوت هدير المحرك المتوتر قد بدا وكأنه قد حثهم على الاستعجال فقال:

- في الصـيف الماضي سرقوا منا بـأوروپا مبلغـاً يقل قليـلاً عن ثلاثمئة الف جنيه استـرليني. ومعنى هذا اننا نفترض انها سرقت. وفي الواقع فـاننا نعرف فقط ان هذا المبلغ قد اختفى وضـاع، وكذلك ضاع معـه الشـخص الكردي الذي ارسلناه مع المبلغ. فـهل تهـيأ لك خبر سمعته عن ذلك؟

- كلا، انا لم اعرف ان عندكم مثل هذه النقود الكثيرة.

- وهل يجب التكتم على ما يفيد ان اللجنة هي التي حولت هذا المبلغ الى أوروپا؟

- طبعاً.

- ولكن ما هو غرضكم لوجود مثل هذا المبلغ من المال في أوروپا؟

- لقد اردنا شراء اسلحة، لاننا يجب علينا الحصول على اسلحة حديثة اذا كنا نريد تجـهـيز جيش كردي وتدريبه.

- وهل كنتم تأملون، ان الاوربيين سيجهزونكم بالسلاح؟

- بالطبع. فـقد كنا نريد شراء اسلحة ضد الدبابات والطائرات، والحصول على ذخائر حربيـة وبنادق رشاشة ورشاشات واجهزة اتصالات لاسلكية.

- ولكنني لا استطيع التـصور انكم حصلتم على باعة للسلاح في أوروپا عن طريق السفر الى أوروپا من اجل السلاح.

- من هذا يتضح انك لاتملك معلومات كافية حول هذا الموضوع - اشار القاضي بهدوء واضاف - توجد بأوروپا سوق خاصة كبيرة لتجارة السـلاح، وهي سوق رائجه لبيع الاسلحة الى

افريقيا وغيرها من القارات. ان الاسلحة التي عقدنا صفقة لشرائها، كان قد جرى ابتياعها في البداية بواسطة منظمة اوربية كانت مجهزة للارسال الى بيافراً.

- وانتم عقدتم هذه الصفقة على المكشوف؟

- كلا، بل عبر وسيط. وكان يجب ايصال هذه الاسلحة الى لبنان اولاً، ومن هناك يبدأ نقلها سراً الينا.

- اذن هكذا - تكلم ماك غريغور بحال من بدأت الدهشة تزول عنه تدريجيا وسأل - ماذا تريدون انتم مني الآن ان اقوم به من عمل؟

- نريد منك القيام بانقاذ اموالنا.

- اي انتم تريدون مني القيام بالبحث عنها، ومن ثم ان اشتري السلاح بها؟- تسأل ماك غريغور وهو متأكد من انه استوعب استيعابا صحيحا لمغزى «انقاذ» هذه الكلمة الكردية البسيطة.

- نحن لسنا بحاجة الى ان تجلب انت لنا اسلحة. فنحن لانود تحميلك ثقل هذه المهمة. ان مهمتك تتلخص في العثور على النقود. والباقي سنقوم نحن بعمله.

وشرح القاضي له، ان منيف عزت احد الشبان الاكراد قد سافر الى أوروپا باسم اللجنة. وحمل معه خطابات اعتماد صادرة من احد المصارف اللبنانية الى مصرف سويسرى في زيوريخ.

- لقد عهدتم الى مناف ان يدفع ثمن السلاح ويتفق على نقله وايصاله. ولكن مناف اختفى بلا أثر يخلفه وراءه. واختفت معه النقود ايضا. وارسلنا اكراداً آخرين الى أوروپا من التجار لاستيضاح هذه القضية. ولكنهم قوبلوا هناك بمواقف عدائية، وخاصة في البنوك ومؤسسات دول سويسرا وفرنسا وانكلترا. وفشل رجالنا في استيضاح اي شيء.

- هذا مفهوم بالنسبة لي.

- ان كونهم اكراد يسترعي انظار الشك كثيراً. فبقي كل شيء محجوباً سرياً عنهم.

ولهذا بالذات توجهنا نحن اليك، نريد منك ان تأخذ على عاتقك هذه المهمة، طالما انت اوربي، وتستطيع معالجة هذه القضية بشكل افضل. ولكن ماك غريغور قال:

- اشك بذلك. ومن يعرف شيئاً عن هذه النقود ايضاً؟

- ان البنوك هي التي تعرف عنها بالطبع، فضلا، عن الوكالات السياسية والسلطات

الحكومية والبوليس. ان من يعرف عنها هم اكثر مما ينبغي... قال القاضي ذلك واسبل يديه.

- انت تقول عن مناف عزت انه قد ضاع. ولكن ما ادراكم ان عزت لم يسرق هذه النقود ؟

- ان مثل هذا من المستحيل ان يحدث - تكلم القاضي وايده في كلامه الاكراد الآخرون وهم بين اليقظة والنوم، عدا ابوبكر اللبناني الذي التزم وحده بالصمت والبرود واضاف القاضي - ان مناف عزت كان شاباً نزيهاً مخلصاً للقضية.

- ماذا حدث له بحسب رأيك؟

- على اكثر الاحتمالات انه لقي مصرعه.

- هل بسبب هذه النقود ؟

- بسبب النقود او بسبب السياسة - القاضي ثم امسك لسانه واضاف - انت نفسك يا أغا تعرف ان القضايا السياسية الكردية لايمكن ان تجري الامور فيها بدون عنف. والاجانب يمارسون ضدنا منذ قرون عديدة قوة شريرة ويحفزوننا على ممارسة هذه القوة نفسها.

- وما الفائدة التي سنجنيها من وراء تحرياتي؟ لاسيما ان قتلة مناف قد استولوا على الاعتمادات كما يبدو، وعلى النقود بالتأكيد.

- هنا يوجد خيط رفيع واحد.

- اي خيط؟

- اننا كنا قد اتخذنا الحيطة من جميع المحاذير والمؤامرات. ومن بينها انه عند تسلم النقود من البنك ينبغي ان يكون توقيعي ايضاً الى جانب توقيع مناف.

- بالامكان في ايامنا هذه، ان يزوروا اي شيء وليس التوقيع وحده - ابدى ماك غريغور هذه الملاحظة.

- لا اظن انهم لجأوا الى التزوير - اعترض القاضي.

خيم الصمت عليهم مرة اخرى لدقيقة واحدة. وخلالها سمع ماك غريغور انفاس كل واحد من الحاضرين. وادرك ان كل واحد منهم ينتظر منه ان يقول انه سيذهب فوراً الى أوروبا للكشف عن النقود وانقاذها. ولكن ماك غريغور قد عاودته عادة الحذر السابقة عنده، فسأل:

- هذه النقود، ماهو مصدرها على العموم؟

- هل تظن ايها الصديق اننا قمنا بسرقتها - اجابه القاضي بلهجة جافة ساخرا.

- كثيرا ما تمارس هذه الوسائل للحصول على الاحوال من اجل الثورة.

- وهل هذا سيجعلك في حيرة فعلية؟

قلص ماك غريغور كتفيه وقال:

- كلا، انا لا اريد مواجهة اسئلة ومشاكل تأخذني على حين غرة. وصاح صوت من وراء الباب:

- ايها القاضي. هيا يجب الاسراع. فانهم يطلقون قذائف مدافع الهاون من الجانب الآخر من الهضبة.

فتح القاضي الملف الذي امامه، واستل منه وثيقة مختومة باختام من شمع متشقق يوحد بينها خيط اصفر وقال:

- هذه هي الاتفاقية المعقودة بين اللجنة الكردية وشركة بيروت لاستخراج النفط والمعادن «ليانكو». انها ستقتطع لنا مبلغ ٣ بالمئة من الارباح الناجمة عن استثمار الثروات الطبيعية بالاراضي الكردية لمدة عشر سنوات منذ لحظة انتقال هذه الثروات الى يدنا.

- ولكنكم ايها القاضي ما تزالون لاتعتبرون دولة. وكذلك فانتم لستم مسيطرين بتاتا على مصادر ثرواتكم. فكيف من الممكن عقد مثل هذه الاتفاقية؟

- لقد عثرنا على اصدقاء وافقوا على منحنا المال بضمانة مستقبلنا.

القى ماك غريغور نظرة خاطفة عاجلة على الوثيقة التي سلمت له، والمكتوبة بتلك اللغة الفرنسية المعقدة التي يعتبرونها سنداً قانونياً بلبنان.

- من هو الذي يدير هذه الشركة؟ - سألهم ماك غريغور واضاف - حتى انا لم اسمع عن وجود مثل هذه الشركة.

- هنا في ادارة هذه الشركة يوجد كردي لبناني وسوري وسويسري وكذلك ارمني يعيش بفرنسا. وحول ما يتعلق بالكردي اللبناني فهو ابوبكر هذا الذي امامك.

رمش هذا الرجل الرزين ذو الخدين الضيقين فقط باجفان ملتهبة وانحنى قليلاً احتراماً الى ماك غريغور. وهو الوحيد بين الموجودين كان حليق الوجه لحد النعومة، كما انه الوحيد هنا بين الجميع لم يكن مسوداً من الدخان ولا اشعث الشعر.

- اعذرني على ما يبدو مني من قول أيها القاضي - قال ماك غريغور بعدما وجد نفسه لايتمالك عن اللوم واضاف - ارى انكم قد ادخلتم الآن شركة نفط اجنبية في خطة

نضالكم من اجل الاستقلال.

- هل انت تعارض ذلك؟

- انا اعرف من خلال التجربة في ايران وكل مكان ان هذه التصرفات حبلى بالاخطار.

- وليكن ذلك - اجاب القاضي وقال - والسبب هو لاينبغي لنا ان نظل بلا اسلحة. ولشراء السلاح هذا ينبغي توفير المال. وفي الوقت الذي نرى فيه ان رجال الاعمال الاجانب موافقين ومطمئنين الى انتصارنا النهائي، فلا يجوز لنا الخشية من المجازفة.

- ايها القاضي هيا، يجب ان نسرع - صاح الصوت مرة أخرى من ساحة المكان. وبعد ذلك دخل زاتكو مضرباً وقال:

- ان رتلاً من المصفحات يتقدم على الطريق الاسود.

وجه القاضي نظره نحو ماك غريغور. وبعد ذلك تكلم ماك غريغور بلهجة هادئة، مدركاً عدم الحاجة للتفكير بأي شيء في هذه اللحظة:

- حسنا ايها القاضي. انا اقبل القيام بهذه المهمة. غير اني بحاجة الى وقت ومعلومات اضافية.

شكره القاضي بكلمات فرنسية بسيطة كي ينأى بنفسه عن الدوران في الكلام المنمق الذي لابد منه باللغتين الكردية او الفارسية. ثم قال فيما بعد:

- انت ستسافر الى أوروبا. ويجب ان يكون السفر تحت واجهة مشروعة. واننا سنعثر على ذريعة تخدم هذا الغرض.

- لقد وافقت شركة النفط الوطنية الايرانية على منحي اجازة لمدة ستة اشهر. وان اولادي هم حالياً بأوروبا. وحتى كيتي تريد ان اقوم بسفرة الى هناك.

سمعت مرة اخرى ضجة شاحنة عابرة وصراخ زاتكو الجهوري «اطفئ ضوء المصابيح». ونهض القاضي واقترب من ماك غريغور، وتناول يده باصابعه النحيفة وضغط عليها وقال:

- ما كنت لأتمنى ان ارهقك بهذه القضية في ظروف اخرى. الا ان المسألة هنا ذات صلة بجوهر مستقبل القضية الكردية، وليس بقضية بسيطة حول مال.

- لقد فهمت.

- وارجوك الالتزام بالحذر. واذكر مصير مناف.

- انا بحاجة الى معلومات اضافية - ماك غريغور هذا الطلب.

- سيزودك بها ابوبكر. فلا تقلق بشأنها. الا انه ينبغي عليك بأوروبا الاعتماد على نفسك وفكرك شخصياً. فانك ستضطر هناك للتصرف بمفردك، بلا اي مساعدة من قبلنا، لان من غير الممكن ان تتوقع اقامة اتصال معنا في المستقبل.

- مفهوم.

- اننا نفوضك بصلاحيات كاملة ونؤيد ما تختاره انت من نشاط وعمل.

- انا لست اختصاصياً في هذا المجال، وسأتصرف كما اتصرف في عملي فقط، اي انني سوف لا اتسرع، وساتحرك خطوة بعد اخرى. انا جيولوجي ولست دبلوماسياً. وفي هذا الا ترون انكم تودعون هذه القضية الى يد غير خبيرة؟

- اراك ترهق نفسك - تكلم القاضي بلهجة توحي بالاطمئنان وبصوت هامس - كن على ثقة بأبوبكر، فانه سيعطيك جميع تفاصيل القضية. فهي معه وسيعرض عليك من اين ستبدأ بالعمل وكيف ستتصل بنا. ان هذا رجل يستحق الاحترام. ولايقلقك وجهه الذي يدل على الشبع. فهو كردي. وسيكون بانتظارك في مهاباد. هل انت تعرف حميد هناك؟

أومأ ماك غريغور برأسه بالايجاب، وبعدما ضغط على يد القاضي خرج الى الطريق نحو زاتكو الذي ناداه للصعود بسيارة الجيب وقال:

- هيا نذهب فوراً الى الهانم، ومن هناك سنتحرك الى مهاباد.

حالما جلس ماك غريغور على المقعد الامامي في السيارة غفا من التعب حتى قبلما تبدأ بالصعود الى زنجان. وصحا من النوم عندما قفز زاتكو نحو الارض باحذيته النسيجية ونادى صارخا:

- بدر يا بدر!

لم يصل سمعه جواب. فالقرية خالية، والطرق القذرة صامتة.

- الى اين ذهبوا وتلاشوا - تكلم زاتكو بانزعاج وصاح مرة ثانية منادياً - بدر يا بدر!

دخل ماك غريغور في كوخ دوسا الحجري املاً بالعثور على كيتي راقدة في النوم هناك. بعدما فتح نور المصباح اليدوي، وجد سرير النوم فارغاً. وكان كيس النوم وحقيبة الظهر مبعثرة على الارض.

- اين هم الآن؟ تكلم ماك غريغور الذي استولى عليه الفزع موجهاً هذا السؤال الى زاتكو

الذي دخل في الكوخ وراءه.

- لا اعرف - اجابه زاتكو. ثم خرج الاثنان في ظلام القرية الخالية حيث مايزال يلفها دخان الحرائق الخانق، وشرعا يطوفان فيها ويصيحان: - يا بدر، اين انت يا بدر؟

وجاء كلب تشبث باقدام زاتكو يتشممها متذللاً. ولكن زاتكو ركله بطرف الحذاء بعيداً، فهرب الكلب راكضاً في ظلام الأزقة.

- لابد ان شيئاً ما قد حدث هنا. اليس كذلك؟ واضح ان قضية سيئة حصلت هنا...

- يبدو ان بدر، كما اظن، قد رحل بسيارة الجيب مع مدافع الهاون. ولكن المسألة الآن هي مسألة الهانم. فانا الآن لا اعرف شيئاً - اجاب زاتكو.

- اذن يجب البحث عنها في القرية - تكلم ماك غريغور، وتناول المصباح اليدوي من محفظته وراح على ضوئه يتطلع بومضات قصيرة متقطعة ويتحرك بفزع فوق الارض ليرى فيما اذا كان عليها بقع من الدماء.

- ادعوك باسم الله ان لاتفكر هكذا تفكير - قال زاتكو.

- اسمح لي ان اعيد على سمعك بانهم اطلقوا النار علي شخصيا في الليل.

- ان هذا هو، ولكن...

- وعدا ذلك، فان الاكراد مشهورون بالغدر والقتل - واصل ماك غريغور كلامه بحزن.

- اطرد من ذهنك هذه الافكار. فمثل هذا لايمكن ان يحدث. وانني كنت سأقتل بكلتا يدي هاتين اي واحد يقترف مثل هذه الاعمال مهما كان.

الا ان ماك غريغور قد انتفض فزعاً بصوت زاتكو بسبب فزعه هو نفسه. وبعدما جابا في ظلام القرية يناديان على كيتي ويسمعان الصدى الذي تردده الجبال التي اضاءها نور القمر عرف ماك غريغور ان كيتي غير موجودة هنا.

الفصل السادس

بعدما وضعوا حقيبة الظهر في السيارة الجيب نزلوا الى الوادي نحو القاضي الذي قال:

- ان هذا نوع من سوء الفهم. وان اي كردي لن يتعرض لها بسوء. ارجو منك ان لاتقلق.

- من المؤسف انني لا املك الثقة التي عندك حول قدرة الكرد على كبح - اعترض عليه ماك غريغور واضاف - وهذا هو سبب اضطرابي، واقول انه كان من العبث ان اتركها هناك.

رغم انه يعرف كم تسوءُهم مثل هذه الكلمات الجارحة من شخص اجنبي، الا انه عرف أيضاً ان القاضي يسامحة نيابة عنهم مثلما سامحه زاتكو. وبعدما تحادث القاضي مع الكرد الجالسين في السيارة (الشاحنة)، ارسل أيضاً يستدعي بعض الاشخاص، ثم امتحن مع من جاء منهم واستنطقهم. ومن ثم قال لماك غريغور:

- يقول محمد، انها ذهبت مع الفتى دوباس خان.

- ومن هو هذا؟

- انه الابن الاصغر لأليخان.

- هل انت تعرفه يا زاتكو؟ - سأله ماك غريغور حال جلوسه في السيارة الجيب.

- وكيف لا. ومعنى دوباس هو لعبة. لكنه في الغدر لايقل عن اليخان العجوز.

- وهل تعرف انت اين يجب البحث عنه الآن؟ والى اين سنتوجه؟

- ماذا تقول ايها القاضي؟ - وجه زاتكو السؤال الى القاضي نفسه.

- يقول محمد، انهم نقلوها، كما يبدو الى قرية كاستي. فهذه القرية ضمن اراضي اليخان. وهناك توجد تشكليلات حراسة.

- ولكن ما هو غرضهم من نقلها الى هناك؟

- لا اعرف - اعترف القاضي بلهجة قاسية الحزن واضاف - الاكراد يقترفون حماقات في

بعض الاحيان. وهي حماقات مفاجئة وغير متوقعة. واعتقد ان دوباس نفذ رغما عنه، امراً من والده. ولكنه ينبغي عليك الشروع فوراً بالذهاب للبحث عنها.

قال ماك غريغور للقاضي عند الوداع انه سيلتقي مع ابوبكر بمهاباد. وواصل ايضاً طرح الاسئلة على زاتكو واحد بعد آخر على طول الطريق الذي تسلقا فوقه الجبل وتحركا نحو قرية كاستي «هل ان هذه القرية بعيدة؟» و«ما طول المسافة الى هناك؟»

- تقع كاستي على مسافة ثماني ساعات بالسيارة من هنا. وانهم قد سبقونا بساعتين ان لم تكن اكثر من ذلك. الا اننا نستطيع استغلال الطريق التركي المستقيم المباشر، فعند ذاك سنتمكن من اللحاق بهم في الطريق.

كان زاتكو قد حمل معه صفيحة بنزين احتياطية في السيارة وتحرك بها في طريق وعرة حجرية وموحلة تمتد متجهة بمحاذاة الحدود الايرانية التركية. وحل عليهم الفجر وهما يسيران سيراً بطيئاً وسط ظلام الجبال الجرداء والرطوبة الخانقة. الا ان الظلام بسط صورة جميلة على القمم الجرداء. وقال زاتكو بصوت عالٍ:

- أخيراً تكشفت الدنيا. والآن سأنزل من الجبل على خط مستقيم.

استدار من الطريق المليء بالعثرات، وترك السيارة تنحدر فوق طريق مظلم منحدر انحداراً حاداً، متجاوزاً طريقاً ملتوياً طوله كيلومتر واحد. ومن بعد الهبوط الى الوادي حل امامهما صعود الى السفح المقابل. الا انهما سمعا صوت انفجارين عند منتصف طريق الصعود الى فوق، بحيث تناثرت فوق رأسيهما شظايا الحجر وكتل من الطين، كما انهال من فوقهما التراب مثل المطر.

- اللعنة عليكم. ان هذا مدفع هاون قصفونا به (مجرى النهر) - صاح زاتكو واوقف السيارة.

- باي جانب نحن من الحدود؟

- اننا في الجانب التركي حالياً - قال زاتكو واضاف - لكننا سنربح بهذا بضع ساعات.

- اذن هيا، واصل السير.

- هذا غير جائز. فان الاتراك ينتظروننا هناك في الطريق عند النهر في الاسفل.

- اذن هيا استدر الى الخلف. فلا حاجة لنا ان نقف بلا فائدة.

- اسمعني انت. ان السير راجعين الى الخلف فيه خطر ايضاً، شأنه شأن السير الى امام. وهم

بامكانهم القاء القبض علينا بهذه الصورة او تلك. كما ليس هناك فرق فيما لو عدنا الآن راجعين الى الخلف، لأننا سنكون قد ضيعنا وقتاً اكثر مما ينبغي، اي في حدود ست ساعات.

- حسناً. فما هو الحل الذي تقترحه انت حالياً؟

اخرج زاتكو بندقية رشاشة من معطف قصير من الفرو من تحت المعقد الخلفي، ثم فتش صندوقاً بين قدميه وتناول منه مخزن عتاد وقال:

- يوجد هناك عدد من الجنود دزينة واحدة، اي اثنا عشر نفراً.

- ليس من الممكن مهاجمة دزينة من الجنود باثنين من الافراد - قال ماك غريغور.

- الجنود يكرهون الخدمة العسكرية في جبالنا. فاذا ما افتعلت انا ضجة واثرت الفزع في نصف عددهم، فان الآخرين سيهربون أيضاً - ومسح زاتكو عن اصابعه زيت السلاح على غطاء السيارة وسأل - قل انت اذن، ماذا سنفعل؟

- خذ بنظر الاعتبار ان تركيا هنا.

- هنا كردستان - قال زاتكو.

- وهل ليس هناك من وسيلة أخرى مهما كانت، بدلاً من هذه؟

- اسمع يا حبيبي، انا لا اريد ازعاجك، ولكن هذا الصبي الكلب دوباس، لايجوز الاطمئنان اليه، ولايجوز اضاعة الوقت. فأنهم يستطيعون ان يظلوا اسابيع يتنقلون بكيتي بين الجبال لكي يجبروك على البقاء هنا لتقوم بمطاردتهم. ان اليخان العجوز يبغضك، ولايود ان تسافر انت الى أوروبا باسم اللجنة. فهو الذي ارسل بالتأكيد القاتل الذي قتل مناف. ولهذا يجب على ضوء ذلك ان نطير للقبض على اليخان.

- حسناً. هيا بنا نتحرك.

جلس زاتكو وراء مقود السيارة من جديد وقال:

- ادفعني قليلاً من الخلف، ومن بعد ذلك اقفز انت واصعد الى السيارة. فأننا بذلك، سنفاجيء الاتراك بشكل غير ملحوظ.

بعدما دفع ماك غريغور السيارة الجيب قفز الى داخلها، ومن ثم تركها زاتكو تنحدر سريعاً بشكل حر. وهكذا تحركوا يجرون بالسيارة التي تسرع تحتهم بدون ضجيج نحو الاسفل فوق طريق حجري. وعند ذاك ادرك ماك غريغور ان زاتكو قد حسب لكل شيء حسابه على جناح

السرعة. لكن زاتكو شغل المحرك هنا من جديد. وصاح به ماك غريغور بدهشة:

- انهم سيسمعوننا.

- انهم لايستطيعون ان يعينوا بأي جانب، هذا الضجيج مع الصرير المكتوم - اجابه زاتكو مجتازاً بأقصى سرعة الماء الضحل في النهر الصغير، ومتخذاً المجرى نفسه طريقاً حتى منعطف هناك، حيث اخرج السيارة من الماء فيه واوقف محركها. وقفز من السيارة بحذائه النسيجي وامتد منطرحاً وراء ثلاث صخرات ملساء كبيرة. ورأى ماك غريغور الذي استلقى الى جانبه طاقم مدفع الهاون الاتراك على مسافة مئة متر عنهم. وكان عددهم ما بين خمسة أو ستة افراد يقفون مولين ظهورهم نحوه ويحيطون بمدفع الهاون بمكان رملي مكشوف، ويتطلعون الى فوق نحو السفح، ليخمنوا بالتأكيد من اين جاء مصدر صوت المحرك. وأكد له زاتكو هامساً:

- اننا سننال منهم بدون جهد خاص كبير.

بدأ يهيء ما يلزم على مهله. فقد رجع الى السيارة الجيب وتناول منها بندقية عسكرية انكليزية قديمة الطراز واعطاها الى ماك غريغور وقال له:

- انا سأتوجه بالسيارة نحوهم واتوقف عندما أكون قريباً جداً منهم. وفي هذه اللحظة بالذات نبدأ كلانا باطلاق النار واثارة الضوضاء. وان الضجيج مع اطلاق الرصاص تحت الاقدام لايدعهم يميزون شيئاً. ثم نطلق الرصاص على الصخور، فيحدث ارتداد للرصاص ويثور ضجيج كبير وصدى. والجنود لايحبون ارتدادات الرصاص لأنهم لايفهمون من اي اتجاه تطير نحوهم. اننا نخيفهم فقط بهذه المباغتة ونجتاز ببساطة منطلقين بلا توقف وسط هذا الهرج.

بعدما وضع زاتكو البندقية الرشاشة على ركبتيه قاد السيارة الى ما فوق مجرى النهر. وعندما صارت السيارة ظاهرة تماماً للعيان بعد خروجها من المنعطف، فان الجنود كانوا ما يزالون يتطلعون الى جهة أخرى. وأقترب زاتكو منهم تماماً تقريباً. واستدار الجنود نحوها، ولكن زاتكو حالما اوقف السيارة أطلق صلية رصاص فوق الرؤوس. وطارت الشظايا من الصخور. وآثار أطلاق النار دويا غطى على الوادي. وراح. وراح ماك غريغور يطلق الرصاص عشوائياً على صخور السفح من بندقية وشاهد الجنود كيف كانوا يفرون في النهر.

- محاربون - جعجع زاتكو ساخراً منهم ومكرراً - محاربون!

واجتاز بحكمة ودقة وسلامة بسيارة الجيب عبر مواقع اطلاق النار دافعا جانباً صفائح

البنزين وعبوات مماثلة. ثم انطلق فيما بعد على درب صاعد الى فوق السفح مثيراً نفس ذلك الهرج الذي خطط له ان يحدث.

الا ان شيئاً واحداً حصل له لم يضعه في حسابه. فان سيارة جيب تركية تحمل اربعة جنود كانت تهبط على نفس ذلك الطريق الذي كان هو وصاحبه يتسلقان عليه الآن بسيارتهما. وكادت السيارتان ان تصدم احداهما الأخرى وجها لوجه من جراء التقائهما في منعطف ليس شديد الانحدار. ولاحت لهما خطفاً وجوه تركية مندهشة. ولمح ماك غريغور مدفعاً رشاشاً قصيراً فوق ساقي الجندي الجالس في المقدمة.

- هيا خذ الرشاشة - صاح زاتكو مناولاً اياها الى ماك غريغور واضاف - اضربهم، فان هذا ليس عبثاً، لأنهم لو طاردونا الآن ولحقوا بنا، فأنهم سوف لايقومون بالتحقيق معنا، بل سيمزقوننا بالرصاص.

استأنفت السيارة هادرة تسلقها فوق درب شديد الانحدار وصاعد صعوداً ملتوياً. والتفت ماك غريغور الى الخلف. فرأى سيارة الجيب التركية تتعقبهما. ومن الواضح انها كانت احدث وأكثر سرعة من سيارة زاتكو. لقد تحركت تتابعهم الى فوق على السفح فوق طريق متعرج.

- انتبه! - صاح ماك غريغور تلقائيا عندما أطلق الجندي الذي في المقدمة النار عليهما.

- افتح النار عليهم - صاح عليه زاتكو.

وصلت السيارة الى منعطف جديد. وحدث مرة أخرى احتكاك جديد، وأطلق التركي عليهما النار. وسدد ماك غريغور سلاحه نحوه. وصاح عليه زاتكو مرة أخرى:

- هيا، أطلق النار فوراً. فانا لاتنقصني رصاصة جندي بظهري أو حبل تركي حول عنقي.

رفع ماك غريغور البندقية الرشاشة، ناسياً انه عند أطلاق النار يجب عليه ان يسدد فوهة البندقية الى أسفل الهدف، بل هو سددها في الهدف نفسه، اي نحو الاطار الامامي للسيارة، وضغط على عقرب الاطلاق، واطلقت صلية رصاص متواصلة، ولكن فوهة البندقية ارتفعت الى الاعلى فاصابت الاطلاقات زجاجة التهوية في السيارة وليس عجلتها الأمامية ورأى ماك غريغور السائق والجندي الجالس في المقدمة قد تداعيا بجسميهما الى الوراء على المقعد، وكأن ضربة قد وقعت عليهما، واصطدمت السيارة الجيب التركية بصخرة عالية كبيرة وطارت من الطريق.

- هل انت اصبتهم؟ قل هل اصبتهم؟ - صرخ زاتكو ناظراً بطرف عينه الى الوراء.

- لقد اصبت السائق - اجابه ماك غريغور.

- حسناً فعلت، ولهذا أحبك! - استحسن زاتكو تصرفه وضحك. وبعد ذلك تحركوا عبر السلسلة الجبلية وصاروا يتوغلون عميقاً في الوادي الواسع الذي يبشر بالمخابيء. اما زاتكو فقد ظل يردد بصوته الجمهوري كلمة «احبك».

ظل زاتكو يزيد سرعة السيارة دون تخفيف حتى يتجاوز الخطر الذي خلفه وراء الحدود الملعونة والى ان يصل الى قرية كاستي عند منتصف النهار. وأكد مع ترديد اليمين انهم ربما سيصلون في الوقت المناسب. وبعدما مال بالسيارة الى جانب الطريق الحجري الذي يتجه صاعداً الى فوق عند نقطة ضيقة توقفوا ينتظرون ظهور سيارة قادمة من تحت. وقال زاتكو له:

- لاتقلق فانك سترى كيتي حية معافاة.

لكن ماك غريغور لم يجبهُ بكلمة. فعرف زاتكو ان هذا ليس هو وحده ما يثير همومه وقال له:

- لم يحالفنا التوفيق. ولم تجر الأحداث وفق خطة مرسومة يا حبيبي. ولا ذنب لك في ذلك...

- والنتيجة من ذلك كان عملاً غبياً.

- انت كنت قد حاربت - تكلم زاتكو بحماسة واضاف - وقلدوك لقاء ذلك باوسمة انكليزية وصلبان حربية. فلماذا تجزع لمصرع واحد أو اثنين من الاتراك؟

- ولهذا فانا من بعد ذلك لا أحتمل القتال الآن - اعترض ماك غريغور بلهجة حزينة وقال - ما كان ينبغي ان أسفك دماً.

- انا الذي اتحمل الذنب. ومن الافضل لنا التفكير الآن حول اليخان وولده. هل تعرف انت لماذا اطلقنا على دوباس لقب دمية. أطلقناه عليه لأفتقاره الى الضمير والخوف. فهو كالانكليز لا فرق لديه - انتبه زاتكو لكلامه وتوقف. فقد لاحظ في الاسفل سيارة باص صغيرة طراز «فولكس واكون». ثم ادار محرك السيارة الجيب. وتركه يعمل لوحده بلا حركة للسيارة مكانها وقال:

- دعهم يهرعوا هم اولاً من السيارة. ويجب عليك ان لاتنزل خارج السيارة مهما يحدث.

كانت البندقية الرشاشة جاهزة عل ركبتي زاتكو. وأستأنفت السيارة فولكس وأكون الملطخة بالاوحال ترأر في تسلقها الجبل. وبدأ سائقها يعطي اشارات تدل على انزعاج. بينما ظلت سيارة زاتكو متوقفة بمكانها تحجز الطريق، بنفس الوقت الذي ظل هو نفسه وراء سكان السيارة وبدأ يكيل لهم الشتائم رداً عليهم بأعلى صوته. وتوقفت السيارة الصغيرة فولكس

واكن على مسافة نصف خطوة من سيارة الجيب ونزل منها اربعة من الاكراد المسلحين بالبنادق يحملونها بأديهم، وعليهم معاطف قصيرة موشاة وسراويل عريضة وبعدما تبادلوا النظرات فانهم ضحكوا صارخين:

- أهذه حقيقة؟ فهذا هو زاتكو! انه زاتكو بعينه!

- اين الهانم؟ - سألهم زاتكو بصرامة.

- واين يمكن لها ان تكون عندنا - ردوا على سؤاله وقالوا - هل اخفيناها بمؤخرتنا؟

القى ماك غريغور نظرة على السيارة فولكس واكون، حالما نزل من السيارة الجيب، ولم تكن كيتي فيها. الا ان سيارة ليموزين الامريكية كانت قد توقفت على مسافة خمسين ياردة، وتغطيها الاوحال كلها. وخرج احد الاشخاص من بابها الامامي، وبعدما تجاوز بركة ماء اتجه نحو السيارة التي الطريق. وكان هذا الشخص فتى كوردياً وسيما، وعليه لباس يدل على الثراء والذوق ومن «الطراز الاوربي» الذي يحب ان يتزين به علية القوم من الاغنياء الكرد. وكان يحتذي جزمة جديدة جذابة وقمصلة من التي يرتديها الفرسان فوق فروة قصيرة، وبقميص ابيض من قمصان «البايات» بياضة مفتوحة. وجاء يخطو بيد تؤرجح سوطاً مضفوراً.

- هذا هو دوباس دهشته عندما رأى زاتكو، فقال مقهقهاً:

- ما بك يا زاتكو! ماذا يا ذيل الطاووس. وماذا تريد ان تفعل هنا مع سيارتك الجيب بالمرور خلال اراضينا؟

- اين الهانم يا دوباس؟ - رد عليه زاتكو بسؤال.

- الهانم سالمة ولم تتعرض الى اذى - تكلم دوباس متطلعاً الى ماك غريغور بصورة وكأنه لايراه ولاينظر اليه.

- اين هي - سأله ماك غريغور.

- انت اذن زوجها؟ - استفسر دوباس بلغة فرنسية سليمة.

- اين هي؟ - كرر ماك غريغور السؤال.

- لا حاجة لاحداث ضجة وفوضى - قال دوباس واضاف - ارجوكم تعالوا الى سيارتي، وسأقدم لكم شراب الكونياك. فان وجوهكم تدل على الاعياء.

عرف ماك غريغور شخصياً انه متسخ وغير حليق الوجه ومنهك القوى ومنزعج وملطخ

بشحم السلاح، فضلاً عن انه مريض. وتكلم باستعداد للاصطدام ولو انه لايدري ماذا سيكون شكل هذا الصِدام فقال:

- سيكون من الافضل لو افصحتم اين توجد زوجتي.

- على كل حال، ان لي املاً في انك لم تصدق كثيراً كل ما استطاع زاتكو قوله لكم عني، وعن عشيرتي - تكلم دوباس بوجه ينم عن الطيبة وقال - ان زاتكو يميل الى المبالغة. فان لديه لساناً كردياً يشوه كل شيء في الحياة.

في السنين التي مضت كان بامكان زاتكو، كما يعرف ماك غريغور، ان يخرق دوباس بطلقة جزاء مثل هذه الكلمات. الا ان زاتكو الحالي الذي بحذاء نسيجي ألتزام بمبدأ ان من يشاجره هو «خزف بارات» وان هذا يعني باللغة الكردية، والوضيع المشهين بكل معنى الكلمة.

نظر دوباس بعينيه السوداوين الثاقبتين الجريئتين دون ان يحولهما عن ماك غريغور وقال:

- هل تظن فعلاً انني انقل المدام عنوة؟ - لقد وجه هذا السؤال متصنعاً بلهجة الاستغراب.

- عنوة او بلا عنوة، فلا يعتبر هذا التصرف الا تصرفاً خطراً واحمق - اجابة ماك غريغور.

- ليكن في علمكم، فأنني انقذت زوجتكم من مخالب الجنود البشعة، فان الجنود الفرس كانوا على مسافة عدة اميال من زنجان...

- اين هي؟ - قاطعة زاتكو.

- لقد تدحرج قلبي هابطاً الى طرف قدمي - تكلم دوباس بلهجة المنتصر.

وتكلم ماك غريغور مع زاتكو وقال له بعدما تناول البندقية من السيارة الجيب:

- سأنزل الى تلك السيارة. فاذا وجدت كيتي هناك بها فسأعود معها. واذا لم اجدها هناك، فأننا سأرافقك - تكلم دوباس.

- كلا - منعه زاتكو وقال - قف انت بمكانك حيث تقف.

نزل ماك غريغور نحو السيارة الليموزين. وكانت الاطيان قد حجبت الزجاج، ولم يبق نظيفاً فيها سوى منطقة صغيرة هي زجاجة التهوية. وظل يسمع من ورائه اصوات المجادلات بين زاتكو ودوباس. وبعدما توقف على مسافة عدة خطوات من الليموزين نادى بصوت عالٍ:

- يا كيتي هل انت هنا؟

- تناهى الى سمعه من السيارة كلام ما، وفتح الباب الخلفي منها ونزل كردي من هناك، ونزلت كيتي التي اخذتها الدهشة، من خلفه.

- من اين جئت الى هنا ؟ - صاحت قائلة واضافت - وما حاجتك الى هذه؟ - وجهت اليه هذا السؤال مشيرة الى البندقية.

- هل ان كل شيء على ما يرام بالنسبة لك؟

- طبعاً، ولماذا تسأل؟

كانت كيتي نظيفة مصفوفة الشعر، وفوقها قمصلة جميلة من الجلد، تشبه تلك التي يرتديها دوباس.

- لماذا كنت تجلسين في السيارة ولاتظهرين نفسك منها ؟

- انا لم أكن أعرف انك انت الذي هنا فضلاً عن ان نافذة السيارة ملطخة كلها.

لقد اثارت كيتي الآن حزناً لدى ماك غريغور لسبب لايعرفه، واحزنه حضورها الى هنا. لكن كيتي استدركت تقول:

- ان هذا الولد دوباس قال لي ان خروجي من السيارة يهددني بالخطر، ولكن ما الذي جرى؟

- هيا نذهب الى سيارتنا وبسرعة - قال ماك غريغور.

- ولكن ما هي المشكلة؟

- سأخبرك فيما بعد. هيا اسرعي!

- حالاً، فانا سأتناول قفازي فقط.

- دعيه هناك - قال ذلك ومسكها من مرفقها. وعند ذاك خرج من باب السيارة الامامي العجوز اليخان ودمدم بحق. ثم تبعهم ماشياً على اثرهم نحو السيارة الجيب.

- منظرك يثير الرعب - قالت كيتي لماك غريغور.

- والمزاج متفق مع المنظر - اجابها بقسوة واضاف - لذلك فلا تعترضي على حالتي هذه لأني لا أطيق صبراً على ذلك.

- هل حدث لك حادث مؤكد ؟

- كلا.

- لكن كيتي احست انه مجروح من الداخل، وان وراء هذه التصرفات الغريبة المنذرة بالخطر يختفي شيء ما لا، والتفت اليه وكلمته بلهجة حنون وهي ترى علامات غير مألوفة لديه كالسعار الذي يظهر عليه والبندقية التي بيده والبندقية الرشاشة التي وضعها زاتكو تحت اضلاع دوباس وقالت له:

- لاتتألم.

- التزمي انت بالصمت الآن ولاتنطقي بكلمة واحدة.

- ما هذا؟ يا رب! ماذا يجري هنا؟ - صرخ اليخان صرخة مجنون عندما رأى البندقية الرشاشة مسددة الى بطن ولده.

- هنا ولدك ايها العجوز - قال زاتكو.

- اسكت يا زاتكو - تكلم دوباس بصوت حاد وقال - لا حاجة لأن تتصرف الى ما يؤدي الى عراك دموي كردي دائم - ولاتغضب أبي.

- الله! الله!... - التفت اليخان وصاح - يا حسان - فخرج شخصان ايضاً من السيارة الليموزين، ومع كل منهما بندقية وتوجهاً نحو السيارة الجيب. واحاط الآن ستة من رجال اليخان المسلحين بها.

صعدت كيتي الى السيارة الجيب وجلست بها.

- أفسح لنا الطريق يا اليخان- قال ماك غريغور.

- ومن هو هذا الذي يسد عليك الطريق؟ - رد اليخان بلهجة مسمومة واضاف - وانت ممن تخاف؟ اتخاف من الاكراد؟ نعم؟ - بدت هذه العبارة وكأنها دعوة للقتال.

- هيا، تحرك اذا كنت على هذا القدر من الشجاعة...

سيطرت على الموقف آمالهم عزة النفس والهيبة، وهذا مأزق قتال للطرفين والمجازفة الأكبر هل التحرك من المكان. وفجأة. واذا بدوباس يكلم غريغور بهدوء باللغة الفرنسية:

- تحرك انت بسيارة الجيب واذهبوا. وانت يا ابي، كن هادئاً - التفت دوباس نحو والده اليخان وطلب منه بلغته الكردية، ولكن بانفعال، ان يبتعد من هنا (وهذا ما منحهم ارجحية). وبهذه الطريقة تم تلافي الصدام. ولم يبق بعد ذلك اي شيء يمكن ان ينجم ابتزاز عنه.

- ماذا كنت تظن ان تحصل عليه من وراء هذا الابتزاز على الخصوص؟ - وجه ماك غريغور هذا السؤال عندما صعد الى المقعد الخلفي من السيارة الجيب وقال - هل كنت تريد نقوداً؟

لكن دوباس لم يلتفت الى هذه العبارة المهينة ورد رداً متعجرفاً:

- اننا أشفقنا على زوجتك وانقذناها.

- انتم نقلتموها بخدعة.

- هذه عبارة غير لبقة - اعترضه دوباس واضاف - لم تتعرض زوجتك الى اي اذى من جانبنا - ثم التفت نحو كيتي وقال - عليك أن في تؤكدي يا مدام كيتي لزوجك كما أؤكد له انا، اننا تعاملنا معك معاملة نبيلة لطيفة؟

- اجل، هذه حقيقة.

ثم واصل دوباس مع ابتسامة صبيانية باردة، كلامه باللغة الفرنسية وهو يشير الى الجبال الجرداء فقال:

- ان جبالنا تحملنا، كما يبدو على التصرف بشكل آخر وليس مثل ما هو عندكم. ولهذا ارجو المعذرة عن تصرفاتنا - قال هذه العبارة مع انحناءة احترام واضاف - لعلي سأغادر الى أوروپا قريباً جداً. ومن الممكن ان اقدم الأيضاح لكم هناك وامسح الانزعاج.

ثم تحركت السيارة الجيب. وقال دوباس في اثرها ضاحكاً:

- على طريق السلامة!

ومن دون اضاعة الوقت أطلق زاتكو العنان للسيارة فوق الجبال وهو يقودها باصرار وانتباه بحسب عادته. وكان ماك غريغور يعاني صعوبة فوق المقعد الخلفي من جراء اضطراب السيارة واهتزازه فوق مقعدها واضطراره للتشبث في جلوسه باي شيء يقع تحت يده، بينما يمسك البندقية باليد الأخرى. وما كان يريد الآن سوى شيء واحد وهو ان ينتهه كل هذا سريعاً، وان تصبح هذه الجبال خلف ظهره فوراً.

الفصل السابع

لم ينقلهم زاتكو الى مهاباد مباشرة، بل انهم تسلقوا طريقاً معبداً بالاسفلت اسود اللون، يصعد في الجبل، حيث ان طه يرابط على مسافة خمسين كيلومتراً من مهاباد، وعقد العزم على اغتيال الضابط الايراني رازمارا الذي كان يقوم باجتياز هذا المكان كل شهر ويوم وساعة لا يتغيران. وترك زاتكو ماك غريغور وزوجته باحد المقاهي الجبلية حيث اعتاد رازمارا تناول فطور اعتيادي في الطريق. اما زاتكو نفسه فقد قصد قرية تقع على هذا الطريق، وذلك للبحث عن ولده هناك قبل ان تتهيأ الفرصة لهذا الولد ويشن هجوماً على ذلك المقهى مع جماعته الثوريين الاكراد الستة الذين كانت اعمار كل واحد منهم لاتتجاوز عشرين سناً. وقال زاتكو ماك غريغور في وداعه:

- اذا وصل رازمارا قبل رجوعي فاقسم عليكم بالله ان تبقوه هنا لحين عودتي اليكم.

- ماذا ستفعل لو انت لم تعثر على طه؟ - احب ماك غريغور ان يعرف ذلك واضاف - ثم خذ بنظر الاعتبار اننا لانستطيع الجلوس والانتظار.

- لاتقلقوا، فانا اعرف مكان وجود طه. المهم فقط ان يجلس رازمارا هنا بسيارة، وان لايبتعد عنها الى ان انقل لكم علامة على امساكي بطة من غلاصيمه.

ذهب زاتكو، وجلس ماك غريغور الى منضدة قديمة من خشب الصنوبر ونظر الى زوجته ترمش باجفانها في محاولة منها لالتقاط انفاسها في هواء هذا المقهى الخانق المتعفن. وبدأ المطر بالهطول. وتجمع الناس عند الجدران الطينية للمقهى. وبدأ يتصاعد من اجسامهم بخار العرق وروائح الحمالين الثقيلة والخيل والكلاب والاغنام والتبغ واللحم المطبوخ، وكل هذا امتزج مع فضلات المطبخ وارغفة الخبز اللينة والكيروسين.

لم تجرب كيتي بعد، ان تستفسر من زوجها عما جرى لهم على الحدود. امّا هو فلم يكن مستعداً من جانبه كما هو واضح. لحدّثها عما جرى من دون ان تلح هي على ذلك. وبعدما

سئمت من صمته سألته عن سبب الاضطراب الذي اصابه مع زاتكو وقالت:

- ذكر لي دوباس أنه سيوصلني الى مهاباد، حيث ستكون انت بانتظاري هناك. فلماذا كنتما على تلك الدرجة القصوى من الغضب؟

- انهم ما كانوا يريدون نقلك الى مهاباد - اجابها زوجها دون ان يصرف نظره عن باب المقهى حتى لايفعل عن وصول رازمارا وقال - انهم ارادوا ان يظلوا اسابيع يتنقلون بك في الجبال من مكان لآخر، بينما أظل انا اتخبط في البحث عنك.

- ماذا يبغون من وراء هذا التصرف؟

- لأن اليخان لايريد مساهمتي في المسائل الكردية، ولايريد ان انفذ المهمة التي عهد القاضي لي بإنجازها.

- وماذا عهدوا لك؟ وما هي هذه العملية السرية؟

تحدث الى كيتي عما جرى بينما كانت تركز عليه نظرة تعبر عن الانتباه والاستغراب، ثم قالت:

- لقد فهمت الآن ماذا يريدون منك. لقد عرفت انهم يريدون الايقاع بك.

- لا أحد يوقع بي.

- فلماذا ماك غريغور صامت، فأدركت من ملامحه، ان ما يعذبه هو شيء آخر، فسألته:

- ما هو الأمر الذي جعلك تضطرب قبل المواجهة اليخان؟

- لقد اطلقت النار عل اثنين من الجنود الاتراك.

- انت؟ اطلقت الرصاص؟

- نعم.

- هذا عمل فضيع، وكيف حدث ذلك بحيث نقتل اتراكاً فجأة.

- دخلنا الاراضي التركية. وهم أطلقوا النار علينا. واننا اضطررنا راضين او كارهين للرد عليهم بالمثل.

- ولكن هذا عمل فظيع كما أرى يا ايغور/ (كنية ماك غريغور).

- وكيف لاتكون هذه فظاعة - تكلم بلهجة حزينة واضاف - فلقد اخترنا اقصر الطرق للسير من اجل الاسراع للحاق بهم وانقاذك.

- الا انني بامان تام.

- انت كنت في غاية الخطر...

وفي اثناء ذلك، جاءت عجوز كانت تقف عند نافذة متسخ، وضعت امام ماك غريغور ورقة مكورة ملوثة على المنضدة، وقالت من وراء خمار غطت به فمها:

- ارجو عطفكم، ارجو عطفكم...

- حاضر - اجابها ماك غريغور.

- انا لا أعرف القراءة - تمتمت العجوز - الا تستطيع التفضل وتخبرني ماذا تتضمن هذه الكتابة. انها رسالة من ولدي الأصغر.

نظر ماك غريغور الى السطور الانيقة المزخرفة للكلمات الفارسية ذات القواعد الضعيفة وقال:

- هنا لا أكثر من بضع كلمات ايتها الأم. يقول ابنك فيها (انه امعن النظر ولايريد وضع نظارات على عينيه)، ويجب عليك ان تجلبي دجاجتين وتنتظري هنا. - هذا اذا كنت انا قد قرأت قراءة صحيحة.

- صحيح، صحيح. وهذه هي الدجاجتان - اشارت العجوز الى صرة مطروحة على ارض سحقتها الاقدام. وتصاعد منها صوت نقيق الدجاج.

- هذا هو كل ما مكتوب هنا.

- ولكن اين ولدي الآن؟ - ضربت العجور الورقة باصبعها.

- انه لم يكتب عن ذلك.

- انا انتظر هنا منذ يومين. ولكنه لم يصل، ان دموعي تُذرف طول حياتي بسبب ابني. لقد نشفت دموعي من البكاء. وعيوني الآن مثل سفرجلة يابسة منكمشة.

- اتركي هاتين الدجاجتين معي - قال ماك غريغور واضاف - وانا سأعطيها الى ولدك. وأما انت فأذهبي الى دارك يا أمي.

- اعطها نقوداً - طلبت منه كيتي ذلك باللغة الانكليزية.

- ما هو اسم ولدك؟ - سألها ماك غريغور.

- حسن. انه من قرية كارسيم، حيث هناك يمارسون زراعة التبغ.

- اذهبي الى بيتك يا امي، فان المطر قد توقف.

- هذا فضل منك...

- اعطها نقوداً - كررت عليه ذلك بالحاح.

هز ماك غريغور رأسه بالرفض. فهو لايحب التصدق على المتطفلين. وعند ذاك مدت كيتي يدها الى العجوز امام بطنها بورقة من مئة ريال، فبكت العجوز. وأخذتها كيتي ورافقتها حتى الباب، ثم ودعتها هناك. ومن ثم قالت لزوجها:

- انا ببساطة لم استطع مقاومة النظر أكثر من ذلك الى هذه الفارسية الفقيرة.

- هكذا تبخرت أوروبا من ذاكرتك، ويبدو ان كل شيء سيرجع الى مكانه - اجابها بتجهم.

- لا دخل لأوروبا هنا.

- كلا، بل انها هي السبب...

- لكن ذلك. لتكن أوروبا في الواقع، ماتزال من حيث وجهة نظري محتفظة بجميع الفوارق الهائلة. حقاً اني لا احتمل العودة الى صور الاوساخ والمظاهر البائسة.

- طالما يجب العيش في وسط مثل هذا، فمن الافضل ان لايبق شيء مما يذكرنا بأوروبا.

- هل انت واثق من ذلك؟ ثم الا تتذكر انت أوروبا ولو مرة واحدة؟

ازاح ماك غريغور عنه بقايا لحم الغنم البارد. ومن بعد ما نظر الى زوجة الانكليزية الحسناء التركية استغرق بالتفكير حول ما يباعد بينهما في الحياة الآن. فهي عندما سافرت الى أوروبا وجه الى نفسه هذا السؤال لأول مرة: هل ان كيتي على وفاق معه كما في السابق؟ فان انسجامها العائلي الوطيد بكل عمره الطويل لم تهزه اي ارتطامات ناشئة عن المشاركة في متاهات الحركات السياسية الايرانية، من قبيل اعتقاله منزلياً «لمرتين» وكذلك منغصات العمل في الشركة الانكلو ايرانية السابقة، ومن ثم في شركة النفط الوطنية الايرانية. وهما لم يفترقا ابداً في الحياة، الى ان حانت رحلتها من الابناء الى أوروبا، بصرف النظر عن تلك الاشهر الاربعة التي امضاها في كمبرج قبل ثمانية عشر عاماً، اذ اختتم خلالها اطروحته لنيل شهادة الدكتوراه. ولكن ماك غريغور أحس الآن ان زوجته قد سيطر عليها تعب لايمكن تجاوزه. وبنفس تلك اللحظة استأنف الكلام معها عندما توصل الى اتخاذ قرار فقال:

- حسناً. اذا كنت قادرة على اقناعي ان أوروبا لن تصيبنا بخيبة امل، فعند ذاك سأبقى هناك بقاءً دائمياً بشرط الانتهاء من انجاز هذه القضية الكردية.

نظرت كيتي نحوه نظرة تفيض بالاستغراق والشكوك وقالت:

- ما هو الحافز الذي حملك على هذا التبدل المفاجيء؟

- اعطني فرصة لتنفذ هذه القضية، وبعد ذلك سأرحل من هنا الى الأبد.

- هناك شيء عندي يحول دون تصديق ذلك... تمتمت كيتي، بينما هو قد غطى الوجوم وجهه بسبب اطفاله. واضافت تقول - حسناً - تكلمت ذلك خشية من ان تؤدي شكوكها الى الغاء هذا القرار الذي اتخذه زوجها، ثم اضافت - لكن ذلك حسبما تريد، طالما ان انتزاعنا من هنا لايتم بدون ذلك.

امسك ماك غريغور عندما كان ينظر نحو الباب بارجل الدجاجتين عندما رآهما تحاولان الخلاص من الأربطة بارجلها. كما تقلص عدد الناس في المقهى بجوه الخانق الرطب. وأطلت الشمس من خلال الغيوم المتكاثفة. ودوت تزأر محركات سيارات الشحن الالمانية القديمة المتصدعة وهي ترزح تحت حمولاتها الثقيلة، وتبدو شبيهة تماماً بسفن النقل المسطحة. اما الاوحال على ارضة المقهى فهي مسحوقة تحت ارجل الداخلين والخارجين مما جعلها تجف بعض الشيء. وركض صاحب المقهى وراء احدهم منادياً عليه انه لم يدفع الثمن المطلوب دفعه. وظل ماك غريغور ممسكاً بالدجاجتين دون ان يحرف نظره عن الباب.

- وأخيراً هذا هو رازمارا - تكلم ماك غريغور مع نفسه.

حياهم العقيد من بعيد بصمت وجلس وراء منضدته المنفردة، وطلب تقديم فطور له.

اما ماك غريغور فقد انتبه فجأة الى وجود اربعة شبان ببدلات متهرئة لسائقي السيارات.

وكان هؤلاء جالسين قرب الباب وسط صرر وقماطر «انهم على العموم ليسوا سواقاً» - هكذا فكر ماك غريغور، وقرر ان رازمارا لديه عقل يكفيه لتشخيصهم.

- لماذا انت تتباطأ؟ - سألته كيتي.

- لايجوز التسرع.

يتسم رازمارا بوجه طويل متناسق يحمل مسحة خفيفة من سيماء التذمر، وهو لايوحي باي شيء، اي لا بالاضطراب ولا بالتشوش ولا بالاندهاش.

- حسناً، حسناً - تكلم رازمارا باللغة الانكليزية وهو يقترب من ماك غريغور وزوجته وقال - اي ريح حملتكم الى ديارنا؟

صافح ماك غريغور اليد السائبة المرتخية لرازمارا وقال له انهم قد نزلوا لتوهم من هضبة

زنجان حيث قام هناك بفحص آبار للغاز.

ضحك رازمارا ضحكة مرتابة وقال:

- أما علمتم ان احدى تلك القرى في المنطقة قد تعرضت الى قصف بالقنابل؟

- اننا كنا هناك في اثناء القصف - اجابه ماك غريغور وسأله لمن تعود هذه الطائرة التي طارت الى هناك، هل هي ايرانية ام تركية ام امريكية؟ أم ان هذه عملية قامت بها واحدة من الاستخبارات الاجنبية المهيمنة على الجبال؟

- لا اعرف شيئاً حتى هذا الحين. فقد رأيت عمليات نقل الجرحى من الجبال بالشاحنات الى المستشفى. وهذا هو كل ما وصل الى علمي.

- عملية خسيسة دنيئة قاسية - تمتمت كيتي.

اشار رازمارا بحركة من رأسه الى صاحب المقهى ان يجلب فطوره الى منضدة ماك غريغور وقال:

- بمثل هذا الموقف الحالي: عندما يفكر الاكراد بالتمرد فعليهم ان لايندهشوا من هذا القصاص. أتسمحون لي بالجلوس معكم؟

- تفضل.

ودخل المقهى مدير المنطقة المتخم الذي كان قد وصل مع رازمارا، ثم اختفى بمكان ما. وكان وهو في طريقه عائداً نحوهم يشد ازرار بنطرونه، وقد اخذته الدهشة حال رؤيته كيتي. فانتصب شارباه الأسودان. فألقى عليه العقيد رازمارا شيئاً خشناً. وقام صاحب المقهى بتصرف غير لبق، اذ فرش على المنضدة شرشفاً رطباً كان ذا لون في يوم ما، ووزع السكاكين والشوكات المصنوعة من الالمنيوم، وجلب ابريق شاي وصحن حلوى كان الذباب يقبع فوقها. وقال مدير المنطقة متوجهاً الى كيتي:

- مدام، هل انت تريدين قمصلة من نوع ميرغريه، كما يبدو؟

- نعم.

- وهذه يجب ان تكون من نوع القمصلات التي يرتدي دوباس منها. واين هو الآن؟

- انه في اراضيه على الارجح - قالت كيتي.

غمس رازمارا قطعة من الخبز في الشاي الساخن الحلو، بعدما طواها وقال:

- لابد من يوم سيقتل زاتكو فيه هذا الفتى الغني. وهذا سيكون حلاً لا بأس به.

- حل اي شيء؟

اشار العقيد الى الجبال من خلال نافذة المقهى وقال:

- لتهدئة الجو قليلاً هناك استعمال العنف الاهوج.

وطلب العقيد رازمارا ان يجلبوا له قطعة لحم مشوية (بيفشتيك). وعندما حلبوها بصحن واسع ازاحه نحو كيتي وسألها:

- هل تقبلين مشاركتي بالطعام؟

- موافقة - اجابت بلا تردد معين.

ابتسم رازمارا تقريباً. ثم توجه نحو ماك غريغور بهذا السؤال:

- وهل انت عندك رأي آخر؟

كما هو معلوم فان الاكراد وليسوا دائما هم الذين يثيرون المشاجرات فيما بينهم.

- هذا ممكن. الا انهم مجبولون على استخدام العنف أكثر مما تنبغي المواقف. وهم لايستحقون مواساتك لهم... قبضت كيتي باصابعها على يد ماك غريغور. فقد دخل في المقهى زاتكو وطه. الا ان ماك غريغور لاحظ بنفس الوقت انهما بلا سلاح. وهذا يعني ان خطراً أكبر يهددهما باعتقال رازمارا لهما. فان لرأس زاتكو ثمنه، فهو صيد ثمين بالنسبة للجيش والبوليس والآخرين، رغم ان الجميع يتصنعون أحياناً ان ليس لأحد منهم شأن معه او غاب هو عن بالهم. وانحنى زاتكو احتراماً لرازمارا كواحد من معارفه القدامى وقال:

- رغم كل شيء فقد التقيتك هنا.

رفع رازمارا يده دريئة متصنعاً بها الخوف. فقال له زاتكو:

- لاتضطرب، فأننا معك على صفاء.

القى رازمارا نظرة ثاقبة على طه الذي لم يكن بملابس كردية، بل بزي الجنود الاخضر، اي بالزي العالمي لفدائيي القرى والمدن. وسأله رازمارا باللغة الكردية:

- ما هذه الملابس التي عليك، هل انتميت الى جماعة توبا ماروس؟

وقبل زاتكو يد كيتي وارفقها بابتسامة. وتبادل طه التحية مع «العمة كاترين»، اي مع كيتي، بلطف دون مصافحتها، كان في ما مضى بطهران وكان فتى ذكياً جريئاً ذا نظرة رصينة من عينيه اللامعتين، ويتعامل مع الناس بانتباه دقيق ولو انه بارد. وكيف كان بامكان

سيسي كريمة آل ماك غريغور المراهقة الصمود امام هذا الفتى الجبلي الساحر سحراً طبيعياً. إلا ان طه قد شب الآن وزاد صرامة وأنطوى على نفسه تماماً. وتوجه طه الى رازمارا فقال:

- أقدم لكم هذا رغم كونه لاينسجم مع المنطق السليم - سلم طه الى رازمارا ورقة صفراء مطوية اربع طيات.

- ما هذا ؟

- قبضة صغيرة من الورق، وهي ممتلئة بالاحتجاجات ضد الطلبة الاكراد في السجن، وهي تطالب باطلاق سراحهم. انها احتجاجات تعارض وتفضح وتطالب بالحاح وهلم جرا.

- الى من هي موجهة؟

- الى بادي شاه نفسه.

- سأسلمها له شخصياً - قال رازمارا وأخفى الورقة بجيب بدلته.

- انا أعرف كيف ستسلمها وماذا ستطلب - قال طه.

- وهل هناك شيء آخر أيضا ؟

- لا شيء غير ذلك. وهذه الورقة هي معه بنات افكار والدي، اما بصددك أنت، فأنا كنت عاقداً العزم على اختطافك ونقلك الى جبالنا وأحتفظ بك هناك الى يطلقوا سراح الطلبة، وفيما اذا لم يطلقوا سراحهم فكنت سأقطع رأسكم.

- لكن هذا عمل ليس معقولاً - قال رازمارا.

- اننا سنلجأ الى هذه الوسيلة بعد شهر على سبيل الاحتمال أو في خلال نصف سنة. واننا سنسقط عليكم قبل سقوط الثلج على الرأس.

- ابتعد عنا من فضلك - تكلم رازمارا والتفت من بعد ذلك نحو زاتكو الذي كان يصغي بارتياح عميق لمثل هذه الوخزات التي يرتاح منها الأكراد وقال - لماذا قتلت اثنين من الجنود الاتراك؟ ما هي الفائدة من ذلك؟ أو أنه هو الذي قتلهما ؟ - استدار رازمارا بنظره نحو طه الذي بعدما انتحر قرب الباب انضم الى «السواقين» الأربعة.

- عن ماذا أتت تتكلم؟ - قال زاتكو من لم يـ م مغزى الكلام.

- قبل نصف ساعة سمعت عند ذلك عبر الراديو عندما كنت في السيارة. فما الذي اجبرك على ارتكاب مثل هذه الحماقة؟ فأنت تعرف ان اجراءات جوابية ستتبع ذلك. ولديك قناعة حول هذا.

- أي اجراءات - سأله ماك غريغور.

- في صباح هذا اليوم قد اعدموا شنقاً اربعة أكراد قرب القرية التي وقع بها الحادث. وأحدهم كان معلماً محترماً. وآخر له ثمانية أطفال ولم اعرف من هم الآخرون.

وسمع ماك غريغور صوت زاتكو الغاضب، وكأنه قادم من بعيد الذي قضم كالمسعور اسنانه على الطريقة الكردية وقال:

- آه، يا رب... أترون ان الارض قد خلت نهائياً من الحقيقة؟ ولكنني أعرف واقسم على ذلك، ان اكرادنا ماتوا ابطالاً - لقد صاح زاتكو عالياً بهذه العبارة، وهلت الدموع من عينيه.

- انا ليس عندي شك في ذلك - تلكم رازمارا بلهجة جافة واضاف - الا انني ارجو مستقبلاً ان تمتنع عن القيام بمثل هذه العمليات الخرقاء. فاننا ليس بامكاننا الصبر على مثل هذه التصرفات سواء على هذا الجانب من حدودنا ام على ذلك الجانب من الحدود.

- ليس بامكانكم الصبر؟ - صرخ زاتكو واضاف مليونين من الكرد يعيشون في تركيا عيشة الكلاب، ويطلقون عليهم النار ويعدمونهم شنقاً كل سنة...

- ما كان يجوز قتل الجنود الاتراك داخل الحدود التركية - تكلم رازمارا برباطة جأش وقال مكرراً - ان هذا لايجعل عملك مبرراً، ونهض تاركاً احتساء الشاي حتى الأخير. لكنه سأل زاتكو:

- الى اين ذاهب؟

ظل طه ورازمارا يراقبان بعضهما بعضاً طول الوقت وبنظرات متفاهمة العداء. وقال رازمارا:

- انا ارحل. وانصحك ان ترحل أنت ايضاً. فالبقاء يزداد خطورة هنا.

- ولكنني لم اتناول طعاماً بعد - قال زاتكو.

افرغ رازمارا بجيبه بقايا فستق وقال:

- غادر يا زاتكو هذا المكان. واخطف معك ابنك الذي صار من توبا ماروس. وانا لا احب ان تقع عليكم كارثة مأساة بمنطقتي.

- ما هذه المأساة؟ - تساءل زاتكو مندهشاً وقال - أرجوك ان تجلس.

- ان الديخار (حاكم المنطقة) ذهب الى سيارتي ليقول للسائق ان يتصل بواسطة الراديو بالجندرمة في المخفر القديم.

- ان الديخـار لم يذهب الى اي مكان - أكـد له زاتكو واضـاف - فـان الديـخار يجلس على كرسي قـرب الباب.وهناك اثنان من رجالي يجلسان على جانبي الديخار لحراسته. ولهذا ارجو التريث وعدم التسرع.

ظل رازمارا واقفاً واطرق منكراً ثم ضحك بابتسامة جريئة وقال:

- أقـول لك ما يلي. أنت اترك الديـخار حراً. وانا واياه سنواصل التـجول الاعـتيـادي ثم ننسى هذا اللقاء.

- موافق - قال زاتكو بلهجة ودية، وانحنى رازمـارا احترامـاً لماك غـريغور وخرج يقضم حبة فستـق. واراد ماك غريغور النهـوض الا ان زاتكو وضع يده على كتفه وقـال - ان الأكراد القتلى هم مأساتنا وكدر لنا وليس لك. ولكن الذنب ليس ذنبي.

- مهما كان الذي يقع الذنب عليه، فان الدماء قد هدرت - قال ماك غريغور.

خرج زاتكو على أثر رازمارا، فتكلمت كيتي:

- هيا نغادر هذا المكان إكراماً. فانا لا أستطيع المكوث هنا أكثر من ذلك.

- هيا نذهب. فليس هنا من يحول دون ذهابنا.

ولكن كيتي اشارت الى الدجاجتين المربوطتين وسألت:

- ماذا سنصنع بهما ؟

مسح ماك غريغور بيده على هذه المخلوقات الجبلية الهزيلة وقال:

- لعلنا، بل من الأفضل ان نطلق سراحهما.

- ضع عقلك برأسك ولاتفقده. فمن الممكن ان يصطادهما هنا اي واحد.

- وكيف سنتصرف معهما ؟ - سألها هو وقال - ستتركهمـا هنا باي صورة من الصور أخرج هو سكيناً من جيبه، وقطع شبكة الخيـوط حول ارجلهمـا الى الطريق والقى بهـمـا في الهواء. وهبطتا على الأرض بصعوبة بالغة وتحركتا مترنحتين، وكأن الطبق الذي باكفهما هو الذي يشـدهما. وفي هذه اللحظة رآهما كلب أجرب، فعوى عليـهمـا، وطاردهمـا، فالتجأ هذان الطيران الهزيلان المعوقان الى اسفل الجبل وهما تملآن الجو نقيقاً وزعيقاً.

توقف رازمـارا زاتكو عند عـتبـة البـاب، وتوقف من حولهـمـا عشـرات من الاكـراد والفرس، وكـانوا كلهم ينظرون ضاحكين الى هذا المشـهد. امـا ماك غـريغـور فـقـد أحس بجسـمـه وكأنه ألـمّت به قشعريرة، وان قلبه انقبض من الم قديم، ذلك الألم الذي هو وحده مايزال لايستطيع، كما يبدو، ان يحتمله لوحده.

الفصل الثامن

عاد زاتكو الى جباله الشاهقة، اما طه فقد بقي مع ماك غريغور وزوجته لغرض نقلها بسيارته القديمة طراز بيجو الى مهاباد، حيث ينتظرهما هناك ابوبكر اللبنائي. ولكن طه قال عندما كان يودع والده، ان ينبغي عليهم اولاً العروج على قرية جبلية صغيرة تبعد عن هذا المكان مسافة ثلاثين كيلومتراً.

- لماذا؟

- ان هذا سيكون مفيداً لك ايها العم آيغور.

- لا وقت عندي لذلك.

- سيأخذ ذلك منا قليلاً - تكلم طه بهدوء وقال - سترى هناك بعضاً من الشباب الذين معي - ثم اوضح له - انهم لايثقون بجبهة موحدة مع الاقطاعيين من أمثال ايلخان او مع رجال الاعمال من طراز ابوبكر ومع رجال الدين النزيهين من الحكام أمثال القاضي.

- أو حتى بوالدك؟ - وخزه ماك غريغور بهذا السؤال.

- وبماذا يفيدنا الوالد؟ - اجاب طه واضاف - للوالد فكره ولنا افكارنا. وانني ما جئت معه الى هنا في الواقع الا للألتقاء بكم.

- هكذا اذن هي الاحوال...

- احب ان أقول لك أيها العم ايغور بشأن تلك النقود - قال طه ذلك باللغة الانكليزية.

- اي نقود؟

- اننا لسنا أطفالاً - تكلم طه في طريقه متوجهاً مع ماك غريغور نحو السيارة المتوقفة فوق رابية واضاف - ان كل واحد يعرف موضوع تلك النقود وموضوع السلاح. ومعروف أيضاً أنك ستسافر الى أوروبا للبحث عنها.

- ليس لك اي علاقة بهذا الموضوع. ويجب عليك عدم التحدث بأي شيء حوله.

- توقف الأثنان قرب السيارة ينتظران كيتي، التي ذهبت لشأن ما على قدر كبير من الازعاج لها وسط هذا الخلاء الجبلي. وعندما سمعت كيتي بعد رجوعها، بهذا الكلام قالت ان هذا المكان ليس ملائماً لأستئناف المهاترات السياسية القديمة.

- ولكن كيف يمكن السكوت عن ذلك يا عمتي كيترين - وواصل يقول- هذه الأموال يجب ان تؤول الى الثورة، وان لاتصل الى ايلخان.

- انها لن تصل الى ايلخان باي حال من الأحوال - اعترض عليه ماك غريغور بانزعاج.

- أرى انها ستكون في نهاية المطاف من نصيب أولئك الآخرين - ظل متشبثاً بعناء بموقفه واضاف - ان هذه الاموال والسلاح سيتسلمها بهذه الصورة أو تلك ايلخان العجوز في آخر الأمر، ولن يستطيع القاضي أو والدي الحيلولة دون ذلك.

نشب مرة أخرى جدل بينهما حول ما كانوا قد ناضلوا من أجله في السابق، اي هل ان النضال كان من أجل تحرير الأكراد ام من أجل الثورة الاجتماعية. وان هذا هو ما أفقد كيتي صبرها عن عدم التدخل فقالت:

- انتم لاتحلون شيئاً بهذا النقاش هنا. وطه مصيب في رأيه بجميع الاحوال - ابدت رأيها والتفتت الى زوجها - وسواء عليك ان عثرت على هذه النقود بأوروبا ام لم تعثر عليها فسوف لن تجني اي فائدة.

- ولماذا تكون النتيجة هكذا ؟

- لأنه ستتكرر الاحداث القديمة نفسها. واذا تهيأ شيء ما، بأحد الايام القادمة، فهذا ليس بفضل المساعدة التي تقدمها أنت الاجنبي، ولا بفضل العجائز الغادرين الذين يحيكون المؤامرات هناك عندهم في الجبال. واذا كان هناك من سيحالفه الحظ ويحقق نجاحاً، فان طه هو الارجح بينهم وفق جميع الاحتمالات، اي ان هذا سيتم بدون مساعدة منك.

- هذا طه يريد ثورة. ولكن الاكراد ما يزالون لم يتبلوروا بهيئة قومية - قال مال غريغور ذلك واضاف - اليس هذا سبباً يحول دون ذلك.

- هذا ليس عن طلب الموضوع - اعترضت كيتي عليه في اثناء صعودها الى السيارة والجلوس.

لقد ظلوا أكثر من ساعة يتسلقون بطرق معقدة السير، في الجبال، وفوق دروب موحلة قبل

ان يروا قطيعاً من الماعز السوداء، الذي هو العلاقة الأولى على الاقتراب من المساكن الجبلية البائسة. وعندما وصلوا الى قرية صغيرة فهي كانت خالية تقريباً الآن. وفجأة خرج رجال طه من صخرة رطبة من المطر عن داخل أعشاش حجرية وجاؤا نحو من في السيارة بوجوه لأناس ارهقها الانتظار.

- ما سبب هذا التأخر؟ - انهالت عليه الأسئلة - ماذا حدث؟

كان عدد المقاتلين ستة افراد. ويرتدي كل واحد منهم بدلة مثل تلك البدلة الفدائية المبقعة الخضراء التي يرتديها طه. وكل واحد منهم كان يحتذي بحذاء الجنود. واجرى التعارف بينهم وبين ماك غريغور وزوجته اللذين هما معروفان جيداً في الجبال، وأخبرهم عن تسليمه الالتماس الى رازمارا.

وأشارأحد المقاتلين بنوع من السخرية الى ذلك:

- إن هذا جرى بتدخل من والدك.

- كفاك كلاماً عن رازمارا وما شابه ذلك من الاشياء التافهة واحد آخر من الفتيان بقفازات نسيجية مستهلكة وقال - أخبرنا انت ما نوع الحركة التي لاحظتها على الطريق المزفت؟

- هناك عدد كبير من سيارات الشحن الفارسية العسكرية - قال طه.

- بناء على ذلك يجب علينا التحرك من هنا.

- سوف لانستعجل.

- خذ بنظر الاعتبار يا طه اننا لانستطيع الصعود أعلى من ذلك على هذه السلسلة الجبلية فوق مثل هذه الوحول.

- من الممكن المكوث هنا بعض الوقت ايضاً.

- كلا لايجوز ذلك - اعترض الفتى على طه واضاف - فكر بالأمر وانظر، فان الجيش سيطير من الاسفل نحو القرية طيران الجراد. وعليك ان تنتظر حتماً بعد جولة رازمارا.

- ماذا تقول انت يا دكتور- توجه بهذا السؤال الى غريغور أحد هؤلاء الفتيان الطلاب واضاف - هلى ترى ان من الواجب علينا مغادرة هذا المكان؟

- انا ليس لي علم بتاتاً بشؤونكم - رد عليه ماك غريغور.

أصاب هذا الفتى (هذا الجواب) بالارتباك. ثم شملهم ماك غريغور كلهم بنظرة أحاط أولئك الواقفين في وحل الزقاق الضيق. كان أحدهم ملتحياً. وآخر متحمساً وديعاً سمين الجسم،

والثالث يتسم بسمة طالب مجتهد، فقد تدلت من جيب قميصه مجموعة من أقلام الحبر الجاف، ومن خلف حزامه يوجد دفتر الملاحظات، والرابع منهم ذابل الصحة، لايوحي بانه يعقد عليه أمل كبير، والخامس لم تنزل عيونه الكردية الفتية الحساسة عن كيتي. اما السادس فقد أمسك بندقية رشاشة قصيرة بيده كمن يمسك حقيبة صغيرة لايمكن مفارقتها.

وكان واضحاً ان طه هو أكبر الجميع سناً ويتسم بمنظر القائد الواثق من نفسه. وسألهم ماك غريغور:

- ما هو النشاط الذي تقومون به أنتم هنا على الخصوص ايها المسلحون؟

- القرية هنا خالية من السكان - رد عليه طه وقال - وهذه القرية كلها بما فيها لآخر واحد من سكانها هم رقيق عند اقطاعي من عشيرة الجاف، يدعى قاسم. وفي القرية المجاورة يسكن وكيله، ويستحصل ضريبة من السكان عن كل رأس من الغنم والماعز وجلد الخروف وكل قبضة من الصوف. وقبل خمسة سنين قتل قاسم ثلاثة من الشيوخ كبار السن في المراعي المحلية الصيفية الذين تقدموا له راجين ان يزيد لهم حصصهم من القمح والمواد الغذائية والاجور. ومن بعد ذلك بسنتين فقدت فتاتان من القرية بلا أثر من ورائهما. وقد اختطفهما كلتيهما نفر من أبناء عشيرة الجاف. وفي السنة الماضية قتل اربعة رعاة بسبب عدم تسليمهم كامل الصوف. واذا ما حل قليل من القحط فسرعان ما يتساقط الاطفال موتى من الجوع، اي من امراض نقص التغذية والبرد وانعدام النظافة. ونادراً ما تعرف القرية السكر والأرز. ولا وجود للمدارس والكتب على العموم. ولايصل الاطباء الذين يعينون لخدمة الكرد الى هنا، ولا الاداريون. ولهذا فان الناس هنا يصغون الينا بنفوس راضية - وقال طه في الختام - عندما ستحين ساعة الثورة، فان الناس هنا سيعرفون ضد من يقاتلون.

- بماذا يقاتلون؟ بايدٍ عارية؟ - سأله ماك غريغور وقال - أنتم مسلحون ولكن الآخرين ليسوا مسلحين. ابتسم الفتيان وعاد له للكلام:

- هيا تعالوا لتروا باعينكم.

توجهوا كلهم على أثر خطوات طه نحو كومة من أعشاش السكن الفارغة وتوقفوا امام كوخ منها مشاد بالحجر. وفتح طه قفلاً مزيتاً ثم فتح الباب. وانتزع عن نافذة صغيرة لوحاً من الخشب كان يسدها سداً محكماً. ورأوا في الداخل اربع بنادق ورشاشتين كانت مسندة الى الجدار وكذلك صناديق عتاد وست صفائح بنزين بحجم عشرين لترا. وفوق الارض الغام وكومة من الحراب المبعثرة.

- من اين حصلتم على هذا ؟ - سأله ماك غريغور.

- نفذنا نحن خلال مدة الشهر والنصف الماضية عشرات الغارات الليلية على نقاط الحراسة العسكرية الايرانية.

- من تقصد أنت بكلمة «نحن»؟

- أقصد هؤلاء الذين هم معي - اجابه طه.

- وبماذا كنت قد أمرت الناس ان يفعلوا بهذه الأسلحة؟ هل بقتل الخانات؟

رد طه بلهجة مثل من لم يلاحظ هذا الاستهزاء وقال:

- اذا ما تم تسليح فقراء هذه القرية الصغيرة كلهم، فان الجيش الايراني سوف لايجرؤ بالتوغل في الجبل. اما الاقطاعيون الأكراد فسيهابوننا من الخوف. ولهذا فنحن بحاجة الى ما سيرسلونك من أجله الى أوروبا ايها العم ايغور.

- يكفي الفرس ان يعثروا ولو على جزء من هذا السلاح المخزون هنا حتى يشنقوا جميع الرجال في القرية. انتم تلعبون بحياة بشر لا حماية لهم.

رد عليه طه متحفظاً بقوله، ليس بين الكرد من لا وجود لمن يدافع عنه. ولابد للثورة الكردية ان تندلع في مكان ما.

- ولكن ليس عن هذا الطريق - اعترض عليه ماك غريغور وقال - بالنسبة لكم ليس من الصعب عليكم التواري في الجبال. ولكنه ليس امام ابناء القرية من مهرب يلجأون اليه. وان على رؤوسهم سيقع القصاص.

- انا أعرف ذلك - قال طه واضاف - ولكن من الواجب على الفلاحين ان يقوموا بالمشاركة.

- ولكن ليس بهذا الاسلوب، اي ليس بتمردات قروية مبعثرة.

ومن ثم أغلق طه باب المخزن وعلق القفل على بابه. وتوجه ماك غريغور بسؤال بعدما تطلع بنظرة شملت الاعشاش الفقيرة، الى طه عن سكان القرية والى اين تحركوا، وما سبب فراغ القرية من الناس.

- انهم كلهم عند النهر على الهضبة - اجابه أحد الفتيان وقال - انهم يحيون عرساً مزدوجاً.

العرس «المزدوج» عند الأكراد هو ارخص الاعراس من حيث التكاليف، والاكثر انتشاراً في القرى الجبلية الفقيرة، ويتم بعقد قران شقيق وشقيقته والزواج من شقيقة وشقيقها من أسرة أخرى، وبهذا فان الاسرتين لاتضطران الى النفاق على مهر العروس.

لقد انطلقوا نحو النهر، وبدأوا يهبطون بحذر نحو الهضبة، وصارت تصل الى اسماعهم من الأسفل أغاني الأعراس التقليدية المألوفة وخرير تيار المتدفق من الانهار والجداول وهو يجرى فوق الصخور والنباتات. وعن هذا النهر يترنم بالأغاني جميع الشعراء الأكراد. فانه شريان الحياة في كردستان.

وفي طريقهم بالنزول قابلتهم كلاب القرية نابحة، وهي جراء صغيرة وكلاب كبيرة غير أصيلة.

وقال ماك غريغور لزوجته:

- لا استطيع صبراً مع هذه الكلاب الممسوخة.

- سر في طريقك بلا توقف - قالت له كيتي واضافت - فعندما تتلكأ فهي تحس بذلك وتصير أكثر شراسة.

وأخذته من يده وقادته بجرأة نحو الكلاب النابحة ولكنها أفسحت الطريق لمرور الناس. ولاحظ ماك غريغور ان اثنين من المتمردين قد لاذوا بكيتي وليس هو وحده من لاد بها. وتنفست كيتي الصعداء عندما وطأت قدماها على الهضبة وقالت:

- سبحان الله. انهم هنا يؤدون رقصهم المجنون، وهم يسحبوننا اليه ايضاً.

كان اللحن حزيناً لذيذا. والجبليون والجبليات شكلوا حلقة متلاحمة، وكتافهم متلامسة ويتحركون خطوتين أو ثلاث خطوات ايقاعية الى جانب، ويكررونها الى جانب آخر، وتيمايلون مترنحين مثل سنابل خطوتين تحت الريح. وكانوا كلهم بملابس رثة. فقسم منهم بالزي الكردي والقسم الآخر بالزي الاوربي، وعلى الأكثر بالملابس الانكليزية والامريكية والايرانية وثياب عسكرية عراقية متسهلكة. وكانت النسوة يتحركن في الرقص باحتشام. اماالرجال فكانوا متسمين بمظهر الحب التقليدي الغامّر. وقال طه:

- انهم مولعون بالتقاليد الماضية.

كان خوتخودا القرية (المختار) الذي التف بمعطف انكليزي ملطخ بالدهون، جالساً بين أطفال بملابس ممزقة قد نهض وصَفق بيديه، فتوقف الرقص. وتعالى ضجيج الضحك. وقال طه:

- جاءكم الضيوف. انهم اصدقاء.

- تفضلوا، على الرحب والسعة! - تعالت اصوات الجبليين وراحوا يصفقون ويربتون بأيديهم

بلطف على أكتاف الشباب وعلى ظهورهم. مكررين الترحاب «تفضلوا، تفضلوا»، وهم يقلبون أكفهم وايديهم ويقولون متمنين، ليتكم كنتم هنا معنا قبل نصف ساعة لا أكثر. وهناك أحاطت فتيات بماك غريغور وكيتي، وشرعن يتلمسن بايديهن ملابسهما وقرص ايديهما رمزاً للألفة. ولاحظت كيتي بصوت واطيء:

- لقد خلق لنا طه هنا انطباعاً لاينسى.

- الشبان هنا يستحقون التمجيد كلهم. ولكن هذا قليل من حيث التأثير - أعترض ماك غريغور.

- ولكن كما أنت تعلم، فان لدى الصينيين قد بدأ مثل هذا العمل بالذات.

- الصين مزدحمة بالسكان. اما القرى الكردية الجبلية فهي جزر صغيرة مبعثرة في الجبال، وهي سهلة الاقتحام على العدو. لذلك لا مجال هنا للمقارنة.

وانتظم الراقصون مرة أخرى في حلقة. وسحبت الفتيات كيتي من يدها للرقص. وأنقذها منهن صراخ أحد الاولاد الأكراد الذي جاء راكضاً من أسفل جرف النهر باقدامه الحافية فوق الصخور، ان اثنين من الاجانب يتسلقان في الدرب نحو القرية.

الفصل التاسع

هرع طه نحو ذروة صخرة شاهقة تطل على النهر عبر معراج ذي درجات مشوهة، وهرع ماك غريغور من ورائه فشاهدا من فوق الصخرة اثنين من الغرباء يسيران سيراً متعثراً على الصخور الناتئة بموازاة مجرى النهر، ورصدهما ماك غريغور بالناظور الذي أخذه من طه، لمدة طويلة وبتركيز كبير، بينما ظل طه ينتظهر نافذ الصبر، رغم علمه ان ماك غريغور لديه كثير من الناس الذين يعرفونه، ومن بينهم أجانب يترددون على الجبال. وقال ماك غريغور:

- لربما انا أعرف هؤلاء.

- من هم؟

- انهما انكليزي يدعى فلاتديرس. ومعه شخص فارسي. وانه خادم. (لكن ماك غريغور قال ان الفارسي هو «تابع» لأن كلمة خادم غير موجودة باللغة الكردية).

- ما هو العمل الذي حمله على المجيء الى هنا؟

- لا علم لي بذلك. الا انه من انصار إحدى المنظمات العالمية المعنية بتقديم العون الى الاطفال الجياع. وانهم يطلقون عليها، كما أرى، اسم (تشيلدرن اند ليميتد). وان والدك يعرف فلاتديرس. وكذلك كيتي.

من الواضح جداً انه يعرف الطريق.

- وهذه ليست السنة الأولى التي يأتي بها الى هنا ليتجول في هذه الجبال طولاً وعرضاً - قال ماك غريغور

- وما مهمته؟ هل هو عميل بريطاني؟

- من المحتمل ذلك.

- اذن هيا نطلق النار عليه - قال أحد الفتيان.

- لاتقترفوا حماقة - هب ماك غريغور معرضاً، لأدراكه ان اي واحد منهم مؤهل الى دعم القول بالعمل.

تناهى اليهم من الاسفل عند النهر صوت العجوز خوتخودا - المختار، وهو ينادي عليهم انه يعرف هذا الانكليزي. وانه كان هنا لمرات عديدة، وبعث اليهم بالأرز والفاصوليا والملابس. وقال طه:

- طالما ان الموضوع بهذه الصورة، فمن الافضل بالنسبة لنا، التواري مؤقتاً في الجبل بمكان ما عند الرعاة.

تسلقت كيتي درجات المعراج بعدما علمت ان هذا الانكليزي هو فلانديرس وقالت:

- انا امتعض قليلاً من هذا الشخص. وكنت قد حلّقت معه بالطائرة من لندن. بل بالأحرى انه كان قد استقل الطائرة معنا من جنيف. وكان معه هذا الخادم الفارسي. وهو بالتحديد تشحم هنا شيئاً ما.

- لذا ينبغي ان تستوقفوهما هنا، ريثما نتوارى بعيداً عن النظر - قال طه ذلك في اثناء نزوله على سلالم المعراج. وشرع الطلاب المتمردون والفلاحون ومن ورائهم الكلاب يسرعون بالرجوع الى القرية. وطلب ماك غريغور من احد الصبيان ان يسرع راكضاً نحو السيارة ويجلب حقيبة الظهر باقصى سرعة.

- لماذا هذا التحول؟ - سألته كيتي.

- ما أن يتحسس فلانديرس شيئاً ما، فسيهتم حتماً بالسؤال عن سبب وجودي هنا.

- من المحتمل انه يعرف حتى هذا.

- كلا. فالارجح هو ان ما وصل الى علم فلانديرس هي اخبار عن طه وعن جماعته المتمردة - تكلم ماك غريغور في اثناء وقوفه على حافة نتوء صخري، متطلعاً الى ذينكما الشخصين يتقافزان في سيرهما من صخرة لأخرى. وعاد الصبي مع حقيبة الظهر. وفتحها ماك غريغور وأخرج الخرائط ودفاتر الملاحظات والمعدات. ونظرت كيتي بنفور الى حركات زوجها المفتعلة الترتيب بوضوع. وضيق ماك غريغور عينيه متطلعاً الى خريطة فوتوميترية، ونظر الى القمم الجرداء المحلقة في الافق والى النباتات الذابلة في الأسفل. إلا انه لم يعر انتباهاً الى كيتي.

ولما صعد فلانديرس الى الساحة الصخرية لم يأخذه العجب لوجود ماك غريغور هنا ورؤيته له بل قال:

- انني محظوظ. فأنني كنت أفكر بان القاك هنا عاجلاً أم آجلاً.

وتبادلوا التحايا بعيداً عن التكلف. ولكن كيتي سألته:

- ماذا جاء بكم الى هنا ؟

- جئت لأحسب عدد رؤوس الأغنام - رد عليها فلانديرس.

- الأغنام؟

- أنا أعرف مم انتم منزعجون - قال فلانديرس مع قهقهة.

في هذه اللحظة تفحصت عيونه الجريئة الزرقاء خرائط ماك غريغور والناظور والعدسات المقربة الموجهة بعيداً وراء سلاسل الجبال.

- هل تتذكر انت كارثة شتاء عام ١٩٦٣ عندما فطست هنا في الجبال ملايين من رؤوس الأغنام والماعز، وعندما مات مثل هذا العدد من الاطفال؟

- نعم، نتذكر ذلك طبعاً.

- لقد اتخذت لجنتنا قبل ايام قراراً بشراء عشرة آلاف رأس من الأغنام وخمسة آلاف رأس من الماعز من تركيا وتوزيعها على القرى الجبلية المقطوعة.

- ان في هذا فائدة كبيرة في المستقبل - قالت كيتي وأضافت - وخاصة ستفيد الملاكين المحليين.

- انها لن تذهب الى الملاكين - اعترض فلانديرس وقال - أنني سأشرف شخصياً على عملية التوزيع.

وماذا استطيع أن أفعل اذا كان نظالهم الاجتماعي بهذه الصورة.

شعر ماك غريغور ان من الصعب اخفاء شيء عن انظار فلانديرس الماهر في اختصاصه. كما أحس ان اصطيد بما لوحظ عليه من تمزق في حذائه الى نصفين ومن آثار الزيت على قمصلته الذي تخلف عليها من رشاشة زاتكو.

- يبدو مظهرك غير نظيف بعض الشيء - قال فلانديرس لماك غريغور.

- عندما أقوم بالتنقيب في الجبال اتعرض أحياناً للتلطيخ.

- انا ارى زوجتك تبحث هي عن المعادن كعادتها، لكنني ما كنت أعرف ان النفط موجود هنا في الجبال.

- ليس البحث هنا عن النفط - سارع ماك غريغور لتصحيح معلوماته وقال - بل عن الغاز الطبيعي.

- انه شيء مهم جداً. ولكن كيف ستستخرجون أنتم الغاز ؟ اشار فلانديرس الى الخريطة

بطرف حذائه المصنوع من جلد الغزال (شاموا)، فلاحظ ماك غريغور النظافة المدهشة والاناقة لدى فلانديرس. فهو قد دخل في العقد السابع من عمره، إلا انه كان مايزال شخصاً حيوي النشاط وناضر المحيا مع قوام مستقيم. وكان حليق الوجه على درجة من النعومة لاتستدعي بعد ذلك اي حلاقة. وكان الفارسي المرافق له نسخة مستنسخة من سيده، عدا انه اصغر عمراً. ويقال ان واجبه مع فلانديرس ليس محصوراً بالخدمة فحسب بل وفى عمل المساج له. وهذا هو الواقع. فان فلانديرس يبدو دائماً مثل من عملوا له مساجاً لرقبته ومتنيه قبل واحدة. وكلاهما كانا يرتديان بدلتين من طراز «تفيد» الانكليزي. وعلم ماك غريغور ان هذين العجوزين القويين للغاية يمارسان كلاهما رياضة الجودو. وكان فلانديرس ابن اخ اللورد أوكسديد وصديقاً لأسرة كيتي. وحاول فلانديرس ان يستعلم من ماك غريغور فسأله:

- بموجب اي علاقات تقرر أنت وجود الغاز؟

وصلَ الى سمع ماك غريغور نباح كلاب القرية وضجيج محرك سيارة قادمة. ولكنه استبقى فلانديرس وقتاً قليلاً آخر لغرض الاطمئنان فقال:

- اننا نعتمد بالأساس على حساب توازن السوائل.

- اي ما يعني المياه الجوفية؟

حرك ماك غريغور رأسه موافقاً واشار الى الخط الطويل للجبال الصخرية وقال:

- ان تحت كل هذه السلاسل الجبلية توجد مياه جارية غزيرة، فضلاً عن ان المياه الجوفية في هذه الجبال ممتزجة عادة مع النفط والغاز. وعندما يتعرض هذا المزيج من تيار المياه المنطلق الى شقوق وانزلاقات في الاعماق، يمكن التعرف عليهاعادة في الطبقات الفوقية، فان النفط والغاز يتجمع تحت الضغط العالي مكوناً آباراً نفطية تحت الأرض. واننا نبحث عن هذه الابار.

- ومن بعد ذلك؟

- من بعد ذلك نحفر الآبار ونستخرج النفط والغاز بانابيب بواسطة المضخات.

- والى اين تضخ من هنا؟ - اشار فلانديرس الى الجبال الجرداء.

- الى حيث يطلبونه، اي الى حيث تجرى عملية التكرير.

- الى مصانع ايرانية؟

- طبعاً.

- وكيف ينظر اصدقاؤك الأكراد الى هذا الضخ للنفط؟ - وجه فلانديرس هذا السؤال

واضاف - فقد سمعت انهم اسسوا شركة ويريدون امتلاك هذا كله لهم وحدهم.

شعر ماك غريغور ان دمه بدأ يغلي، فأضطرت كيتي الى دعمه فقالت:

- اقاويل دورية عن الكرد يجرى تلفيقها في البار الطهراني. انتم تحبون كثيراً تأليفها.

- ولكن هذه حقيقة يا كيتي - اعترض فلانديرس عليها وقال - ان الاكراد فعلاً لقاء ثمن كبير حقهم الوهمي في الثروات النفطية والمعدنية المحلية هنا.

- من أخبرك بذلك؟ - سأله ماك غريغور.

- هل اراك تظن ان من الممكن أخفاء مثل هذه العملية طي الكتمان طويلاً - قال فلانديرس ذلك مصحوباً بقهقهة واضاف - لقد ذكروا لي عن ذلك في جنيف حوالي خمسة او ستة اشخاص.

- هكذا اذن؟ - بعد ذلك قرر ماك غريغور وقف هذا الكلام عند هذا الحد، الا ان كيتي سألت فلانديرس، ماذا اخبروه في جنيف بالذات.

- لقد اودع الأكراد مبلغاً كبيراً من المال باحد المصارف الاوربية، كانوا قد حصلوا عليها من خلال صفقة غامضة. ونشبت بين الأكراد صراعات دامية جراء هذه الأموال والسلاح الذي يشترى بها. وقتل أحد الأكراد بباريس. أهذا صحيح يا ماك غريغور؟

لاذ ماك غريغور بالصمت؟ وأمتعضت كيتي من جديد، فقالت لفلانديرس:

- هيا بنا يا أدتور الى القرية، فالمطر يوشك ان يهطل.

بدأ ماك غريغور بطي الخريطة تعبيراً عن الاستعداد الكامل للمغادرة. كما طلب فلانديرس من تابعه الفارسي بالاشارة من رأسه ان يذهب امامهم. وتكلم في طريق نزوله من الصخرة المسطحة وراء الفارسي فقال:

- من بين العلاقات التي تلفت النظر في الحياة المحلية، هي البساطة بين الاعداء الألداء والاتصالات الخالية من التوتر في خلال كل هذا الغليان من العداء. ومثل هذا كان عند العرب والمسيحيين. فما ان تمضي لحظات من تكريم بعضهم بعضاً واذا بك تنظر اليهم وقد أخذ الأخ يذبح اخاه.

بعد ذلك واصل فلانديرس نزوله بعضلات مفتولة يتنطط من درجة لأخرى حتى استطاع الاصطفاف الى جانب كيتي التي سألته:

- ما هو غرضك شخصياً الذي تقضي من أجل مثل هذه الأيام الطويلة في الجبال، اي في .

قلب هذا العداء كله؟

- لأجل الأطفال الجياع.

- وهل تحصون عدد رؤوس الاغنام؟

- كل شيء من أجل انقاذ الاطفال.

- انها صيغة مناسبة تماماً - قالت كيتي ذلك بلهجة جافة.

- ان أطفال الكرد يحتسون لبن الماعز ويأكلون جبن الاغنام. وهم الحافز الوحيد لمكوثي هنا. ولاينبغي ان ترتابي هكذا مني ارتياباً مكروهاً - رد عليها فلانديرس بلهجة رقيقة.

- يجب ان أعيد الى الذاكرة فقط، ان الكرد قساة ومنتقمون، وسيضعون طلقة في ظهرك اذا شعروا ان عملك هنا غير مناسب لهم.

- اي عمل؟

- ما ازال لا أعرف ما يدور وراء الاكمة... خيانة ثقة الاصدقاء أو تجسس أو شيء ما من هذا القبيل.

- اقسم لك يا كيتي، ان كل ما عندي هو عمل نبيل ومكشوف - قال فلانديرس ضاحكاً.

كان ماك غريغور يسترق السمع الى ثرثرتهما اللاذعة في خلال صعوده درباً ملتوياً وأخذ الفلاحون يحيون فلانديرس تحية الأصدقاء بقريتهم. وأشارت كيتي الى ماك غريغور بانزعاج وقالت:

- تفضل وانظر. فان مسألة الاموال على لسان الجميع.

- ولهذا فان القاضي يريد مني السفر وكشف مصير هذه الاموال.

- وهم صاروا يعرفون أيضاً عن مهمتك هذه.

- لربما، ولكن لي أملاً ان أكون حتى ذلك الحين قادراً ان ابحث عنها واستعيدها لهم.

بعد ذلك التزما بالصمت وصوبا عيونهما نحو فلانديرس والى ما يعمله بين الفلاحين. وكان هو يتحدث معهم بلغة كردية مشوشة ولكنها واضحة تمام الوضوح، بل وحتى انه مازح النساء، واوضح لهم أن وصل الى الجبال لغرض احصاء رؤوس الغنم والماعز وكذلك لأحصاء الاطفال.

وقام بجولة: طلع خلال على القرية كلها، مسجلاً الملاحظات، وطارحاً الأسئلة. اما ماك غريغور فقد كان يراقب عند كثب هل سيلاحظ فلانديرس مستودع السلاح. وبعدما القى

فلانديرس على القفل المغطى بطبقة كثيفة من الشحم ابتسم ابتسامة قصيرة، وكأنه عبر فيها عند ادراكه سبب تعليق هذا القفل هنا.

- كل شيء على ما يرام - نادى هو على ماك غريغور وقال - انتهت الاعمال مع السكان المحليين. فهل تريدون ان انقلكم معي الى مهاباد بسيارتي من طراز «لاند روفر».

كان فلانديرس قد قاد سيارته نحو هذا المكان على نفس ذلك الطريق الجبلي الذي أوصل طه عبره ماك غريغور وزوجته الى القرية. وبدأت كيتي تتسلق الدرب مع فلانديرس نحو السيارة «لاند روفر» بينما سار ماك غريغور من خلفها. ورغم حذره من الكلاب على الدرب، فانه صار يتخلف عنها في سيره، ويبدو ان السهر وتوتر الاعصاب قد أخذت منه مأخذها. ونادت عليه كيتي باضطراب:

- اسرع من فضلك، فسيبدأ المطر بالهطول. وانا لا أريد التعرض للبلل، لعدم وجود مكان هنا للتجفيف.

بعدما اسرع ماك غريغور في خطوة أكثر من ذي قبل أخذ كيتي اللاهثة من يدها، الا انها لم تأخذ يده بل تمسكت بمرفقه.

ولما جلست على المقعد الأمامي في السيارة، أستأنفت القاء النكات الجارحة على فلانديرس الذي كان يقود السيارة مع اطلاق ابتسامات من حين لآخر. وجلس ماك غريغور في الخلف الى جانب الفارسي، واعار السمع من خلال مغالبته لسلطان النوم الى صوتيهما. انحدرت السيارة بهدوء من الجبل وعند المنخفض الهابط نحو بحيرة أروميا غرق ماك غريغور في النوم، ولم يستيقظ الا عند مركز شرطة في مهاباد حيث كان هو نفسه قد طلب ايصالهما الى هناك.

- الى لقاء عاجل - تودع فلانديرس معهما بابتهاج واضاف - انتظروني في طهران، فسأكون بضيافتكم هناك. فان عندي مجموعة من الاسئلة - قال ذلك متوجها به الى ماك غريغور، ثم صاح في اثناء انطلاق السيارة «لاند روفر» - ان هذه الاسئلة ذات مساس بالنفط...

تابع ماك غريغور السيارة بنظره الى ان غابت عن عينيه. ومن بعد ذلك القى حقيبة الظهر عبر متنه واشار بيده الى امام نحو طريق ترابي، حيث ان البيت الذي يقصدانه الآن يقع في نهاية طرف من المدينة على ضفة نهر ساج بولاك الصغير. وهذا البيت ملك لكردي يدعى حميد الخياط. وهو كردي غني مغمور من سكان المدينة. وكان بعد الحرب يرتزق من ثروة مؤلفة من اربع ماكينات تقطيب كبيرة اشتراها من مخلفات امريكية لدى الامريكان فضلاً عن

مـاكـينات أخـرى للخـيـاطة تـخـيط كـل شيء مـثـل اطـارات السـيـارات ومظلات الـطائرات «باراشوت» واشرعة الشفن والجواريب. اما بيته ذو التنسيق الرديء المشاد من الأسمنت، فانه رغم ذلك سرعـان مـا تحول الى مكـان لأجتـمـاعـات الـشـخـصيـات السـيـاسـيـة الكردية والـتـجـار الأكراد وللأصدقاء أمثال ماك غريغور.

لكن حميد لم يكن موجوداً في بيته. وارشدهم الخادم الذي فتح لهم الباب الى غرفة ضيوف فارسية مزينة بزجاج ملون وسجاجيد تغطي الجدران التي يتوسطها معلقاً نسيج ساطع اللمعان مجلوباً من مكة. وبـعـد انتظار لمدة عـشـر دقـائق دخل ابوبكر اللبنـاني بملامح شخص يبدو انه كان غارقاً في نوم عميق وايقظوه قبل قليل. وقال باسلوب رجل الاعمال الناعم:

- ارجو عفوكم لغياب الضيافة...

وبعـدما تجاوزوا المراسيم الاعتـيـادية حول الثقة المتبـادلة، جلسوا لارتشـاف القهـوة، ومن ثم قام ابوبكر بابلاغ ماك غـريغور عن المعلومات التي لديه بشأن الأمـوال، واين كانت هذه النقود النقـود مودعة، وعـن الاجراءات التي اتخذت وجرت في البـحث عنها. وبعـد ذلك وضع ابوبكر امـام ماك غـريغـور فوق منضـدة صغيـرة مطعـمة رسـالة الى البنك وتخـويلاً باسم مـاك غريغـور ومظروفـاً اصفر اللون بمبلغ الف جنيـه استرليني بصـفـة مصـروفات. وقـال مـاك غريغـور مزيحـاً جانباً، بحيث ان المظروف انزاح حتى استند الى كرش ابوبكر الكبير:

- لا حاجة بي الى النقود.

- أنك قد تكون بحـاجة الى هذا المبلغ. أو لربما يبدو لـك قليلاً - تلكم ابوبكر مزيحـاً النقود مرة أخرى.

- انا لن اتسلم هذه النقود يا ابوبكر. ولا داعي للالحاح - قال ماك غريغور.

في هذه الاثناء نخزت كيتي زوجها بخفة في خصره عندما وقالت:

- خذها، فان كل شيء بأوروبا غالٍ أكثر مما يدور بذهنك.

ولكن ماك غريغور لم يكن يعرف هل أن كيتي تتكلم عن جد أم هزل. وهو على كل حال لا فرق لديه سواء تسلم النقود هذه ام. وسأله ابوبكر بلطف:

- هل انت تحذر من ان يقال عنك انك عميل مأجور للكرد؟

- لنفترض انني احاذر من ذلك.

- في مـثـل هذه الحـال، سـأتوقف عـن الالحـاح عليك. الا انك يجب عـليك ان تعطيني وعـداً،

ان تذهب وقت ما تجد نفسك محتاجاً حتى الدرجة القصوى، الى بنك اسماعيل بباريس وتواجه موسى جوكير وتأخذ النقود التي تشعر أنك بحاجة اليها.

- سأذهب اذا أقتضت الضرورة ذلك - اجابه ماك غريغور ونهض.

ولكن كيتي قالت عندما خرج ابوبكر ليطلب ان يهيئوا سيارة حميد:

- انك فقدت عقلك، اذ ستنفق مدخراتك التي جمعتها من عملك على مؤامرة كردية مجنونة.

واذا ما استعيدت هذه المبالغ الهائلة من النقود اليهم، فيجب عليهم ان يتحملوا بذاتهم، مع لعنة الشيطان عليهم نفقات البحث عنها.

- ستكون في غنى عن ذلك - اجابها ماك غريغور.

ثم خرج كلاهما الى باحة البيت، بعدما سمعا ابوبكر يفيد ان السيارة المارسيديس جاهزة.

هناك في الباحة قابلها البرد ورطوبة الجو والسماء البنفسجية المتكررة والحديقة المخملية المسيجة التي غطتها الظلال الكئيبة والصمت العميق. وقادهما ابوبكر نحو بوابة خشبية مرتفعة. الا انهم سمعوا صوت احدهم عبر السياج. وفهم ماك غريغور معنى ما كانوا يصرخون به باللغة الكردية:

- يا رشيد، لاتسمح لهم بالخروج من البوابة.

- قفي، دعينا ننتظر قليلاً هنا - قال ماك غريغور لزوجته.

- ولكن ماذا يحدث هناك؟

- لا أعرف لحد الآن. دعينا ننتظر.

وسمعوا ضجة، ووقع اقدام لاناس راكضين في الطريق. وهدر محرك سيارة ثم غادرت المنطقة بسرعة.

- يا رشيد - صاح ابوبكر من خلفهما - اين انت يا رشيد.

- ماذا يحدث هنا؟ - سأله ماك غريغور.

على ضوء مصابيح السيارة ظهر عند البوابة شخص كردي يحمل بندقية رشاشة لاهثاً من الراكض، وبعدها رآهم قال ضاحكاً:

- لاتخف يا دكتور. فكل شيء على ما يرام.

وقبل ان يخرج ابوبكر بحذر امام البوابة طلب منهما الانتظار بعض الوقت. فقالت كيتي:

- أعتقد ان هذا يدعك تشعر بالراحة. اما بالنسبة لي فلا شيء من ذلك يا ايغور.

- انه حدث تمثيلي مأساوي كردي اعتيادي.

- كلا ابدا، فان الأكراد هم قتلة يمثل هذه الأمور وسفاحون ايضاً.

- كيتي!

- انهم سفاحون بالذات...

وافاد لهم ابوبكر بعد رجوعه ان كل شيء على ما يرام وقال بلهجة اعتذار:

- هكذا هي الحال، وماذا بوسعنا ان نفعل غير هذا، فانه مبلغ كبير.

- ان هذا التصيد ليس من أجل الأموال بل من أجل هذا - قالت كيتي ذلك واشارت على زوجها.

- كلا، كلا، - تكلم ابوبكر معهما عندما أجلسهما في السيارة المارسيديس ذات محرك الديزل الذي كان مشتغلاً، وأكد لكيتي القول ان الأكراد لنفترض انهم مشاكسون جداً ومثيرون للصخب ومتمسكون بشدة بالتقاليد القديمة، لنفترض ذلك ولكنهم ليسوا سفاحين. ومن ثم لوح لهما ابوبكر باطراف اصابعه السمينة في اثرهم مودعاً، وكأنه يبدي لهم بذلك مدى ما يمكن ان يكون عليه الكرد من وداعة.

الفصل العاشر

في طهران، وتحت السقف الواطيء لغرفتهما المخصصة للضيوف، داخل بيتهما القديم المتداعي القائم وسط حديقة محاطة بسور عالٍ من جدار طيني والمغطاة بطبقة كثيفة من الاوراق اليابسة ونبات اذان الارنب الجافة والاوراد واشجار اليوكاليبتوس التي غطاها الغبار وكذلك السواقي الضيقة في الحديقة، لقد حاول الاثنان في طهران تحت هذا السقف التوصل الى نوع من اتفاق يكون في وسعه ان يسمح لها بتجاوز هذا التعنت ما بينهما درءاً لحصول انفجار. وقد سألته كيتي بصرامة:

- أخبرني، كيف تخبر جمال جناب انك ستتخلى عنهم وتربط مصيرك مع الكرد ؟ كان جمال هذا يرأس قسم الاستكشاف والمعاون الذي هو نفس القسم الذي عمل فيه ماك غريغور في شركة النفط الوطنية الايرانية.

- لا أعرف ماذا سأقول له - أقر ماك غريغور.

في اثناء جلوسه بغرفة الضيوف في البيت الذي ولد وترعرع فيه، حيث تنظر اليه بلاد فارس بآلاف العيون العطوفة، شعر بالأسف معه جراء عدم وجود ولده وبنته معه الآن. وهذا ليس ناجماً عن افتقاده لوجودهما فحسب، بل ولان كيتي كان يمكن ان لا تكون بهذا القدر من القسوة في اثناء وجود الابناء.

- انت ستضطر الى الكذب على جمال - واصلت كيتي كلامها بدون ان تشفق عليه.

- ان كنت سأكذب، فسيتبين الكذب هنا فوراً.

- ولكن ماذا سيظل في يدك الآن. فانت قد اقسمت للأكراد بكتمان السر.

- ارجو منك يا كيتي عدم الانزعاج - تكلم معها بلطف ومهاودة لغرض تهدئتها ثم اقترب منها وقال - سوف لا اخدع جمال صديقنا القديم.

- انه ظل سنين طويلة يدافع عنك ويحميك.

- انا معترف بذلك - أخذ ماك غريغور شهيقاً عميقاً ثم زفره مغمض العينين على تسريحة شعرها القصيرة، وبينما طارت افكاره محلقة الى مكان بعيد ما وقال - رغم كل شيء فمن المؤسف أنكِ قصصت شعرك. انك صرت تشبيهين أخاك - ولاحظ فجأة بعد ذلك ان الدموع قد ترقرقت في عينيها.

وقامت كيتي فابتعدت عنه وقالت:

- دعنا من حنانك هذا. فانت لاتريد من وراء ذلك سوى الابتعاد عن الموضوع المزعج.

- ان ما تقولينه صحيح - قال ذلك وابتعد عنها.

وفي النهار اجهد نفسه بحثاً عما يخلصه من جمال جناب دون اللجوء للكذب. وجمال هو رجل جسمه سمين وخداه منتفخان وذو ملامح فارسية يشوبها القلق. وفي نفس هذا الوقت، فقد ظن اعتماداً على قابلية اعصابه على التحسس الحاد، ان لدى ماك غريغور شيئاً هاماً يتردد في الافصاح عنه. ومن بعدما خرجا من قسم «الاستكشاف الجيولوجي»، وبعدما قام ماك غريغور باطلاع جمال على خرائط لأربع آبار من الآبار المؤشرة، لمباشرة حفرها في المناطق الكردية، صعد الاثنان الى فوق بطابق أعلى حيث يوجد مكتب جمال في العلبة الزجاجية التي هي بناية شركة النفط الوطنية الايرانية وجلسا هناك على طرفي منضدة طويلة التي كانا يواصلان الجلوس حولها منذ خمس سنين لأجراء اجتماعهما الاسبوعي. ومن ثم خلع ماك غريغور نظارته وقال بلا تكلف:

- اريد انا يا جمال السفر مؤقتاً الى أوروبا.

اخذت الدهشة جمال. ولشدتها فان فكه اللحمي قد ترهل ثم قال:

- يا عزيزي. هل تريد السفر فوراً؟

- انا أعرف انه كان ينبغي ان أخبرك مقدماً خلال وقت كافٍ عن ذلك. الا انني قد اتخذت هذا القرار بعد عودة كيتي فقط.

- ها، ها، الاولاد... تكلم جمال بصوت ينم عن أمل وقال · لقد استدعاك الاولاد للحضور اليهم.

كان جمال بالذات رب أسرة شغوفاً. وهو عنده ولدان صغيران بدينان، بنت بدنية أيضاً مع ودع ازرق اللون - وقاية لها من عيون الحساد - وتحمل أيضاً خواتم باصابعها وهي ذات شعر اشقر وأطراف ممتلئة. وكان جمال يشعر بالارتياح عندما يكتشف مثل هذه المشاعر الحساسة الأسروية عند اصدقائه. فهو يرى في ذلك سعادة للاصدقاء. ولكن ماك غريغور قال:

- لا علاقة للأولاد بهذه القضية. فأنني أريد السفر مؤقتاً فقط.

- هل لمدة طويلة؟

- لمدة نصف سنة. وقد تطول أكثر من ذلك.

- أصحيح هذا!... نهض جمال وذهب نحو النافذة التي وراء ظهر ماك غريغور، والقى نظرة متوترة على الشارع من خلال شرائح نافذة خشبية مشبكة، ومن ثم ثبت نظره على رسوم من صنع بنته تصور نساءً محجبات بخمارات الصقت عليها اوراقاً كبيرة من نبتة مطاط مزروعة هناك في برميل.

وبعد ذلك قال مكرراً - نصف سنة. ان هذا يعني ان القضية جدية.

ظل ماك غريغور جالساً لاينظر نحو جمال، لكنه قال:

- لربما من الأفضل كثيراً لو انني استقيل من العمل.

- ولكن ما هو السبب؟ - تكلم جمال وباعد بيد يديه التين مدهما الى امام وقال - لماذا تريد هذا؟ أحلفك بالله ان تقول لي لماذا تريد الاستقالة من العمل؟

- لنفترض ان السبب هو اختلاف في القناعات - تكلم ماك غريغور بلهجة بطيئة العبارات.

- هل هي عودة للسياسة مرة أخرى؟ - تكلم جمال بصوت مكبوت واستغاث مناجياً - يارب...

في تلك الاثناء عندما تعرض ماك غريغور مرتين الى أعتقال منزلي، كان جمال قد اودع في السجن لمدة سنة. وكانت الصناعات البترولية الايرانية قد أنتزعت ملكيتها وصودرت واعيدت الى الأجانب، الذين بذلوا إهتماماً في ان يحجزوا وراء قضبان السجون جميع الدعاة المتحمسين للتأميم، اما الآن فان الغبار القديم للرجولة الأصلية لدى جمال قد أختفى تحت دروع الشكوك السياسية. وبما ان ماك غريغور يعرف ذلك فانه لم يحاول تحطيم هذه الدروع الدفاعية. إلا انه ادرك استحالة تجاوز هذه النقطة بدون تقديم شرح لها، لذلك سأله:

- ماذا كنا نبتغي يا جمال لاسيما في ايام الشباب؟

- وماذا تعني بذلك؟ - عكف جمال ذراعيه بهيئة من يستعد للوضوء على الطريقة الاسلامية، ثم فرقع اصابعه المنتفخة وقال - اننا كنا نريد قيام ثورة لتحقيق التحرر والاشتراكية والحقوق القومية. فلأجل اي شيء وجهت انت لي هذا السؤال؟

- لأجل ما يبدو لي اننا قد ضعفنا معنوياً قبل الاوان.

- ولكنك لماذا تتطرق الآن الى هذا الموضوع؟ - ابدى جمال دهشته واضاف - اننا حافظنا على ما كنا عليه قدر استطاعتنا وبشكل من الاشكال. اننا دافعنا عن هذا... (انهما دافعا عن شركة النفط الوطنية الايرانية، اي عن اقل من ثلث مصار النفط الايرانية)

- ولكن تعال وامعن نظرك - في هذه الاثناء كان ماك غريغور قد مد يده مشيراً الى الجدران الزجاجية المحيطة بهم وقال - هل ترى ان جوهر نضالنا يتلخص في هذا ؟

- النضال لم ينته بعد - لم يتراجع جمال عن موقعه.

- هنا مربط الفرس. ان النضال لم ينته بعد.

وادرك جمال ذلك فقال:

- في مثل هذه الحال فانني لا أريد حتى ان أعرف سبب سفرك الى أوروپا ولاتتحدث انت لي عن ذلك.

- لاتنزعج يا جمال.

توجه جمال نحو منضدته المغلفة، وسحب احد الادراج، وتناول منه صفحات من الورق مكتوبة كلها بالآلة الكاتبة وقال له:

- تعال اسمع - تكلم جمال وبدأ يقرأ باللغة الفارسية - «أخبرونا، هل من المناسب في الظروف الحالية، ان يكون واحد من أقدم العاملين عندك، هو الدكتور ماك غريغور موجوداً مع الكردي الشيركي زاتكو جليل زائيب، بنفس الوقت الذي قتل فيه زاتكو اثنين من الجنود الاتراك بالقرب من مركز سيندا الحدودي. استوضحوا بحسب الامكانية مع الاحتفاظ طي الكتمان بهدف هذا التحري، وتأكدوا بدقة اين كان الدكتور ماك غريغور يومي الرابع عشر والخامس عشر من هذا الشهر وماذا كان يفعل».

أحس ماك غريغور كأن موجة ساخنة من الريح قد ضربته. الا انه ادرك ان من غير المناسب كتمان ما حدث عن جمال، فوجه له هذا السؤال:

- هل يجب عليك رفع جواب عن هذا ؟

- سأكتب لهم ما ستقوله لي.. ولكن لماذا ورطت نفسك؟ وما هي حاجتك مع الأكراد يا حبيبي؟

- سواءً أكانوا أكراداً أم غير أكراد، فأننا كنا خلال السنوات العشر الأخيرة كلها منتظرين

بانه لابد من حدوث شيء مجهول ما، فجأةً أو حصول معجزة من نوع خارق فيتغير كل شيء. ولكن المعجزة لم تحدث، ولم يطرأ أي حادث.

- هل من الممكن ان شيئاً قد حدث؟ - تكلم جمال وقلص كتفيه.

- لا أعرف. الا ان من المحتم ان يبدأ شيء ما من جديد.

- ليكن ذلك. ليكن ذلك. ولكنني فارسي. وبالنسبة لي فان الاكراد كلهم حَيثما كانوا هم سوط وعقاب. وعلهم يحصلوا على كل شيء، وعلى كل ما يريدون، ولكني أحلفك بالله يجب عليك الابتعاد عنهم.

- لاترهق نفسك بالقلق، فسوف اكون حذراً.

- أنت تتكلم بعبارات ترويضية - اعترض عليه جمال بانفعال وقال - نعم، فانت تملك الى جانب ذلك التبعية الانكليزية. ولكنك تفزعني بعزمك الفطري هذا.

- ليتك يا جمال تقيلني من العمل - قال ماك غريغور ذلك مع ابتسامة.

- انا لن اسمح لك بالاستقالة من العمل. فانت عندك اجازة لمدة ستة شهور. ونحن مدينون لك بها. اما كيف ستقضي هذه الاجازة، فهذا ليس من شأني، اذ هو شأن خاص بك.

- ولكن هذا حل غير مقبول - حذره ماك غريغور واضاف - ينبغي عليك تسريحي من العمال. وارى نفسي كما لو اني قدمت لك جميع الاسباب التي تبرر ذلك.

- كلا، كلا. ارفض ذلك انا رفضاً قاطعاً. ويجب علينا أن نأخذ رأي كيتي بنظر الاعتبار ونعرف اي موقف عندها بالنسبة الى هذا كله.

- موقفها موقف رافض.

- شكراً لله. وانها محقة. فان مثل هذا التصرف الذي تتصرفه انت يؤذيها مثلما يؤذيني، فضلاً عن أنني أعرف انها سوف لاتوافق مطلقاً. ومع ذلك فلن اسمح لك بما يدعك تستقيل. فان مكانك هنا، معي. وان أولئك قد خدعونا على مدى سنين عديدة وضللونا وتجاهلونا وعبثوا بنا، الا انه سينعقد في هذا العام مؤتمر كبير حول مصادر البترول. وبحسب توقعاتي فأننا سنحظى في نهاية المطاف بشغل المكان الذي نستحقه.

- ان كيتي تريد مني مغادرة ايران نهائياً.

- لا، لا... ان هذا مجرد كلام تفضي به. وانا سأتكلم معها. كما انك ليس في امكانك مغادرتنا في الوقت الراهن، اي بنفس هذا الوقت الذي اخذوا فيه يكيلون الينا المديح

ويعترفون بنا. كما اننا ليس لدينا الآن من شيء بانتظارك. وانا واثق من كلامي. ولكن قل لي ماذا ستعمل انت بمكان آخر.

– لا أعرف، فضلاً عن كوني لا أعرف شخصياً حتى ماذا سيحصل لي من هذه الرحلة الى أوروبا.

– اذن، لا حاجة أخرى أكثر من ذلك للكلام عن هذا الموضوع. سافر. وخذ اجازة، وليكن بعد ذلك ما يكن. ومن بعد ذلك عد الينا. زد على ذلك ان من الواجب عليك التزام الحذر الشديد. فانا أعرف معرفة جيدة الديدن الكردي.

واراد ماك غريغور الكلام عن شيء ما. وتهيأ له ما يريد قوله. الا ان جمال استبقه وهو يدير خاتماً ياقوتياً حول اصبعه الخنصر وقال:

– ارجو منك التوقف عن ايضاح اي شيء. فانت غير مضطر لعمل متسرع. ارجو منك ذلك. وعلينا أن نترك كل شيء على ما هو عليه – ومن ثم طوح جمال يديه بحركة حماسية قاطعاً بهما الهواء.

– حسناً – قال ماك غريغور ونهض من مكانه.

وقام جمال بوداعه سريعاً حتى الباب، لغرض الحيلولة دون قول أو تقرير اي شيء. لكنه سأله أثناء الوداع:

– متى سيكون موعد سفرك؟

– سوف لا ارجئ ذلك.

لوح جمال باصابعه المتشحمة، وتغطت عيناه السوداء برموشه وقال: ليكن كذلك. ليكن كذلك. سأتلافى كل شيء» – وبعد ذلك اغلق الباب من وراء ماك غريغور.

رجع ماك غريغور الى مكتبه، حيث كانت هناك كيتي بانتظاره للعودة معه الى البيت. وأغلق في المكتب الخزانة الالمانية الجديدة على ما فيها من وثائق ومستندات، وأدخل خريطة بعدها على شكل انبوب، داخل اسطوانة بلاستيكية طويلة سوداء مخصصة لها، واغلق الانوار وأقفل الباب بالمفتاح وأجتاز الممرات وراء كيتي نحو باب الخروج، ثم الى موقف السيارات.

كان النهار وقت العصر بطهران، وهو ساعة الازدحام. وقادت كيتي السيارة ضمن سيل سيارات النقل. ونظر ماك غريغور الى روث الخيل اليابس المسحوق الذي يتحرك كالغبار تحرك الثلج في الريح، مشكلاً دوامات على الطريق. ومن حين لآخر تقوم سيارة تكسي «طراز

بيجو » تستدير امامهم من خط سير مزدحم لتقع بخوانق ازدحام أخرى غيرها. (ويصف الفرس هذه السيارات بانها «راضعات الوقت»).

- كم أكره سائقي التكسي هؤلاء مع هذه الحركات الخرقاء التي يقدمون بها - تكلمت كيتي بانزعاج. ثم سألت زوجها ماذا كان قد قال لجمال.

- أخبرته انني سأسافر، ومن ثم تبارينا في حلبة السياسة. ولكنني لم أكذب عليه، هكذا أسرع ماك غريغور بالاجابة.

- ولكن هل قلت انت له شيئاً ما؟

- القليل جداً. وهو قد خمن الباقي.

واستدارت سيارة أخرى من سيارات التكسي امام انف سيارة كيتي مباشرة فتهيجت قائلة:

- هل كنت انت شخصياً تتوقع ان تقتل اثنين من الاتراك؟ - وبنفس هذه اللحظة شهقت كيتي بانفاسها بضجيج وقالت - آه، اللعنة على الشيطان! لقد فلتت هذه من لساني. أعذرني.

لاذ ماك غريغور بالصمت.

وضغطت كيتي على بوق السيارة. وقالت لزوجها.

- لاتقضم الأسنان، ولاتعتصم بالصمت، رغم ان لساني أفلت هذه الحماقة. حدثني انت عما قال لك جمال على العموم.

- انه لم يقل شيئاً مخصوصاً. الا انه يعرف خبر ذلكما التركيين. فقد وصل اليه استفسار من الاستخبارات العسكرية أو السياسية، وقد أقترحت عليه ان استقيل من العمل. ولكنه لم يقبل بذلك، بل ولم يقبل بسماع الطلب.

- انه اقتراح لبيب. وليس هناك قول أفضل منه.

قادت كيتي السيارة بسيطرة كاملة وبتركيز. الا انها صفقت بيديها على سكان السيارة عند اضواء اشارة المرور التالية بصبر نافد وقالت:

- ليس في اليد من حيلة. سنضطر. كما يبدو، الى التعايش مع هذا الواقع - ثم افردت يديها نحو السماء مناجيه بقولها - يا الهي! ان الاكراد في أوروبا!

- الأكراد ليسوا في أوروبا، بل ان أموالهم هناك - صحح ماك غريغور لها الكلام على قدر ما استطاع بنوع من لطف الحديث.

- ولكن العنف يتابع الأثر وراء النقود - تكلمت هي بلهجة حزينة وقالت - هيا قل لي كيف تستعد انت للبحث عن هذه النقود ؟

- لا أعرف.

- هل تريد أن أتحمل هذه المسؤولية على عاتقي؟

- كلا، لا اريد ذلك.

وحركت كيتي السيارة وسط الزحام ثلاث خطوات الى الأمام وقالت:

- انت ستبقى تواصل أعمالك بطريقة غير صحيحة. فأنت ستذهب مكشوفاً بريئاً نظيفاً مثل حمل الغنم تحت السكين. فاذا كنت قادراً على ابداء نظر ثاقب، فدعني استخدم جميع قنوات الوسائل التي بيدنا. وأقصد بذلك اقرباءنا...

- كلا - قطع عليها الكلام. ولكنها استأنفت القول:

- ... سنستخدم اصدقاءَنا بكل ما عندهم من نفوذ. فأنت بهذا التواضع لن تتوصل الا الى القليل مما تريد.

- انا اريد التوصل الى ذلك بنفسي، وبحسب طريقتي.

- لا بأس - قالت كيتي واضافت - تفضل وتصرف كما تشاء، شرط ان تنتزع نفسك فقط وتخرج من هنا.

وبعد ذلك لم ينطق باي كلام آخر، رغبة منه في ان لاتعرقل كيتي تنفيذ قراراته التي اتخذها، بسخريتها الانكليزية الاستخفافية غير المتعمدة. وأحب هو لو يتفرج ثانية، ولو لآخر مرة عندما يعود بكل مرة هكذا من العمل، كانت قمم جبال البيروس الجرداء تبدء بنظره كأنما تنزلق هي نحوه عبر دخان غبار المساء، وتكون في هذه الحالة منهية النهار ومبددة عتمة شوارع المدينة باضوائها الباهتة. وفي بعض الأحيان تقدح بذهنه فكرة مؤلمة حول ان مصيره مقرر حتماً ان يموت هناك في الجبال البنفسجية ولكنه ما كان واثقاً من ذلك ثقة تصل الى درجة الايمان.

وقطعت الطريق على كيتي سيارة «ميرسيديس» كبيرة، اذ استدارت امام انف سيارتها مثلما تفعل سيارات التكسي. وتوقفت كيتي وقالت:

- يا الهي. ان الجميع، نعم ان الجميع هوج في السواقه. كم سأكون سعيدة عندما سأفارق هذه البلبلة المجنونة الشرقية الفوضوية.



القسم الثاني

الفصل الحادي عشر

تركت كيتي منذ سفرتها الأخيرة الى أوروپا السكن في اي بيت من بيوت عائلتها في تشيلسي وبيلغريغي او في هولاند بار، اذ ابتاعت بيتاً من ثلاثة طوابق على شكل فيللا يحيط به سور ويقع في بيتيرسي. وقامت بتنظيف هذا البيت واعادت اليه التدفئة المركزية والخدمات الأخرى. وجددت الاثاث واعدته مثلما تعد دجاجة عشاً لفراخها. وعرف ماك غريغور ماذا تنوي كيتي من وراء ذلك. فانها بهذه الوسيلة للانفراد عن عائلتها قد تجاوزت نفور زوجها من ثرائها. وقالت لماك غريغور:

- خذ بنظر الاعتبار وتذكر: ان لاتقوم حتى بخطوة واحدة بأوحال السياسة، اذ هناك بانتظارك اللصوص مع حرابهم، فضلاً عن الأكراد. وعندما سندخل أوروپا سندخلها من بوابة الاستقبال، وليس من باب جانبي. واعتمد علي بهدوء يا عزيزي. وأرجوك ضع حد نهائي للتشاجر ما بيننا.

- انا هادئ تمام الهدوء - قال ذلك بدون إبداء نوع خاص من الثقة، بينما استعد للجلوس في المكتب المخصص له، متظاهراً بالانشراح في هذا البيت، وبعدم اظهار الضجر الذي يثقل على صدره من جراء الشوارع السوداء والجو المبلد بالغيوم.

- ليس عليك سوى الانتظار حتى المباشرة بتحريك القضية - قالت كيتي بلهجة متوسلة واضافت - يجب عليك ان تنتظر قبل الاندفاع في الدرب لاتلوي على شيء.

- ولكن يا كيتي لايمكنني الانتظار طويلاً. فما هي فائدة الانتظار؟

- انت تعرف ان من غير المناسب، ان تسير وتسأل ببساطة، اين النقود.

ان هذه القضية لاتعالج بهذه الصورة. دعني أخلق لحضورنا هنا وفي باريس نوعاً من الثقة، والا فستكون انت في موقف خاسر غير مفيد، منذ أول الطريق، وسوف لاتجد أحداً مستعداً لأن يقول لك اي شيء ويعير اليك اي انتباه.

- انا لا أريد ان يكون لك ضلع مشاركة في هذه القضية.

- ما اريده انا هو شيء واحد فقط. اي مساعدتك في التحرر من هذا الالتزام بسرعة. وفي هذا تتلخص مشاركتي كلها.

- حسناً دعي الأمور تسير بحسب رأيك - قال ماك غريغور، مع علمه انه صار في موقف غير ذي جدوى منذ اول الطريق. فقد انبغى عليه التكيف مع صياح وسطها الانكليزي. ففي هذا المكان لا وجو للجبال الجرداء والفقر المدقع، ولا للبيوت الطينية التي هي على هيئة مدن، كما لاتوجد هنا دعائم الاسناد المألوفة...

وجه أحد ابناء عمومة كيتي سؤالاً اليها. وهو موظف حكومي وكان يرتدي قميصاً مخططاً:

- ماذا يدور برأس زوجك؟ وانا لا اشعر بالارتياح منه بسبب اعتصامه بالصمت ونظراته القاسية. فبماذا هو يفكر. ويبدو لي انه من الخطرين.

- هذا غير مستبعد - تكلمت كيتي بنوع من المزاح لأنها لاتعرف بماذا ستجيب وأضافت - كلا، فانك ببساطة لاتفهمه.

- تعال وأفهم هذا القادم من التيبت - قال ابن عمها.

هذا صحيح في الواقع، فان كيتي تعرف ان ماك غريغور هو بالنسبة لهم شخص غريب هنا. وانها قد عرفت بفراستها ذلك، فضلاً عن انها كانت قد اصطحبته في عطلات نهاية الاسبوع الى الفيللات البيضاء في هامبشير والفيللات من الطابوق الأحمر في غلوستير شير، والى القلاع المشتراة بعقود التمليك، وفق التقاليد القديمة. وفي الأخير حلوا على والدتها التي تعيش في بيت العائلة الذي يقع في ركن من ساحة بيلغريف سكوير، وسط ثلاث غرف كبيرة جداً غاصة بالأشياء القديمة. وفي خلال الأيام المخصصة للأعمال الخيرية يقوم خدم القصر والمقيمة الاسترالية معها بدفعها على كرسي المعاقين المتحرك، ويتركونها لمدة نصف ساعة صامتين بدون اي صوت فوق ارضية من الخشب الفاخر تبيع زهور الخشخاش المبارك أو الورد المخملي أو قارباً صغيراً من الكارتون للانقاذ مع دبوس لاتكاد تمسكه بقوة الا بصعوبة باصابعها، وتثبته في طية سترة المتبرع. وهي قد صارت صماء عمياء تقريباً. ولم تتعرف على كيتي الا بصعوبة، ليس من جراء ضعف البصر أو السمع بقدر ما هو من جراء قدرات غشاء المخ التي وهبت لها فرايا عقلية وبدنية متأصلة وطويلة جداً. وقالت كيتي لماك غريغور:

- ان هذه هي تلك القوة الارستقراطية الكامنة بها التي انت تنتقدها.

لكن ماك غريغور لم يعتبر ذلك لوماً على انتقاصه من السيدة العجوز، بل بالعكس، فانه في واحدة من اللحظات المدهشة قد تغلغل الى ما تحت قشرة اللامبالاة التي لديها. ففي هذا اليوم الربيعي البارد كان ماك غريغور يرتدي معطفاً مزدوج البطانة وحذاءً جديداً رائعاً وقميصاً ازرق اللون. ووقف بهذه الهيئة امام حماته في الغرفة - القاعة ذات الالوان الباهتة من الدار العريقة الثرية. وابتسمت هي اليه وقالت:

- قل لي، هل وضعت كيتي قبعة الرأس؟

ولكن ماك غريغور لم يفهم القصد من كلامها، حيث ان كيتي لاتحب ابداً ارتداء قبعة الرأس.

اذن، فان من المؤكد ان الكلام قد دار عن كيتي ايام سنوات المدرسة القديمة. ولجهله بماذا يرد عليها بصوت مرتفع، فقد تناول يدها من مرفقها الذي مايزال طرياً بشكل لايدرك سره، واسنده بيده على طريقة الاحترام الشرقية. وعندما دخلت كيتي عليهما نظرت نظرة اندهاش الى هذا المشهد المسرحي وصاحت باذن والدتها المترهلة:

- اننا ذاهبون. ولاتنسي ان تنظفي الكلب.

وانحنت كيتي على كلب الصيد الاسكتلندي الهرم شبه الحي كصاحبته الذي نسل شعره، بحيث انبغى كثير من الصبر لكيتي كي ترفعه من فوق الأرض. وبعدما وضعته كنفاية قذرة بحضن والدتها (كأنقاذ علاجي متبادل) قالت لزوجها:

- هيا بنا قبل ان يخلف هذا الكلب التعس كوارث لها على الفستان.

خرج ماك غريغور مسرعاً على أثر زوجته تاركاً أولئك الاثنين الواهنين بانتظار المزاد بهذا المستودع الخالي من الحياة والتواري بين أشيائه العتيقة التي ستباح هنا بنفس المكان.

ان زيارة ماك غريغور للحماة تركت عليه اثراً كئيباً، بحيث انه ما ان حل عليه صباح اليوم التالي حتى استقل قطاراً وسافر الى أكسفور نحو ولده اندريه. وكان ماك غريغور يستريح لمصاحبة ولده ويستحسنها، اذ ان اندريه فتىً صافي الذهن، هادئ الاعصاب، وعلى درجة من الثقة بنفسه، بحيث من المستحيل على اي شيء ان يخرجه عن طوره. وبحسب رأي والدته كيتي به، فانه كثير الثقة بنفسه لدرجة تفوق الحدود، وهادىء بشكل استثنائي، ومسيطر على نفسه سيطرة لا حدود لها. وهو الآن في التاسعة عشرة من عمره، ويبدو موهوباً موهبة عالية، بحيث انه لايخشى عليه من ان لايجد له مكاناً مناسباً في المستقبل أو يفزع من ضياع الفرص. وهو يعرف نفسه انه قادر على اداء اي عمل يعهد اليه. اي انه غير متكبر،

ولايستغرق كثيراً في التفكير بفضل مواهبه. ورأى ماك غريغور في اليوم التالي لوصوله الى انكلترا، عندما كان يجتاز مع ولده طريق بيتريس (البرج الصاخب)، شخصاً نحيلاً كان يرتدي ملابس انيقة، ولكنها رثة سوداء اللون تماماً. وسار هذا الشخص منفرداً على حافة الرصيف، رافعاً قبضته وكأنها شارة نصر. فقال اندريه لوالده:

- هذا هو الفوضوي آرنو.

- لكنه لماذا يرفع قبضته؟

- ارنو يمارس المشي في مسيرة النصر - اوضح اندرية لوالده.

كانت عيون ارنو مشرقة تعبر عن الفرح. ولاحت على وجهه سمات الرصانة والتباهي الخجول. وكان واضحاً على وجهه انه ليس لايسير بحسب وجهة نظره في موكب احتفالي استعراضي جبار فحسب، بل ويرى صفوف اتباعه تسير من حوله. واما الذين على الرصيف فانهم الشعب السعيد الذي نال الآن حريته. ويجيب آرنو على نداوات التحايا والتصفيق برفع قبضة يده ليحييهم بارتباك.

- يا آونو، - ناداه اندريه.

تأرجح آرنو لحظة واحدة فقط. ومن ثم خرج من بين الصفوف التي يتصورها مجتازاً صفوف المشاركين في الاستعراض الذي في خياله، وصافح بحرارة وتواضع يد صديق يقف على الرصيف. يا له من يوم. وما اروعه من يوم عظيم. وسأله اندريه مثلما يسألون عن جرح بطريق الشفاء:

- أخبرني يا آرنو هل أنت الآن أفضل من ذي قبل؟

- كل شيء جيد وحسبما يرام - اجابه آرنو ضاغطا كفه على جنبه. الا انه كان واضحاً عليه، على ما يبدو، عدم التسرع للعودة الى صفوف المسيرة. وصافح يد ماك غريغور مصافحة ودية وكأنه يقدم له التهاني، ومن ثم طوى ذراعه على كتفي اندريه، وسار الثلاثة في وسط الطريق وكأنهم يتوارون بين صفوف المقاتلين في السير. بعد ذلك عاد آرنو الى صف مقاتليه الثوريين سائراً بخطوات مارش فوق الجرائد الممزقة وبطاقات نقل الركاب في الباصات، وأغلفه حلوى الشوكولاتة الملقاة على أسفلت الطريق. كما أن الأب وابنه قد سايراه بعض الوقت خطوة بخطوة. اما من بعد ذلك فان اندرية رأى ان الخروج من الصفوف الموهومة سوف لايكون خالياً من اللباقة، فرفع يده ملوحاً بالوداع، وتوقف مع والده فوق الرصيف ينظران في أثر آرنو الى حين اختفاء اثره وراء منعطف الطريق. وقال اندرية لوالده:

- لقد أخذت آرنو في يوم عيد الميلاد لمشاركتنا حفلة غدائنا. ومن بعد ذلك قطعنا طريق كليب كله سيرا على الاقدام وسط ثلوج تكاد تصل الى الركبتين. ولكنه ليس باستطاعة اي شيء ان يعزله عن تصوراته هذه. وهو لايتصنع اي واحد من الأبالسة. وكلامه صحيح كله ومدعوم بالحجج. واذا كانت هذه أحلاماً، فان هذا العجوز آرنو قد غاص فيها سعيداً حتى سقف جمجمته.

اتسمت ميول اندرية برحابة الآفاق في بعض المناسبات. وقام ماك غريغور بالاستقصاء عنه في أكسفورد ليس في مكان السكن فحسب بل وفي ندوات الدومنيونات، فقد كان اندريه منهمكاً بتنضيد أكياس البلاستيك مع الدم الدافئ الطازج المخصص لجبهة التحرير الوطني في فيتنام الجنوبية، وكان يناوله هذه الأكياس راهب شاب ضخم الجثة يضع طاقية منسوجة على رأسه ونعلاً بقدميه.

- هذا هو الأب جوزيف. وهذا والدي - عرفها اندريه على بعضهما البعض. ولاحظ ماك غريغور نظرة الراهب نحوه انها نظرة مستفسرة مستلطفة، كأنه يقول له بها: انه لشيء طريف التعارف على والد مثل هذا الولد». لكن الراهب قال:

- عندنا هنا كثير من الصخب.

كانت البناية خاصة بالاطباء والممرضات والمتبرعين بالدم من الكلاب. فان هؤلاء قد رقدوا على سرر متنقلة وعلى المناضد والدماء تتدفق منهم سيلاً من القطرات الى أكياس بلاستيكية موضوعة فوق بطانيات. وقال الأب جوزيف:

ـ آمل منك أن لا يقبض نفسك منظر الدم؟

- لايزعجني الدم المعلب - قال ماك غريغور.

ومن ثم قام هو بمساعدتهم في وضع أكياس مليئة بالدم في ثلاجة بمطبخ واسع، كان فيه رهبان آخرون يطبخون حساء الخضروات وعصير التفاح بقدر كبير. وقال لوالده:

- آه، هنا عندكم يطبخون التفاح.

- هكذا دائماً في كل يوم أحد - رد عليه الأب جوزيف.

ومن جراء رائحة التفاح المعطر الحلو الممتزجة بالدم والبلاستيك والحساء، بدأ ماك غريغور يشعر بالغثيان. وفي هذه اللحظة استسمحهم اندريه للخروج مع والده لمدة ساعة واحدة.

وخرج معه. ومن بعدها تركا سانت جيمس وجدا نفسيهما باحضان بياليول. وسأل ماك غريغور ولده عند جماعة الرهبان وكيف انضم اليهم. ورد عليه اندريه:

- أنا معجب بهم. وأرى ان تربة أكسفور غير صالحة للاخلاق الرفيعة، إلا ان تصرفات هؤلاء الدومينيكيين لاتختلف كثيرا في أقصى الحالات عن مواعظهم.

- هل أنت تعني بذلك التبرع بالدم من المتبرعين لأجل فيتنام؟

- وما الضير في ذلك؟ ومن ذا الذي أعطى هذا المبنى هنا بهذه المدينة للذين يجمعون الدم من أجل جبهة التحرير الوطني الفيتنامية؟ وما ان تتجول لمدة نصف ساعة عندهم في الدير حتى تنسى ان أكسفورد كلها هي مجرد مشتل للمؤمنين المتشددين الجامدين.

- هكذا صرت أنت! وعن اي نوع من الجمود تتحدث؟

- عن اي نوع منها تريد. سواءً أكان سياسياً أم أخلاقياً أم دينياً. ان للجمود مساساً بكل جانب من هذه الجوانب. وليس عندنا هنا مجال لنمو الهرطقة.

- لقد تصورت أنك انتسبت الى بياليول لأنه مشهور بعدم الايمان.

- هكذا كان ظني به - اوضح اندريه مازحاً بضحكة وقال - لكن النكتة تتلخص في ان الهرطقة التي يحاضرون بها في بياليول انما تهدف بالذات الى تعميق الايمان لديك. أنهم يعلمونك ان تكون أكثر مهارة في التبشير بالعقيدة الارثوكسية.

بعد ذلك أجتازا اروقة مكتبة يوحنا للشرق الأوسط وشملا بنظرهما اطواق الدير والكنيسة الحجرية التي حال لونها الى السواد، فتذكر ماك غريغور عندما كان في كمبرج، كيف شعر بانه لربما سيرقد في ضريح من هذه الجدران الآجرية الكثيرة العدد أو الاروقة ذات الأطواق والنوافذ الغوطية والنواقيس المسائية. ثم قال لولده:

- خذ أنت بنظر الاعتبار ان تأخذ هنا ذلك الذي انت بحاجة اليه، اما الباقي فاتركه.

- ان هذا لايمكنني القيام به فهو لاينسجم معي، فضلاً عن أني لا افكر بدراسة السياسة، بنفس ما ينبغي لدراسة اللاهوت مثلاً أو الطب. اما هنا فأنهم يمارسون هذا بالذات، اي انهم يمارسون اعداد الطموحين وذوي القدرات المتنوعة.

- لاتتسرع في اصدار الاحكام - حذره ماك غريغور، رغم انه يعرف عدم جدوى التحذير وذلك لأن اندريه حصيف التفكير، ولايسمح لنفسه باعطاء تقدير متسرع.

بعد ذلك توقف كلاهما عن جدران كلية تحت أطواق لودية، فأحس ماك غريغور كيف ان حجارة مجموعة الاطواق الغوطية صارت تنطبق بتجهمها على رأسه وتخنقه. وقال اندريه بعد خروجهما من تحت الطوق:

- اذا اردت استحصال ما هو ثمين من هنا، فعليك الايمان باكسفورد. ولكن هذا يبدو بالنسبة لي صعباً تماماً. وعلى العموم فان هذا من المستحيل.

- ورغم ذلك فأنت منتسب الى هنا - قال ابوه ذلك، ولكن من دون قناعة.

اما بصدد الأب جوزيف، فانه يستلقي الآن بدير الدومنيكيين فوق سرير متنقل، بهيج المنظر ببطنه البارز الفتي، بينما الدم يتدفق من يده الى كيس من البلاستيك فوقه رسم لخريطة استراليا. وهذا الدم سيجري في عروق من أحرقتم قنابل النابالم من الأطفال والنساء المشوهات الذين سقطوا في القرى الفيتنامية غير النظيفة، حيث تقوم الطائرات العمودية «ذو القبعات الخضراء» ومشاة البحر الامريكان بممارسة نصيبهم المسيحي من المساهمة في حياة شعب غريب آخر.

الفصل الثاني عشر

في اليوم التالي، وهو الثاني من ابريل / نيسان وكان يوماً دافئاً، أجتاز ماك غريغور مع كيتي، المانش من انكلترا الى باريس، لزيارة العمة جوس، التي هي عمة كيتي من جهة والدتها. وقبل نصف سنة ابقت كيتي عندها ابنتها سيسي. وعندما استأجرا سيارة تكسي لتنقلهما من محطة الشمال للسكك الحديد نحو الضفة اليسرى من نهر السين، الحت كيتي على زوجها من جديد:

- دعني انا اتصرف من خلال اصدقائي القدامى، وينبغي ان ننقر على الباب الخلفي كالملتمسين ولاتقرع على الباب قرعا.

- ستطول الاجراءات أكثر مما ينبغي. ثم الى متى سأجلس هكذا مسبل اليدين؟

كان الهواء في السيارة خانقاً. وقالت كيتي لزوجها بعدما تناولت مرفقه:

- انني نافذة الصبر أيضاً وأكثر منك للتخلص من هذه القضية. ولكن التسرع لا يثمر من شيء. التزم أنت بالصبر بعض الوقت.

كانت العمة جوس تسكن في المنطقة السابعة بزقاق خلفي هادئ يدعى باربي -دي- جوي. والفيللا العائدة لها (ليست فندقاً شخصياً) تقع خلف جدران عالية وبوابة شامخة على طراز الأديرة. وقد عاشت العمة جوس في هذه الفيللا اربعين سنة. بل وعاشت فيها حتى في ايام الاحتلال، اي انها عاشت في هذا «البيت الباريسي» الذي هو واحد من صف طويل عن البيوت التي يقوم على حراستها مجلس للعوائل مكون من سكان المدن والضواحي في ايطاليا وسويسرا وبرمودا وفي بير وفنزويلا. وهؤلاء يتبادلون الزيارات واحداً للآخر بصفتهم اعضاء يملكون صفة الانتساب. وان البيت الباريسي كان الأقرب نسبياً للبيت اللندني في بيلغريف سكوير.

وخلف الاسوار العالية لبيت العمة جوس تقف بقايا باريسية جميلة غير كبيرة هي من بقايا

زمن ما قبل الحقبة العثمانية، ومن بينها ثلاث فيللات باريسية فقط ماتزال كاملة على حالها في المنطقة السابعة بقلب الأديرة والمستشاريات والمصارف بمبانيها الزجاجية. وامضى الخادم هنا اياماً جالساً على كرسي وسخ متداعٍ امام عتبة الكراج السابق المخصص للعربة، حيث تقف الآن بدلاً منها سيارة «ميرسيدس». وباحة البيت مرتفعة الرطوبة دائماً وهي مرصوفة بالحصى الناعم. والسلم الحجري الخارجي متجه الى فوق بالتواءات رومانسية نحو الابواب الرئيسية.وقد فتحها لهما مارين العجوز القروية البريطانية البدنية التي تتجلبت بالسواد. وبعدما ولجوا في القاعة صاحت كيتي:

- يا عمتي جوس.

- أهذه أنت يا سيسي، يا روحي؟

- كلا، هذه انا - كيتي.

كان صوت جوس غير ذي رنين، اذ كان يصل اليهما عبر الجدران والابواب من خلال لوحات الصور. فهي قد عاشت بغرفة غير كبيرة تقع خلف السلم، ومن هناك تشرف على البيت كله بحضورها غير المرئي،

ومن هناك تسأل بصوت عالٍ انواع الاسئلة: «هل انت هنا؟»، «أهذا أنت؟» «هل أنت تخرج؟» و«هل هناك مطر في الطريق؟» اما مركز الاستقبال بهذا البيت فهي القاعة المبلطة ارضيتها بخشب الجوز المقطع. ومن بعد مرور ساعة على ذلك جاءت سيسي قارعة الباب الرئيسي، وبينما هي تقبل والدها صاحت بوسط القاعة صيحة غير موجهة لأحد:

- لقد اشتريت انا اليوم حالاً سيارة «ستروين» قديمة بمناسبة عيد ميلادي. وسأضعها في الكراج الخاص بالعربة.

- توقفي واتركيها يا روحي يا سيسي...

اثر صوت العمة على الفتاة الصغيرة سيسي...

- هذه الكنية تليق لك - همس ماك غريغور لابنته، وتمنى لها الفوز بما يليق بها ولو انه غير واثق مما قال.

سحبت سيسي والدها بسرعة الى باحة البيت القديم المفروشة بالحصى الناعم، لكي تريه سيارتها السوداء القديمة، ومن ثم قالت له هناك:

- انا هنا بحياة رائعة. والعمة جوس رائعة. فهي لاتسألني عن اي شيء، مهما كان العمل

الذي أقوم به. وأشعر بالرغبة تحثني على الاعلان عن هذا بصوت عالٍ في القاعة.

أثارت هذه الكلمة قلق ماك غريغور كثيراً. فهو في كل مرة عندما يلتقي فيها مع سيسي لوقت قصير جداً، فان نظرته اليها يخالطها الفزع برهة من الوقت. انه فزع ناجم عن خوفه على سيسي. فهي كانت ممشوقة القوام نحيلة الجسم وذات كاحلين هزيلين ومرفقين رفيعين واصابع لاتتعب من الحركة الدائبة. وفي بعض الأحيان تطوي أصبعها الأبهام الخامس الرفيع على الاصابع الأربعة الباقية عندما تطويها بشدة في لحظات الغضب على شكل قبضة.

وفي بعض الأحيان يحصل لها ما يجعلها مقسومة الى نصفين. وان ما ينبئ عن ذلك عيونها الحنون ويداها وساقاها الهزيلة وشعرها المسرح الناعم. ولكنها عندما استدعت مارين ليفتح لها البوابة فقد انصاع لطلبها وتحرك مسرعاً لفتحها. وهي عندما قادت سيارتها القديمة عبر البوابة (كانت ساقاها ودراعاها مثل عتلات السيارة) فان السيارة قد تجاوبت معها تمام الاستجابة. وحشرت سيسي بمقدرة واضحة سيارتها (ستروين) في تيار سير السيارات المتحركة عند متنزه المعاقين وسط ضغوط الحركة بباريس من الفوضى والسرعة دون الالتفات لهزال يديها وساقيها ويعينيها اللتين تشبهان عيون الأيل ولأصابعها المتفحصة. وعند ذاك قال ماك غريغور: «ان سيسي أقوى منا جميعاً. وان ما يعطيها السيطرة على زمام القيادة الحقيقي عند الملمات هي قوة الارادة وحماسة الشباب فقط» ومن ثم اتكأ على ظهر المقعد ناظراً الى باريس تدور من حوله وشاعراً انه هنا أكثر هدوءاً وتحرراً مما في لندن.

ولكنه بعدما انتابته عدوى السرعة الباريسية عرف ان الوقت قد حان ليتحرك في البحث عن النقود، دون ارجاء التحرك ولو لأقصر مدة، وان يقوم بمحاولة ولو مستقلة من جانبه.

- تفضل انت - قالت له كيتي بانفعال وطوت كتفيها علامة على التعب، ولم تعد تمانعه في ان يبدأ مهمته.

شعر ماك غريغور انه مثل طفل سمحوا له ان يكوي اصابعه بنفسه لكي يكون أعمق يقيناً. وهو بهذا الشعور الحيوي غير العالي ذهب بصورة خاصة الى شوارع البنوك الآن في زيوريخ حيث كان أثر النقود قد أختفى هناك.

ومن بعد ما حجز غرفة هناك باحد الفنادق في الحي القديم من المدينة أجتاز الليمات وتوجه مع اوراق التخويل في جيبه الى البنك التجاري. وهناك عند منصة زجاجية غير كبيرة قال انه يريد رؤية السير غيوتس (وهذا الاسم تسلمه هو من ابوبكر).

- ولكن ما هو الموضوع؟ - سألته فتاة موجودة خلف المنصة.

- الموضوع ذو صلة حول تحويل مبلغ كبير من المال - قال ماك غريغور.

جلس سير غيوتس بمكتبه وراء منضدة زجاجية حديدية ذات جرارات تتحرك بانتظام بواسطة منظم في سقفها. وهنا ابرز ماك غريغور وثيقة التحويل الكردي باسمه امام هذا الشخص. وقرأ السير غيوتس نص التحويل المعقد المكتوب باللغة اللبنانية الفرنسية، ثم وضع وثيقة التحويل فوق المنضدة وغطاها بحركة عصبية تحت راحة يده مثل من يخشى عليها ان يطوح بها تيار هواء.

- ولكنك لست كردياً، كما أرى يا مستر ماك غريغور - قال غوتس.

- انا مخول من قبل اللجنة الكردية ذات العلاقة بالقضية معكم.

- هذا مفهوم، ولكن ماذا تريد منا أنت بالذات لنقدمه لك؟ - تكلم غوتس ونقر باصابعه فوق ورقة الوثيقة بخفة واضاف - فمثل هذا مذكور هنا.

- اريد أن أعرف اين يوجد مكان هذه النقود يا سيد غوتس.

أعاد غوتس قراءة ورقة التحويل بهدف اطالة الوقت بوضوح ليهيء الجواب وقال:

- لا أستطيع ان أخبرك باي شيء على وجه الدقة - نطق غيوتس بهذا الجواب في الأخير.

- لماذا؟

- لأنني لا أعرف من أنت بالذات ومن تكون، على الرغم من هذه الرسالة.

قدم ماك غريغور جواز سفره. الا ان غيوتس رفع كلتا يديه كأنما يلوح بهما وقال:

- ليس هذا هو ما أقصده، فانا اريد القول انني لا أعرف بالذات بأسم من أنت تتحدث.

- ولكن لكل شيء واضح في نص الرسالة - اعترض عليه غيوتس، وضغط على زر رمادي ناتئ، وتكلم باللغة الالمانية طالباً ارسال خيوخست اليه.

دخل شخصان وجلسا قرب الباب. وشعر ماك غريغور انه صار محتجزاً داخل هذه الجدران الأربعة التي لاينفذ الصوت عبرها. ونهض السيد غيوتس معتذراً وخطف معه التحويل بهيئة من هو يسرع لعرضها على من يجب عرضها عليه. والتزم ذلكما الشخصان بالصمت من وراء ظهر ماك غريغور الذي ظل واقفاً بحالة انتظار. وكان الجو ساخناً في المكتب، فخلع معطفه، فساعدته بذلك من خلفه يدان بهذه الخدمة.

- شكراً لكم.

لم يجبه أحد على شكره. وظل هو واقفاً يتفحص بعينيه دائرة هذا البنك في زيوريخ البعيدة

عن النواقص. فهو بكل مرة كان يصل فيها الى أوروبا من بلاد فارس كانت تثير أعجابه الدقة والسرعة في استكمال الخطوط وتحديدها وتزيينها. فان أوروبا كلها مبنية على أساس خطوط مستقيمة منتهى الاستقامة، في الوقت الذي ماتزال فيه البيوت والمداخل خلال شوارع ايران عبارة عن مقاهات من المباني الطينية التي لاترى النور. وهذا موجود حتى خلال مباني البنوك والفيللات ذات الهندسة المعمارية الجميلة وعمارات الاغنياء الزاهية.

- يا متر ماك غريغور...

عاد غيوتس. انه عاد ومعه موظف البنك السويسري الالماني بملابسه الانيقة.

وابتهج ماك غريغور ضمناً، لأن كيتي كانت قد اجبرته على مراجعة خياط ماهر بلندن ليخيط له بدلة جيد. فهو قد عرف الآن ان الاحترام الذي ابدوه الآن له باي مستوى كان، فانه جاء بفضل السترة الانكليزية التي يرتديها وليس بفضل شهادة التأييد الكردية. وقال غيوتس:

- هذا هو السيد ميولر سيشرح لك الموقف.

- من المؤسف أنه ليس لدينا ما نوضحه - تناول ميولر الكلام بلغة انكليزية سليمة وقال - ليس في مستطاعنا مساعدتك باي شيء يا مستر ماك غريغور.

- ولكنكم تعرفون مكان وجود هذه النقود.

- ليس عندي ما اضيفه على ما قلته لك - تكلم ميلور بشدة قاطعة كقطع السكين وقال - نحن غير مخولين باعطائك اي معلومات مهما كان شكلها.

- ومن هو المخول بذلك؟

- من الصعب علينا الكلام. كما اننا فضلاً عن ذلك لانتحمل المسؤولية.

ولكن من هو المسؤول ايها السيد غيوتس؟

لقد وقفوا بوسط المكتب، فوق بساط جميل بعيداً عن الكراسي، وانهم لم يدعوا ماك غريغور للجلوس. كما ان السيد ميولر لم يترك الرسالة من يده، ويؤرجح نفسه بنفس الوقت على كعبي رجليه، الأمر الذي يوحي انه مستعجل لانجاز قضية. وفي لحظة واحدة نسي ماك غريغور من منهما ميولر ومن هو هو غيوتس. وكرر ميلور القول:

- اننا لانستطيع عمل اي شيء. نأسف اشد الأسف. وليس عندي ما اضيفه الى ذلك.

سكت ماك غريغور، واستغرق بالتفكير ثم قال:

- لا بأس. - وارتدى معطفه، ومد يده لتناول التخويل. ولكن السيد ميولر هز رأسه وقال:

- أظن ان هذه الرسالة يجب ان تبقى عندنا.

- كلا - رد عليه ماك غريغور رافضاً ذلك بعنف.

- أخشى اننا سنكون مضطرين لذلك...

- هذا توكيل شخصي. وارجوكم أعادته لي.

- ارى انه ينبغي ابقاء الرسالة عندنا يا مستر ماك غريغور.

انتزع ماك غريغور الرسالة - التخويل من يد ميولر وقال بعدما شعر باحتقان وجهه بالدم:

- أنتَ مخطيء يا سيدي ميولر.

في هذه اللحظة وبينما هو يهم بالخروج أحس ان هؤلاء الاربعة الذين في الغرفة هم اعداء له كلهم. ورغم ذلك توجه بحزم نحو الباب. ومما أثار استغرابه ان الابواب لم تكن مغلقة. وخرج عبر الدهاليز الزجاجية الى شارع بانخوف شتراسا، ونزل من هناك الى الليمات، ثم توقف هناك من أجل تهدئة اعصابه المتوترة. فان ما اثر عليه كل التأثير ليس هذا الحادث، بل ادراكه ان هذا الحادث ما كان ينبغي له أن يحدث في البنك.

بعد ساعتين من ذلك اتضح الحجم الحقيقي لهذا الغلط عندما ظهر امامه في الفندق الكائن على شارع نهري تحت اجراس تقرع باصوات مثل ثغاء البقر المجلجل الألبيني، شخصان بملابس غير رسمية، وبعدما ابرزا له هويتي البوليس اللتين تحملان صورة صليب ابيض كبير بأعلى الهوية، وطلبا من ماك غريغور الذهاب معهما الى المستشارية التي تقع قريباً من هنا على الشارع النهري.

- كلا - قال ماك غريغور، وهو كان مايزال محتدم الغيظ وأضاف - لن اذهب معكما الى اي مكان.

- حسناً، حسناً. باي لغة تتكلم أنت اي مستر ماك غريغور. هل الفرنسية أم الالمانية - سأله واحد منهما.

- كلا - كذب ماك غريغور مدركاً ان من الأفضل له الالتزام بلغته الأم.

- اذن، اليس النزول الى مدير الادارة سيكون أكثر فائدة؟

- كلا، ليس ذلك مفيداً يا مسيو. ولست مستعداً للذهاب معكما الى اي مكان.

- في مثل هذه الحال، سنضطر الى التحادث هنا - تكلم رجل الشرطة بعدما هدأت لهجته.

- تفضلوا.

- نرجو منك الجلوس.

- أجلسوا ان كنتم راغبين بذلك - تكلم ماك غريغور وقال - انا افضل الوقوف.

- كما تشاء.

كانت ملامح هؤلاء توحي بانهما امريكيان، لكن لهجتهما سويسرية. وادار الحديث أحدهما، بينما ظل الثاني ينتظر مراقباً. وكان شاباً صارما عميق التجهم. اما الذي تناول الحديث فهو اشقر الشعر، وتحفظ بكلامه كما لو انه وصلت اليه معلومات اضافية عن هذه النقود وماذا يختفي وراء البحث عنها. ثم سأله هذا الشخص الذي ادار الحديث:

- هل لديك وثيقة تثبت هويتك الشخصية؟

قام ماك غريغور بابراز جواز سفره. وتفحصه رجل البوليس بنظرة خاطفة ولكنه لم يسارع باعادته اليه، وظل ممسكاً به بلا أكتراث.

- لاتوجد لديك وثائق ثبوتية أخرى؟

- كلا.

- حسبما علمت ان في حوزتك رسالة يا مستر ماك غريغور.

- لم يجبه ماك غريغور عن هذا السؤال.

- هل من المسموح القاء نظرة عليها؟

- هذه الرسالة ليست موجهة للشرطة السويسرية وليس لها علاقة بها من جميع النواحي - ان هذه الرسالة هي رسالة شخصية.

- هل من غير الجائز بمثل هذه الحال، ان نعرف شخصية من وقع عليها، وفي اي مكان جرى التوقيع عليها؟

- عن مثل هذه الأسئلة انا غير ملزم باعطاء جواب. وارجو منكم عدم توجيه مثل هذه الاسئلة.

- يجب ان نعرف يا مستر ماك غريغور، اننا نعرف انه توجد منظمات إرهابية، وليس لي علاقة مهما كانت ضئيلة بهذه الناحية.

- أننا، كما فهمنا، فان لديك رسالة هي تخويل من منظمة كردية.

- إن الرسالة التي معي هي مجرد رسالة توصية شخصية ذات علاقة بنقود جرى تحويلها. ان هذا هو كل ما في القضية.

- من هو المحول؟

- ارى ايضاً انني لست ملزماً باعطاء جواب - تكلم ماك غريغور، بينما ظل في وقفته جامداً مثلما يصمت رجل شرقي أصيل يريد ان يعجز خصمه بالوقوف. وهو قد تصرف على هذه الصورة بدون وعي منه، اذ هو كان قد اعتاد على ذلك منذ نعومة اظفاره. الا انه ادرك هنا فجأة معنى صمته الشرقي عندما نظر الى الرجلين من البوليس اللذين استولى عليهما التوتر من هذه الصلابة.

- ارجو ان تأخذ بنظر الاعتبار ان سويسرا لاتحب ان تعمل المنظمات الاجنبية فيها مستغله الظروف المؤاتية هنا - قال الشرطي ذو الشعر الأشقر.

- هذا مفهوم.

- ان هذا هو ما نحب المحادثة حوله معكم يا مستر ماك غريغور. افلا ترى من المفيد نزولك معنا؟

هزّ ماك غريغور رأساً علامة الرفض وقال:

- بحسب ارادتي، لا اريد أن أذهب من هنا الى اي مكان. ولهذا فأنتم مضطرون أولاً الى أعتقالي.

مرت فترة صمت وجمود الحركة.

- نحن لانريد اللجوء الى مثل هذه الاجراءات - تكلم رجل البوليس بهدوء متعمد، في اثناء ما كان يخفي جواز سفر ماك غريغور بجيبه.

- أرجوك اعطني جواز السفر - قال ماك غريغور وهو يمد يده اليه.

- انتم ستتسلمونه فيما بعد. اننا بحاجة للتأكد من بعض الجوانب.

- كلا. أرجوكم اعادته لي بهذه اللحظة. أو ان تعطوني ورقة موقعة منكم تفيد عن وجوده عندكم.

اعادوا له جواز سفره. وفكر ماك غريغور، متذكراً الفوائد من التجارب السابقة الكثيرة التي حصل عليها من خلال تحقيقات الشرطة معه في ايران.

- حسناً، حسناً مستر ماك غريغور - تكلم رجل البوليس الاشقر وقال - اننا لانرغب في

اكراهك باي نوع من القوة. واننا نعرف انك مخول من قبل منظمة كردية سرية تعمل في سويسرا، ورغم انك حر في الدخول والخروج من سويسرا، إلا ان هناك حدوداً لصبرنا في مثل هذه الأحوال. فان ما يجرى في تركيا ليس لنا شأن به. ولكن ما يجرى هنا فانه شأننا الذي يهمنا.

أحس ماك غريغور ان الظلال الرمادية للقتيلين الأثنين من الأتراك يتابعانه بلا تعب حتى هنا بشوارع أوروپا. وتبخر الغضب، وحل محله الخوف المعروف لديه من الارتباك والوقوع في مصيدة. ولهذا فهو قد أحتمى لاجئاً مرة أخرى الى الصمت. اي انه وقف صامتاً بلا حركة. لقد وقف منتصباً بلا انحناء.

- اننا نقترح عليك سويسرا فوراً - قال البوليس الأشقر. وعند هذا الكلام انتهى الحديث وخرج الشرطيان.

تنفس ماك غريغور انفاساً عميقة. فما هو جيد هنا ان كيتي لم تكن موجودة. وهو لم تأخذه الدهشة عندما أعطوا في مطار زيوريخ جواز سفره مرة أخرى الى أولئك الشرطيين الأثنين، اي الى الرجل الاشقر ومرافقه الشاب المتجهم اللذين كان ينتظران عند حاجز التفتيش. وبعد نصف ساعة اعادا له جواز سفره بصمت وسمحا له بالصعود الى الطائرة. لكنه عرف الآن ان اسمه قد ادرج ضمن السجل البلاستيكي المحرج الذي يواصل موظفو فحص جوازات السفر فتحه مرة أخرى عندما يطرق باب الحدود السويسرية الحمراء البيضاء مجرم معروف أو مومس أو ثوري راغب بزيارة هذا البلد.

الفصل الثالث عشر

فهمت كيتي من رواية زوجها المتسمة بالحذر، ما حدث له في زيوريخ. لقد أهمل ماك غريغور التفاصيل، الا انه وبحسب تصوره، فان كيتي قد لامته لوضع نفسه بحماقة تحت الضربة وذكرته بما افضت به من قبل له فقالت:

- أكدت لك مرات عديدة عدم جواز التصرف بهذه الصورة. انت تعرض نفسك فقط لتقع موقع الضحية، وتسمم افكار البوليس حولك في أوروبا كلها.

أدرك هو صواب كلام كيتي لهذا لم يكن منزعجاً من فشله الذي سببه لنفسه، بقدر ما كان منزعجاً من كون حدود أوروبا وبواباتها المفتوحة ستغلق بوجهه اذا ما تصرف مستقبلاً بمثل هذه الحماقة. وبعد اعترافه بالقول: «انا موافق. وادركت ذلك. وانت كنت مصيبة في رأيك. واعتبر نفسي مخطئاً»، وطلب من كيتي البدء بالتحرك، ووافق على الانتظار في بيت العمة جوس الذي هيأته بما يليق بمتطلبات واستقبال الشخصيات الباريسية المتنفذة.

وكان هذا البيت منذ البداية مهيأ لاستقبال الاثرياء والموظفين، اي بحسب نمط ايدوار، الا ان العمة جوس قفلت ابوابه وأغلقته نهائياً وأخفت وراء الاقفال جماله كله، وأهملت نفسها فسكنت تحت سلم البيت حيث تمارس من هناك الرقابة على بوابها وزوجته. وهي ترتدي خفاً منزلياً برجليها وكانت مدام مارين زوجة البواب، تغسل الملابس وتطهى الطعام، وبكآبة تنقل أقدامها بحزن حاملة صحون الأفكار والغداء والشاي نحو العمة جوس الساكنة السرية بهذا البيت. وبعد ذلك كله تتوارى هي نفسها تختفي بغرفتها الواقعة وراء المطبخ. الا ان كيتي، بعدما اخرجت من الخزانات الصحون الخزفية القديمة الرائعه المزخرفة المنقوشة والمناديل الخاصة بالموائد، والفضيات الثقيلة، اضطرت الى الاستعانة بوكالة استئجار الخدم لاستدعاء فتاة - خادم تدعى سيلفينا، طالما ان مدام مارين رفضت تقديم الخدمة للضيوف، رغم انها تعد كل شيء بشكل ممتاز. فان رجليها توجعها وكبدها مريضة. وهكذا فان سيلفينا أضطرت على الدوران بين المطبخ وقاعة الطعام في عمل شاق لتنظيف الاثاث من خشب الجوز المحفور

بالنقوش وكذلك الثريات المغبرة المشجرة الثمينة الضخمة التي تغطت بنقاط ذبابية، وامرتها كيتي بانتزاعها ومسحها بالاسبيرت.

وانصرفت كيتي كلياً الى العمل على القضية، مدركة بذكائها من الذي ستدعوه ضيفاص ولمن ستروز. وعرف ماك غريغور ان من النادر ان تسمح البرجوازية الفرنسية للغرباء بالنزول ضيوفاً عليها حتى في طهران، الا انه رأى هنا ان صالونات الفئة الباريسية الراقية مفتوحة على مصاريعها لأستقبال الضيوف. وان حلقة الناس ذوي العلاقة مع كيتي هم هنا كما عليه الحال في انكلترا. اي انهم اصحاب املاك زراعية وفيللات، ورجال مصارف واحفاء حاشية البلاط الذين تحولوا الى السلك الدبلوماسي، ووجهاء واستعماريون وسادة نبلاء كونوا لهم ثروات من انتاج الكونياك او من وسائل أخرى غير معروفة.وما كان يفرق بين جميع هذه العوائل سواء كانت من الجمهورية الخامسة أم السادسة أو السابعة في فرنسا أو ما تفعله البرجوازية في اروقة السلطة. فأنهم لايريدون من السلطة الا ما لايعرقل خططهم وان تفعل كل ما ينتظرونه منها. وكان ماك غريغور غريباً هنا أيضاً كما كان شأنه في الفيللات الانكليزية في ضواحي المدن.

إلا انه ظل منتبهاً، ولو قد أعجزه التخمين. فان دوره غير مفهوم بالنسبة لهم. ولكن لماذا هو يلوذ بالصمت والانطواء على نفسه؟ وماذا يختفي وراء هذه السلبية، ووراء هذا الوجه المتركز في التفكير غير القابل للتغيير؟ ولماذا هذه النظرات الجليدية والصمت؟ ولماذا هو متمسك بهذا الاعتزال؟ و(نبهته كيتي) الى انه ملتزم بالتصرف الذي يتصرفه الفرنسيون، بينما ينبغي له الالتزام بالتصرف الانكليزي، اذ ان الانكليزي نادراً ما يتصرف هكذا في الحياة. وسألها بامتعاض:

- كيف هو الشكل الآخر الذي تريدين التصرف بموجبه؟

- انا لا اشتكي منك - قالت كيتي له. ولكن ماك غريغور سرعان ما نسي حساب مائدة الغداء اللامعة كالزجاج التي جلسوا حولها، وغرفة الطعام، حيث كان واقفاً قرب الجدار، حاملاً كأسه بيده، ونسي فناجين القهوة الفرنسية الممتازة التي تحتسى في الشرفات العالية المفروشة بالبلاط المربع الشكل، والمطلة على شارع اورليان النهري أو على شارع البيرت العريض المشجر أو على ارض مارسوفو. لكنه عرف ان كيتي يلزمها فقط وقت لأختيار الشخص المناسب لهم هنا، وكان ماك غريغور قد شك قبل ذلك بنجاح كيتي في هذا الاختيار الذي تحاوله من وراء زيارتها هذه كلها.

وظهر ان الشخص الذين هم بحاجة اليه هو غي موزيل مدير البنك التجاري.

لقد عرف ماك غريغور من توضيحات كيتي ان موزيل في الحقيقة هو أكثر من كونه رجلاً مصرفياً كبيراً واسع الهيمنة. فان اسرته - أسرة موزيل - بعدما تخلت في ثمانينات القرن التاسع عشر عن مواقعها الاقطاعية - الارستقراطية ورمت جانباً الحلل المزركشة ذات الاشرطة للنبلاء والدبلوماسيين، اسست على طول أوروبا وعرضها شبكة واسعة من خدمات الاستخبارات المالية السياسية هي عيون واذان البنوك الفرنسية. وصارت هذه الشبكة على درجة كبيرة جداً من الضرورة بالنسبة للسياسية والأموال الفرنسية، شبيهة بالقسم الثاني لأمن الدولة الفرنسية (ديوغمي بيرو). وبحسب الدور الذي يلعبه موزيل حالياً، فانه أكتسب ظاهرياً صفة الانكليزي. وبالنسبة له فقد ذهبت مع الماضي فرنسا البارونات والاقطاعيين والامراء والفرسان. ولم تبق الا سلطة الثروة المحروقة من الفخفخة. اما ملامح سلطة الثروة فهي ملامح الصرامة القاسية التي تتجسد على موزيل. فانه قد حافظ على أملاك العائلة أيضاً في نورماندي، رغم اعتباره لها قضية غير مثمرة، طالما ان الدخل الوارد من عائدات المزارع واجهه ظهور عقبات بتحمل اعباء هذه الاملاك، لأجل عدم اضاعة علاقة النبلاء مع الأرض. وهو كان يديرها بحزم ومثابرة لعدم وجود طريق آخر امامه، حذرت كيتي زوجتها منه:

- انه يشبه توم باربان. ولذلك يجب التزام الحذر معه.

- هو مثل من؟ - كرر السؤال ماك غريغور.

- هل تتذكر ذلك الفرنسي بكتاب فيتسجيرالدا ؟ فهناك باربان الذي شارك في جميع الحروب مهما كانت؟ وذلك لأنه يستطيع القتال وقادر على الحرب. وهكذا هو غي موزيل. فانه قادر فقط على اداء ذلك الدور الذي تتوطد بفضله الأمور بحسب النظام الفرنسي، اي انه يوطدها بثبات تام. وهو عارف بذلك.

تذكر ماك غريغور ذاك الفرنسي باربان مع فهمه المثير للضحك، وايمانه بالشرف ومع التدريب على امتهان التحايل. الا ان موزيل كان أكثر حذراً وذكاءً من باربان. وكان باربان يقوم بجولة كل صباح في الدروب المشجرة المخصصة للخيول بغابة بولون وهو يرتدي بدلة الخروج. وفي بعض الاحيان تتابعه على اثره ابنته ذات السنوات الثماني عشرة، هدباً على حصان كان سابقاً من خيول الشرطة النظامية. وهو لايتناسب من حيث الحجم مع فارسة وفي الصيف عندما يغادر الجميع الى الجنوب، فان موزيل يسافر الى الشمال والى الشرق أو الى الغرب. اما في الربيع والخريف، فهو يقود بنفسه طائرة أمريكية «بيتشكرافت» نحو منتجع كان، في اثناء عطلات اسبوعية طويلة، يقضيها على تلال متواضعة ولكنها معزولة ومغطاة

باشجار الصنوبر، داخل بيت في مانداليا حيث ظلت باقية هناك آثار الهدوء القديم المظلم الذي ضاع على الرافيرا.

- ان هذا البيت للتائهين - قال موزيل بنظرة متحايلة الى ماك غريغور داعياً اياه مع كيتي للطيران معه الى هناك في العطلة الاسبوعية واضاف - انها دار مناسبة لأناس مثلكم ولي ايضاً. واعتقد أنني واياكم سننسجم.

نال موزيل اعجاب ماك غريغور. وليس باستطاعته ان لايعجب به. ولو لم يقم هذا التآخي على الضياع، لما كان من السهل على ماك غريغور وزوجته ان يكونا مع موزيل على مستوى واحد من الضياع. وبينما كانت كيتي مضطجعة في حوض حمام العمة جوس القديم قالت:

- ان من نحن بحاجة اليه هو موزيل بالذات. واذا كان هو قد وعدك بتقديم المساعدة لك، فيجب عليك ان لاتثرثر حول هذا الموضوع مع اي كان. ولا ان تنخدع باي اوهام مهما كان شكلها. وهذه هي قاعدته المضحكة في التعامل بشرف مع الآخرين.

- يبدو عليك الاعجاب بهذه القاعدة - قال ماك غريغور باحساس من الغيرة الظاهرة بعدما لمس بيده بطنها الكبير الذي كان بارزاً من تحت رغوة الصابون البيضاء.

- وماذا في ذلك من ضير، فأنني أعجب دائماً بالرجال الاشراف، وانت واحد منهم.

وسيق لي ان ذكرت لك انني أعرف موزيل طوال حياتي، وحتى من قبل ان اتعرف عليك.

«ولكن ما هو الثمن الذي سيجنيه موزيل لقاء تقديمه المساعدة؟ - اراد ماك غريغور توجيه هذا السؤال الى زوجته لكنه احجم عن ذلك واضاف مع نفسه - يجب ان أفكر بهذا الثمن انه سيكون جديراً». ولكنه لم يوجه هذا السؤال طالما ان كيتي قد وضعت نصب عينيه، ان هذا لايغير من الأمر شيئاً، وما دام انهم سيطيرون بالتأكيد الى منتجع كان، نحو ملجأ التشرد» العائد الى موزيل على متن طائرته «بيتشكرافت».

- ان موزيل صار يعرف ذلك الذي انت تريده منه ولذلك لابد ان تعطيه ولو امكانية الاستيضاح عما أنت تريده منه بالذات - قالت زوجته له كأسرة المقاومة الصامتة لزوجها.

- ولكن، كيف ستبقى سيسي لوحدها هنا بدوننا؟

كانت سيسي قد أثارت فزعهما. فبينما كانت تتلمض حول مائدة الفطور بجريش الذرة البيضاء كنديف الثلج، أخبرتهما انها ستذهب في هذا اليوم للاشتراك بمظاهرة طلابية كبيرة ستتجمع بساحة الاجتماعات. وقالت سيسي:

- «لن يمر هذا بدون وقوع صدامات. والجماعة المقصودة بذلك ستظهر من نانتير وهم كلهم ترتسكيون وجماعة كون بينديت. ولكن ظهورهم مؤدب عكس اليمينيين (المشاغبين) الذين عزموا على تخريب المظاهرة باستخدام اساليبهم المألوفة».

- «اية اساليب» - استفسر منها ماك غريغور.

«معنى ذلك، انهم يعتدون بالضرب على بعض الطلاب، أو يثيرون شيئاً ما من قبيل افتعال المشاجرات» - قالت سيسي ذلك بينما كانت تمشط شعرها الناعم الطويل باصابعها الطويلة التي تشبه مجاريف عاجية...

وعندما خرجت كيتي من الحمام قالت لماك غريغور:

- لاتقلق انت بشأن سيسي. فلديها هنا عشرات المدافعين. ولا جدوى من منعها مهما حاولنا ذلك. وهذه ليست المرة الأولى التي تشارك بها بالمظاهرات.

- هكذا اذن، هي الامور...

لم ينس ماك غريغور العقوبات الانتقامية التي تعرض لها الطلاب المتمردون في طهران.

ولو كان يوجد منطق للتفاهم المتبادل - وهو واحد بالنسبة للجميع - بين الطلبة والبوليس، فان البوليس الفرنسي نفسه سيلقي على السوربون قنابل الغاز المسيل للدموع لسحق المتجمهرين ويستخدم الهراوات ضدهم.

الا ان سيسي استهزأت من فزعهم وقالت:

- ما هذه الحماقة. هذه ليست طهران هنا. ان هنا شيئاً آخر.

- ما هو الفرق الجوهري المتجسد بين هذا وذاك؟

ردت عليهم سيسي بضحكة ساخرة.

في مطار اورلي بباريس، في اثناء ما كان ماك غريغور يشد الاحزمة في الصالون الرمادي الصغير الذي يشبه العلبة في الطائرة «بيتشكرافت» لاحظت عينه مهارة موزيل وهو يدير بيديه السمراوين اللتين بدون اكمام نوابض الطائرة والعتلات ومفاتيح سماعات الاذن الصغيرة. اما لسانه فكان يردد بتلقائية ماهرة مصطلحات لغة الطيران. وعاد ماك غريغور مرة أخرى يفكر حول هذا الأمر ومدى اتساعه ما بين القضايا المضطربة التي هنا في فرنسا والتي هناك في طهران، وما بين طبائع الناس ذوي الصلة بهذه القضايا، بما فيهم حتى هذا موزيل الذي هنا.

وقـام هذا الفرنسي مـوزيل بشرح قـواعد ادارة الطائرة الى كيـتي بعدمـا أجلسهـا الى جانبـه. أما مـاك غريغور فقد حشروه بعيـداً في الخلف لكي لايزج بانفه بينهـما. وامضى ماك غـريغور ثلاث ساعات صامتاً على المقعد الخلفي يساوره القلق خلال هذا الوقت كله. وفي الأخير حطت الطائرة على الأرض في مطار صـغـير كـان، وسط ممر من زهور الميـموزا الربيـعـيـة المتـأخرة. وبعدما استقلوا سيارة موزيل، طراز «سيـمكا» التي كانت بانتظارهم، فانهم اجـتازوا طريقـاً سريعـاً للسيـارات وتسلقوا مرتفعـات مانديليـو المتلونة على سفح مزروع بأشجار السـرو حيث تقع هناك فيللا موزيل. وهي بيت شيد وفق طراز يتسم بالنباهة بمكان بجواز البـحر على مرأى من منتـجع كـان رأس وانـتـيب، ولكن عـلى ارتفـاع عـالٍ بعـيـداً عن السـواحل القـذرة الخـانقـة المزدحمة بالسواح. وفي ساعات النهار تتحرك السواحل بعيداً الى جهة ما. اما ليلاً فان البيت يتـحول الى مـوقـع مـتقـدم فـوق المدن السـاحلية وفـوق الاضـواء السـاطعـة المتـلألئة التـي تتـمـازج بكل الالوان في آفاق الطريق السريع للسيارات.

- لقد فاتني ان أخبرك عن وجود مثل هذه الأماكن - قالت كيـتي لماك غـريغـور عندما كانوا جالسين، بعـد العشـاء، فـي جو الانسـام البـاردة بالشرفة الزجـاجية، يمتـعون انظارهم بمنظر البـحر المتوسط تحت نجوم باتت كثيفة معلقة في الهواء وراء الزجاج.

ومن دون صرف الانتـبـاه عن جمـال المنظر بادر مـوزيـل بشيء من عـدم الاكـتـراث بـتـوضـيـح شؤون فرنسـا لهم. فمن الواضح ان غيـوما داكنة تتجمع فـوقها. وبحسب رأي موزيـل فهو يرى ان من واجبـه اعطاء تـوضيـحات عن هذه الشـؤون كـمـا هو شـأن اي واحد مـهـتـم بالقضـايا الفرنسية.

ان مـا كنا نمارسـه سابقاً في فـرنسا كـحق لنا، هو نفس مـا نضطر نحن الآن ان تحـصل عليـه بصـفـة افـضـال عـلينا - تكلم مـوزيل دون ان ينم صـوتـه عن انزعـاج أو أسف واضـاف - انهـا تحولات حتمية ولو انها مسألة تحمل صفة العرقلة.

كـان موزيل يجسد معنى وفكرة بجسمه الرياضي الرشيق وبقمـيـصه الأنيق ووجهه السـمـح وتصرفـاته الفـرنسـيـة التي لا عـيب فـيـهـا. وهي خـاليـة مما يشـيـر الى الفـضـائح والتـصرفـات الفرنسية.

جلس ماك غريغور صامتاً يتطلع الى النجوم ومنصتاً لكلاب البسـاتين التي تنبح في الوادي الأسـفل الذي يفـصل البـيت عن صـخب السـيـارات على طريق السـيـارات السـريع. ووصل من خلال نباح الكلاب صوت مـوزيل الذي جاء وكأنه قادم من بعيد اذ سأل! لأي غـرض سافر ماك

غريغور الى سويسرا، ومن أجل اي شيء ذهب يستوضح من البنك وقال له:

- لماذا انت لم تسألني عن ذلك؟

- ما كنت أعرف انذاك ان عندك امكانية تقديم المساعدة. بل ما كنت أعرفك انذاك ايضاً.

- كان من العبث انك لم تخبريه يا كيتي.

- ما كان ينبغي في ان اهرع اليك واولول: «عمتم مساءً ايها الهرو تفضلوا وتعارفوا مع زوجي... أرجو منك مد يد المساعدة اليه»، فسيكون في ذلك عديم الذوق.

- عبثاً كان ذلك - كرر موزيل كلامه ولكن بلهجة لاتوحي باللوم، بل بمديح كيتي واضاف سائلاً - ومع ذلك فما هو فحوى هذه القضية؟

أخبره ماك غريغور عن النقود الكردية الضائعة، وعن السكوت الغريب والعداء اللذين واجههما الأكراد في اثناء محاولاتهم البحث عن هذه النقود وقال:

- انهم قرروا اختيار شخص مثلي له نسب اوربي عائلي وملامح اوربية من أجل السعي للتوصل الى الحقيقة.

- رائع - قال موزيل - وهل هذا كل شيء؟

- هذا كل شيء - اجابة ماك غريغور متماهلاً وقال - انهم رجوا في البحث عند النقود فقط.

- ولكن هل تعرف انت نوع السمعة المجيدة التي تدور حولك هنا؟ - تلفظ موزيل هذا السؤال مبتسماً ابتسامة الباردة الودية.

- سمعة مجيدة؟ - انتفض ماك غريغور باضطراب.

- ليت الأمر وقف عند هذا الحد. فان صلاتك السرية مع الأكراد ومشاركتك الصامتة معهم هو جانب واحد، اما من الجانب الآخر فان نزولك من الجبل هو لغرض لا صلة له مطلقاً باستعادة النقود.

- كل ما في الأمر، فان مجيئي الى هنا هو للبحث عن هذه النقود.

- انها مهمة رومانسية غير مكتملة - قال موزيل ذلك مستكملاً كلامه بالضحك.

- ولكنه بخصوص هذه المسألة فانه بعيد عن الرومانسية - تكلمت كيتي.

- انت لاتفهمين ذلك. فان وصفة النجاح الناجعة في هذه القضية رهينة بتكثيف السرية لا في كشفها.

- كلا ايها الهر موزيل - تكلمت كيتي باصرار واضافت - لا حاجة بنا للهراء الرومانسي.

- لكن الهراء الرومانسي يا كيتي صار مفضوحاً عملياً. وفي رأيي فأنا انصح باستغلال.

- وعن اي هراء رومانسي تتحدث انت؟ - سأله ماك غريغور.

- اتكلم عن حب الاستطلاع المرير الذي يثيرك. فأنت تدور حولك حكايات تثير العجب، حول قتلكم لأثنين من الاتراك وممارسة عمليات فدائية في الجبال، وانك مقاتل مقدام وهب حياته القضية الكردية وغير ذلك من هذا القبيل.

- ان مجرد هذيان صارخ - قالت كيتي.

- أصحيح ذلك؟

- هذا مجرد هذيان وحماقة.

- على كل حال، لاينبغي التقليل من امكانيات مجندة ذات صلة بهذا الصيت - قال موزيل بعدما التفت نحو ماك غريغور الذي كان صامتاً مقطب الجبين واضاف - ان لدى زوجك يا كيتي نكراناً رائعاً للذات كما يبدو. وبما ان جميع القواعد الاخلاقية تنطوي على قوة اخلاقية، فان هذه القضية ستبدأ باثارة الاعجاب من جديد في الوقت الراهن. اليس هذا صحيحاً؟ - التفت موزيل بالسؤال الى ماك غريغور.

- من اين استقيت هذه الاشاعات؟ - سأله ماك غريغور.

- من يعرف ذلك؟ - قال موزيل مع ابتسامة ودية واضاف - هيا، تعال لنلقي نظرة على هذه النسوة - التفت موزيل نحو تمثالين لأمرأتين من عمل النحات جيرمي ريش، ونقر بيده على البرنز نقرة خفيفة وقال - انها ينطويان على قوة كافية تامة، لأنهما تجسدان التضحية... هذا هو الايثار.

ضحكت كيتي وقالت:

- لم اسمع في حياتي تفاهة أكثر من هذا.

- انا اروي حديثاً جدياً - قال موزيل دون ان تفارقه الابتسامة واضاف - انت يا كيتي لم تفهمي الفرنسيين.

لكن كيتي لوحت بيدها باشارة تعبر عن الألم وقالت:

- انت تتحذلق فقط.

- كلا. فقد قرأت ملف قضية ماك غريغور - الح موزيل الى ذلك في جوابه.

حضر الخادم الذي استدعاه بعدما ضغط على زر جرس. وقام الخادم برفع الاقداح الفارغة.

واطل البدر الضخم بعينه الكريمة على خليج لانابول الأخضر. وقال الخادم: «اخبار المساء ايها السيد»

- وفتح جهاز التلفاز بعدما أجتاز الشرفة نحو المكتب.

جلس هؤلاء الثلاثة الموقد الدافيء بمكتب موزيل النظيف المعقم على الاسلوب الانكليزي. وبالمناسبة فان هذه الأمسية الربيعية على الرفيرا كانت ليلة استثنائية تماماً. فرغم انها خالية من كل ما يدعو للفزع، الا ان شاشة التلفاز عرضت رجال بوليس بمعدات الوقاية عن الغازات السامة. وهذه المعدات هي عبارة عن خوذات مدببة بما يشبه الطير تماماً مع واقية مسدلة الوجه. واندفع رجال البوليس مثل الاندفاع على فلاحين ثائرين في القرون الوسطى، اندفعوا عبر شارع مظلل بالاشجار ضعيف الإنارة نحو الطلاب الذين توضعوا خلف المتاريس بساحة ادمون روستان (ومن ثم، وبحسب كلام المعلق الاذاعي فعد اذا احدهم السوربون، وقالت كيتي بعدما اعتدلت بجلستها على الكرسي:

- انظروا. فان هذا يومي بوقوع مجزرة هنا.

وراحت هي وزوجها يركزان عيونهما بتوفر على الاجسام البشرية المطروحة على الارض والمتناثرة والمتلطخة بالدماء أو الفاقدة للوعي. وهي اجسام أولئك الذين اندفعوا يهاجمون عربات البوليس. الا ان كيتي وزوجها لم يلاحظا في اي مكان من ميدان هذه المعمعة وجوداً لجسم سيسي غير المتناسق.

- ينبغي ان نتلفن الى العمة جوس - قالت كيتي.

- لايمكن ان تتعرض سيسي لأي سوء - تكلم ماك غريغور متقمصاً فجأة، مرة أخرى الثقة والأمل وطوى بقوة مرفقها ورضفتها معاً.

- آه ... حسناً، تفضلوا - قال موزيل بعدما عرف فحوى القضية. ثم اتصل بالتليفون مع العمة جوس في باريس وقال - هلو يا عمة جوس. أنا موزيل. أرجو العفو ان كنت ايقظتك من النوم. فان الوقت متأخر. الا ان كيتي تريد ان تعرف عن سيسي وكيف حالها الآن.

وتناولت كيتي سماعة التليفون، بينما تناول ماك غريغور السماعة الاخرى المزدوجة.

- ان أحدهم أخبرني في التليفون، ان سيسي أعتقلت من قبل البوليس في حرم السوربون، في الساعة الثامنة - هذا ما سمعوه من العمة جوس.

- ألم يقل هذا الشخص الى اين نقلوها ؟ - سأله كيتي.

- لم اتحقق من هذا الموضوع يا حبيبي كيتي. الا انني أعرف انهم سيطلقون سراحها ، بعدما يتأكدون من هويتها ومن تكون.

أطلق كيتي من صدرها زفرة حارة، وسألت عمتها ، من يكون ذلك الشخص الذي تلفن لها. الا ان العمة جوس قالت انها لم تتحقق من ذلك الشخص، وقالت كيتي معبرة عن حال العمة جوس وكيف امست على هذه الدرجة من التخلف في الحياة.

- ارجو منك يا عمتي ان تسألني في المرة القادمة عن ذلك الذي يتصل بالتليفون، واذا ما استجدت عندك اخبار أخرى أتصلي بي هنا.

- حسناً يا حبيبتي كيتي.

بعدما انزل ماك غريغور السماعة التي بيده، ذكر لموزيل انه يريد الرجوع الى باريس في الليل لو أنه يعرف الساعة لأقرب رحلة بالطائرة من الرفيرا الى باريس، وفيما اذا كان باستطاعة موزيل نقله الى المطار في نيس، حيث تحلق من هناك طائرات في رحلات جوية...

- لربما ان ليس هناك حاجة تستدعي ذلك - قال موزيل واضاف - فمن المحتمل انهم نقلوا سيسي الى قسم البوليس في سان - سيولبيس. أنتظروا قليلاً، فسأستوضح عن ذلك.

- حسناً - قال ماك غريغور واضاف - لابد لي رغم ذلك من العودة الى باريس.

- صبراً - طلبت منه كيتي وقالت - لربما ان موزيل سيجر الحل الأسهل.

وهذا الأسهل يعني بالنسبة الى موزيل انه بدأ يستخدم صلاته بالمراجع الاولية، اذ سمع ماك غريغور كيف أستعلم موزيل عن رقم تليفون قسم البوليس في سان - سيولبيس، ومن ثم شرع يتكلم متنقلاً من هذا الموظف في البوليس الى ذاك، حتى توصل أخيراً الى الشخص الذي يريده، وسأله ان كان بين المعتقلين من الطلاب، طالبة انگليزية اسمها سيسيليا ماك غريغور ؟

وعندما شعر موزيل بالتردد على الطرف الثاني من خط التليفون، فقد أمر موظف الشرطة هناك بصوت حازم حاد ، ان يدقق قائمة أسماء المعتقلين. وبعد فترة قصيرة حتى رأسه، وأغلق فتحة السماعة بكف يده وقال:

- انها في قسم سان -سيولبيس للبوليس. الا انهم يريدون تحويل المعتقلين الى نوتردام دي شا...

- وكيف حالها هناك؟ هل هي سالمة؟

ودارت مرة أخرى مكالمة تليفونية شديدة اللهجة. وظهر ان سيسي سالمة بلا اصابة.

هل تريدون اتخاذ ما ينبغي من اجراءات تؤدي الى اطلاق سراحها؟ - توجه موزيل بهذا الاقتراح الى ماك غريغور الذي نزل هذا السؤال من نفسه منزلاً مريحاً، رغم ان كيتي هي التي أجابت بدلاً منه:

- نعم، فرغب بذلك طبعاً.

وسأل موزيل عبر التليفون، فيما اذا كانت كلماته هذه كافية لأطلاق سراح الفتاة فوراً، أم ان القضية تتطلب الاتصال بالوزير نفسه؟ وبعدما سمع موزيل الجواب، غطى مرة أخرى اللاقطة بكف يده وقال:

- انه يقول، ان الأمر صدر لهم ان يبعد عن فرنسا جميع الاجانب المشاركين من المظاهرات.

وهو مستعد لأطلاق سراحها حالاً بدون تأجيل، لكنه يقول بأنها ستبقى مهددة بالطرد من فرنسا فيما اذا بدأت عمليات تحريات حول هذا الموضوع.

- ولكن، هل بامكانك العمل على ما يحول دون استئناف التحريات؟

- استطيع انجاز ذلك. ولكن من الافضل ان لايتم ذلك عبر التليفون.

- لكنني رغم ذلك يجب ان ارحل - قال ماك غريغور متطلعاً بعينيه نحو كيتي.

- ارجوك يا موزيل باسم الرب - قالت كيتي.

- ماذا تودين القول. ومهما يكن ما تريدين أرجو عدم القلق. فأني سأبذل جهدي من أجل ان لاتكون هناك تعقيبات أو قضية. ففي الصباح ستغادر. فهل هذا يناسبكم؟ - وجه موزيل هذا السؤال الى ماك غريغور وقال - ان هذا أفضل مما لو تطير الآن الى باريس. وحتى لو غادرنا الآن فليس هناك من فرق في ذلك اذ سوف لا أستطيع القيام باي شيء حتى الصباح.

- كلا،كلا... ان هذا مناسب تماماً... ولك منا الشكر الجزيل - قال ماك غريغور.

- انها مجرد حادثة وقتيبة لابنتنا سيسي - تكلم موزيل كما لو انه يسحب سيسي من تحت جناح والدها ليأخذها تحت حمايته. وان هذا قد جرح مسامع ماك غريغور.

هبطت كيتي مع زوجها الى تحت واضطجعا للنوم، بعدما ازمعا على تحاشي اي كلام متبادل حول سيسي. وهل هناك من سبب يدعو لأثارة مشاجرة؟ وكانوا في الصباح الباكر قد حلقوا طائرين على علو اربعة كيلومترات في سماء صافية كالبللور فوق البحر نحو خط نهر

الرون الازرق. وما ان حلت الساعة التاسعة حتى اوصلهم موزيل الى العمة جوس، وقال لهما انه سيبدأ حالاً لحل قضية سيسي. ولكن هذا الموضوع قد ينبغي له بعض الوقت، لأن اليوم هو يوم سبت. وقال موزيل لماك غريغور:

- سيترتب ان تتناول الغذاء يوم الاثنين في بيل - فيل. وانذاك سأخبرك عما استطعت التوصل اليه من توضيحات بشأن أموال الأكراد.

- واين يقع مكان بيل - فيل هذا؟ سأله ماك غريغور واضاف - وماذا يعني هذا؟

- انه زقاق بين شارعي لافائييت ولافيت - اوضح له موزيل وقال مضيفاً - انه يقع مباشرة خلف شارع اوسمان المشجر. رقم البيت، خمسة، والمدخل (أ). أضغط الجرس، ولاتدع العجب يأخذك فيما اذا انتظرت بضع دقائق حتى ينزلوا ويفتحوا لك الباب. فان هذا هو المدخل الوقتي للبيت.

شكره ماك غريغور لقاء اهتمامه وحسن ضيافته. وذهب موزيل بعدما قبل كيتي. اما هي وزوجها فقد شرعاً يقرعان البوابة الخشبية لأيقاظ مارين، وبقيا ينتظران الى ان يلبس مارين بنطرونه بغرفته، دون ان يتبادل الاثنان اي كلام بينهما.

وبالنسبة لسيسي، فانها ليست لم تكن موجودة في البيت فحسب، بل وكانت مستيقظة تجلس مع العمة جوس وتتناول معها، الفطور، عندما أعلنت كيتي في القاعة عن وصولهما، هرعت سيسي نحو والديها وبيدها منشفة ورقية تمسح بها شفتيها المتورمتين قليلاً. وسألتها كيتي متلمسة باصابعها وجه سيسي وقالت:

- ما هذا الذي لديك؟

- هذا، هذا، ان أحدهم دفعني بمرفق يده - ردت كيتي واستدارت جانباً.

- هل هم البوليس.

- لا أعرف. لايمكن تشخيص أحد في تلك المعمعة.

- ولكنهم طلبوا منك الوقوف جانباً.

- لقد التزمت بما قالوا وقفت على جنب في الساحة وعلى السلم حيث موقع تمثال فكتور هيجو.

لكنهم هاجموني وطاردوني مع الجموع، واصطادوا أحد الفتيان واصطادوني معه دفعة واحدة. وهذا كل شيء.

- لقد حالفك الحظ أنهم لم يشبعونك ضرباً، ولم يلقوا بك في السجن لمدة شهر - قالت كيتي معقبة على كلام ابنتها.

- عن اي شيء انت تتكلمين يا أمي. أنهم حتى لم يحققوا معي.

- وذلك لأن السيد موزيل قد بذل اهتمامه من أجلك.

ابدت سيسي استغرابها في البداية ثم قالت بامتعاض:

- آه، هنا مربط الفرس، بينما فكرت انا ان تصرفهم معي هكذا كان بسبب كوني الطالبة الوحيدة التي أعتقلوها.

- لقد ذهب موزيل الآن لتسوية القضية، لأنه اذا بدأت تحقيقات حقيقية حولك فسيطردونك من فرنسا.

اصاب الذهول سيسي لحظة عابرة، ومن ثم تكلمت بلهجة حزينة:

- فليذهب موزيل الى الشيطان! انا لم أعرف ان أطلاق سراحي هذا تم بفضل مساعيه - من بعد ذلك التفتت سيسي نحو والدها وقالت - أمس مساءً جاء طه بصورة مفاجئة.

- الى اين جاء الينا ؟

- نعم، وهو ينام في الطابق الأعلى - قالت سيسي.

- وكيف استطاع البحث عنك؟ - سألتها أمها .

- هكذا. فانا قد كتبت له مرتين من باريس. ولكنه لم يأت من أجلي، بل انه يريد ان يراك - قالت سيسي لوالدها.

- هذا هو ما كان ينقصنا. انه لوحده - قالت كيتي واضافت - لايجب ان يبقى عندنا هنا. ولهذا يا سيسي يجب عليك عدم توجيه دعوة له للبقاء هنا.

- وهو نفسه غير مستعد للبقاء. فهو مضطر للبحث هنا في المدينة عن احد الأكراد من العراق يدرس في الكلية الطبية، إلا ان اضطرابات يوم امس حالت بينه وبين ما اراد.

- اذن هيا تحركي وايقظيه - قالت كيتي.

- لكن هناك من تلفن يسأل عنك صباح هذا اليوم - قالت لها سيسي واضافت - انه ذلك الثري، ابن ايلخان.

- دوباس؟

- نعم. وانا لم أقل له اين أنت، بسبب عدم وجودك، وماذا عندك. فضلاً عن أنه ينبغي ان نكون بعيدين عنه وعن طه ولا صلة لنا بأحد مع آخر.

- هل سمعت؟ ها هم جماعتك الأكراد. الا ترى كيف يتصرفون؟ (نعم ان ماك غريغور سمع بذلك). فان الأكراد لم يقتفوا اثرك في باريس فحسب، بل وجلبوا معهم صراعاتهم الحمقاء الى هنا.

- انهم لايستطيعون التوسع في باريس - هدأ ماك غريغور من روع زوجته.

- هل أنت واثق؟ فانهم جاؤا من أجل هذه النقود. وان من سيقدم من الأكراد سوف لايأبه باي كان، من أجل الوصول الى الهدف.

خرجت كيتي من القاعة نحو المطبخ وقالت لمدام مارين ان تعد لهم طعام الافطار. لكن سيسي قالت لوالدها.

- لماذا صارت أمها على هذه الدرجة الكبيرة من الرعب؟

- من أجلك يا سيسي قد أخذها كل هذا الفزع - أجابها والدها.

- ولكن لماذا هي بكل هذا الغضب على طه وهي لما تراه بعد؟

- ليس لطه علاقة بهذه المسألة.

عرف ماك غريغور ان كيتي تفرحها رؤية طه. وهو مع زوجته بقيا مرتبطين بصورة خاصة الى الأبد مع طه ويشعران نحوه نفس شعورهما ازاء ابنيهما، رغم ان كيتي لم تدخر وسعاً من أجل ابعاد سيسي عنه. اما الآن فان أسباباً أخرى للفزع قد نزلت عليهم.

الفصل الرابع عشر

عندما نزل طه الى تحت، كان يبدو عليه وكأنه قد جاء لتوه نازلاً سيراً على الاقدام من قريته الجبلية الصغيره. وكانت فوق جسمه قمصلة رياضية خفيفة ذات أكمام قصيرة وسروال رمادي اللون رخيص منكمش على بعضه مثل كيس من الورق. الا ان عيون طه المفعمة بحيوية الشباب صوبت انظاراً ثابتة قوية رصينة منتبهة من خلال أجفان نصف مطبقة.

- من غير اللائق ان تتبختر بباريس بهذه الصورة - ابدت له كيتي هذه الملاحظة.

- انا غير مستعد لدفع مبلغ ستين فرنك لقاء بنطرون فرنسي - أجابها طه.

- أنا سأعطيك الثمن كاترين - هزّ طه رأسه قليلاً علامة على الرفض، فأستأنفت كيتي الكلام بانفعال:

- حسناً، أنت حر.

- قل لي، كيف الحال مع والدك - هب ماك غريغور بالسؤال واضاف - ألم يكلفك بأي شيء؟

- طلب والدي ان أنقل لك فقط، انه غير موافق على سفري الى فرنسا - أجاب طه واضاف - ولكنك تعرف ذلك. ولهذا فما كان ينبغي ان أنقل لك ذلك.

- كيف تهيأ لك الحصول على جواز سفر ايراني؟

- انه جواز سفر لبناني.

- ثم من اين حصلت على نقود فرنسية؟

- ان ما عندي منها قليل

- هل تفكر أيها العم، أننا قمنا بسرقتها؟

- هذا هو ما أريد ان تحدثني عنه...

- وما الفرق في ذلك؟ - رد عليه بابتسامة.

- انا اريد ان أغتسل - قاطعتهما كيتي وقالت - لكنني اريد منك ان تقول لي من فضلك، وبصراحة، لماذا اتيت انت الى باريس؟

نقل طه نظره من ماك غريغور الى كيتي وقال:

- لقد فكرت ان من الضروري معاونة العم آيغور (اي ماك غريغور)، الا انني لا أريد الحديث عن هذا الأمر هنا في الدار.

- ولماذا هذا التحفظ ايضاً؟

- ذكرت سيسي ان للجدران اذاناً بداركم. فأرجو منك ان لاتسألي يا عمتي كاترين مني عن أشياء ذات صبغة جدية.

- من الأفضل لك ان تتكلم مع العم في الطريق، اذ ليس هناك من أحد يتنصت عليكما حول ما ستتحدثان عنه - قالت كيتي.

- أنت على حق في ذلك.

ذهبت كيتي، وعرف ماك غريغور: انها قد صعدت الى فوق. بعدها أستنطق سيسي مبتدئاً معها بالأسئلة. وتريد التيقن من عدم استطاعة طه ان يوقظ في ظرف أمسية واحدة ذلك القدر من العشق لدى سيسي، مثلما كان عليه في السنة الخطيرة الماضية.

خرجت كيتي ورافقتها طه بنظرة ولكنه حتى بعد غيابها لم يبادر الى فتح اي كلام، ولم يبدأ بذلك حتى خروجهما من البوابة وتوجههما نحو شارع سان - جرمان المشجر. وقال طه:

- من المعلوم أنه لم يصل الى علمك ان رصاصاً أطلق على والدي، واصابوه بصدره عندما كان مسافراً قبل اسبوعين عبر قرية هلال.

جمد ماك غريغور كما يجمد الناس الفرس باماكنهم عندما يسمعون خبراً عن الكوارث والامراض والوفيات.

- كلا، لم اسمع عن هذا. وكيف حاله الآن؟

- لقد أطلقوا النار عليه من بندقية قصيرة، وأخترقته الرصاصة فكسرت أحد الاضلاع. ولكنه تجاوز الخطر.

- ومن هو الذي أطلق عليه النار؟

- مجنون وحشي أهوج يدعى كامي بيلود. ثم اراد ان يضرب بالنار سيارة والدي الجيب، الا ان اقاربي أطلقوا النار عليه، فقاموا بفعل أحمق.

سار الاثنان على طول الشارع المشجر - بولغار - بينما كان يمر بمحاذاتهما سيل من سيارات سيمكا وستروين وبيجو، وهي على درجة من الكثافة يشبه سمك السلمون الذي يسبح صاعداً ضد التيار ليضع البيض في مكان ما.

- كان من الأفضل الابقاء على هذا الحمار الغبي حياً، اذ بممارسة الضغط عليه كان بالامكان ان يكشف عن كل شيء. فان قتل مثل هكذا شخص، هو الابقاء على فم هذا الشخص مغلقاً.

ان طه نفسه كان بامكانه ضبط اصبعه على عقرب السلاح، الا ان أحد اقاربه (حسبما أوضح ذلك) الذي لم يكن من الثوريين، بل من الناس المتشبثين بالمقدسات القديمة والمتهورين الذين يشعلون فتيل متفجراتهم في مواقف حمقاء.

- من الواضح ان بيلود كان وراءه من حركة - قال ماك غريغور واضاف - وان هذا ما كان يملك القدرة حتى على رفع يده ابداً.

- نحن لانستطيع الآن ان نعرف من يقف وراء بيلود: هل هم الامريكان أم الانكليز أم الايرانيون أم الاتراك. الا ان ايلخان هو الذي دبر عملية الاغتيال بأي حال من الأحوال. فان هذا الكلب المسعور قد أرسل ولده الى باريس. وهم سيظلون يترصدونك ولن يغمضوا أعينهم عنك.

- انه في باريس وليس فوق الجبال.

- ورغم ذلك، فلا بد من الحذر منه حتى في باريس بأي وقت من الاوقات - قال طه ذلك بشكل عابر.

- على ماذا ينبغي التزام الحذر؟ وماذا باستطاعتهم ان يفعلوا لي.

- لقد صار كل كردي في المنطقة يعلم تماماً انك جئت لتفتش عن الأموال الضائعة، فضلاً عما انت تعلم به ان بهذه النقود سيتم شراء أسلحة.

- كان واضحاً منذ البداية ان من المحتم سيتم الكشف عن هذه المعلومات - قال ماك غريغور.

- لكنه اذا لم تراع الحذر فسوف لانتفادى وقوع النقود والسلاح في نهاية المطاف، بيد ايلخان.

- دعنا يا طه نتجنب الحديث عن هذا الأمر. فان هذا من ضمن مسؤولية اللجنة...

- رسم ايلخان هدفاً له، هو ان يضع اللجنة تحت يده.

- ما هي طريقته الى ذلك؟

بواسطة الضغط على القاضي وعلى والدي. اي، عن طريق طردهم نحو الجبال. ويجب عليك ان تمعن النظر بالسبب الذي دفع ذلك المجنون الى إطلاق النار على والدي، أن هذا هو بايعاز من ايلخان لغرض اشاعة الرعب.

وبعدما استدارا عند منعطف «اديون» سارا في شارع راسين المؤدي الآن الى الحي اللاتيني. وفي نهاية شارع سان ميشيل المشجر - بولغار - تجمعت مظاهرة غير كبيرة. ولوحظ هياج على الناس في ليفوبيريج - الجانب الايسر - اما الشوارع الجانبية التي كانت بطريقهما فقد تكدس بها رجال البوليس على دراجات نارية، وفصائل جنود حفظ الأمن وشرطة الجندرمة،وكلهم متوزعون مثل البيادق على لوحة شطرنج. وعلى باب مخزن لبيع الخبز - الصمون - وقفت صاحبته تحمل قطة على يديها. ومع القائها التحية على ماك غريغور عبرت عن تذمرها من البوليس:

- انهم طوقوا الحي كله، واحتلونا مع الطلبة الاوباش. اما الآن ان هؤلاء الاوباش سيبادرون الى تحطيم زجاج حانوتي.

- أعتقد اننا سنحسن صنعاً ان نبتعد عن هذا المكان - قال ماك غريغور لطه واضاف - ولا اراك راغباً ان يتفحص البوليس وثائقك عن قرب.

- دلني على المترو - قطار تحت الارض - الذي اذهب بواسطته الى... واخرج طه قصاصة ورق من جيب القمصلة وقال:- الى فوجيرار.

- ولماذا تريد الذهاب الى هناك؟

- هناك يعيش حكيم، وهو طالب بكلية الطب، وعنده غرفة قرب ورشات عمل في فوجيرار - قرأ طه كل ذلك بالورقة.

وبعدما وصلا الى أقرب محطة مترو توقفا على السلم، وراحا يتفحصان على خريطة كبيرة معلقة وعلى ضوئها حددا خطوط الاتجاه. ومن ثم قام ماك غريغور بمرافقة طه الى رصيف المحطة، وفي خلال انتظارهما للقطار سأله فيما اذا كان بحاجة الى اي شيء.

- هل أنت مزمع على البقاء هنا مدة طويلة؟

- ان هذا مرهون بكم - قال طه واضاف - ان هذا يتعلق بالنقود وهل سنفلح في انقاذها. بانظاره هذا الفتى المحاصر في قفص باريسي زجاجي والجالس على كرسي بين الباعة والميكانيكيين ورجال دين بهذه المدينة الأوربية الكبيرة. اما طه فما كان ينظر اليه بانتباه.

الفصل الخامس عشر

ظهر ان بيي - ڤيل هو زقاق ضيق أعوج مثل عنزة. وعلى أحد طرفيه شيد آل روتشليد للتو بناية من الحجر والزجاج على شكل علبة لبنك تجاري ملكاً لهم. وعلى الطرف الآخر جثمت بثقلها البناية الحصن لشركة التأمين الوطنية التي كانت قد بنيت قبل نصف قرن، وما بين هذين الطرفين تتقابل داران واحدة بوجه الأخرى. وعلى أحداهما قرأ ماك غريغور على لوحة نحاسية قديمة: «L. F & CIE»، اي، «لازار اخوان وشركاؤهم». والدار الثانية هي الشركة المشهورة للمصارف في باريس. والبيت المقابل كان يحمل لوحة بحجم بطاقات الدعوات للزيارة. وحملت هذه اللوحة اسم: «موزيل» وكانت هذه الدار شاهقة حمراء كثيرة النوافذ جداً.

ضغط ماك غريغور زر الجرس، ووقف منتظراً. وفتح له الباب عجوز عليه مريلة من الجلد. وقام هذا بمرافقة ماك غريغور دون ان يفتح فمه بأي كلام الى صالة حافظت على روعتها من طراز لوي - نابليون، ومنها تفوح رائحة التلميع. ومن بعد ذلك توارى العجوز مقدار دقيقة، ولما عاد اليه، استدعاه نحو مصعد واسع، وصعد معه الى الطابق العلوي الذي كان عالماً آخر مختلفاً. وفي الدهاليز ذات الجدران المطلية بالدهان الرمادي والمفروشة بالبسط الوثيرة والابواب المزوقة، وفي كل ما تقع العين عليه، كان يبدو في كل هذا، منظر التعقيم. واصغى ماك غريغور الى اصوات آلات كاتبة، الا ان اصواتها كانت تبدو أصواتاً منزلية. اما غرفة الطعام، حيث كان موزيل ينتظره بها، فانها استعادت الى ذهنه ذكريات المطبخ الهولندي الجميل، اي ان الغرفة بيضاء وبارضية ذات لون بني ابيض مع سواد وبموقد هولندي له كوة جميلة. وقال له موزيل:

- انا لا اتناول شراباً يثير الشهية قبل الغداء. ولكنك اذا كنت ترغب بكأس...

حرك ماك غريغور رأسه باشارة رفض.

- اذن، ارجوكم تفضلوا الى المائدة. ومن بعد ذلك سنذهب الى «سينوريا» حيث ساقابلك

هناك مع شخص ذي امكانية هائلة بالمساعدة. ومن الطبيعي فانني سأتحرك بموجب ما هو مفروض بالنسبة لي. والمطلوب في هو شيء واحد فقط: ويتلخص في ان أحدّد لك الاتجاه الذي يجب عليك ان تتصرف في حدوده.

- هذا صحيح تماماً.

جلس الاثنان حول المائدة المغطاة بغطاء يحمل رسوماً مربعة الاشكال. وفوقه مناديل قيبة منجراء النشأ المركز بها من أثناء غسلها. وقامت امرأة ترتدي صدرية بيضاء بتقديم حساء البصل الابيض. وقال له موزيل:

- ان جدول الطعام واحد هنا بالنسبة للجميع. ولا يوجد هنا شيء يناسب ذوقكم، فلا تضغط على نفسك، اذ من الممكن التفكير بالبديل.

- انا لست صعب الارضاء.

- قبل ان نناقش اي شيء، اود لو استوضح عنصراً واحداً ضمن حدود السرية المطلقة - واصل موزيل الكلام في أثناء ما كان يتذوق الحساء بحذر وقال - وهذا العنصر ذو علاقة مكشوفة بك بصورة من الصور - بعد هذا ابتسم موزيل الى ماك غريغور ابتسامة مسالمة.

- تفضل.

- ان هذا بالنسبة لي هو ذلك الشيء نفسه، وهو لايغير عندي أي شيء. ولكنني لا أجند العمل غير عارف بتفاصيل الموقف.

- هذا الأمر مفهوم بالنسبة لي - تكلم ماك غريغور عن ادراك حول اي شيء يدور الحديث.

- هل من الصحيح ان أولئك الاتراك الذين قتلوا، انت الذي قتلتهم شخصياً؟

- نعم، هذا صحيح - قال ماك غريغور.

نظر اليه موزيل مع ابتسامة طريفة، كأنما يستدعيه بها الى تقديم المزيد من التوضيحات. الا ان ماك غريغور عاد الى الصمت، فأستأنف موزيل الكلاك:

- مدهش انت. انك تثير اعجابي.

- وما علاقة هذا كله مع اموال الأكراد.

- ان الشخص الذي ستلتقي به اليوم هو تركي يدعى العقيد سيروغلو.

- يبدو من لقب عائلته انه يوناني.

- كلا، انه نفسه ليس تركيا. انه يمثل المخابرات التركية بأوروبا. وهي محطة تحت تصرفها

اموال ضخمة. وان جزءاً من هذه الاموال الضخمة المخصصة لهذه المحطة المخابراتية تأتي من الامريكان بالتأكيد، رغم ان سيدوغلو يضيق ذرعاً بهم. وهكذا فانه سيوجه اليك نفس هذه الأسئلة التي وجهتها انا اليك.

- ولكن ما هو شأن الاتراك هنا؟ وما علاقته بالنقود الكردية.

- توجد بحوزة سيروغلو جميع الوثائق والاعتمادات التي كانت لدى صاحبكم الكردي، ذلك الشاب الذي أختفى.

ادرك ماك غريغور ان صمته الذي التزم به عن عدم وجود اي صلة له مستقبلاً مع الأتراك، كان عبثاً فسأله موزيل عن الصورة التي عرف من خلالها عن وقوع الوثائق بيد الاتراك بالذات وكيف حدث ذلك.

ليس عندي فكرة عن هذه الصورة - وبعد ان قلص موزيل كتفيه قال - ان الوثائق تلك هي التي صارت بيدهم، وليس النقود.

- لكن هذه النقود، أين هي الآن؟ وهل انت لاتعرف ذلك؟

- النقود موجودة باحد البنوك الباريسية. بل وهي على وجه الدقة موجودة باحد فروع واحد من البنوك الفارسية بباريس، اي في البنك الفارسي.

- لا علم لي بهذا الأسم.

- ان هذا بنك خاص، وكان قد تأسس قبل عشرين سنة في باريس.

- ولكن من هو ذلك الكردي الذي صار يودع هذه النقود في بنك فارسي، اي انه لديه الجرأة على القيام بهذه المغامرة؟

- لم أفكر انا بذلك - رد عليه موزيل.

رفعوا الصحن الذي فرغ من امام موزيل، وازاحوا صحن حساء ماك غريغور الذي لم يأت عليه كله. وطفح وجه موزيل بالحبور امام طبق سمك الفاريل - الشبوط المشوي الذي جلبوه له. ثم قال في اثناء ما كان يسكب عصير عنب سويسري بكأس ماك غريغور:

- أخبرني انت أيضاً عن ناحية أخرى، وهي انه اذا تهيأ لك وتسلمت هذه النقود شخصياً، فماذا تنوي العمل بها؟

- اعيدها الى الاكراد.

- حسناً. ولأي غرض هم بحاجة الى هذه الاموال؟ هل لتسديد ثمن الاسلحة التي يريدون امتلاكها؟

- ليس لي علاقة بهذه الناحية.

- لربما ان لهذا الجانب ارتباطاً قوياً بك - قال موزيل طاويا كتفيه علامة على الأسف واضاف - هناك اثنان من تجار السلاح المحليين يترصدان وثائق صاحبكم الكردي الشاب من أجل الاستحواذ عليها. واحد هذين الشخصين هولندي، ويدعى سيليغ، والثاني انكليزي شريك له، يدعى سترونغ أو فورت (كلا الاسمين بمعنى واحد، اي القوي، بالانكليزية والفرنسية) أو بهذا اللفظ كما يبدو. فهل صادفك ان سمعت عنهما شيئاً؟

- كلا.

- لكنهما سمعاً عنك أخباراً. وامثال هؤلاء يلقبون بلقب المروجين بعد البحار. فهل انت تفهم هذه الرطانة عندنا؟

- كلا.

- انهم يدورون بين الدوائر الحربية في أوروبا وبين ادارات مصانع الاسلحة. ومن بعد ذلك يبيعون كل ما يقع بايديهم الى مناطق ما وراء البحار فقط: اي الطائرات النفاثة التي فات زمانها والدبابات التي شطبت من الخدمة ومدافع الهاون والعتاد الحربي والبنادق والرشاشات. وباختصار فانهم يتاجرون بكل شيء. كما انهم يعرفون كل ما يدور ويجري ضمن اطار هذه التجارة. وكل هذه الفضلات من السلاح تذهب أكثر ما تذهب الى افريقيا والشرق الأوسط. وان بعضاً من هذه الاسلحة تصل الى مشترين من أمثال اصدقائك.

- كيف تكونت علاقة هؤلاء التجار مع سيروغلو؟ - سأله ماك غريغور.

- كلا. ان هؤلاء بحاجة فقط الى الوثائق التي بحوزة سيروغلو - وضغط موزيل على زر الجرس وقال - من المؤكد أن الدهشة ستأخذك بشأن هذه الوثائق، ولماذا ابدي مثل هذا الاهتمام نحوها ونحو مراعاة الموقف القانوني بصورة علنية - وانتظر موزيل الى أن تذهب الخادمة التي استدعاها فقال - إن الحكومات نفسها تضطر في مثل هذه القضايا الى التزام الواجهة القانونية. فكلما تكون الشكوك أكثر حول الصفقة كلما ينبغي ان تظهر قانونيتها أكثر شرعية. وبناء على ذلك فانت سوف لا تحصل الا على القليل، اذا لم تكن راغباً في ان تزج بهذه القضية اثارة مقاضاة قاسية.

- مثل هذا الاسلوب ليس بعيداً عن ذهني.

- هذا أمر جيد. وعليك ان تستوضح قبل كل شيء، ماذا يمكنك الحصول عليه من العقيد سيروغلو. الا اني ارجو منك ان تكون شديد الحذر. فهو تركي لايخطى الهدف بتاتاً.

إختتموا الغداء بتناول صحن لحم مقلي (بيغشتيك) غير كبير مع فول أخضر وشربوا عصير عنب أحمر. وبما انه لم يكن مقرراً شرب فنجان قهوة قبل الغداء، فان موزيل أقترح على ماك غريغور الانتظار بقاعة الاستقبال ذات المنظر الجميل التي يقع الحمام الى جانبها. اما هو موزيل فقد أختفى. وبعد ذلك عاد مرتدياً بدلة الفرسان، اي بنطرون برجس مع بلورة - كنزة ذات فتحة صدر ضيقة وقمصلة قديمة،مرفقاها وجيبد بها ممزقة. وقال له موزيل:

- هيا بنا - هبط بهما المصعد البرونزي اللامع الى مرآب - كراج - تحت الارض، حيث توجد سيارة موزيل «روفير». وقاد هو السيارة عبر الشارع لافاييت، وبعد ذلك نحو ناحية المحطة الشرقية، خلف ممرات الجزارين بمحاذاة المجازر الجديدة التي لاتحتاجها باريس. وخلال شارع جوريس كثيف الأشجار صعدوا نحو البانتيون. وظهرت هنا كنيسة قديمة بشكل واضح على أطراف مدينة بائسة. وظن ماك غريغور انها «سينيورينا» اي بنك، أو نباية لأغراض اجتماعية. الا انها كانت ستاداً - ملعبا - رياضياً غير كبير في البانتيون الضاحية العمالية في باريس.

أجتاز موزيل عبر البوابة الرئيسية وقاد السيارة خلف ساحة اللعب نحو مسرح مغطى بسقف اسود. وهناك كان بالانتظار سائس انكليزي يعتمر بقبعة فرسان، ويمسك بيده عناناً مفتولاً من الشعر لحصان صغير الجسم. وكان ذيل هذا الحصان مضفوراً على شكل جديلة كثيفة سوداء.

- حل الجديلة - أمر موزيل باختصار.

- لكنه سيلوث ذيله كله - أعترض السائس على هذا الطلب.

- يجب عليك ان لاتسمح له بذلك. اضربه بالسوط على الكفل بكل مرة ينسى فيها رفع ذيله.

حل السائس الجديلة المضفورة. اما موزيل فقد خلع عنه القمصلة. وبحركة مفاجئة رمى بها على رأس الحصان. وطوح الحصان برأسه غضباً، والقى بالقمصلة جانباً، فبادر موزيل الى جلده بالسوط على مؤخرة اذنه. ومن ثم أغمض بمساعدة السائس عيون الحصان الصغير بهذه القمصلة وأحكم شدها بقوة على وجهه بحبل من ذلك الذي يربطون به الامتعة بشكل مستدير، وأوضح ذلك الى ماك غريغور:

- ان المغزى من هذه العملية هو التوصل الى ان يقلع الحصان عن عاداته السابقة، وتعليمه على اتخاذ المنعطف الضروري في المبارزة، اي انه يعتاد على ترك ما هو مقزز جداً وغير لائق

في اثناء لعبة البولو. فان القمصلة تعطيه رائحتي، فعند ذاك يعرف الحصان ان سيده هو من يأمره. وهذا هو السبب في انه يجب ان ينفذ الأمر وهو معصوب العيون. وفي كل مرة يعصي ولاينصاع فيها لتنفيذ الأمر يتعرض للضرب على مؤخرة اذنيه.

أصغى ماك غريغور الى ذلك بانتباه، الا انه راح ينظر من وقت لآخر الى ما حواليه في الملعب القديم النظيف الفارغ. انه مكان مثير لعقد لقاء مع العقيد التركي. وأكد له موزيل القول في نفس الوقت الذي القى عليه نظرة صارمة:

- إن سيروغلو سيحضر الآن. ومن العبث بالنسبة لك ان تتحفظ ازاء كيتي - قال ذلك فجأة واضاف - القضية هذه ليست قضيتي. ولكن من غير الحكمة ان تتصرف مثل هذا التصرف مع المرأة حتى لو كنت قد عشت معها سنين عديدة. ارى ان كلامي هذا لايسبب لك الازعاج؟

- كلا. فما في ذلك من ضير.

قفز موزيل على السرج فوق الحصان ضاغطاً بكعب الجزمة على جانبي الحصان المرتجف. وقام هذا الحصان الصغير باطلاق ارجله الاربع المكسوة بالشعر، في الهواء. وشد موزيل نحوه اللجام. الا انه لم يحس الا والحصان الصغير الهائج لم يعبأ باللجام وراح ينط ويقف على قائمتيه الخلفيتين. وشرع موزيل يسوط الحصان على مؤخرة اذنيه باستمرار حتى هدأ واستجاب. وصار موزيل يحث الحصان على الركض على شكل دائرة في الاسطبل وليعلمه كيف ينقاد للجام. اما ماك غريغور فراح يراقب بعينين لايطرف لهما جفن كلاً من الفارس والفرس اللذين لم يبديا تساهلاً أحدهما للآخر. فان الحصان كان قد جفل مندفعاً على طول الحلبة وعرضها الى ان وجهه موزيل نحو اقرب مسافة من السياج الخشبي. وفي هذا المكان عندما قام الحصان باستدارة عريضة كما يفعل في كل مرة، فانه اصطدم بالسياج بكل جسمه. وقال موزيل متجاوزاً ماك غريغور وهو يلهث من التعب:

- فأما بالتربية الدينية الخاصة، صدقني، والا فالعقاب الصارم.

لم يلاحظ ماك غريغور ظهور شخص يتقدم الى جانبه بصورة مفاجئة، وهو ذو قامة قصيرة بحدود مئة وخمسة وخمسين سنتمترا، ومنظر متوتر متضعضع، الا انه استبعد نهائياً هذا المظهر الضعيف عنه. وكان يلبس معطفاً من الوبر بقلبتين، والتزام خلال قدومه ان يكون مستقيم القامة، وهو في ذلك شأنه شأن قصار القامة من الناس.

- ماك غريغور وسيروغلو - قال موزيل ذلك ليعرفهما على بعضهما، ثم استأنف يحث

الحصان على الجري في الحلبة الدائرية. وشد سيروغلو بحركة حميمية على يد ماك غريغور وقال:- على ضوء ما أرى، فأنت لست عسكرياً. فحينما جئت كنت أخشى ان التقي مع جندي.

- ولكنك انت عسكري بالذات.

- هذا صحيح، لكنني لا أحب الالتقاء مع مقاتلين. فانا أفضل التعامل مع المثقفين... أنظر الى هذا الترويض! - المح سيروغلو مشيراً الى موزيل وهو يصارع الحصان وقال - ماذا يريد هو من الحصان؟

- انه يريد تعويده على عدم الاستدارة الخاطئة في الحركة - قال ماك غريغور.

- موزيل لديه رغبة بتكييف الطبيعة - تكلم سيروغلو متهيئاً للدفاع باستماتة عن الطبيعة بجسمه الضئيل وقال سائلاً - هل تعرف ان ولدي يدرس بنفس المكان الذي تدرس فيه ابنتكم؟

- كلا، لا علم لي بذلك.

- هل ان ابنتكم تحضر الى البيت مع اصحاب عقيدة مذهب الشك؟ وهل انها لاتنوي مقاطعتهم مقاطعة شاملة؟

- كلا، فان هذا الموضوع لن يصل الى هذه الحدود القصوى.

- اما ولدي الثاني فهو تلميذ يدرس بمدرسة ايكول الزاسين. وان جماعة مذهب الشك يتهيأون لأحتلال مبنى هذه المدرسة. وذكر الولد ان هؤلاء سيسيطرون في خلال الاسبوع القادم على جميع المؤسسات التعليمية في فرنسا، ومن هذه المدرسة التي ستصبح تحت سيطرة الطلاب. ولا أعرف ماذا يجب ان أفعل، واردت ان أسألك، فيما اذا كنت ستتخذ ما يكفي من الاجراءات لحماية ابنتك.

- هذه المشكلة ماتزال غير قائمة بوجهي - أجاب ماك غريغور جواباً متملصاً.

- انا أخشى ان يصاب ابنائي بالأذى عند مطاردة البوليس للطلاب، فانهما بقامتين قصيرتين مثل والدهما.

وبسبب من الهواجس الخفية المزعجة التي أحس بها سيروغلو فان جسمه قد تشنج كله، فأبتعد عن السياج مفسحاً المجال لموزيل على الدرب الذي عاد (موزيل) خلاله راجعاً. وكان بدن الحصان مغطى كله برغوة بيضاء وبالغبار، وانفاسه تخرج حارة رطبة من منخريه. وهز الحصان رأسه مرة أخرى، محاولاً الأطاحة بالقمصلة، الا ان موزيل ساطه على رقبته بضربة

خفيفة. ومن ثم قفز مترجلاً على الأرض، وأنتزع القمصلة، ومسد برقة على رأس الحصان هامساً له بشيء ما باللغة الانكليزية لا الفرنسية، من خلال اذنيه المنتصبتين. وبعدما تناول منشفة من مدرب الحصان، قال وهو يمسح وجهه المتصبب عرقاً:

- وهكذا فانتما قد التقيتما. فهل أنت ماك غريغور لم تسأله كيف حصل على الوثائق الكردية؟

- كلا، لم اسأله بعد.

- حسناً ياكمال سيروغلو، الا تقول انت لنا كيف وصلت اليك هذه الوثائق؟ - قال موزيل ذلك متوجهاً نحو سيروغلو، بينما كان يمسح ارجل الحصان بالمنشفة.

- بصورة قانونية تماماً. فبما ان مناف عزت الذي تعود له الوثائق هو مواطن تركي، فان مديرية الأمن الفرنسية سلمت لنا هذه الوثائق.

- كيف وقعت هذه الوثائق بيد رجال الأمن - سأله ماك غريغور.

- لقد قضى مناف عزت نحبه في المستشفى، بمدينة ليون، من جراء اصابته بمرض التيفوئيد الذي اصاب غشاء البريتون. وان البوليس قد أخذ الوثائق التي معه واعلمنا بها. وليس هناك أي أفعال سرية.

- ليس هناك أي سبب آخر أبداً، أهكذا يا كمال؟ فان كل شيء قانوني - ثم ابتسم موزيل واضاف - ان كل شيء مكشوف من جانبيه. فأنظروا الى ذلك وتأكدوا.

- هكذا تماماً.

- لكنني اريد التأكيد، ومن واجبي ذلك - تكلم ماك غريغور واضاف - أن هذه النقود والوثائق ما كانت تعود الى مناف عزت شخصياً.

- ومن اين حصلت انت على هذه المعلومات؟ - سأله سيروغلو.

- أنني علمت ان هذه الوثائق والنقود تعود الى اللجنة الكردية.

- ان عندي معلومات عن هذه اللجنة -قال سيروغلو واضاف - ولكن ما هي طبيعة علاقتك بهذه اللجنة؟

- أنا مخول بصلاحية الكلام والعمل باسمها، واتمنى الحصول على هذه الوثائق عن جديد.

- وبصدد هذه النقود، فهل أنت تعرف مكان وجودها؟ - سأله سيروغلو.

- من الطبيعي اننا نعرف ذلك - تدخل موزيل بالكلام وقال - رغم ان الوثائق عندك يا

كمال الا أن من المتعذر عليك تسلم النقود من البنك الفارسي، ما لم تثبت حقك بها بموجب القوانين الفرنسية قبل كل شيء.

- ولكن هناك جانباً آخر - أعترض عليه سيروغلو وقال - وهذا الجانب يشير الى انه ليس بوسع اي كان تسلم هذه النقود بدون الوثائق الموجودة بحوزتنا. وان البنك الفارسي أعطاني تأكيداً خطياً حول هذه النقطة.

- هذه الوثائق هي ملك للجنة الكردية - قال ماك غريغور واضاف - وانا ارى انك ليس من حقك ابداً ان تستحوذ عليها لشخصك.

وفي اثناد حديثهم هذا وصلوا الى القرب من سيارة موزيل الذي وضع يده على مقبض باب السيارة بحالة من يستعجل للمغادرة أو لديه رغبة في ان يبادر سيروغلو للانتقال الى جوهر القضية بأسرع ما يمكن.

- أننا نستطيع تسليم الوثائق يا مستر ماك غريغور بشرطين اثنين فقط - قال سيروغلو.

- اذن، هيا اذكرهما الآن - قال موزيل.

- بإمكانكم تسلم الوثائق بموجب هذا الشرط وهو ان اي استغلال لهذه النقود يجب ان يكون حاصلاً على موافقة حكومة تركيا.

- هذا غير ممكن - أعترض ماك غريغور وقال - ولايمكن ان يدور عن ذلك أي كلام مهما كان.

ولكن سيروغلو واصل الكلام وكأنه لن يسمع ما قيل له فأضاف:

- اننا نصر أيضاً على تسليم القتلة الذين أطلقوا النار على جنودنا في الحدود قرب سيندوي، الى السلطات التركية بمدينة ساراي ليمثلوا هناك امام القضاء.

قابل موزيل هذا الكلام بالضحك. اما ماك غريغور فقد احتقن وجهه دماً. لكنه قال:

- لن يوافق الأكراد ابداً على هذه الشروط. وانت تعرف ذلك جيداً.

وهنا فتح موزيل باب سيارته «روفير» وقال:

- هل هذا هو آخر ما عندك من كلام يا كمال؟

- ماذا باستطاعتي القول أكثر من ذلك؟ - تمتم سيروغلو بانقباض. ومن ثم مد نحو ماك غريغور يده الصغيرة الرقيقة وأبتسم قائلاً - سوف لانتشاجر بسبب نقود غريبة. وانا أرغب لو تنعقد صداقة بين ولدي وابنتكم، كما ارغب حتى في أن نتقابل بجو عائلي ونتحدث عن

اولادنا وكيف نحميهم بشكل افضل. وانا معجب بالاساليب الانكليزية...

- أجل، أجل - قال ماك غريغور.

- هل بالامكان ان اتصل بزوجتكم تليفونيا ؟ - سأله سيروغلو.

الا ان موزيل لم يفسح المجال لأنهاء الكلام، فقد تحرك بالسيارة من المكان وخرج من البوابة، بدون الكلمات الأخيرة، مشيرا بيده اشارة عابرة بالوداع الى سيروغلو تاركاً اياه وهو العقيد الصغير، وحيداً في الملعب الفارغ. وقال موزيل في الوقت الذي قاد به السيارة نحو الشارع جان جوريس:

- اعتذر لقطعي الكلام عليكم. ولكن هذه الطريقة هي الأفضل للتعامل على سيروغلو. فهو مخلص لقضيته بصفته تركياً. وكل ما عدا ذلك فما هو الا للتغطية بالنسبة له.

- ولكن لماذا ظل هو ملتزماً بهذا التصرف الودود ؟ فهل كان يأمل بالانتزاع اي معلومات مني ؟

هز موزيل رأسه بالنفي وقال:

- سيروغلو يريد ان يكون محبوباً محترماً في باريس. اما ما يتعلق بالقتلى الاتراك فبإمكانك عدم القلق بهذا الشأن من جانب سيروغلو. اي من حيث الخطة الاخلاقية. فان سيروغلو قتل عدداً ليس قليلاً من المواطنين الاتراك خلال حياته السابقة - واصل موزيل الكلام بما يوحي لماك غريغور ان يظل ساكتاً - ان قضيتك الرئيسية تتلخص في كيفية التصرف بالنسبة لك بدون الحصول على هذه الوثائق.

أدرك ماك غريغور ان موزيل يريد منه الاستنجاد به طلباً للمساعدة،. الا ان لسان ماك غريغور، لم يتلفظ بهذا الرجاء. واضاف موزيل القول:

- كان بالامكان ان يقدم لك نوعاً من المساعدة رجال أعمال هولنديون مع انكليز. وهؤلاء يجلسون، على أقرب أحتمال، بانتظارك في غرفة الضيوف بالتأكيد.

- لا أظن ان العمة جوس ستسمح لهم.

- لاتكن على هذه الدرجة من الثقة بهذا الشأن. فان العمة جوس ذات نظرة ثاقبة.

فهؤلاء يريدون مقابلتك. ولو كنت في مثل موقفك فسأفضل الاصغاء لهم. وعلى الأغلب فأنهم مطلعون على القضية أكثر من سيروغلو.

أجتازا شارع شاتيل ومجموعة من الطلبة الذين يمشون على الرصيف، ولكنهم ضربوا باكفهم على سقف السيارة «روفير» صارخين:

- الصحافة باعت نفسها للسلطات! «الفيغارو» هي جريدة الفاشيين الصغيرة!

أخرج موزيل رأسه من نافذة السيارة وسأل الطلبة، ماذا هم يريدون هنا على هذا الجانب الايمن من جرف النهر.

- البوليس شتتنا، والجواسيس أغلقوا الجسور. وهكذا فأننا ننبح من بعيد.

هنا استدار موزيل نحو أقرب شارع جانبي وقال:

- سأنزلك عند الجسر الجديد. فانا لا اريد الانحشاء وسط الزحام على الجانب الأيسر من النهر.

فهل ستصل انت الى البيت دون اضاعة الطريق؟

- حسناً، سأصل.

- اذن سأقول لكيتي تعطيك فكرة عن طريقة العمل واتجاهه.

- وهل أنت ستلتقي معها الآن؟

- هل انها لم تحطك علماً؟ - تكلم موزيل في اثناء ما كان يكبح السيارة ليوقفها ولينزل منها ماك غريغور وقال - انني انتظرها بضيافتي في الساعة الرابعة. واريدها ان تتعارف على ابنتي. ومن المحتمل ان كيتي هي عندنا الآن.

كان يحدث لماك غريغور من قبل، ان يعود الى البيت فيكتشف ان كيتي ليست هناك، حيث تكون قد ذهبت الى أي مكان. ولكن ذاك كله لم يبدُ له على هذه الدرجة من الشؤم، فلقد نزلت الكارثة في البيت القديم المهجور. وشعر باللوم البارد يصبه عليه المرمر واشجار الجوز وحجر الغرانيت. فلماذا ذهبت كيتي الى موزيل، من دون ان تقول له شيئاً مهما كان؟ وسار ماك غريغور مرة أخرى في الشارع، وبخروجه من الاستدارة فوجيء بالالتقاء باثنين من الاشخاص، والتفتا نحوه مناديين باسمه «ماك غريغور». ثم ذكرا اسميهما. انهما كانا الهولندي سيبليغ والانكليزي سترونغ. فتحققت بذلك الزيارة التي تنبأ موزيل بها له. وقال له الهولندي:

- نحن لايناسبنا الالتقاء معك بحضور موزيل، مع ان وساطته هي شيء كبير الثمن ولكنها زائدة تماماً.

- وماذا تريدون؟

وقفا في المنعطف الذي سده ماك غريغور وراءه. وقال له سترونغ:

- سيكون مريحاً لو نتبادل الافكار حول القضية في البيت.

- ان هذا غير جائز هناك، وعلى هذا فما هو الشيء الذي تريدونه؟

- ان من غير المناسب الكلام الآن في الطريق مباشرة - رفع سترونغ صوته واضاف - يوجد هنا مقهى وراء الزاوية. هيا بنا الى هناك.

سار الاثنان معه، واحد من اليمين وآخر من اليسار، وقاداه نحو مقهى صغير غير جميل. وفي الركن العميق منه كان هناك منضدة بليارد. فوقها ثلاث قطط وكلب صيني. صاح الهولندي Tteus، اي انظروا، وتوجه نحو الكلب. ولكن الكلب هرّ بوجهه وقعقع باسنانه، الا ان الهولندي سيلغ شرع بلا وجل يمسد على رأس الكلب ويحك له شعره. اما سترونغ الانكليزي فقد نادى عليه صائحاً:

- دع هذا الكلب هادئاً. فهو لايطيق صبراً عليك.

فكر ماك غريغور مع نفسه «من منهما الرئيس؟» فالهولندي كان امهق ابيض لحد غير طبيعي. وشعره نصل من البياض، وكذلك كان حاجباه. ورجلاه بيضاوان واهدابه بيضاء. هكذا كان هو تقريباً ولكنه ليس أبرص تماماً. اما الانكليزي فقد كان يمارس دور الخشونة العامة والطيبة لرجل قوي البنية. وبهذا فانهما متناسبان مع بعضهما البعض. ولم يحاول ماك غريغور خلع معطفه. واجاب على السؤال حول ماذا يجب ان يحتسي:

- فنجان قهوة.

- شكراً لله - تكلم سترونغ وقال - أخيراً فقد صار لنا عمل مع انكليزي. فان لدى اصدقائك الأكراد، وعادة سيئة حيث انهم يواصلون الكذب معنا دائماً وكذلك الغش، طالما ان الاوربيين كلهم، بحسب رأي الأكراد، يكذبون عليهم ويغشونهم.

- مع اي من الاكراد كنتم تتصلون؟ - سأل ماك غريغور.

- بأكراد من مختلف الانواع. وكلهم على هذه الشاكلة الشنيعة - قال سترونغ بصوت عميق واطيء. كرر ماك غريغور عليهما السؤال حول ماذا يريدان منه.

قال له الانكليزي، انه بحسب المعلومات التي وصلت اليهم من مصادر متنوعة، فهو مخول من قبل الاكراد ان يقوم بالبحث عن النقود المحولة الى أوروبا لشراء الاسلحة. اليس هذا صحيحاً؟

- صحيح بعض الشيء- أجاب ماك غريغور.

- أننا نعرف ان هذا مؤكد - تدخل الهولندي بالكلام وقال - ان لدينا هنا -... وسحب سلسلة حقيبة سوداء وفتحها بحذر فوق المنضدة وقال - ان لدينا هنا موافقة مبدئية، موقعة

من قبلنا مع مندوب كردي هو مناف عزت الذي قتل فيما بعد بمدينة ليون. ولدينا هنا الشحن التي يوافق هو فيها على انه سيشتري ونحن سنشحن.

- أوراق شحن الاسلحة؟

- وماذا لدينا غيرها؟

- انا لا أعلم بأي شيء عن هذه الناحية. فأنني غير مخول باجراء اي مباحثات حول الاسلحة.

- ان تكون غير مخول، فأنت الآن مخول، لأن عندنا بضاعة بمبلغ يزيد على مئتي ألف جنيه استرليني. والبضاعة محجوزة باسم اللجنة. ولكن الثمن لم يدفع لحد الآن من قبلكم. واننا ننتظر منكم ان تدفعوا الثمن - تكلم الهولندي واشر باصبعه إلى الورق واضاف - وذلك لأجل انجاز نقل الصفقة.

نظر ماك غريغور الى ورقة من نوع الرايز الخفيف، وهي ورقة مستنسخة شاحبة تقريباً، مع أوراق الشحن التي لم يلتفت لقراءتها، لأنه ليس راغباً في ان يعرف عدد الاسلحة وانواعها. ثم قال:

- الا ترون ان هذه ليست ورقة عقد باتفاقية. فانا لا أرى هنا اي نوع عن التواقيع فتش الهولندي عن وثيقة أخرى في الحقيبة وقال:

- هذه هي الشروط الاولية التي وقعها مناف عزت.

وقام باعطاء ماك غريغور ورقة خفيفة أخرى مكتوبة باللغة الفرنسية على آلة كاتبة. وفي اسفلها تواقيع ملتوية تبدو واضحة. ومن بينها نقش فارسي هو توقيع مناف عزت. وافاد نص هذه الورقة ان الجانبين موافقان على عقد اتفاق بشأن البضائع المذكورة في القائمة على ان تكون بموجب وثيقة منفردة.

- ان ما هو مكتوب هنا اتفاق على عقد اتفاقية - ابدى ماك غريغور هذه الملاحظة وقال ولكن اين هي الاتفاقية بالذات. واين العقد؟

- انها امامكم - نقر سترونغ باصابعه على صفحة الورقة وقال - انها نافذة المفعول بموجب القوانين الفرنسية.

- ارتاب بذلك - قال ماك غريغور واحتسى فنجان قهوته حتى الآخر واضاف - سواء أكان الامر بهذه الصورة او تلك فانا لا أستطيع مساعدتكم طالما انه لايدخل ضمن الصلاحيات

التي عندي تخويل بها. كاد الهولندي أن ينفعل لولا أن سترونغ قد أوقفه باشارة من يده وقال:

- دقيقة واحدة يا ماك غريغور. نحن فهمنا موقفك الذي انت فيه - تكلم بلهجة ودية توحي بالثقة كما يتكلم انكليزي الى انكليزي فقال - انت لم تحصل عملياً لحد الآن على هذه النقود. أصحيح هذا؟ وهذا يعني أنك لا أستطيع ان تعطينا وعداً بدفعها لنا، أهذا أكيد؟

- لنفترض ذلك:

- اننا نعرف ان هذه النقود ليست تحت يدك - تكلم سيبليغ بصوت مشبع بالثقة وقال - لكننا مستعدون لمعاونتك على تسلم هذه النقود من البنك الفارسي، اذا أبديت لنا موافقتك على الالتزام بشروط الاتفاقية.

- وما هي الصورة التي تريدونها؟

- عندما تثق بنا فاننا سنستطيع - قال سترونغ.

نبح الكلب. وقام سيبلغ مرة أخرى وتوجه نحو منضدة البليارد.

- هل كنت تعرف يا ماك غريغور ان النقود مودعة في البنك الفارسي؟

- طبعاً.

- ان هذا يعني ان محادثة جرت لك مع العقيد سيروغلو - قال سترونغ واضاف - ولكن مقترحنا عليك هو أكثر فائدة الى حد كبير.

- المأساة في اقتراحكم هو انه يربط رأسي الى قدمي قبل اجراء اي شيء - قال ماك غريغور ذلك في اثناء ما نهض من مكانه.

- وماذا يعني ذلك؟

- اذا كنتم مستعدين لمعاونتي في تسلم النقود، فعند ذاك سأستوضح عما اذا كان الأكراد موافقين على الالتزام باتفاقيتكم. وبموجب هذا التنسيق بالذات يكون العمل فقط.

من بعد هذا الكلام، ومن دون انتظاره لاقتراحات جديدة توجه نحو باب الخروج. الا ان الهولندي قد استوقفه. فوقف الثلاثة عند الباب. وتكلم الهولندي:

- هل من المؤكد انت لاتعرف من الذي اودع النقود الكردية في هذا البنك الفارسي؟

- كلا، لا أعرف.

- هل ان موزيل لم يخبرك عن ذلك؟

هز ماك غريغور رأسه بما يعني: كلا.

- ففي هذه الحال انا سأقول لك ذلك. أخبرك قبل كل شيء ان هذه النقود لم يودعها احد ابداً في البنك الفارسي. فان هذه النقود كان مناف عزت قد حولها من بنك في زيوريخ الى البنك القبرصي بمدينة فوماغوستا. فهل كنت تعلم ذلك؟

- كلا.

- واننا اتفقنا مع مناف ان نختار بنك فوماغوستا بصفة وسيط غير مباشر كمالك للنقود، الى ان يتم تنفيذ بنود الاتفاقية تنفيذاً نهائياً. وانت بالطبع لاتعرف شيئاً عن ذلك. اليس هذا صحيحاً؟

- نعم.

- لكنه قبل ان يسعفنا الوقت ونلحق بختم العقد بتوقيع القاضي، حصل ان بنك فوماغوستا قد جرى بيعه في شهر كانون الأول الى احتكار مصرفي مؤلف من ثلاثة بنوك، هي البنك البرسيدي والبنك اليوناني والبنك الفرنسي. ولكن هذا البنك البرسيدي بهذا الاحتكار المصرفي ظهر انه هو البنك الفارسي بعينه. وبهذا فانهم قيدوا الوديعة المالية الكردية ببساطة باسم البنك الفارسي. واحتجزوها هناك. الا ترى أنها عملية نظيفة حقاً؟

- حقاً. ولكن من هو المنظم لهذه الخديعة؟ - سأل ماك غريغور.

- سل عن ذلك زميلك موزيل - اجابة الهولندي.

تناول الانكليزي مرفق ماك غريغور بلمسة ودية وقال:

- دعك من هذا الكلب. وما حصل فقد حصل - ثم واصل الضغط على مرفق ماك غريغور واضاف - اسمعني يا ماك غريغور، ان كل هذا بالنسبة لك، حسب رأيي هو أشبه ما يكون بالنسبة لك بالقراءة والكتابة باللغة الصينية او بمستنقع قذر. ولهذا اسمح لي باعطائك الآن نصيحة مفيدة.

- انا اريد استعادة نقود الأكراد. اما من بعد ذلك فلا شأن لي به بجميع الأحوال.

- ولكن هذه النقود صارت مرصودة للأسلحة - قال سترونغ واضاف - انت لاتستطيع سحبها من الصفقة. ومن الحماقة ان تحاول ذلك.

- لربما.

- وهكذا، ألم تفهم الآن، كيف يمكنك انقاذ هذه النقود وباي وسيلة؟ - الح عليه سترونغ.

- أظن ذلك - تمتم ماك غريغور.

- ابق على هذا الظن. وبالعافية عليك - قال سترونغ واضاف - لكنك لن تستطيع تحقيق نجاح بدون مساعدتنا لك. وقد صار هذا واضحاً لك الآن.

- انه واضح نوعاً ما.

- وبهذه المناسبة، يجب عليك ايضاً ان تفهم باننا من أقترحنا عليك أحسن الطرق وانظفها للخروج من هذا الموقف - تكلم سترونغ بصوت هادىء ودي، بنفس الوقت الذي كان يشد فيه بقوة على يد ماك غريغور واضاف - ان اوراق الشحن العائدة لنا شرعية تماماً. ولم يبق امامنا الا الاتفاق على نقل الحمولة الى ميناء لبناني. ولهذا فان بيدك ان تمنحنا الموافقة على التحرك، والا فانت تضيع وقتك سدى.

- يجب ان أفكر بهذا - قال ماك غريغور بعدما سحب مرفقه.

- ألست تغالي بالتفكير عميقاً يا ماك غريغور، بينما هناك عندنا اناس آخرون راغبون - تكلم الهولندي مع قهقهة فجة.

- صه يا سيبليغ - صرخ به الانكليزي.

- كيف سيكون الاتصال بكم مستقبلاً؟ - سأله ماك غريغور.

- هنا - اجابة سترونغ - بمجرد مجيئك الى هنا وتخبر لويزا - التفت سترونغ نحو امرأة كانت تقف على خدمتهم. وهنا لاحظ ماك غريغور انهم لم يسمحوا لأحد من الرواد بالدخول الى المقهى خلال كل هذا الوقت. فقد ظهر ان باب المقهى كان مغلقاً. وفي هذه اللحظة قامت لويزا وتوجهت نحو الباب وازاحت المزلاج. وهي بحسب الفكرة التي خطرت على بال ماك غريغور كانت تبدو مرحبة باحترام وتفوح منها رائحة الخرشوف والخل وقال مع نفسه «انهم عصابة واحدة». ثم سأل سترونغ:

- هل هذا المقهى عائد لك؟

- المبنى يعود لي.

- هل ان الادارة موجودة في الأعلى؟

- ان الادارة التي عندي هي مثل التي كانت لدى ابراهام لنكولن، اي انها تحت القبعة - اجابه سترونغ. واغرب ما لاحظه ماك غريغور من بين كل هذا اللقاء كان حالة واحدة، وهي انهم فتحوا امامه الباب وسمحوا له بالخروج.

الفصل السادس عشر

في ساعة مبكرة من الصباح سمع ماك غريغور، وهو مايزال مستلقياً في الفراش، ان احداً ما يرتقي السلم نحو الطابق الأعلى، ثم وصل الى اذنه من هناك اصوات ضاحكة لكل من اندريه وسيسي. وصاحت كيتي بعدما اعتدلت جالسة فوق السرير:

- هل هناك اندريه؟ ألم اسمع ذلك؟

- لابد ان قطار الليل قد وصل من انكلترا - اجاب ماك غريغور بصوت حالم.

نهضت كيتي وخرجت الى فوق. وبقي ماك غريغور مستلقياً يخامره شعور من السعادة الرضية ان الأسرة قد تجمع شملها كلها. وسمع صوت كيتي قادماً من فوق تخوض جدالاً غاضباً مع اندريه، مما جعله يغوص برأسه في الوسادة. وبعدما عادت كيتي الى غرفة النوم أعلنت بلهجتها الانكليزية الجافة والمبتذلة تماماً:

- في خلال شهر سيكون عنده امتحان الدور الاول، بينما يخبرني انه جاء الى باريس لمراقبة الاحداث.

- لاتقلقي - تكلم ماك غريغور وهو على حالة اضطجاعه في الفراش وقال - لم يحصل لأندريه ان فشل في امتحان في الحياة. وهو سيجتاز الآن جميع الامتحانات بنجاح.

- لكنه غير مستعد لاداء الامتحان - تكلمت كيتي من جانب باب الحمام التي ظلت واقفة قربه وهي تنظر الى زوجها نظرة تفيض باللوم وقالت - بل الاكثر من ذلك فهو لايريد مواصلة الدراسة هناك للدور الثاني. وبناء على ذلك فهيا أيها الأب انهض لترى ماذا ستفعل معه.

أعتدل ماك غريغور فوق الفراش وقال:

- هل ان هذا الكلام جدي؟

- ومن ذا الذي يفهمه - ردت عليه كيتي من داخل الحمام وقالت - ومن يدري ماذا يعد لنا هذا المخ المتفتح من نزوات - وفي هذه الأثناء تهدج صوتها بلهجتها الباردة الساخرة، ومن

ثم سمعها ماك غريغور تتمتم غاضبة: «يا رب الى اي حد انا لا أحب هؤلاء المنفلتين».

عرف ماك غريغور، ان هذه القذيفة موجهة اليه بالذات. وبدأ يحلق وجهه صامتاً. وصمتت كيتي في الحمام ايضاً، الا ان ظل المشاجرة قد القى بأكمله عليهما، وهي المشاجرة التي تجاوزاها أمس مساء، عندما عادت كيتي من بيت موزيل بعد العشاء، وفي اثناء ذلك لم يحاول هو ان يسألها عن اي شيء، كما انها لم تتحدث له من جانبها عن اي شيء. وسألته كيتي في اثناء ما كانت ترتدي ملابسها:

- عندما ذهبت انت اليه في اكسفورد، هل كان قد أخبرك انه ينوي ترك الدراسة في بيليول؟

- أخبرني اندريه، ولكن ليس بهذه الصيغة القاطعة ابداً.

- انه يؤكد على حديث جرى بينه وبينك. فلماذا لم تخبرني عنه؟

- انني في الواقع، لم أظن ان لديه مثل هذا القرار الجدي.

- لكنه يقول، انك سمعته فيه ذلك. فما هو الشيء الذي أوضحه لك؟ أخذت كيتي تستقصي التفاصيل منه وتواصل اقترابها من السرير.

- سمعته يبدي بعض الملاحظات الساخنة حول بيليول. وهذا هو كل ما اتذكره مما بقي في ذهني.

- اذن، هيا ابذل جهدك لتثنيه عن اتخاذ هذا العمل الجنوني - قالت كيتي ذلك بلغة الأمر، ومن ثم نزلا كلاهما لتناول الافطار في الاسفل.

كان اندريه جالساً وراء المائدة، ويقرأ على مسامع سيسي بصوت عالي جرائد الصباح. ولم يشرع الأب بالكلام مع ولده، مرجئاً ذلك الى ما بعد انتهائهم من تناول الافطار، والى أن تذهب سيسي لمرافقة العمة جوس، والى ان تذهب كيتي لاستبدال ملابسها، حيث كان ينبغي لها ان تذهب الى مكان ما في فوبورسنت اونورسي أو الى شارع مونتين المشجر، أو الى دار الأزياء،أو الى الحلاق. وقال اندريه:

- ان باريس هي الآن في عشية انقلاب جبار. وانا اريد ارى ذلك. وهذا هو كل ما في الأمر.

- ولكن ماذا بشأن الامتحانات؟ فاذا لم تؤد الامتحانات فسيفصلونك من الدراسة.

- وكذا فاني لا اتهيأ لادائها.

- ما هو السبب؟

- سبق لي ان أخبرتك ان بيليول هي مدرسة دينية ثانوية لأعداد الكهنة السياسيين. وانا لست بحاجة الى هذا النوع من التعليم.

- الدراسة في البداية تبدو بلا فائدة في كل جامعة - قال ماك غريغور محتفظاً باقصى درجات الهدوء واضاف - فقد كنت إن قد أعتبرت نفسي خلال الدور الأول بجامعة كمبرج، أعرف أكثر مما يستطيعون تعليمه لي. ولكنني اضطررت الى ان أقضي أخرى لأعرف كم هي قليلة معلوماتي في واقع الحال.

- انت درست العلوم الطبيعية. انا هذه فقضية أخرى.

- ان طريق العلم والمعرفة واحد هناك ايضاً.

- ليكن كذلك افتراضاً. ولكنني لا أريد عملياً ان تعلم ما هم يريدون تعليمه لى هناك. لقد تناولت منه ما يكفي، وصرت متخماً منه حتى البلعوم. أنني سأواصل البقاء بجامعة أكسفورد، الا انني سأنصرف الى دراسة واحد من العلوم الطبيعية، مثلما فعلت انت، أو انني سأدرس الرياضيات. ولن ادرس اي علوم انسانية او أخلاقية أو سياسية...

- وهل باستطاعتك الالتحاق ببساطة هكذا، بلا مقدمات أولية بالعلوم الطبيعية؟

- سأستطيع ذلك اذا ما قررت البقاء.

- ما هو العلم الذي ستختاره؟

- المسألة غير متعلقة بهذه الناحية - أجاب اندريه بهدوء عارفاً (بل انهما كلاهما يعرفان) انه سيستوعب اي علم سيرغب بدراسته.

- لا فائدة كبيرة ترتجى من وراء اتخاذ مثل هذا الاسلوب في اختيار نوع التعليم.

- أعرف ذلك. ولهذا فضلت لو أترك الموسيقى كلها...

- «ان تترك بسهولة»، فهذا ما لا اسمح به لك.

- لاتقلق بهذا الشأن. فأنا لن ارتكب حماقة. وكل ما أريد هو أن استبدل فقط خياري، طالما ان الوقت غير متأخر. وأرجو السماح لي بمراقبة الاحداث هنا، وعند ذلك سأقرر ما أريد.

- حسناً - قال ماك غريغور ثم صمت قليلاً، لكنه اضاف - ابقى هنا لحد هذا الحين. غير اني ابقيك هنا لأمر واحد، وهو ان اتحين الفرصة لأثنيك عن رأيك.

- تفضل بهذا - ضحك اندريه وقال ايضاً - انا الآن فسأذهب الى جامعة السوربون مباشرة. فقد ذكرت سيسي ان الطلبة سيناقشون اليوم المسألة توسيع الاضراب ليشمل فرنسا كلها، وكيف سيحققون ذلك - بعد ذلك نزل الى فناء البيت، وخلال دقيقة من بعد ذلك سمع ماك غريغور صراخ اندريه ومارين العالي. وخرج ماك غريغور نحوهما ليرى ما يجرى هناك. فشاهد العجوز مارين يصرخ في فناء البيت على شخص خلف البوابة يطلب منه الابتعاد عنها، والا فسيستنجد بالبوليس. اما الواقف وراء البوابة فكان يصرخ بالفرنسية، انه يريد رؤية ماك غريغور. ورد عليه ماك غريغور:

- انا اسمعك. فماذا تريد؟ ومن انت؟

- ولكن اي كلام هذا يدور عبر جدار اصم - قال ذلك الشخص واضاف - انا لا استطيع الصراخ عالياً عن القضية على طول الطريق.

ازاح ماك غريغور مزلاج البوابة وفتحها، فبادر هذا الشخص الغريب فوراً الى دفع الظلفة ليوسع فتحتها. وبحركة عريزية قاومه ماك غريغور بالاستناد الى البوابة، بينما وضع اندريه من ناحيته كتفه عليها. اما مارين فقد قال صارخاً:

- انظر انه يريد اقتحام الفناء.

- هذا انتم الكلاب الغبية. دعوني ادخل - صاح هذا الغريب.

أغلق ثلاثتهم البوابة مرة أخرى. وسأل اندريه والده:

- من يكون هذا؟ وما هي المسألة؟

- لا أعرف اي شيء مهما كان - قال ماك غريغور.

- ولكن هذا يعرفك بالاسم...

- انك سوف لا تستطيع الاحتماء طويلاً وراء ستار يا ماك غريغور. هيا أخرج... - تعالى الصوت من خلف البوابة.

- ماذا يريد هو؟

- لا أعرف - أجاب ماك غريغور - ولا أريد ان أعرف.

ثم طلب من اندرية أن يرجع الى البيت. وعندما وصل ولده الى السلم الخارجي، قال له ضاغطاً على حروف الكلمات:

- لاتسمح لأي كان بالولوج الى الغناء، فيما اذا كنت لاتعرفه. ولاتسمح بالاخص لمن

يطلبني بالذات. ولا تدخلا في نقاش مع الغرباء في طريق، ولاتذهب الى اي مكان معهم. هل فهمت ذلك؟

- نعم، ولكن لماذا كل هذه التحذيرات؟

- وهل انت بحاجة الى التوضيح أيضا ؟

- وهل مثل هذا يحصل حتى في باريس هنا ؟

- تذكر ذلك، ونفذه.

- حسناً. ولكن من غير اللائق بك الانصياع للذعر.

- وما دخل الذعر هنا - قطع ماك غريغور على ولده الكلام مدركاً انه مصيب في الرأي وقال - انني لن أكون حصيفاً في ابداء الرقة هنا. لأن هذا شديد الازعاج.

- واضح، واضح - قال اندريه.

وقفت كيتي في أعلى السلم ومعها سيسي. وكان وقوفهما عند مكان الدخول، وسألاً عن سبب هذه الضجة؟

- لا شيء. اشياء تافهة - قال ماك غريغور - ان سبب الضجة أحد المسعورين.

- موزيل حذرني من مثل هذه الاقتحامات - بأنها ستبدأ الآن - قالت كيتي بلهجة تدل على فطنة.

- لكنه لم يحدث اي شيء، نعم لم يحدث، اي شيء تماماً - قال ماك غريغور.

- كفى، كفى، ولاتنفعل - قالت كيتي له.

وادراكاً منه لعدم ترك المجال للاثارة والانفعال، والا فان اللسان قد تفلت منه حماقة ما، وسيكون ذلك لصالح كيتي فانه قد ذهب الى المكتب وجلس هناك يقلب الصحف الى ان سمع اندريه وسيسي يحاولان فتح البوابة. وبعدما تأكد الاثنان من عدم وجود اي احد خلفها فانهما استقلا السيارة «الستروين» وذهبا الى السوربون.

وتريث ماك غريغور منتظراً صابراً حتى خروج كيتي. فانه قرر الاستعجال بلا تباطؤ للقيام بأي شيء، حتى ولو كان البحث عن مكان وجود البنك الفارسي.

وبحسب الدليل «باريس كلها» عثر على عنوان البنك، وذهب بواسطة المترو الى الشارع الدائري رقم ١٠ في حين جلود الغراء بباريس. وخرج في محطة «شاتو دي او» وبحث في الشارع عن رقم المبنى المقصود وليس عن البنك. فان هناك حيث يقيم هذا البنك يوجد

مستودع للجلود المدبوغة والغراء مع عنوان مكتوب على النوافذ: «هلال وولده». وعلى باب جانبي كانت لوحة عنوان مثبتة: «جمعية الغراء المساهمة». وكانت الاقفال معلقة على جميع الأبواب في المستودعات غير المطلية، وسأل امرأة استدارت نحو مدخل العمارة المجاورة الذي كان يذكر بخامات حديد جيول - فيرنوفسكي «ناوتيلوس» - اي الزورق. الا ان المرأة اجابته ان هذا المكان لايوجد فيه اي بنك. ونصحته قائلة:

- سل عن ذلك لدى ليون للاعتمادات في زاوية الشارع.

وسأل هناك - رغم علمه ان سؤاله عديم الجدوى. فقد رد عليه مستخدم صارت اصابعه البتراء ملوثة من عدّ النقود منذ الصباح وقال بلهجة جدية مركزة:

- في هذا الحي لايوجد اي نبك فارسي.

- لربما انه بنك خاص لمستوردي الجلود - عقب عليه ماك غريغور.

- مثل هكذا بنك غير موجود هنا، والا لصار في علم به. انت متوهم يا مسيو من بعدما شكره ماك غريغور عاد ادراجه عبر ازقة ضيقة وسط الجلود والغراء واصوات ماكنات الخياطة التي يجلس للعمل بها شبان وكهول باريسيون بوجوههم الشاحبة. وكانت الارض من حولهم مزروعة بقصاصات الجلود وجلود الغراء والغراء، كما ضربت خياشيمه رائحة ثقيلة من الاصباغ ودهان الالوان.

واسرع السير لمغادرة المكان، بعدما ادرك انه دس بنفسه من النافذة وليس من الباب، وتمخضت محاولته في هذه المرة ليس عن عبث محض فحسب، بل وكانت عبثاً مثيراً للسخرية.

صار الآن ماك غريغور لايعرف كيف بدون المساعدة من كيتي أو موزيل سيستطيع الولوج في العالم العملي الاوربي من خلال الباب الرئيسي لا الجانبي. وفضلاً عن ذلك فهو لايعرف كيف سيرجو من كيتي ابداء هذه المساعدة له، لأنه ملتزم التزام كيتي بالتصرف بموجب اتفاقهما حول «الحياد المتبادل»، اي انهما يتحاشيان الخوض في مواضيع مزعجة، وهي موضوع موزيل وموضوع اندريه وموضوع الاكراد. وان هذا سيضفي غياباً على العلاقات الناجعة. الا ان كيتي قامت من جانبها بتحطيم الجليد ما بينهما، اذ سألته بصرامة عن مدى صحة ذهاب قام به الى الهولندي والانكليزي اللذين يعملان بتجارة الاسلحة. ولم يحاول هو التنصل من ذلك اذ قال:

- نعم.

- موزيل قال لي ذلك. ولكنني لم أصدق به. فلأجل أي غرض اتصلت انت مع أمثال هؤلاء الناس؟

اشار لها ماك غريغور في جوابه الى ما يذكرها ان مناف كان قد تعامل معهما حول هذه المسألة.

غطت هي شفتيها بخيط من البصاق وقالت:

- كن بعيداً عن تجار السلاح. فاذا كنت تريد البحث عن النقود، فابحث عنها. ولكنك اذا كنت تريد التعامل مع أمثال هؤلاء الاشخاص، فلا تنتظر مني اي عون بعد ذلك.

- وكيف سيكون ذلك، اذ كانت النقود مثبتة باسم الصفقة العائدة لهم - اعترض عليها ماك غريغور واضاف - انا لا أملك خياراً آخر.

كان الوقت مايزال صباحاً، وانصرف هو الى فتح الاغلفة السمراء التي تحتوي على الاوراق ذات الصلة بالمؤتمر الجيولوجي حول الاستكشافات الجيولوجية الخاصة بالخامات المعدنية. وكانت هذه المظاريف تشكل نضداً كاملاً فوق المنضدة. وقد ارسلها اليه جمال جناب من طهران. وذهبت كيتي كما يبدو، لتتصل بالتليفون مع موزيل الذي من بعد تصف ساعة سيكون قد تلفن الى ماك غريغور ليخبره عن تبدل الفكرة بشأن الفائدة المرجوة من وراء كل من الهولندي والانكليزي وقد قال موزيل له:

- لا فائدة من اضاعة وقتك مع هؤلاء بالذات.

- وكيف ذلك؟ - اندهش ماك غريغور وقال - انهما أعطياني وعداً بالالتزام بشروط العقد الموقع مع مناف عزت. وان هذا حقيقي.

سمع من خلال التليفون ضحكة فجة أطلقها موزيل وقال أيضاً:

- انهم يستطيعون الالتزام بما تسمح لهم القوانين الفرنسية الالتزام به فقط. وان هؤلاء ليسوا هم الذين يقررون الحل في الوقت الراهن. ولهذا فان التشاور مع أولئك الذين باستطاعتهم فعلا حل هذه المشكلة هو ما سيكون أكثر فائدة.

- مع من، على سبيل المثال؟

- يوجد هنا شخص، لايمكنك تجاوز اللقاء معه في نهاية المطاف - قال موزيل واضاف - ان هذا الشخص بالذات قد رجاني يوم امس عقد لقاء له معك؟

- من هو؟

- انه امريكي. ويدعى كيسبيان.

- أنا أعرف كيسبيان.

- وهل انت تعرفه معرفة جيدة؟

- كلا. ولكنني منذ مدة بعيدة أعرف عنه في ايران.

- وبناء على ذلك، فلابد لك ان تعرف ان هذا الشخص يحدد بمستوى كبير علاقة الامريكيين بالقضية الكردية. وان اللقاء معه سيعطيك قدراً من الفهم عن الصعوبات التي تواجهك. وكذلك فان من المحتمل أنه سيجعلك تفكر حول متابعتك للقضية، هل انها تستحق الاستمرار.

- سأعرف رأى كيتي حول هذه النقطة - تكلم ماك غريغور بلهجة بائسة.

- انت ادركت الموضوع. وكذلك فانني بالذات بدأت أعيد التفكير، هل ان من المفيد التعمق في هذه المجاهل.

ومرت بينهما فترة ميتة من الصمت. بعدها قال موزيل:

- هل ستظل باقياً قرب التليفون؟

- نعم.

- وعلى هذا، فماذا بعد ذلك؟

- طالما انا قادر، فسأنتظر. اما اذا صار الانتظار غير جائز فسأنهي الموضوع.

- حسناً... - بعد ذلك قال موزيل معلناً ان الامريكي كيسبيان سيتناول في الساعة الواحدة نهاراً، الافطار في فندق «امباسيدور» القديم الذي يقع بعيد عن بيبيا - فيللا، وهم ينتظرون هناك ماك غريغور، وهو لايحتاج هناك الا للاعلان عن نفسه. وقال موزيل مختتماً كلامه - انني سأسعى ان أكون هناك. ولكنني سأذهب مع كيتي لممارسة ركوب الخيل في الساعة الواحدة. ولربما انت تدري بذلك.

ما كان لماك غريغور علم بذلك. وعندما حضرت كيتي بعد نصف من ذلك، مرتدية بنطرون البرجس والجزمة المطاطية القى عليها نظرة فاحصة.

وعندما لاحظت كيتي انزعاج زوجها منها، صرفت ذهنه الى ناحية أخرى:

- هل انت قد تحدثت مع اندرية؟

- نعم، ودخلت معه في مجادلة كلامية. انه يريد الانتساب الى فرع العلوم الطبيعية.

- اذن عن اي شيء تجادلت انت معه؟

- دعينا ندعه حالياً يبقى في باريس، اذ ليست هناك فائدة من اعادته الى هناك. فهو ينوي عن قصد التملص من الامتحانات باي شكل من الاشكال.

- وماذا سيكون بانتظاره في المستقبل؟

- سأبذل جهدي من أجل اقناعه.

القى ماك غريغور نظرة على زوجته من خلال أجفان مطبقة - فهي قد ذهبت يوم أمس إلى الحلاق بشكل مخصوص. ومن الواضح ان اليد الفرنسية الماهرة رتبت قص الشعر ترتيباً جميلاً حول الوجه الانكليزي الحسن. كما ان كيتي جميلة حتى بدون ذلك. وليس فيها ما يجرح العين باي وقت من الاوقات. الا انها تبدو الآن بوضوح وكأنها كانت لقيه جذابة بالنسبة للحلاق الذي أضفى القواعد الفرنسية على الملامح الانكليزية. والقت كيتي نظرة على نفسها امام المرآة، فتجهمت قليلاً، كما لو انها غير مقتنعة مما تراه على نفسها. فشعثت شعرها قليلاً، ومسحت من فوق اجفانها بعضاً من لون القلم الازرق الخفيف. ثم قلصت كتفيها امام نظرات زوجها النافذة وقالت:

- ينبغي لي الآن التعود من جديد على الظهور بمظهر طبيعي.

حتى ماك غريغور رأسه باشارة.

- انت تبدين رائعة الجمال جداً.

- ولكن هذا لايثير اعجابك.

- انت الآن امرأة أخرى - قال ذلك وانصرف نحو الاوراق الجيولوجية التي نشرها فوق المنضدة على شكل مجموعات انيقة التنضيد.

لكنها أقتربت منه وجلست على طرف المنضدة وتكلمت بلهجة حنون، هي نفس تلك اللهجة التي كانت قد أشعلت نيران صدره قبل ثلاث وعشرين سنة، إلا أنها لم يكن لها كل ذلك الرنين السابق عنده، اذ قالت:

- دعنا لا ينثير شجاراً ما بيننا بشأن الاطفال، مهما كانت الصعوبات التي تنتظرنا في المستقبل وأرجوك ان تحول دون انزلاق اندريه الى ارتكاب حماقات من جراء المغالاة بالغطرسة.

- حسناً. أجابها اجابة على قدر ما يشير الى حدود الاتفاق بينهما حول عدم السماح لوقوع

شجار حول مسألة الاطفال، مهما كانت الصعوبات التي سيواجهانها.

وسمع هدير محرك سيارة موزيل «روفير» قد دخلت في فناء البيت. ونظر الى كيتي في طريقها للخروج، وسمع كيف انها جلست داخل السيارة، وكيف أغلقت بابه، وسمع صوت انفتاح البوابة وخروج السيارة «روفير» من فناء البيت، ومن ثم سمع انغلاق البوابة. وبعد ذلك تنهمك في مواضيع المواد المصورة، وظل يعمل الى ان ضج بوق سيارة سيسي المتداعية خلف البوابة. وبعدما نهض ليتوجه نحو باب الاستقبال، لاحظ العجوز مارين يهرع ليفتح البوابة.

جاءت سيسي. ويرافقها طه. وعندما دخل الاثنان الى البيت لاحظ ماك غريغور وجود بقع زرقاء على وجه سيسي وخدوشاً على يديها ودماً لشخص ما على معطفها. وسارعت هي تشرح لوالدها ان هذه الآثار التي تظهر عليهما هي من جراء هجوم البوليس بشارع سان ميشيل. اما هي وطه فكانا يراقبات مجرد مراقبة، مظاهرة الاحتجاج الطلابية ضد تنكيل البوليس الذي حدث يوم أمس. وقالت كيتي:

- انا كنت اراقب فقط، ولا أكثر من ذلك.

- يا سيسي، انت تثيرين استغرابي - تكلم ماك غريغور بلهجة ساخطة وقال - كيف بامكانك ان لاتفهمي، انهم لو القوا القبض عليك مرة أخرى فسيطردونك من فرنسا.

- آه. ان هذا اوهام - ردت سيسي عليه.

- كلا، هذه ليست أوهاماً. وعدا ذلك، فأنني كنت قد طلبت منك عدم المشاركة في المظاهرات.

- كانت المظاهرات قد عمت الجانب الأيسر من النهر كله. فأين تطلب ان أعثر على جانب هادئ؟

- اذا كنت تريدين ذلك فستجدينه.

بعد ذلك دخلت سيسي الى الصالة ونادت عليها العمة جوس:

- أهذه أنت يا حبيبتي سيسي؟

- نعم، هذه انا. أجابتها سيسي وتوجهت نحو العمة جوس وهي تردد القول: - أنظري يا عمتي كيف زينني الأوباش...

كان طه واقفاً ينظر بابتسامة هادئة الى ماك غريغور. ثم قال:

- مهما حاولت معها الكلام، فإنه لا يؤثر عليها ذلك.

- اذن، عليك انت ان تكلمها.

- ولهذا جئت انا لأتكلم معك - قال طه مبتسماً.

- اذا كنت تريد الكلام عن هذه النقود، فلا فائدة من بذل اي جهد - حذّره ماك غريغور.

- الكلام عن النقود في هذا الظرف كلام فارغ. فان هذه النقود وهي عندهم وتحت تصرفهم. ولهذا ينبغي عليك ممارسة عمل سياسي.

- اي سياسة؟ وعن ماذا انت تتحدث؟

قلص طه كتفيه وقال:

- من الواضح انهم سيبدأون بالتوجه اليك الآن باقتراحات سياسية.

ارتدى ماك غريغور معطف المطر. وكان البيت يبدو ان الجميع قد غادروه تاركين هذا البيت القديم تحت رعايته. وصار لزاماً عليه الجلوس هنا مستسلماً ينتظر المتاعب التي صارت لاتحتمل.

- لم يتصل بي أحد من قبل، ولن يحصل هذا الآن، وان الموقف ظل على ما هو عليه سابقاً.

- ولكن لماذا تناولت العمة كيتي الغداء يوم أمس مع دوباس ابن ايلخان؟ - سأله طه.

- مع دوباس؟

- وعن اي شيء تحدث الاثنان؟ - شدد طه على هذا السؤال.

- ومن اين لي ان أعرف ذلك؟ سلها انت عن ذلك - تكلم ماك غريغور في طريق نزوله الى فناء البيت. فهو يريد الخروج الآن ليذهب الى فندق «امباسيدور» ليسمع ما سيقوله الامريكي كيسبيان له.

وعندما رافقه طه حتى البوابة حذره مرة أخرى عند توديعه:

- ان القضية تأخذ منحى قذراً جداً. ولهذا يجب عليك ان تكون شديد الحذر.

- حسناً. سأكون - كذلك - اجابه ماك غريغور واضاف - وماذا بقي لي غير ذلك.

الفصل السابع عشر

اقترب ماك غريغور من فندق «امباسيدور» قبل عشر دقائق من الموعد المقرر. وفي اثناء عبوره شارع اوسما، لاحظ عمالا فرنسيين ببدلات العمل الزرقاء يفرغون اساطين (رولات) من ورق الجرائد كانت فوق ظهر شاحنات طراز «بيرلا»، وينقلونها نحو منافذ سوداء مرتفعة تعود لجريدة «موند». وراء بذهن ماك غريغور عندما رأى الشاحنات والاجهزة الرافعة وأساليب استعمالها والخطافات والعتلات، انها ذات طبيعة فرنسية شديدة التركيز تقود الى التشبث باسلوب عملهم الفريد من نوعه.

وحالما دخل في الفندق القديم حتى وجد نفسه بعالم آخر هو العالم الذي كان يعود الى العمة جوس. كان فندق «امباسيدور» قد شيد منذ عهد بعيد، لأجل ملء فراغ بكثافة وامان. اما الآن فهو مع الوان جدرانه الكاحلة والكرسي والمناضد المذهبة من طراز الامبراطور، الموضوعة على شكل مجموعات رشيقة، والضيوف المنتظرين، ونوافذه الكهرمانية الصفراء الفاغرة، يملأه الفراغ. وفي هذا البحر القديم الفارغ كان يقف عند طاولة الاستعلامات موظف، توجه اليه ماك غريغور وسأله اين يجد مستر كيسبيان. وعند ذاك قاده دليل نحو مطعم الفندق الذي هو تماماً مثل اي مطعم من الدرجة الأولى في فندق باريسي. وكان كيسبيان جالسا هناك، عند زاوية منضدة، مثل من يجلس بمكان اعتاد الجلوس فيه منذ عهد بعيد. وكان يتفحص امامه رسائل واوراقاً على شكل كوم غير منتظم، وهي موضوعة امامه على الخشب والشرشف.

وظهر على محيا كيسبيان انه رأى ماك غريغور. إلا ان نوعاً من التبدل ظهر على الامريكيين الآخرين. فان أولئك الامريكيين من المبشرين والأطباء والجيولوجيين والآثاريين والدبلوماسيين الذين تعرفوا على والده كانوا من حيث مظهرهم الخارجي، مثل سكان الارياف ذوي المسحة الخاصة الذين يخرجون بالكنزات - البلوزات - أو المسوح الدينية. اما الامريكيون الذين التقى بهم ماك غريغور، سواء في شركة النفط الوطنية الايرانية ام في الاحتكار البترولي، فانهم كانوا يبدون أصغر عمراً، وعلى شاكلة واحدة، كما لو انهم يقلدون

بعضهم بعضاً في تحقيق نجاحات أكبر مما حققه اسلافهم.

ولكن كيسبيان لم يكن شبيهاً لا الى هؤلاء ولا الى أولئك.

- انت على نفس الحال التي كنت عليها بلا تبدل - تكلم كيسبيان ملقياً نظرة سريعة على ماك غريغور، ثم صدر بوجهه عنه فوراً مثل من لم يكن حوله أي شيء موجوداً مما يستوجب النظر اليه طويلاً.

- كيف حالك؟ - سأله ماك غريغور.

ان ماك غريغور استذكر كيسبيان القديم. تذكرة شخصاً فتياً طويلاً نحيفاً شكاكاً، بانفه الحاد مع عادة مضحكة من التحدي المزعج. كان كيسبيان قد وصل الى ايران بصفة معلم امريكي يعمل باجر تافه، كان يبدو شيئاً لايصدق بالنسبة له بصفته لغوياً بارعاً يتكلم ويكتب باللغات الفارسية والعربية والتركية، فضلاً عن معرفته لعدد آخر من اللغات الاوربية. وكان ماك غريغور قد التقى به مرة أو مرتين بعد الحرب، اذ كان كيسبيان يلقي دروساً بجامعة طهران، وشعر انه لابد ان ينقذ نفسه من هذه الاساءة في مالم كان يقدم فيه دروساً لاتتناسب فائدتها تقريباً مع مواهبه. وكان البروفيسورات والاساتذة ممن هو ضمنهم يعاملونه بنفس السخرية التي هو يمارسها معهم.

وكان ماك غريغور يشعر بالاسى نحوه، رغم ان هذا الشعور قد شابه ما يوحي بعدم الاطمئنان اليه ولاينبغي دس الاصابع في فمه.

ان كيسبيان صار الآن شخصاً ممتليء البدن ويرتدي بدلة امريكية فضفاضة بيضاء، ووجهه بخدين منتفخين وشفاه لينة، وعليه سيماء المتضجر الذي لايثق بأي شيء. وتطوف عيونه حول كل شيء من حوله تتحسسه وترفضه بلا إكتراث أو مبالاة. وبعدما سأل عن كيتي، أصغى الى ماك غريغور بخمول بينما ترك عينيه تدوران حول الكرسي. وكما هو شأنه لايلتفت بانتباهه كثيراً الى الاجوبة عن الأسئلة التي يوجهها هو نفسه وقال لماك غريغور:

- تفضل بالجلوس.

ثم أستدعى كيسبيان نادل المطعم وطلب منه رفع كومة الاوراق. وأخذ النادل يجمع الرسائل والاوراق بينما باشر كيسبيان بالتوضيح الى ماك غريغور:

- ان هذا من أجل ان يعرف سكان هذه البلاد الاصليون اننا ليس لدينا ما نخفيه عنهم.

- لكنك لم تتغير، بل تحسنت فقط.

- لم أكن أشرب في السابق - والقى نظرة خاطفة على ماك غريغور، كما لو انه يريد ان يحرز من دون كلام، كل معاناته واحباطاته وكوارثه ومتاعبه في حياته واضاف - انت صرت في الخمسين من عمرك. اليس كذلك؟

- في الثانية والخمسين.

- ليتهم يضعون قانوناً كل من يعيشِ حتى الخمسين من العمر، يعفى من جميع الاعباء. وبالمناسبة، الى اين كنت ترغب بالذهاب - سأله كيسبيان.

- انه شيء جيد لو كنت بلا أطفال.

- لم اقم بهذه المغامرة القذرة - تمتم كيسبيان بلهجة حزينة، ثم أخذ شهيقاً عميقاً كأنما يطرد به انقباضاً ألم بالقلب واضاف - هيا بنا نختار طعامنا ومن بعد ذلك نتناول مشاكل الأكراد غير المحلولة كلها هل تريد قطعة لحم بيفشتيك؟

- نعم، أريد ذلك.

- حسناً. يا ميشيل - التفت كيسبيان نحو نادل المطعم الذي كان يعرف جميع طلباته معرفة دقيقة مهما كانت. ثم انحنى كيسبيان الى امام نحو ماك غريغور وسأله بنظرات متفحصة:

- ما هو الغرض الذي ارتبطت اجله مع الأكراد؟ فانت تعرف التيارات الهوجاء في رؤوسهم. فانهم اختصاصيون فقط في تقطيع اوصال بعضهم بعضاً وتمزيق حناجرهم مثل كلاب الصيد.

- لأجل اي هدف عقدت انت ارتباطاً لك مع الاكراد؟ - رد عليه ماك غريغور سؤالاً بسؤال. لكن كيسبيان أعترض بالقول.

- أنا، انا بالذات عديم الاكتراث بالاكراد.

- لكنني أفترضت انك خبير امريكي بشؤون الاكراد هذا هو ما سمعته عنك.

- انا أعتبر خبيراً بجميع الشؤون المحلية بالنسبة للفرس والاتراك والعرب والاذربيجانيين والارمن والأكراد والنساطرة واللبنانيين وما شاكل من هذه الاجناس.

- هذا يعني انك تعتبر تابعاً لأدارة المخابرات الامريكية.

أخرجت هذه العبارة كيسبيان من حالة الاتزان وعدم الاكتراث فتكلم بصورة متواصلة ولهجة ساخنة:

- لماذا تفكر انت بهذه الصورة؟

- هكذا قيل لي ...

- لقد نقلوا اليك عني ترهات. وأرجوك باسم الرب ان لاتصنفني ضمن هؤلاء القتلة الجزارين. أرجو منك رجاءً حاراً!

- اعتذر لك... - نطق ماك غريغور هذه العبارة، ولكن كيسبيان سأله:

- قل لي، بماذا كنت انت بالذات منهمكاً عندما ضربت الجيش التركي؟ ولا بأس في ذلك؟ فانا لن اتوانى عن التغطية.

- ليس هناك ما ينبغي تغطيته باي شكل من الأشكال. دعنا نترك هذا الموضوع جانباً.

- ولماذا نتخذ هذا الموقف. فقد لايعتبر أمراً سيئاً ان ندع انف الاتراك ينزف دماً ولو مرة واحدة - دمدم كيسبيان وقال بلهجة السليمانية - الكرمانجية السليمة مثلاً كردياً معناه ان الشجرة المقطوعة يستفاد في بناء بيت، اما الانسان المقطوع المقتول، فهو جيفة لاتفيد بأي شيء سوى ان يوارى بالتراب واضاف - فهل هذا يستحق الانزعاج؟

- مفهوم. انه لايستحق - قال ماك غريغور مؤكداً ومعترفاً ان كيسبيان يبحث عن وسيلة للاسراع بالوصول الى العصب الحساس لدى ماك غريغور من خلال جلده الرقيق.

- والدتكم كانت فارسية. أليس كذلك - سأله كيسبيان.

- كلا. انها انكليزية.

وكما لو كيسبيان لم يسمع الجواب واصل الكلام:

- لكنني لا أتذكرها.

- انها توفيت عندما كان عمري اربعة عشر عاماً.

- انا اتذكر والدكم. وانت تشبهه بعيونه الزرقاء وتهوره.

بعد ذلك حضر صحن لحم البيفشتيك. وانصرف كيسبيان للأكل واحتساء شراب الويسكي، ناسياً كما يبدو، وجود ماك غريغور. وفي خلال ذلك سأله كيسبيان بعدما مسح صحنه من اللحم والبازاليا والبطاطا:

- قل لي ما هو تقديرك التي ستوافي به القاضي بالذات؟

- أنه متفائل.

- وانت؟ فهل انت توغلت بهذه القضية كلها خدمة للفرس؟

- خدمة للفرس؟

- انت يا ماك غريغور فارسي الروح - قال كيسبيان ذلك من خلال نظرات سريعة القاها بحثاً عن سيماء الرفض أو انزعاج واضاف - قل لي ماذا لديك عن الكرد؟

- انها منطقة واحدة، ومشاكلها واحدة بالذات.

- الا تريد فطيرة؟

- لأي غرض.

يا ميشيل!...

جلبوا لهم فطائر بالتفاح مشابهة للفطائر الامريكية. واخذ كيسبيان يلتهمها بنهم، كما لو أنها تشبه أي طعام لذيذ. وبعدما تناول لقمة منها قال مرة أخرى:

- لماذا لاتحاول انت اقناع القاضي باللجوء الى طلب المساعدة منا، فتكون القضية بحكم المنتهية؟

- اي نوع من المساعدة؟ هل هي مساعدة حربية امريكية؟

- كن هادئاً. هيا للفطائر من جديد! - وطلب كيسبيان وجبة أخرى من الفطائر وقال - دع الاكراد هناك يعملوا من أجل تحررهم. اما نحن فاننا نمارس ما نراه مفيداً لهم، وعلى مراحل.

- انها أغنية عتيقة - اجابة ماك غريغور مع ابتسامة واضاف - وهي لاتقنع اي انسان. وأني ليأخذني العجب من تكرارك لها.

- انا متفق معك. واعرف ذلك. ولكن خذ العراق بنظرك. فان القضية الكردية ملتهبة هناك دائماً. وبناء على ذلك، فان الاكراد، اذا كانوا في العراق يريدون التحرك، فأننا سنكون سعداء بمد يد العون لهم. واني أقول لك ذلك صراحة وبلا وجل.

- ولماذا العراق هنا؟ ولماذا كانت البداية من هناك بالذات؟

- هل من الضروري لنا ان نتبادل التوضيح ما بيننا؟ فانتم تعرفون معرفة جيدة السبب الذي دفعنا الى ايراد اسم العراق هنا.

- ولكن ما يحدث في العراق لماذا لايحدث في تركيا - سأله ماك غريغور.

- السبب معروف، هو اننا لانستطيع الوقوف ضد حلفائنا الاتراك. وانت تعرف ذلك معرفة جيدة - واضاف كيسبيان القول - أنقل انت الى القاضي موافقتنا على مفهوم القضية القومية

الكردية شرط ان يسمح لنا ان نقودهم على طريق تحقيق اهدافهم.

- لكن هذا صار صلافة صريحة، فانت تعرف انهم لايرغبون حتى بسماح مثل هذا الكلام.

قلص كيسبيان كتفيه وقال:

- ولكنك تعرف ماذا نبتغي نحن، ولماذا أقلب انا الاوراق الجميلة؟ وليتك تفكر معنا.

- حول ماذا؟

- رحمتك يا رب. حول ماذا. حول ماذا... عليك ببساطة ان تقنعهم حول ما يهمنا بهذه المنطقة. وافترض انت ان لنا اطماعنا، فهل ان التوصل الى تفاهم شيء مرفوض؟

- أشك بذلك. وكيف هم سيستطيعون الثقة بكم؟

دخن كيسبيان سيكارا وقال:

أعرف، انا أعرف ذلك. فاننا كنا مخطئين في السابق. اذ كنا ندعم دائماً العناصر السيئة، ولوثنا انفسنا بمجاريف كاملة من الاوساخ. ولكنني اريد في هذا الظرف الحالي السير بطريق آخر - ورفع عينيه نحو السماء وقال - أقسم يميناً على ذلك!...

بدأ ماك غريغور يدرك ما يفيد بوجود حساب صحيح ضمن الخطوط العريضة الواضحة التي لدى كيسبيان - «الحمقى كثر بكل مكان. ولهذا فان الجميع لأجل الجميع - انها اطماع مفضوحة».

- قل لي، ما هو عرضك من دعوتي للقيام بالكلام مع القاضي عن طريقي انا بالذات؟ فانتم حسبما أعرف لديكم عملاؤكم هناك في الجبال.

ابتسم كيسبيان مقهقها، واجال نظره مرة أخرى في القاعة وقال:

- هل انت واثق ان بامكانك استرداد النقود بدون مساعدة منا؟

- من غير الممكن ذلك طالما انتم سرقتوها.

- ما هذا الكلام!...

-ولكن هيا قل لي، من هو المالك الذي يملك فعلياً البنك الفارسي؟

- على كل حال، ارى انك تمزح.

- ان هذا ليس مفرحاً بالنسبة لنا - أعترض ماك غريغور.

- أعتذر لك يا ماك غريغور. فانا غير مشترك بهذه المسألة - هز كيسبيان رأسه واضاف

- الا ان القضية ستبقى جامدة على حالها. الست انت تريد أموال الاكراد؟

- طبعاً.

- انت ستتسلمها. ولن يكلفنا ذلك أية صعوبة.

- بأي صورة سأتسلمها؟

- رحماك يا رب. فما هو الفرق بالنسبة لك؟ اننا سنحول هذه النقود الى حسابك الشخصي.وهي عملية مالية ليست ضخمة. وليست معقدة أسهل من عملية شراء علبة كبريت. وستكون تحت تصرفك بصورة تامة.

- ان هذا لطف من جانبكم. وماذا تريدون لقاء ذلك؟

- ان تنقل الى القاضي اننا نؤيد الثورة فقط.

نظر ماك غريغور الى كيسبيان كيف مسح صحنه من الفطائر الامريكية، وذلك من خلال الدخان الكثيف للسيكار وقال ملاحظاً:

- ليسوا قليلين أولئك الذين يؤيدون الثورة الكردية. ولكن ما هو غرضكم من تأييدكم لها؟

- اي شيء يناسبك. لنفترض اننا نتطلع الى الغاز والنفط والسلطة السياسية على الأرض. فأختاروا حسب ذوقكم. بل ومن الممكن اننا نريد استغلال الأكراد لتطويق جناح العرب أو الروس.

- اذا كان الأمر بهذه الصورة فانا لن أقبل به.

- وحتى لقاء النقود الكردية؟

أحتقن وجه ماك غريغور بالدم وقال:

- انهم لم يخولوني تسلم النقود لقاء مثل هذه الشروط. وانت تفهم ذلك بالذات.

أظهر كيسبيان تبدلاً وقال:

- ماذا في الواقع بوسعي. وأخذ نفساً عميقاً وهو يضع اربع ملاعق من السكر في فنجان قهوته وقال - يجب ان أكون منتبهاً معك. وقد بدأت انا أصدق بما يقال عنك في بعض الروايات.

لم يستجب ماك غريغور لهذا الاغراء، فيسأل ما هي الروايات. وبدلاً من ذلك جالت عيناه مرة أخرى في القاعة، بينما أضاف كيسبيان القول:

- (أو - كي) - حسناً. اننا نؤجل المحادثة الآن.

- كما تريد.

- البداية كانت غير سيئة.

- أجل ليست سيئة - وافقه ماك غريغور.

- عاود انت التفكير عندما تفرغ. ومن بعد ذلك سنستطيع الالتقاء من جديد. فما هو رأيك؟

- لأي غرض؟

ثبت كيسبيان عليه نظرة فاحصة صريحة لعشر ثوانٍ وقال:

- ان الكارثة الكبرى ان تكون لك قضية مع أناس متآمرين تافهين، وان تنسى تماماً كيف تتحدث مع انسان صاحب فكرة.

عندما القى ماك غريغور نظره مراقباً بها تعابير اللعبة المعقدة المتلونة على وجه كيسبيان بخديه الممتلئين، ادرك الآن ان جسم هذا الشخص لم يتشحم من الويسكي ولا من الطعام، بل من الشعور بالارتياح. فهو من بعد البداية غير المتوقعة في الحياة، قد عثر فيما بعد على ذلك الشيء الوحيد الذي يستطيع به ان يشغل فكره وقابليته حتى النهاية. فقد وجد بمهنته ما يرضيه تمام الرضا. وهذا بصراحته لطيف المعشر ولو كان مستهتراً. ولكن بالنسبة الى اقتراحاته، فهل هي امينة أم أكيدة بنزاهتها أكثر من تلك الاقتراحات المستورة بمئات من أغلفة النفاق؟

- أخيراً، هل قيل كل شيء بهذا اليوم؟

- لربما قد قلنا كل شيء - قال ماك غريغور.

ثم سكت الاثنان. وفي النهاية الأخرى من القاعة شاهد ماك غريغور المدعو فلاندرس، اي منقذ الاطفال الذي التقى به قبل وقت غير بعيد في جبال كردستان. وبعدما لاحظ فلاندرس نظرات ماك غريغور نحوه حَياه باشارة من يده بلا تكلف، وقال لأمرأة كانت تجالسه شيئاً ما، وهو لابد ان يكون كلاماً حول ماك غريغور لأنها صوبت نظرها المتطفل نحوه.

- هل لك علاقة معرفة بالحقير فلاندرس؟ - سأله كيسبيان

- نتبادل الحديث أحياناً.

- انه أكثر خسة من وكالة المخابرات الامريكية - زمجر كيسبيان. ويبدو ان هذا كان له

صلة به بالأحرى رفع كفه واسقطها بنفس اللحظة على شرشف المنضدة بحركة مريبة.

انتظر ماك غريغور بوقار، حتى ينتهي كيسبيان من احتساء قهوته، لأجل ان يغادر المكان من بعد ذلك. الا ان كيسبيان طلب منه التريث قليلاً. وتحدث الى ماك غريغور مع فنجان جديد من القهوة، عن محاولات والده الحيلولة دون قيام الانتفاضات الكردية التي مهد لها دراويش التكايا. وكان ذلك في سنة ١٩٢٥ بتركيا حيث عاش كيسبيان طفولته هناك. وانتهت الانتفاضات كما كان متوقعاً لها، باعدام سعيد شيخ التكية وأعدم ستة واربعين شخصاً آخرين من القادة الكرد وقيام الجيش التركي بممارسة عمليات انتقامية ضد مئات الأكراد. وقال كيسبيان الى ماك غريغور عند نهوضه من حول المائدة:

- ان المئات الاكراد كانوا قد قتلوا. وهي نهاية دموية طبيعية لجميع الانتفاضات الكردية - واختتم كلامه قبل ان يتحرك من مجلسه - اما انا فلا اريد ابداً ان يتكرر ذلك. واقول لك ذلك بلا مواربة.

- انا واثق منك- قال ماك غريغور وهو يشد على يد كيسبيان الممتدة نحوه بارتخاء.

الفصل الثامن عشر

في اليوم التالي، الثامن من أيار/ مايو، استصحب طه وفداً كاملاً مؤلفاً من اربعة من الشبان الأكراد، لغرض تحذير ماك غريغور من مؤمرات سوداء تحاك حوله، وقف هؤلاء ينتظرون خلف البوابة الى ان خرج ماك غريغور الى فناء البيت، والى ان سمح لهم بالدخول. وهناك كان يقف اثنان على جنب، يعرفون باسم البلجيكيين، وقاما بابلاغ ماك غريغور باللغة الفرنسية:

- اننا لم نستخدم التليفون للاتصال بك... فان عندنا سبع طائرات سويسرية خفيفة لم يمض على صناعتها حتى سنة واحدة، وهي ملائمة للظروف الجبلية بصورة مثالية. وباستطاعتنا تحويرها لتحمل صواريخ. وبامكاننا تزويدكم بطيارين...

وفي الوقت الذي تجاهلها فيه ماك غريغور تماماً، سمح للأكراد بالاجتياز عبر البوابة. وجلس الشبان الأكراد حول منضدة من خشب الجوز داخل قاعة الطعام المعزولة بموقد بارد، بحالة من يشعر بالخجل الذي احدثته لديهم هذه القاعة القديمة منذ ايام الامبراطورية، وجعلتهم يحسون باضطهاد غريب، هو الاضطهاد الثقافي. وكانت وجوههم كردية متشابهة المعاني كلها (وقد ظن بهم البواب مارين انهم جزائريون، ولهذا فهو لم يرغب بادخالهم. فان الجزائريين هم في باريس في منزلة المتشردين خلال الازقة). وبدأ طه الكلام باللغة الكردية يقول:

- ماذا باستطاعتك ان تخبرنا؟

- لا شيء، أجاب ماك غريغور واضاف - وهل ينبغي لك انتظار تقديمي الحساب لكم؟

- ولكنك كنت يوم أمس قد التقيت مع شخص امريكي. فماذا اراد هذا منك؟

- انت يا طه ليس لك علاقة بهذا؟

تدخل أحد الشبان في الكلام، وهو طالب بكلية الطب، واسمه من اسماء الدراويش، سيد جاغيز، وقد تكلم باللغة الفرنسية:

- اننا نريد فقط ان تشرح لنا مايدور بوسط الاكراد في باريس، لاسيما انت تدري بالتأكيد مدى جدية الخلافات ما بيننا.

- هذا يعني انكم تبدأون الآن بتكرار وجهة نظر طه أمامي: «الثورة أولاً. أما الوحدة، فمن بعد ذلك».

- الكلام لايدور حول هذا الموضوع - تكلم طالب الطب الذي رغم ان وجهه كان غير متشنج ومتواضعاً، وبشرته رقيقة، الا ان عيونه لمع فيها بريق درويشي كردي أصيل، واضاف يقول - بدأ الارمن في الايام الأخيرة يمارسون نشاطاً بيننا، فضلاً عن الفرنسيين والانكليز والايرانيين والاتراك، وكلهم ابدوا فجأة اهتماماً باكراد باريس. ولكن ما هو السر وراء هذا الاهتمام؟ فان الجميع صاروا فجأة يكيلون لنا الوعود بجبال من ذهب، لقاء موافقتنا ان نكون اصدقاء لهم فقط، وان نمارس التأثير في القضايا الكردية بما ينسجم مع توجيهاتهم.

- ولكن من هو ذاك الذي سيستجيب الى مغرياتهم؟ ولماذا انتم على هذه الدرجة الكبيرة من الاضطراب الشديد؟

- اسمعني يا عم آيغور - تكلم طه يقول - توجد هنا بين الأكراد مجموعة سرية تعمل مع الامريكيين. وهذا هو السبب في اننا نريد ان نعرف ماذا أقترح الامريكيون.

سمع ماك غريغور وقع خطوات على درجات السلم المرمرية الملساء، حيث كان بامكان اي واحد من افراد البيت ان يلقي نظرة على ما يجرى هنا من أي موقع فوقه. وقال ماك غريغور:

- انا توليت امراً واحداً فقط هو البحث عن النقود. وما عدا ذلك فليس عندي اي كلام عنه ولا شيء تعلقني بشأنه.

- لقد نمى الى علمنا ان الامريكيين قد أستولوا بالسرقة على النقود بالتأكيد، فما هي الفائدة المحتملة من الكلام معهم الآن؟ - قال طه.

- توجد امكانية لانقاذ هذه النقود - قال ماك غريغور واضاف - وفي هذا المجال يجب ان اتصرف لوحدي، وحسب طريقتي.

- سواء عليك ان انقذت النقود ام لم تنقذها، فاننا لانستطيع السماح لك في ان تعطي السلاح الى اللجنة. وهذا هو السبب الذي حدا بنا ان نوضحه لك.

- بأي وسيلة تنوون انتم عرقلة طريقي؟

خيمت عليهم فترة من الصمت. بعدها سألهم ماك غريغور:

- هل انتم تنوون قتلي؟

- نرجوك أيها العم ايغور ان تترك المزاح - قال طه.

- وعلى هذا الاساس فلا ينبغي لك ترديد الترهات من الكلام - ويخه ماك غريغور مثلما يوبخ أب منزعج ابنه المتمرد وقال - انا اتصرف بموجب ما يحتمه علي الواجب من تصرف فقط. اما توجيه التهديد لي يا طه فهذا جهد عقيم.

- ومن ذا الذي يهددكم؟ - سأله طه بهدوء ناظراً اليه بعينين باردتين.

- أنت تدري انني أعرف من زمان بعيد هذه المناورات الكردية.

أطل رأس شخص ما من فناء البيت. فقد دخلت سيسي حاملة بيدها واحداً من شعارات الطلبة على ورق رخيص من نوع ورق ستنسيل يحمل عبارة («ثوروا!»).

- انه رائع. اليس ذلك حقاً. وكانت هي تعرف جميع هؤلاء الأكراد، حسبما لاحظ ماك غريغور من حالة الارتباك عليهم لدى حضور سيسي ورؤيتهم لها.

- أخرجي يا سيسي لفترة خمس دقائق: فلدينا ما يجب ان ننتهي منه قبل كل شيء آخر - قال ماك غريغور باختصار. وادرك ماك غريغور انه كان خشناً معها أكثر مما ينبغي. فان جميع الشبان سرعان ما يتأثرون، وحتى من ضمنهم هذه الشخصيات الجبلية الخشنة، ناهيك عن سيسي بالذات. وقال ماك غريغور:

- ارجو منكم ان تفهموا انني مضطر ايضاً لأختيار حل للقضية التي يواجهها الأكراد، اي انني أفكر عن الطريق الذي سأختاره، وما هو ذلك الطريق. ولايمكنني التخلي عن هذا.

نهضوا من حول المائدة. وتكلم طه بلهجة هادئة تنم عن التصميم:

- انت عملي متطرف بالنسبة للأكراد. اما بالنسبة للثورى الجيد فانت مستقيم جداً.

- انا هنا لست بصفة الكردي او صفة الثوري. لقد وصلت الى هنا لأجل النقود. أو من أجل ما تم شراؤه بهذه النقود.

وفي آخر الكلام تحدث جاغيز بلهجة هادئة مخدرة:

- نرجوك يا حضرة الآغا ان لاتعطي الى اللجنة أي شيء. وأننا نؤكد رجاءنا لك حول ذلك. فلا يجوز عقد الأمل أكثر من ذلك على اللجنة.

- هل تريدون أنتم ان أتنصل من الوعد الذي قطعته انا للقاضي؟

سكت الأكراد ولم يردوا عليه بأي جواب. ثم رافقهم ماك غريغور الى ما خلف البوابة

وودعهم هناك. اما طه فقد توادع معه بانحناءة شبه مضحكة. وعندما عاد ماك غريغور الى البيت كان اندريه ينتظره هناك. وقال له:

- جاء الينا ضيف في اثناء ما كنت انت مشغولاً مع طه. وهو في المكتب.

- من هو؟

- انه من ادارة الأمن الفرنسية.

- هل انت متأكد من ذلك؟

- أتريد المراهنة؟

- حاضر. الا انني سأغسل يدي فوراً وذلك لأن مارين قد زيت مزلاج الباب بغزارة قبيحة. وقال اندرية:

- دعك من الاستعجال. فان والدي معه هناك.

تطلبت اعصاب ماك غريغور، حتى ولو فسحة قصيرة من الوقت، لغلق موضوع طه والتفرغ الى رجل البوليس الفرنسي. الا ان ما أثار قلقه أيضاً، ان يكون لأندريه دور في شؤونه بصفته والداً، بهذه البساطة.

وقال له اندريه عندما كان يغسل يديه في مغسلة تحت السلم:

- خذ بنظر الاعتبار ان تلعب على المنافسة السرية التي يمارسونها.

- وما هو دور المنافسة هنا؟

- ان الفرنسيين يمقتون الامريكان...

- ولأي غرض أحشر نفسي بهذا الموضوع؟

- خذ هذا بنظر الاعتبار تحسباً لجميع الظروف.

اراد اندريه الدخول الى المكتب وراء والده، إلا انه قال له: «كلا» - - وأغلق الباب دونه.

- مرحباً... - مد الفرنسي يداً يدهُ.

- هذا مسيو غيرين - قالت كيتي، واعطته اشارة تحذير من عينها.

لم يضيع غيرين وقته عبثاً اذ قال:

- قلت للمدام من قبل، انه ينبغي على المسيو ان يأتي معي ليعطينا بعض التفسيرات والمكان ليس ببعيد.

- اي تفسيرات؟ ولمن؟ - قال ماك غريغور.

- الينا - تكلم غيرين مع ابتسامه فرنسية صميمية، تنطوي على شيء من ظلال الوقار. واستل بطاقة بيضاء بغلاف پلاستيكي وخط أحمر - ازرق في الزاوية. وهذا يعني ان هذا الذي يحضر امامه هو احد افراد اقسام البوليس بوزارة الداخلية والرقابة العامة.

- الرقابة؟ - قرأها ماك غريغور بصوت مسموع.

- نعم. وانت على علم طبعاً بواجبات دائرتنا؟

- كلا. قال ماك غريغور.

- بدأ على غيرين تشنج خفيف من هذا الجهل المطبق. وسأله ماك غريغور:

- هل تريد انت ان اذهب معك الآن؟

- تماماً.

لم يلجأ ماك غريغور للجدال فقال:

- هيا نذهب اذن.

- انا سأجلب لك معطفك - قالت كيتي وخرجت هي أولاً الى القاعة، وأخبرته عندما سلمته معطف المطر، باللغة الفارسية - انني سأتصل بموزيل...

- لا حاجة لذلك - قال ماك غريغور.

- لماذا، فان هذا ضروري...

- سأستطيع التملص - أكد ماك غريغور بصلابة.

ومن ثم تكلمت كيتي لزوجها بالفرنسية، وهي أخذت بنظر الاعتبار ان يفهم غيرين ما تعنيه، ان الهر موزي، وحيث سيكون هناك وزير (ذكرت هي اسم العائلة) واضافت أيضاً:

- وكذلك فان الامريكي سيكون بانتظارك هناك.

المارغوزيون والموزليون والامريكيون والوزراء، ان هذه هي انذارات ارستقراطية واشارات جاءت بصفتها خطوطاً دفاعية تحمي ماك غريغور. وذهب هو مع مسيو غيرين من خلال فناء البيت. وانحنى مارين احتراماً لهيبة غيرين البوليسية الرئاسية، اذ فتح البوابة على مصراعيها بحركة تشبه حركة مجند عسكري مخلص عريق.

الفصل التاسع عشر

ان هذه ليست المرة الأولى التي يمثل بها ماك غريغور امام رجال بوليس الأمن، الا انه عرف هنا ان هؤلاء من نوعية أخرى: انهم اوربيون، وليس أولئك الناس الشاحبين المرضى الذين كانوا يتوجهون بامراضهم لخدمة سجون طهران. فهؤلاء الناس هنا متسمون بالوقار، وهم موظفو وزارة يحملون صفة من الصفات المشهورة اتسمت بها وزارة شؤون الهند أو وزارة الخارجية البريطانية التي يتذكرها منذ ايام الشباب. اما الموظفون الفرنسيون فانهم يستخفون عادة بالاجانب أو يجعلونهم هدفاً للسخرية أو يعاملونهم معاملة عدائية أو يعتبرونهم جهلاء. وانتظر ماك غريغور جالساً بغرفة مثل دهليز مرور، بها ستة فرنسيين وراء مكاتبهم، تجاهلوا وجوده تجاهلاً تاماً. وفي الغرفة التالية ثلاثة آخرون من موظفي الوزارة، قد تجاهلوه بمناورة أكثر دبلوماسية، مثلما يفعلون في وزارة الخارجية الفرنسية. وهؤلاء الشباب المنحدرين من عوائل مرموقة، انهمكوا في أعمالهم بقمصانهم البيضاء من النايلون، بل وان واحداً من بينهم قد ابتسم الى ماك غريغور. ومن بعد ذلك جاء شخص مظهره مظهر شرطي مدني، رافقه الى غرفة ضيوف فرنسية ذات طراز يعود للقرن الثامن عشر، وهي مفروشة ببساط بديع جدرانها رائعة الزينة. وعلى متكأ مذهب من طراز لويس الرابع عشر رأى ماك غريغور شخصين يجلسان ليس بعيدين عن بعضهما بميلان قليل الى جنب. وعرف هو واحداً منهما.

- اننا التقينا معكم في الاسبوع الماضي في حفل استقبال لدى البلجيكيين - تكلم ذلك الشخص واضاف - لقد عرفنا على بعضنا الهر موزيل، أتذكر انت ذلك؟ - انا انطوان كيومون.

نعم، اتذكر ذلك.

كان موزيل قد اصطحب انذاك ماك غريغور، بشكل خاص نحو كيومون، وقال له فيما بعد، .

ان من الممكن الاعتماد على كيومون في القضايا «التي تخرج قليلاً عن اطارها » اذ هو من أفراد تلك الحلقة بوزارة الخارجية الفرنسية التي تريد اقامة اتصالات لها مع الحركات التحررية. «انه واحد من أولئك الذين لديكم الكثير منهم في انكلترا ، ولكنهم قليلون في فرنسا : - قال ذلك موزيل. اما كيتي فقد قالت لزوجها ان كيومون هو واحد من ست عوائل دينية فرنسية. انا الآن، فها هو مسيو كيومون يجلس على المتكأ المذهب بوزارة الداخلية. وهو يتميز باقدام جميلة ورسغين انيقين وجوربين اسودين ضيقين من الحرير. اما كيومون بالذات فهو عجوز طويل القامة ذو شخصية مهيبة متسلطة وقال كيومون:

- هذا زميلي الميجر شرام.

ان شرام بعكس كيومون بعض الشيء. فهو كان عسكرياً فرنسياً قوي البنية، لكنه يبدو عليه انه واحد من الفلاحين، رغم بدلة قماش الكابروين التي عليه. واين هم رجال سين - سيرى، (رجال الاكاديمية العسكرية الفرنسية التي لايقبل بها الا من يتمتع بمنزلة ارستقراطية مجيدة) بقيافاتهم النحيفة الطويلة من نسل قبيله كيومون ذوي القبعات العسكرية الزرقاء؟... اما شرام فهو من بنية أخرى. انه ذو نظرة ثاقبة من خلال وجه شبابي صارم. اي انه يبدو ذا ابتسامة حازمة بلا تكلف، توحي بانها ستتحول الى ضحكة، ولكنها رغم ذلك لن تقوم بهذا التحول. وبعد ما نظر شرام الى ماك غريغور نظرة شملته من قمة رأسه الى أخمص قدميه، تقدم نحوه، دون ان تفارقه ابتسامته، وانتزع حبة غبار باريسية من فوق سترة ماك غريغور الزرقاء ثم نادى الميجر شرام بعد ذلك:

- يا غيرين.

في نفس هذه اللحظة دخل رجل البوليس الذي استحب ماك غريغور، حاملاً صينية فضية عليها مشروبات واقداح، ووضعها بكل ذوق على منضدة صغيرة وخرج.

- كيف حال المدام يا ماك غريغور؟ - استعلم كيومون من ماك غريغور بلغة انكليزية مترجرجة ولكنها ليست سيئة النطق واضاف - وكيف حال اولادكم؟ وهل هم معجبون بباريس؟

وبينما كان ماك غريغور يجيب عن اسئلة كيومون، فان شرام سكب له كأساً من شراب الفيرموت، ثم اضاف فوقه شراب كمباري، ولكن بدون ثلج.

- هل هذا سيكون جيداً بهذه الصورة؟ - وجه سؤاله الى ماك غريغور.

- رائع - ولكن من اين وصل الى علم شرام نوع الكوكتيل الذي يحبه ماك غريغور.

- انتم، ولي أمل ان تعذروني، اذا ما قلت لكم اننا في فرنسا نعلم بما تقومون به من نشاط هنا - تكلم كيومون واضاف - اننا في الواقع لانستطيع الموافقة على ذلك. وكذلك فانا اعتقد انك تفهم ذلك ايضاً.

- هل انتم استقدمتموني الى هنا يا مسيو لأبلاغي بذلك؟ - سأله ماك غريغور.

- في الحقيقة ليس لهذا الغرض. فأننا نعرف اهتمامك بالمسألة الكردية، وهو بقدر ما عندنا من اهتمام بهذه المسألة. ولكننا اردنا لو نعلم أكثر بعض الشيء عن هذه المسألة وعن اسباب انتسابك لها.

نظر ماك غريغور الى كل من كيومون وشرام وقال:

- ان صداقتي قديمة مع الأكراد. وعلى هذا الاساس لجأوا لي طلباً للمساعدة.

- أجل، وهذا طبيعي - قال كيومون واضاف - وعلى هذا الأساس نريد مداولة حديث معك.

كان ماك غريغور قد أدرك بفطنته دور كيومون. ولكن، ما هو دور هذا العسكري الفرنسي المتيقظ هنا ؟ وشعر ماك غريغور انه كلما كان يحول نظره عن شرام، كان ذاك يغض من نظره. وقال كيومون:

- اسمح لي بتوجيه سؤال عن الأكراد.

- تفضلوا، فيما اذا كان السؤال غير سياسي.

رفع كيومون حاجبيه، بينما افاد ماك غريغور يقول:

- انا غير مخول بمناقشة الجانب السياسي في المسألة الكردية.

- ان سؤالي يتخذ، بصورة خاصة، منحى تاريخياً من حيث السياق. فان عندي رغبة في ان أعرف سبب انتهاء جميع الانتفاضات الكردية سابقاً بالفشل والأنهيار. فهل ان الصراعات الدائمة ما بينهم هي من سماتهم؟ ان ان سوء الحظ يلاحق الاكراد باستمرار، لأنهم لايأخذون قضيتهم بما يجب، أو ليس في الوقت المناسب.

- من الصعب ان أجيب على ذلك. والاكراد أنفسهم يعجزون عن الاتيان بتفسير. فمساعي الأكراد كلها متفقة ما بينهم، إلا انهم لم يتمكنوا مرات عديدة من الوقوف على طريق الاتفاق قبل الشروع بالعمل.

- وكيف هي الحال الآن؟

- في الوقت الراهن ستكون الحال بشكل آخر - مسح ماك غريغور ركبتيه بكفيه واضاف
- ان النتيجة النهائية، على العموم، ستكون بصورة أخرى.

- ولكن ما هي النقاط الاساسية في مطاليبهم بالذات؟ - سأله كيومون وقال - انه تصلنا عنهم معلومات متضاربة.

أتخذ ماك غريغور حالة التريث. فان اسئلة كيومون كانت بسيطة ومباشرة. واراد ماك غريغور ان تكون اجوبته ذات طابع مراوغ فقال:

- انهم يريدون اقامة جمهورية مستقلة.

- ها عن طريق القوة؟

- باي طريقة يستطيعونها.

- واين سيقيمونها ؟

ضغط ماك غريغور كتفيه وقال:

- باي مكان يستطيعون - خرج منه هذا الجواب ضبابياً، إلا انه لم يرغب في تحديد ذلك.

- مفهوم... وانفتح الباب وأنغلق مرة أخرى بنفس اللحظة. ولكن كيومون لم يحرك حتى حاجبيه واضاف - لقد قلت يا ماك غريغور ان ليس بامكانك مناقشة قضايا سياسية عوضاً عن الأكراد. ولكن أليس بامكانك في نهاية المطاف ان تقول وبأقصى الحالات، من هم الحلفاء الدوليون الذين يريد القاضي ولجنته البحث عنهم؟

- انتم تريدون ان تعرفوا كيف هي علاقتهم مع فرنسا ؟

- أجل.

- لم اذكر، حتى ولو مرة واحدة ان سمعت منهم ما يشير الى فرنسا.

- وما هي وجهة نظرهم ازاء الروس؟ - سأله شرام.

- نفس وجهة نظرهم ازاء أمثالهم - أجاب ماك غريغور. وبدأ شرام يستفزه اذ قال - انها نظرة صداقة، اذا كان أولئك ينظرون اليهم نظرة صداقة، أو نظرة عداء اذا كان أولئك معادين. ولاتوجد هنا اسرار.

وظهر الى جانب كيومون على المتكأ ملف بنفسجي اللون مربوط بشريط وردي فاتح، ولم يلاحظ من اين ظهر هذا الملف. وبعدما وضع كيومون نظارة فرنسية مذهبة كبيرة على عينيه، فتح الملف باصابعه الخزفية، والقى على الاوراق نظرة مركزة من عيون هرمة وقال:

- ان عندنا مصادرنا الخاصة للمعلومات. ولهذا فأنا ارجو منك ان لاتفكر كما لو انني ادفعك للادلاء باسرار عن شركة النفط الوطنية الايرانية التي انت تعمل بها.

انتظر ماك غريغور ماذا ينبغي عليه ان يقول بعد ذلك.

- هل صحيح فعلاً ان اباراً ضخمة من النفط والغاز أكتشفت في المنطقة الجبلية الكردية؟

- سأله كيومون وقال - وهل انت الذي كنت أكتشفتها فعلاً؟

- ولكن، ما هي الاخبار التي نقلها لكم مصدركم الخاص للمعلومات؟

- قال ان هناك احتياطات ضخمة بالتأكيد. أليس كذلك؟

- من الصعب اخفاء الحقيقة - قال ماك غريغور واضاف - وكذلك فليس عندي ما اضيفه على ما صار معلوماً لديكم الآن.

- ولكن لديكم معلومات حول هذه الناحية هي أفضل الآن مما لدى اي واحد آخر - واصل كيومون الكلام باستعطاف واضاف - ومن هذا المنطلق، ما هو تقديركم على ضوء ابحاثكم لهذه المعادن، وكم ستطول مدة استثمارها، اي في حدود المستقبل القريب؟

- الغاز الطبيعي في طبقاته العميقة يكون مشبعاً بالكبريت بدرجات متفاوتة. الا ان التكنولوجيا المعاصرة تعالج هذه المسألة بسهولة. وما يتعلق بالبترول - قلص ماك غريغور كتفيه ثم أضاف - فانه موجود على أعماق سحيقة. ولكن لهذه المسألة حلاً يتعلق بحجم رأس المال المستثمر.

- وانابيب نقل البترول؟

- اي انابيب لنقل البترول؟

- هل ستكون هذه الانابيب مأمونة الجانب؟

- ممن؟ وبأي اتجاه سيجري مدها؟

- ان هذا مرهون باتجاه الانابيب. فهل ستكون الانابيب امينة من الاكراد أنفسهم؟ - سأله شرام بلهجة صارمة محاولاً اثارة ماك غريغور من جديد.

- ستكون الانابيب امينة، اذا كانت تعود منها فائدة للأكراد - قال ماك غريغور واضاف - وبعكس ذلك فان الاكراد سينسفونها عدة مرات طبعاً، وباستمرار كلما استطاعوا الى ذلك سبيلاً، ولكن ما هي الانابيب البترولية التي تقصدها؟

وعلى قدر ما أعلم فليس الآن أية عملية لمد لهذه الانابيب ولا أي تخطيط لها.

- ان هذا مجرد سؤال عام عابر فقط - وأغلق كيومون الملف والتفت نحو شرام وقال - قبل انتقالنا الى البند الرئيسي، اليس لديك أي سؤال آخر؟

أشار شرام برأسه موافقاً، وتوجه نحو ماك غريغور بكلمة باللغة الفرنسية:

- اننا مطلعون تمام الاطلاع على اساليب المقاتلين الفدائيين الاكراد (بيشمركه).

- تمام الاطلاع؟ - شدد ماك غريغور بارتياب على هذه العبارة شاعراً بخصومة من قبل شرام له.

- نحن مطلعون الى حدٍ كافٍ - تكلم شرام بحذر الآن واضاف - ولكننا لانعلم ما هي الخطط التي لدى الاكراد. واقصد في هذا، ضمن المفهوم الستراتيجي. فهل انهم يستهدفون انشاء قوة عسكرية كبيرة كاملة؟؟ ان انهم ينوون ممارسة نشاطهم بواسطة قطعات صغيرة مع استخدام تكتيك الضربات القصيرة الاعتيادية والانسحابات السريعة.

- انا لا أعرف شيئاً عن هذا. وسواءً عرفت ذلك أم لم أعرفه، فأنني لن أقول لكم شيئاً. استقبل شرام هذه العبارة، باخفاء رأسه قليلاً، مثل ملاكم يراقب استدارة خصمه. ثم قال:

- ان هذا واضح بالنسبة لي. ولكنني اريد خصوصاً استيضاح هذه الناحية، وهي مستوى قابليتهم القتالية. هل هي عالية؟

- من الصعب الاجابة بدقة، ولكنها أعلى كثيراً مما يقدره كثيرون.

- واين يريدون هم ان يبدأوا؟

لم يرد ماك غريغور على هذا السؤال.

- هل في ايران ام في العراق ام تركيا؟ - قال شرام ذلك مع قهقهة.

- حتى لو كنت أعرف شيئاً عن ذلك، فما كنت سأتحدث عنه، وانت يا ميجر شرام توجه لي أسئلة ليس من الممكن الاجابة عنها.

لكن مهنة شرام شددت لديه صرامته الطبيعية مع ابتسامة مجاملة ثم قال:

- حسناً، هذا سؤال لك لربما تستطيع الاجابة عنه يا مسيو ماك غريغور، انا ارى ضمن قائمة الاسلحة التي اشتراها الكرد مجموعة من البنادق القتالية البريطانية عيار سبعة ملم. فلأي غرض يريدون الحصول عليها؟

تردد ماك غريغور بالأجابة، اذ هل سيواصل الردود انه لايعرف، لم يرفض الاجابة أصلاً. الا انه لاحظ من تصرف كيومون نحو شرام، ومن انتباهته انتباهة الطير، على السيكار بين

اصابعه الرفيعة، ما أعطاه عبر الكلام الدائر بينهم ما يفهم منه انه كلما ابتعد عن الكذب مع هؤلاء الناس كلما كان ذلك أفضل وأكثر ثقة واماناً. فقال بعد ذلك:

- الاكراد يفضلون نيران البنادق ذات المدى البعيد والدقة بالاصابة في القتال، ودوام عمل السلاح طويلاً.

وهذا هو كل ما أعرفه جواباً عن هذا السؤال.

- ولكن، يا ترى، هل ان البنادق الامريكية «M - ٦٦» أقل كفاءة من هذه الناحية؟ وهي معروضة بكميات فائضة لدى تجار الاسلحة؟

- هل تسنى لك يا ميجر شرام ان حللت في جبال الاكراد ؟

- كلا. ولكن عندي أمل بالوصول الى هناك قريباً جداً، بل وانني استطيع الكلام قليلاً باللغة الكردية.

قاطع كيومون كلامهما رافعاً يده لأحتساء نخب ماك غريغور ومد الكأس نحوه، فأدرك هذا انه لم يستطع اقناع الفرنسيين بعدم اهليتيه العسكرية، ثم قال الى كيومون كأسه الفارغة:

- شكراً، لاتسكب لي أكثر.

اصغى كيومون لحظة منصتاً الى لحن وضجة خلف النافذة. ومن ثم سأل ماك غريغور:

- هل أنتم تعرفون اين هي الآن الأسلحة التي اشتراها الاكراد ؟

- اجاب ماك غريغور انه لايعرف.

- انها تقف مشحونة بعربات شحن سويسرية على خطوط التوزيع في ليون - قال كيومون واضاف - وان هذا ببساطة يكلف سترونغ وسيليف عشرة الاف فرنك اسبوعياً. ولهذا فانه لمن المفهوم عدم اصطبارهم لأتمام الصفقة معكم.

- انهم لايطيقون صبراً من أجل تسلم النقود - صحح له بدقة، ماك غريغور.

- وهذا هو ما يريدونه بالذات - قال كيومون - وان الموقف حساس جداً من هذه الناحية.

- وماذا انتم تقصدون بذلك؟ - قال ماك غريغور.

- ان العملية التي قامت بها البنوك لأحتجاز النقود فيها مخالفة للقوانين الفرنسية - تكلم كيومون بنفور صارم واضاف - أننا باختصار نستطيع اتخاذ الاجراءات التي تعيد هذه النقود الى لجنتكم.

قال كيومون ذلك ونهض متجهاً للاقتراب من النافذة والقاء نظرة ليتعرف على سبب هذه

الضجة هناك في الشارع من تحت. ومن ثم استدعي ماك غريغور وشرام نحو النافذة بايماءة من رأسه. فقد كان هناك ما يصل الى المئات تقريباً من تلاميذ المدارس بمعاطف قصيرة وقمصلات سياحية قد ساروا في مسيرة مارش في الشارع رافعين الاعلام والشعارات. وعلى ضوء ما هو مكتوب على الاعلام والرايات فانهم تجمهروا من المدارس المتوسطة في بيوفون وكوندورسا وبوليا فاليري وكارل فيليك، ولكنه بحسب أفعالهم أو صراخهم، فهم قد اضربوا احتجاجاً على احتلال البوليس لجامعة السوربون. وتكلم كيومون بالم في اثر تلاميذ المدارس المتوسطة الذين ابتعدوا بشارع كونستانتين:

- هل ان اندريه جيد هو الذي دعا الى ذلك! واذا ما استمر الحال على هذا المنوال فان جيل الشباب سيكون في مجمله مكوناً من المشوهين ثقافياً.

وعاد بعد ذلك الى المتكأ المذهب.

- هل بهذه الصورة تستطيع انت ان تضمن اعادة النقود الى اللجنة؟ - ماك غريغور سأل كيومون، مدركاً ان الكلام تناول صميم المسألة.

- بموجب شروط محدودة - أجاب كيومون.

- وما هي بالذات؟

- اننا بحاجة قبل كل شيء ان تشخص من هو الذي يمثل الأكراد فعلاً في هذه القضية...

- الذي يمثل الأكراد هو انا - تكلم ماك - غريغور بلهجة حازمة.

اثار هذا الاندفاع غير المتوقع ابتسامة لدى كيومو، فقال:

- ليس عندي شك بذلك. لكننا بحاجة الى نص تخويل مكتوب.

- اظن ان وثائقي كفيلة بارضائكم - قال ماك غريغور.

- وهل هي عندك؟ - سأله كيومون محركاً اصابعه الكبيرة مع يديه الصفراوين الرشيقتين معاً.

- كلا.

- واين هي اذن؟

- انها عندي في الدار.

نظر شرام وكيومون أحدهما للآخر.

- انت لايقلقك أن تكون أكثر حذراً مع وثائق كردية من اي نوع - قال كيومون واضاف -

فانت تعرف حقاً ماذا جرى لذلك الفتى الكردي.

- أعرف ذلك، ولكن ليس بالتفصيل.

- انه أصيب بتيفوئيد الأمعاء. الا اننا لم نتوصل الى أكتشاف مصدر العدوى.

- انا علمت انه توفي بمدينة ليون، وان دائرة الأمن الفرنسية سلمت وثائقه الى الاتراك.

- هذا غير صحيح - تكلم كيومون بانزعاج مفاجئ وقال - فان هذا التركي سيروغلو يؤكد ان البوليس هو الذي سلمة الوثائق. ولكنها كانت قد سرقت في الواقع.

ومن ثم، وللأسف، فأننا لانتمكن من أجبار العقيد سيروغلو على اعادتها الينا اذا كنا لانريد اثارة مشكلة دبلوماسية.

- مفهوم - تكلم ماك غريغور بسخرية أكثر مما كان يريد هو نفسه.

- ولكننا لسنا بحاجة في الواقع الى تلك الوثائق اذا ما حصلت انت سريعاً على التخويلات الموثقة - قال كيومون ونهض مختتما بذلك المحادثة.

- وماذا ستفعلون اذ حظيت الوثائق بقبولكم بهذه الحال؟ سأله ماك - غريغور على أثره.

- ان فرنسا تطبق سياستها الخاصة بشأن الشرق الاوسط يا مسيو. انها اهم منطقة تضم مصالحنا في هذه الاطقاع، اي في ايران والعراق وتركيا والخليج الفارسي. ومن الطبيعي ان تمتد مصالحنا الى المناطق الكردية.

- هل تعنون النفط؟ - تكلم ماك - غريغور وهو يرافقه حتى الباب.

- اننا سنناقش كل هذا بعدما ننظر في تخويلكم...

قام شرام نفسه الآن بتبادلْ المصافحات عبر الغرفة الأمامية علنا امام الموظفين في الطريق نحو سيارة «الستروين» البوليسة. وعند باب السيارة قال شرام لماك - غريغور عبارة مقتبسة باللغة الكردية «السلام هو حديقة ورد. لاتجتزها منفرداً بدون صديق». فابتسم ماك غريغور ابتسامة عفوية وسأل:

- من ذا الذي علمك هذا؟

- احد الاكراد... - ومن ثم واصل شرام بنظرات مسيطرة طرح كل ما لديه من احتياطي معلوماته الكردية ليقدر ما تحدثه من تأثير فقال معدداً - طائر السيدان، فطرسام، ذيل ثوب وس. مخنث، جوف، فقاعة ثور، مغرم، نحيب وقال أعتقد انك تعرف جميع هذه الكلمات.

- نعم، هكذا يتشاجر الاكراد.

- انها لفة مضحكة - قال شرام وأغلق باب السيارة ملوحاً بيده لماك - غريغور الذي جلس في السيارة، وانطلق السائق به من البوابة بتلك الثقة التي توحى انه من المستبعد ان يكون هناك اي واحد أو سيارة من الأمام أو من الجانبين.

الفصل العشرون

كانت الساعة تؤشر الثانية عشرة عندما رجع ماك - غريغور الى البيت، وهذا الوقت هو موعد الغداء في فرنسا، ولم تكن كيتي موجودة في البيت ولم ترد عليه جوس، فانها قد تعرفت على سكان هم غرباء بالنسبة له رغم كل شيء انه لم يصادف اي أحد، فيما اذا أخذ بنظر الاعتبار انه كان قد غادرهم في الصباح عندما استصحبته الشرطة الفرنسية الى جهة ما مجهولة المستقبل. لكنه وجد قصاصة ورق مكتوبة فوق مائدة الغداء حيث هيأت له صحون الطعام تفيد «الغداء في الثلاجة. أفتح لك قنينة نبيذ».

بعدما تناول الغداء، قرر التنزه على شارع الضفة اليمنى بساحة سوغلاسيا، ويذهب الى البنك الذي حول اليه من طهران جميع ما لديه من عملة صعبة. كان هذا البنك امريكياً. وكان ماك - غريغور يشعر بالارتياح دائماً هناك. فقد أعجبته الطريقة المصرفية الامريكية، حيث كان مطمئناً نفسياً الى هذه الطريقة مطمئنا على نقوده. وبعدما وضع توقيعه على ظهر ورقة سك زرقاء بمبلغ خمسمئة دولار قام فيما بعد باخفاء الفرنكات التي تسلمها بجيب داخلي، وذلك لغرض ان يدفع جزءاً منها لنفقات البيت على المواد الغذائية والبنزين وولائم الضيوف، وهو الجزء الذي توافق كيتي فقط على دفعه.

- مرحباً يا مستر ماك - غريغور - استقبله مستخدم في البنك، وهو امريكي من اليونانيين بلبنان، كان يحب ان يتبادل مع ماك - غريغور الاخبار الايرانية، ثم يعرج بالكلام على بيروت أو على تسلق الجبال التي يعشقها اليونانيون. اما في هذا اليوم فانه قد فرك حاجبيه الأسودين الكثين رافعاً اصبعه السبابة في اشارة سرية محذرة الى ماك - غريغور وقال مضيفاً - هكذا توقعت انا انك ستأتي. وكنت واثقاً من مجيئك.

- ولكن ما الأمر؟ فهل حدث شيء ما؟

ومن دون الانحناء بشكل مؤتمن واتخاذ مظهر السرية المبالغ به قال اليرناني همساً الى ماك

- غريغور:

- رغم انه لايجوز ابلاغك بحكم وظيفتي، الا اني أقول لك بحكم الصداقة. ان أحدهم اراد الحصول على شهادات بمعلومات حول حسابكم عندنا، وانه استطاع تبادل تلكسات مستعجلة مع طهران وواشنطن ولندن. وانا أعتقد انه ينبغي لك الاستفسار عن ذلك.

شكره ماك - غريغور وقال:

- يبدو ان هذا نوع من التحري الاعتيادي عند امكانية التسديد بشأن أحدى الصفقات التي انوي القيام بها.

حنى اليوناني رأسه علاقة على فهمه للقضية بنفس الوقت الذي رتب حزمة من اوراق مالية بقيمة خمسين فرنكا. وعد الاوراق النقدية وبقية الخردة وقال بصوت عال:

- الى اللقاء يا مستر ماك - غريغور. كنت سعيداً برؤيتك.

عندما أجتاز ماك - غريغور طوفان سيل السيارات بساحة سوغلاسي، فكر بتجهم حول من كان بحاجة ليدس انفه في حسابه المصرفي. وهو قد فهم أن هذا بالتأكيد لايزيد عن ضغط دوري آخر عليه، ورغم ذلك فقد شعر بانقباض نفسي وعدل عن الرجوع الى البيت بمثل هذا المزاج. واجتاز الضفة اليمنى متطلعاً بانظاره الى واجهات المحلات. وجلس وراء منضدة صغيرة في مقهى مقابل لوفار وراح يخمن بذهنه النسبة المئوية لتلوث الهواء بالرصاص في شوارع باريس. وبحسب مستوى حامض الآزوت الحالي الذي ينفثه البترول من العرب والفرس سيقتل في نهاية المطاف كل ما هو حي بأوروبا من الكبار والاطفال والاشجار والزهور. ولكنه مع تجهمه قلص كتفيه فقط وكأنه يقول هذا قتل بالعمل وبعدالة...

وعندما وصل الى البيت، كانت كيتي قد غطست في البانيو لحضور دعوة العشاء عند مارغوز. وقد نادت عليه من خلال الباب ان الوقت قد حان لإرتداء الملابس وقالت:

- هل انت لم تنس؟

- كلا، كلا - كذب عليها.

خرجت كيتي من الحمام طرية عطرة. ولم تسأله الى اين ذهبوا به، ولماذا.

- قولي اين كنت؟ - سألها هو.

- لقد سبق لي ان قلت لك مساء أمس. فاننا مع الهر ذهبنا الى مضمار محلي رائع لسباق الخيل، وركبنا هناك على متون الخيل. انها منطقة مفتوحة، فهناك النشارة ومدربو الخيول

الفرنسيون ذوو السيقان العوجاء ببنطرونات البرجس الانكليزية وكلاب الصيد باسماء بوب وجوك.

فهو عندما ذهب في السيارة مع غيرين كان قد تركها فزعة مضطربة، فاين قد أختفى كل ذلك الفزع؟

- لكنك لم تسأليني اين كنت انا ؟ - سألها ماك - غريغور.

- انا كنت أعرف هذا - قالت كيتي ثم أضافت - لقد اخذوك. وانا من هنا اتصلت بالهر.

ولم استطع ان لا أقوم بذلك. وهو قد أبلغني، ان كل شيء وفق الاصول، وان أحد اصدقائه يريد الحديث مع. اسمه كيومون. اليس كذلك؟.

- نعم.

- وقد قلت موزيل، ما كنت عزمت عليه، وهو انهم أخذوك بصورة منذرة بالشؤم. ولكنه كان قد ضحك وقال ان هذا لا أكثر من مجرد نوع من اجراء عملي فرنسي أحمق. فماذا اراد منك كيومون؟ هل انه اراد مساعدتكم للتفاهم مع الأكراد ؟

- اجل ان الامر كان في مثل هذه الحالة.

- وهل كنت انت موافقا ؟

- لم أعط موافقة صريحة - اجاب ماك - غريغور وقال - ان الكلام حول هذا الموضوع سيكون لاحقاً.

شرعت كيتي ترتدي فستاناً جديداً بني اللون - وقد رفعته الى فوق بحذر فوق رأسها لأجل ان ينساب عبر كتفيها الى تحت. وكانت قد خاطته بواحد من دور الازياء الغالية في الشارع الدائري الثامن - ولكنه كان محيراً مرة أخرى ولم يلائم ذوقها. لقد عادت كيتي بحماس جنوني غريب الآن الى حياتها الاوربية السابقة، وجدّدت حتى قوامها وعنقها ووجهها ماسحة بذلك جميع الآثار لكل ما كان يدل عليها من قبل. وقالت له:

- اربط لي سلسلة الفستان من الخلف.

كان هذا من قبل، مناسبة للغزل. وكيتي تلصق جسمها عليه ولو لفترة قصيرة ولكن بفرح. ولكن هذا لايكون الآن، بل ومن المحتمل انه لن يكون بعد ذلك مرة أخرى.

- على ما اظن ان الوقت قد حان لمغادرة باريس - تكلمت كيتي، بينما هو لم يفهم مدى جدية هذا الكلام. فانها كانت قد قالت قبل ذلك مثل هذا الكلام. ومررت كيتي أصابعها

خلال خصلات شعرها وقالت أعرف العمل الذي تمارسه دائرة كيومون وهذه القضايا سوف تكون انت عاجزاً عن مواجهتها.

- وهل يرى موزيل نفس هذا الرأي؟

تلفت كيتي ونظرت وقالت:

- انني حتى بدونه أفهم هذا. وهو لايعرفك. اما انه فاعرفك

- انا لا أرى ما يجعلك فزعة الى هذه الدرجة.

- انت تنجر الى اجواء الاستخبارات السياسية - قالت كيتي واضافت - انك ستكون موضع الاهتمامات.

- هذا محتمل... - تكلم هو مدركاً صحة كلام كيتي.

وطلت شفتيها بعناية بأحمر الشفاه. وقالت:

- وصل الى هنا لمقابلتك هارولد ايسيكس. وقد رأيتهُ في الصباح.

- أي - أيسكيس؟

- اي - أيسكيس - قلدته بكلامه بسخرية واضاف - انه ولي زواجنا السعيد شاء ذلك ام ابى. فكر انت اثنين وعشرين عاماً قد مرت منذ ذلك الوقت الذي سافرت معه الى موسكو في مهمتكم السخيفة - ثم القت على زوجها نظرة من داخل اطار المرآة القديمة وقالت - وانك تفكر هل ستستطيع ان تتبادل الآن مع ايسكيس الحديث في المسائل السياسية بنجاح أكثر نوعاً ما مما كان سابقاً؟

- ولكنه صار الآن عجوزاً...

- الشيخوخة لاتعرقل شيئاً بالنسبة الى هارولد ايسكيس - أعترضت كيتي واضافت- من المحتمل انه مع تقدم السن يصبح أكثر مكراً يعوض به الشيخوخة.

- ولكن ما هي حاجته من المجيء؟ سألها ماك - غريغور، شاعراً بالحرج الذي تملكه دائماً بالاختلاط مع ايسكيس.

- انه بحاجة الى نفس ما الآخرين بحاجة اليه الآن. انه بحاجة اليك.

نظر ماك - غريغور نحو حذائه مخفياً بذلك وجهه المنزعج عن كيتي وقال موجهاً كلامه، الى الارض:

- ايسكيس لايخلق لي متاعب.

- هيا البس سترتك - تكلمت كيتي بنعومة - هيا نذهب.

اطاعها في ذلك. وعلى السلم عدلت له كيتي ياخة سترته وقالت:

- ان ايسكيس يقصدك، اما لغرض رجاء من رجاءاته المتمايلة المحسوبة عند خدمة ما أو لممارسة ضغط من وزارة الخارجية.

- وما المقصود؟ - دمدم ماك - غريغور.

صعرت كيتي خدها بسخرية وقالت:

- انهم كلهم ومن ضمنهم ايسكيس يعقدون عليك انواعاً من الآمال. انهم سيغرونك بكل انواع الاوهام. ولايحسب حساباً الى ايسكيس. ومن الطريف انك رغم مرور كل هذه السنين من العمر ستتبارى مرة أخرى بالقوة.

وتوقفا لدقيقة في القاعة، حيث ان كيتي التي كانت مكتملة، وعدلت رباطه وسترته وقالت:

- انظر. ان كل ما حذرتك منه سيتحقق الآن - قالت ذلك وهي تنظر نظرات مباشرة من عينيها الانكليزيتين الصافيتين الباردتين وأضافت - ولكنها فقط ستكون اسوأ مما انا فكرت به.

- بحسب رأيي ان المسألة بدأت تدخل في متاهة - أعترض هو عليها.

دست كيتي كفيها بالقفاز متضجرة من التوضيحات وقالت:

- حسناً، حسناً. انا غير مستعدة للجدل. تصرف انت حسب رأيك - ومن ثم صرخت منادية:-

يا عمتي جوس. اننا ذاهبان الى حفل كوكتيل وعشاء عند جيزي مارغور. وسنعود متأخرين بالتأكيد.

- حسناً. حبيبتي كيتي. لكن قولي اين الاطفال؟

- يتقاتلون بالتأكيد مع الشرطة في السوربون. ولا أعرف أين هم الآن.

- هل ينبغي مني الاتصال تليفونياً بحثاً عنهم؟ - سألتها العمة جوس.

- لا حاجة لذلك. وانا سأتصل تليفونياً بعد ساعة بالبيت هنا لأتحقق هل عادا أم لا.

- حسناً يا حبيبتي كيتي. لا حمامة ولا غراب...

«لا حمامة ولا غراب» أن هذه عبارة جديدة. ونزلا يداً بيد الى شارع باربا دى جوئي بحثاً عن تكسي. وبذلك أنصرفا لحظة عن الهلع وتلفتا مبتسمين حيث اثر فجأة أحدهما على الآخر باناقة الملابس وطراوتها ورائحة العطر ولمعان الاحذية الانيقة الجديدة. ومهما كان القول فان الاناقة القليلة قادرة على استحصار كل ما في العالم تقريباً.

الفصل الحادي والعشرون

ما ان مرت عشرة دقائق حتى شعر جيزي مارغوز بحنين غامر الى ايام الشباب الخوالي فهو لم يكن له مكان وسط الجنرالات والوزراء والدبلوماسيين والسيدات وخبراء تذوق اصناف الكونياك وذوي المقامات الرفيعة ورجال المصارف الذين تخلو هنا عن قضاياهم امام الاقداح والمقبلات.

إن هذا البيت الذي يقع في المركز قرب البولغار - الشارع المشجر، وسلمه المفتول ذا التصميم المعماري المشهور الرائع قد أنتظم طبقاته الخمسة كلها مثل المثقب الحلزوني. وأستقبلوا الضيوف في الطابق العلوي، حيث كانت جدرانه مغطاة بحرير يحمل رسوماً لجنينة من الطراز الياباني. وعلى اوراق شجر الخيزران التي تشبه الريش وعلى الزجاج الذي يشبه المراوح طارت تخفق باجنحتها طيور نادرة. وفيما بعد خطر على ذهن ماك - غريغور ان الحسناء جيزي وبيتها متشابهان مثل التوأمين السياميين.

ووقف جانباً يراقب الضيوف موازناً بينهم وبين كيتي، غير فاهم ما الدافع الذي جلب كل هؤلاء النسوة الى هنا. وأكتشف خلال ظرف دقيقتين ان أولئك الضيوف براقبونه بدورهم، وكأنهم يعرفون عنه سراً ما، هو نفسه يجهله، والنسوة هؤلاء هنّ فرنسيات وهولنديات والمانيات وانكليزيات وامريكيات واسبانيات وهنديات وامريكيات جنوبيات. ثم هناك شابة بورمانية واحدة، كانت متأنقة متعالية فوق بساط مخملي أخضر اللون. وكان من الصعب جداً بالنسبة لأي واحد منهم عندما يتكلم معها ان لايحملن نحوها بعيونه. وكانت تصغي اليهم كما تصغي النبة، أي انها لاتسمع اي شيء كما يبدو، ولاترد ولاتتكلم. وتكلم أحدهم كان واقفاً بالقرب منه:

- في الحقيقة لا جمال أبعد من هذا الجمال - أليس كذلك يا ماك - غريغور؟

وأعتقد ان هذا ناجم عن الاسترخاء غير المألوق لنا وكذلك عن الارجل التي من عادة البراهمة البرمانيين ان يربطو اقدام زوجاتهم. الا ترى ان ذلك رائع؟

عـرف مـاك - غـريغـور ذلـك الشـخـص هو ايسكيـس دون ان يلتـفت نحـوه، وحـسب ان من الافضل الحذر من اظهار الأنفعال.

- ومن هي هذه؟ - سأله ماك - غريغور بصوت اعتيادي، كما لوانه أفترق عن ايسكيس يوم امس وليس قبل اثنتين وعشرين سنة.

- انهـا كاتشنكا، زوجة جنرال برماني يدعى أوتا كمـا يبـدو لي هكذا. وقد كـان قبـلاً، شخصية بارزة مهمة في حزب أونو، اي «من الجناح النظيف». اما الآن فهو واحد من الذين يدمرون حملة من وراء ستار ضد الشيوعية.. ويقال انه يمارس الى جانب ذلك اللعب على كل الحبال. والناس هنا يا ماك - غريغور لاينسجمون بالتحديد مع مزاجك.

أدرك مـاك - غريغور ان عملية لاغتصاب السلطة تجرى هنا. فـان ايسكيس يتصرف بما يشير الى تأكيد علو شأنه عليهم. وقد واصل كلامه:

- وأخيراً ها انذا لم اتوقع ان تكون لك علاقة مع أمثال هؤلاء. فأنني منذ زمان بعيد لم يصادفني ان أرى مثل هذا التحشد من الرجعيين مثلما هو عليه على هذا البساط لأجل اي غرض أتت بك كيتي الى هذا المكان؟

- انها ترتبط بعلاقة صداقة قديمة مع أسرة موزيل.

- انا أعرف معرفة جيدة حلقة اصدقائها - قال ايسكيس واضاف - ولكن العبث ان لاتنتضم ضمن الفئة الباريسية العليا في لعبتها. فهل ان كيتي ليس لديها فكرة عن ذلك؟

- ان الله هو الذي يهديها - قال ماك - غريغور.

- مهما سيحصل، فان اللعب هذا مناسب لها - قال ايسكيس مبتسماً واضاف. وتستطيع كيتي ممارسة ذلك كربة بيت.

جلست كيتي على متكأ ابيض اللون، والى يسارها جلس موزيل، والى يمينها شخص ايطالي وبمقابلها جلس على منضدة صغيرة واطئة بنية اللون اثنان من الامريكيين عليهما بدلتان من الحرير، مجازفين بتحطيم لوح الزجاج الذي يغطي سطح هذه المنضدة الصغيرة. وكانت كيتي بمظهرها وزينتها رائعة جداً بحيث غطت على جميع النساء الأخريات في الصالون.

وتطفل ايسكيس بالكلام فقال:

- انها لم يطرأ عليها اي تبدل ابداً، فضلاً عن هواء الجبل الجاف قد اضفى على بشرتها لوناً وردياً. انكما الاثنين تبدوان بين هذا المجتمع مثل الصقور.

وبعدما لاحظ ماك - غريغور هذا العجوز ايسكيس اصابته الدهشة من التغيرات الكبيرة الى ابعد الحدود التي طرأت عليه بالذات بعد اثنين وعشرين عاماً. ولربما ان التغيرات بالملابس، فهي لابد منها مع الايام، فالقميص الناصع ياخته أكثر عرضاً، وكذلك الرباط، وشعره الآن أكثر طولاً وكأنه يستعرض غزارته، وكذلك فان سمرة لاحت على وجهه، وهي ليست عبثاً طالما ان هذا الدهان الشمسي يخفي التجاعيد والتوترات العصبية والترهلات. وحالما تطلع ماك - غريغور، بتركيز حتى رأى ان بشرة ايسكيس تميل الى اللون الترابي. فهي ملساء ولكنها تبدو على وشك التشقق. وعنقه جافة، وفمه غار الى الخلف، وبدأت عيناه تفقدان حيوية الحركة. الا أن هذا غير ملحوظ للرؤية من مسافة خمسة اقدام. وبعدما تعرض ايسكيس الى هذا الفحص غير المتوقع تراجع الى الخلف باحتشام عفوي وقال مشيراً برأسه نحو المتكأ:

- أظن ان هذا الذي هناك هو موزيل.

- نعم.

- من المضحك انني لم التق به حتى ولو مرة واحدة. أليس هو منافسك الحالي؟

- أحتقن وجه ماك غريغور من جراء اضطراب المّ به فسأل بتلعثم:

- اي منافس؟

- انه بالذات ولاتلجأ الى التأكيد لي، بان كل هذه السنوات من زواجك بكيتي قد مرت بدون مشاكل وبلا منافسين عليها.

- ان كيتي تربطها صداقة قديمة مع موزيل.

- سبق لك ان قلت لي ذلك - قال ايسكيس بنفس الابتسامة السابقة واضاف - فان كيتي ليس يمكنها ان لاتلاحظ سكان هذه الغابة اليابانية الصغيرة انهم جميعهم لايزوغون عنك بابصارهم.

على مسافة عشرة امتار منهما وقف ثلاثي من ثلاث نساء شابات، ومن ضمنهن اثنتان باريسيتان من قمة الرأس حتى اخمص القدم. وقد ركزن انظارهن بانتباه على ماك غريغور، حيث كان هو مدار الحديث بينهن. واندهاشا منه فانه ما كاد يسيطر على نفسه حتى أخذ يتأكد بنظره متفصحاً ما يرتديه من ملابس. والتفت اليه يسكيس يقول:

- الا تعلم يا ماك غريغور حول ماذا هن يثرثرن؟

- كلا.

- عن شهرتك بصفتك مناضلاً ومقاتلاً.

- انه هراء لا أكثر - قال ماك - غريغور.

- أنهن يرتجفن اعجاباً ويتماوعن عندما يسمعن أنك قتلت اتراكاً في الجبال العصية - واصل ايسكيس كلامه متلذذاً وقال - وهن يتصورن عنك انك مثل الصخرة العتية تجوب كل مكان في الجبال على صهوة حصان. وها انت تظهر امامهن غريباً غير مألوف، كما هي الحال التي يبدو بها المناضل. انه رائع.

وادراكاً من ماك - غريغور لمكرهن، فانه انصرف بنظره عن جميع الموجودين هنا من الوجنات المطوطة والحسنة والقاسية، لأنه يعرف ان هؤلاء مغفلون، وشعر عندما نظر عبر رؤوسهم، ان ايسكيس يراقبه مبتسماً بعينيه ويسخر من كل فكرة تمر برأسه، وقال له ايسكيس:

- انني سألتقي بكم غداً، حيث ان كيتي قد دعتني لتناول الغداء.

.وفي هذه اللحظة بالذات جرى التفريق بقوة ما بينه وبين ايسكيس، حيث ان ثلاثي النسوة اللواتي انتظرن اللحظة المناسبة، وكن غير بعيدات عن ماك غريغور اندفعن نحوه. ولكن الباريسيتين حالما ارادتا الكلام معه، واذا بجيزي مارغوز تتأبطه وتحجبه عنهن. ثم قالت له:

- لربما أنك لاتتذكر من أكون انا. فانت قد تعارفت معي قرب المدخل. وطبعاً فانت قد نسيتني خلال نصف الساعة الماضية.

إن جيزي مارغوز لايستطيع أحد ان ينساها اذا ما رآها حتى ولو لمرة واحدة.

وماك - غريغور لم يصادفه ان التقى بمثل هذا الجمال الآسر الاخاذ. وجيزي لم تكن شابة - حيث جاوزت الأربعين من العمر، الا ان سنوات العمر لم تنل من هذا الجمال الفرنسي الرقيق الفياض، وكأنما هناك ساتر يحجب هذه السنين عنها، وتذكر ماك - غريغور حديث موزيل مع كيتي عند اخته وكيف انها لاتطيق اقامة علاقات - مع اي انسان، بل وحتى مع زوجها. وقال موزيل «ان ما بينهما نفس ذلك الخلاف الذي يحصل هنا ما بين الشخص وكلبه. ومن الممكن ان يحصل بينهما اتصال ولربما اتصال وثيق ايضاً. ولكن شيئاً ما ينقصه في نهاية المطاف. وهذا الخلاف مهما كانت اسبابه فانه لا حل له بنظر جيزي. وهكذا كانت والدتها حيث انها عاشت حياتها وراء حجاب. وبحسب ظني فان جيزي تبحث دائماً وسراً عمن يمزق هذا الحجاب».

وفي الواقع فان لجيزي وجهين. أحدهما صنعته لها يد مزوق باريسي ماهر، وهو بجوهره من

ثمار التصنيع. والوجه الآخر هو الوجه الحقيقي يبدو محسوساً في مكان تحت الوجه الأولى اساسه مخفي هناك بلا تشوهات.

وبدأت جيزي الكلام مع ماك - غريغور:

- اسمي جيزي...

- لا داعي لذلك - قاطعها ماك - غريغور بارتباك وقال - انا اتذكرك.

ابتأست جيزي تقريباً، كما لو انها فضلت لو انه لايتذكرها. ثم قالت:

- لربما ان هذا المكان غير مناسب لك...

- أجل، أجل - دمدم ماك - غريغور غير فاهم وقال - سأنتقل الآن الى هناك- واشار اشارة اعتباطية نحو النافذة.

- ولكن من الأفضل لك ان تذهب الى البيت. وهذا سوف لايزعجني.

كانت نظرة جيزي الباحثة بتوتر لايطرف لها جفن. وتمنى ماك - غريغور التواري عن هذه العيون البراقة، ولكنها مغلفة بغشاء رقيق وتنظر لكل شيء من طرف خفي مثلما تنظر الحيوانات الى العالم. وقال لها:

- انا انتظر كيتي. وسنذهب معاً.

- ارى ان تنزل الى مكتبة زوجي - واصلت كلامها بشفتين ملمومتين فرنسيتين لتتلفظ الكلمات الانكليزية ولكن بدون جدوى وقالت باللغة الفرنسية - أنا لم أعرف ذلك، ومن العبث ان كيتي لم تخبرني عن ذلك.

- ما هو ذلك الذي لم تقله؟ - ونظر الى حيث كانت تجلس كيتي. وهي حتى هذه اللحظة ما كانت تعير نحوه اي انتباه، الا انها وجهت نحوه الآن نظرة ثاقبة.

وأشارت اليه بغمزة من عينيها. ومالت بهما نحو الساحة. ومن ثم نهضت وأعتذرت ممن كانت تتحدث اليهم امامها. وادرك هو ان كيتي تريد مكالمة تليفونية مع العمة جوس لتسألها عن سيسي واندريه. وقال هو لجيزى مارغوز:

- أعتذر للحظة واحدة، يلزمني ان استوضح عن ولدي وابنتي هناك.

- واين هما موجودان؟

- لا أعرف على وجه الدقة. فان كيتي توجهت الى مكان التليفون. فأنهما قد شاركا في المظاهرة التي اقيمت في السوربون.

- آه، نعم، نعم... هيا نذهب، فان التليفون موجود في المرصد - وقادته جيزي متأبطة يده بقوة، بحيث انه أحس بذلك النوع من الاطمئنان الذي اوحى له بالثقة ان جيزي سوف لاتسمح لأي واحد بالوصول اليه أو انتزاعه منها بالاستفسارات. وقادته عبر باب غير واضحا على الجدار، فوجد نفسه وسط غرفة صغيرة مستديرة تحت قبة زجاجية وقالت - يا كيتي هذا هو اسلمه بيدك - قالت ذلك بنظرات غريبة من عيونها الباحثة كالسابق لاصطياد نظرات ماك - غريغور الذي كان ينظر عبر رأسها. فهو قد عرف، بعدما عاد الى الصالة مغلقاً الباب من خلفه، ان جيزي قد غيرت بنفس هذه اللحظة تعابير عينيها الى تعابير مهذبة تماماً.

وادارت كيتي رقم التليفون، ومن دون مقاطعة الحديث مع العمة جوس اشارت الى زوجها ان يتناول سماعة التليفون الأخرى. وسألت كيتي!

- اين هما الآن؟

- لقد تعطلت سيارة سيسي بمكان غير بعيد عن مدرستها للفنون الجميلة العالية - اجابتها العمة جوس وقالت - وانها جاءت الى مارين طالبة منه المساعدة.

- ها ان كل شيء معها على ما يرام؟

- طبعاً. ورجت مني أن انقل اليك ان المعلمين يهيئون لأقامة مظاهرة ضخمة في المساء. فهل ان هذا على هذه الدرجة من الاهمية؟ كما ان شخصاً ما يدعى طه اوجاغا قد سافر الى مدينة ليون.

- متى؟

- ومن اين لي ان أعرف ذلك يا حبيبتي؟ فهو لم يخبرني. وهل لهذا أهمية كبيرة؟ وقالت سيسي، انها اذا لم ترجع في ظرف ساعة فستتصل بالتليفون.

- يا عمتي جوس، اذن انها ستتلفن. أخبريها ان تعود الى البيت قبل الثانية عشرة حتماً.

- ولكن يا حبيبتي كيتي، ان سيسي قالت ان كل شيء سيبدأ هنا في الساعة الثانية عشرة اي عند منتصف الليل. وأظن أنها غير مخطئة في ذلك. وان هذا كله مهم جداً بالنسبة لهم...

- قبل الساعة الثانية عشرة وليس بعد ذلك - كررت كيتي ذلك بلهجة التأكيد.

- حسناً، حسناً.

- اما اندرية اين هو؟

- انه ترك لك قصاصة رسالة. أنتظري لحظة فقط - وشرعته العمة جوس بالقراءة:- «انا أسافر مع طه الى مدينة ليون. ارجوكم عدم القلق».

وهذا كل ما هو مكتوب في القصاصة.

التفتت كيتي بنظرها نحو زوجها وقالت:

- شكراً لك يا عمتي جوس. ثم أعادت سماعة التليفون الى محلها.

وسيطرت عليهما لحظة من الصمت. وتكلمت كيتي من خلال اسنانها:

- ان تلك العربات المحملة بالاسلحة في السكة الحديد متوقفة هناك في ليون بالذات.

- ومن اين علمت اخبار وجود الاسلحة في ليون؟ سألها هو بينما لم يعرف هو عن ذلك الا في صباح هذا اليوم من كيومون.

- آه. أرجوك باسم الله...

- أرى ان موزيل يزودك بمعلومات شاملة - تكلم هو بغضب.

- توقف من فضلك عن هذا الكلام - ان ما هو اسوأ من الغضب هو هذا الهدوء، الذي هو سعار عملي بارد وقدرة غريزية على الاستخفاف الأرستقراطي - والآن، بعدما تورطنا بهذه المأساة، فانا يراودني الآن ان تعترف انت بحماقة تصرفاتك.

- لقد سعيت ان اضعكم كلكم بعيداً عن هذه المسألة.

- وكنت انت قد فعلت كثيراً.

- لن ادع اندريه يتورط في هذا - تكلم ماك - غريغور عن قناعة اكيدة واضاف - مهما كان السبب الذي ذهب اندريه من أجله الى ليون، فانه شديد الانتباه. وهو ما كان سيذهب الى هناك مع طه بدون اسباب مهمة.

- ان هذا السبب الهام هو من قبيل اسبابك الهامة.

- لم يحدث له اي شيء يا كيتي. وعندما سيعود سأتكلم معه بصرامة.

- هيا انطلق وراءهم وفي أثرهم الآن ومنذ هذه اللحظة - امرته كيتي بذلك ولم تقل ذلك بصيغة اقتراح.

- لا سبب للوقوع في الاضطراب والفوضى - قال ماك - غريغور.

- انا ليست مضطربة. بل اقول لك ما يجب فعله. هيا سافر.

- كلا - رفض ماك - غريغور وقال - انهما سوف لايقومان هناك بعمل متهور. وان طه لن يغامر طالما ان اندريه معه.

- ماذا سأفعل معك اذا كنت انت على هذه الدرجة من القناعة - قالت ذلك ثم نهضت

واضافت - الا انني أقول لك صراحة، ان اندريه حالما سيعود فأنني سأصطحبه فوراً سيسي الى لندن.

- ولكن لم يحدث ان شيء كما ترين. اسمعيني يا كيتي. دعي ذلك الى حين عودته. فاذا وجدنا انهما يقومان هناك بشيء ما، فعند ذلك سأكون موافقاً معك على الرجوع كلنا معاً الى انكلترا. فما زال الوقت مبكراً على الالحاح بالسفر. فانا لا أستطيع المبارحة. نعم لا أستطيع ذلك على العموم. فما زال ممنوعاً عليَّ ذلك.

- حسناً - كررت ذلك كيتي، وطوت كتفيها متراجعة عن كل شيء، مثل من استنفد كل ما لديه من طاقة في آخر المطاف، واضافت - ماذا سأستفيد فيما بعد من هذا التخبط. أبق هنا، تفضل وليكن كل شيء يخصنا مستقبلاً بما يوافق رأيك. فالنسبة لي فليس هناك عندي من فرق. ولكنه اذا وقع لأندريه ما يؤذيه فأنني لن أسامحك مدى الحياة أبداً.

- لن يصيبه الأذى.

لقد وقفا غارقين حتى الرسغ فوق البساط وهما يتجادلان بمهمس مسموع. ودخل عليهما قط اشقر اللون جميل متخم وأخذ ينبش البساط بكلتا يديه. ثم فتح الباب فجأة وظهر ذلك التركي العقيد سيروغلو الذي قال:

- أرجوك يا مستر ماك - غريغور ان تعرفني على زوجتك. فانني قد تعارفت معها عبر التليفون فقط. مرحباً - حيا كيتي وانحنى مقبلاً يدها واضاف -

أرجو منك ان تعينوا موعداً أكيداً لأقامة لقاء عائلي. فان من المحزن عدم سنوح فرصة لأولادنا ان يعقدوا أواصر صداقة بينهم. وانا أطمح لارسال اولادي الى انكلترا. فهيا بنا نتفق على يوم معين في الاسبوع القادم - وأستخرج سيروغلو دفتر روزنامة جلدياً رقيقاً وشرع يتصفحة، الا ان كيتي استوقفته وقالت:

- اننا بعد أيام سنغادر باريس. ولربما سنلتقي بعد عودتنا...

- فليكن كذلك، ليكن كذلك - تنفس سيروغلو الصعداء وأغلق الروزنامة وقال - الا اننا يجب ان نتحادث بلا تأجيل - قال ذلك لماك غريغور واضاف

- انها قضية مهمة - قال هذه العبارة بحالة هامسة سرية.

- نـ... نعم... دعنا نتلفن لبعضنا غداً - قال ماك - غريغور.

تركت كيتي زوجها يتفق مع سيروغلو، بينما رجعت هي الى الصالة، نحو المتكأ الأبيض حيث كان موزيل بانتظارها.

الفصل الثاني والعشرون

لم يستأنف الجدال بينهما في البيت، حيث كان الوقت في منتصف الليل، ولدى ملاحظة جيزي مارغوز المناقرة التي جرت بينهما، فأنها تركت ماك - غريغور يتناول عشاءه بهدوء، رغم انها كانت شديدة الاهتمام به بوضوح. وهم قد تناولوا عندها العشاء بقاعة طعام صغيرة ضيقة جداً تشبه مكان طعام بعربة مسافرين، الا ان ماك - غريغور قد نسى بعد ساعة كل ما سمعه حول مائدة الطعام، باستثناء ما علق بذهنه من ذلك الحديث مع دبلوماسي ايطالي الذي قال فيه ان أسلوب التشخيص الطبي الانكليزي ليس هناك أفضل منه في العالم. وقال ايضاً ان الأطباء في انكلترا يرونك معافى البدن، حتى يتم التأكد من كونك مريضاً. اما في القارة الاوربية فان الاطباء يعدونك مريضاً الى ان تثبت انت بنفسك انك صحيح معافى. انه قانون العقوبات الطبي القاري.

رجعت سيسي الى البيت في الساعة الواحدة ليلاً، ولكن كيتي لم تلجأ لمناداتها رغم كونها لم تكن نائمة، اذ كانت مستلقية في الفراش تقرأ مواد ارسلها جمال جناب من طهران. وعندما رن جرس التليفون صباحاً في البيت قفز ماك - غريغور فزعاً نائماً من الفراش، حيث سمع صوت ولده يخبره انه قد عاد مع طه الى باريس، وان كل شيء حسبما يرام. ولا داعي للقلق. وأخبر زوجته قائلاً:

- أنهما الآن قد رجعا.

ومالت على جنبها متنهدة، قم غرقت بالنوم فوراً، حالما تراجعت الى الخلف أخيراً ساعات القلق المفزعة يوم أمس.

انها كانت مستغرقة بالنوم عندما خرج ماك - غريغور لتناول الافطار. وحول المائدة قالت له سيسي، ان طلبة باريس ينوون مواصلة التظاهر، وقالت:

- حتى الجمهور الساذج يرى من العار احتلال الشرطة للجامعة.

ان مثل هذه الانفجارات من الامتعاض من سيسي كان ماك غريغور يجد فيها تسلية له، اذ يرى ان لا ضرورة للجدل معها، وما كان ينبغي الوقوف منها موقف الدفاع. الا انها أستأنفت الكلام فجأة:

- ماذا هناك بينك وبين أمي؟ - قالت ذلك مصوبة وجهها فوق صحن طبيخ الذرة، ومخفية له بستارة من شعرها الطويل، كنوع من علامة على سرية هذا الكلام المتصل بمناقشة مشكلة عائلية واضافت - فقد لاحظت ان الضوء عندكما ظل منيراً طوال الليل. ثم انكما قد تشاجرتما تماماً.

- كلا على العموم...

- وهذا يعني انكما قد تشاجرتما لدى جيزي مارغوز.

- لابد من التشاجر مع الآخرين من الناس. ولكنها كانت مناقرة قصيرة.

- ولكن الملاسنة تدوم بينكما طويلاً جداً،

- ان شهراً واحداً أو شهرين خلال الحياة كلها ليس مدة طويلة كما يبدو، يا سيسي. انها تقلبات...

انهمكت سيسي في مسح الرذاذ الكثيف من الالوان البرتقالية والخضراء والصفراء التي جفت على قميصها.

- قل لي، لماذا تولعت والدتي فجأة بالتنزه فوق ظهور الجياد في غابة بولونيا؟ بالمشاركة مع آل موزيل. انا لا أطيق صبراً على موزيل. ولا أحب اسرته كلها ما عدا جيزي. وحتى هذه كان ينبغي لها أن تكون راهبة في دير.

- عندما قبلت بي أمك زوجاً لها، اضطرت الى الابتعاد عن كل ما كان يحيطها منذ طفولتها - أجاب ماك - غريغور منتقياً عباراته بحذر واضاف -

اما اذا كانت تريد الآن التمتع بنعماء اللذائذ من جديد، فأي ضير في ذلك؟ فانها في الواقع قد صدت عن أشياء كثيرة في الحياة. وقد صادفني معها كثير من الاوقات العسيرة في الحياة.

- أجل، انا أعرف ذلك - قالت سيسي واضافت - ولكن مثل هذا غير لائق بها.

- أن اي مكروه سوف لايصيبها من جراء ذلك على العموم.

- وكذلك لن تنال اي خير.

- حسناً، كفانا كلاماً حول ذلك.

- ولكنك مشمئز من هذا. اليست هذه حيقيقة؟ - قالت سيسي

لم يرد ماك - غريغور على تساؤلها. فقد تحولت سيسي البنت الرقيقة الحنونة وبسرعة الى فتاة يافعة مديدة الارجل والايدي، وهو لم يعد يتذكر كيف ومتى حصل كل ذلك. وبالنسبة له فان البنت ماتزال زهرة لم تتفتح بعد. ولكنه قال:

- لا بأس في ذلك. فان كل شيء سيتحسن مع الزمن.

- ولكنك ستعود الى دارك في طهران. متى... تحقق للأكراد هذا نفسه - انها اكملت كلامها همساً.

جال ماك - غريغور بعينيه نحو الجدران الطويلة المشجرة، ونحو لاقطات الصوت المخفية سراً، ونحو اجهزة التسجيل التي لاتنغلق، انها لبعيدة الآن عن هنا سلاسل الجبال المسننة فوق مدينة سيكيز، وميراباد للوز والخوخ، والمجاري الصخرية العميقة للانهار وقطعان الخيول التركمانية اللؤذات الظهور المفعرة والسيقان المحجلة بالشعر الكثيف الملطخ بوحل ثلوج الشتاء، وبعيدة عن هنا جدران المقاهي المقامة من الطين وغير المشجرة وبدون اجهزة تسجيل سرية. الا يثير العجب ان الفقر في الجبال هو الشيء الوحيد الذي بقى على الارض من الحرية الوحيدة الحقيقة البسيطة؟ وقال الأب:

- تريد الوالدة ان نعود كلنا الى لندن.

- ولكن هذه حماقة - تكلمت سيسي بهدوء واضافت - عودوا كلكم وليكن بدوني - ونهضت سيسي من مكانها، وابتعدت متغافلة عن المعضلة التي لا حل لها، نفس التغافل الذي يمارسه الاطفال، وليس الكبار.

- الى اين أنت ذاهبة، مع كل تمنياتي لك بالسلامة؟ - التفت ماك - غريغور نحو الشعارات الملفوفة على شكل اسطوانة وزجاجة صمغ التي حملتها سيسي معها.

- الى دينغير - روشيرو.

- أرجوك منك يا عزيزتي - تكلم ماك - غريغور متابعاً اثرها في الصالة وقال - اسمعيني من فضلك... أرجوك عدم الدخول بمشاكل مع البوليس لأجلي أنا.

- حسناً - قالت سيسي واضافت - ولكنني يجب يجب فقط ان أشترك بشكل ما. بالمظاهرة. فأنت تعرف ان أكثرية الطلبة ملقى بهم في معتقل «سانت» بباريس وهؤلاء هم

نفس الذين كانوا قد القى القبض عليهم معي، وانا أعلم بأي حال سيئة هم عليها هناك في هذا السجن.

عاد ماك - غريغور الى الدار مودعاً هذا الغصن الأخضر من صلبه. وسكب كوباً من القهوة، والقى في الكوب ملعقة من السكر الناعم وحمله الى كيتي في الطابق العلوي، وهي كانت قد صحت من النوم، الا انها ربما كانت لاتريد النهوض أو أنها كانت تنتظر زوجها ليعود لمصالحتها. ووضع هو كوب القهوة على المنضدة الليلة التي هو قربها مزيحاً كتاباً هناك جانباً، وجلس على طرف الفراش وسأل:

- هل انت متوعكة؟

- كلا. كل ما في الأمر أحب الاستلقاء قليلاً.

وسكت هو عارفاً ان كيتي بمثل هذا المزاج الهادىء اللين سوف لاتريد استئناف المجادلة. فمن الأفضل تأجيل النقاش حالياً.

- هل تريدين ان اتصل بالتليفون مع ايسيكس لغرض تأجيل سفره؟ - طرح عليها هكذا أقتراح.

- كلا.

- انني سأذهب الآن لسيروغو.

- ما اسخفه من انسان...

- ولكن الوثائق عنده.

- صمتت كيتي متطلعة الى كوب القهوة. إلا انها سألته عندما توجه نحو الباب:

- باي ساعة سيعود اندريه الى البيت؟

- سيعود نهاراً بعد الساعة الثانية عشرة.

بعدما أغلق ماك - غريغور من خلفه باب غرفة النوم، توقف لحظة لأستعادة الهدوء لأعصابه. ومن بعد ذلك توجه ذاهباً الى سيروغلو.

كان سيروغلو يسكن غير بعد عن المرصد الفلكي، حيث ينتهي امتداد شارع سانت - ميشيل المشجر بحائط مغلق، وحيث الطريق الرملي المشجر باشجار الدلب التي تغطي موقفاً مزدحماً بالسيارات. وكانت بطاقة الزيارة الى سيروغلو تحمل الارشادات التالية «ضغط الزر على الباب. والصعود الى الطابق الثاني». وتصرف ماك - غريغور بموجب هذه الارشادات.

وسمع وقع اقدام في الممر، بعدها فتحت له الباب طفلة في العاشرة من العمر. ومن بعدها ظهر سيروغلو بشخصه، الذي يحمل وجهه سمات الجدية العملية، وقال بصوت يتسم بالجدية لأبنته، انها اذا ظلت تركض هكذا وتدق باقدامها، فان مدام كلير ستبعث خادمتها من تحتنا متشكية منا.

- تفضل بالدخول - دعاه سيروغلو. وتنالت البنت من ماك - غريغور معطفه ودخلا في غرفة مغمورة بالضياء هي غرفة الحاجات العائلية التي كانت مليئة بالوسائد من تحت الموقد وفوقه حتى السقف والمغلفة بقطع السيراميك الفرنسي.

- ان زوجتي مع طفلتي الثانية هما في كليش - قال سيروغلو الى ماك - غريغور.

حنى ماك - غريغور رأسه.

- أجلبي لنا قهوة - قال سيروغلو للبنت باللغة الانكليزية، الا أنه التفت فوراً نحو ماك - غريغور وقال - ربما تفضل انت نبيذاً أو شايا؟

- كلا، كلا، اريد قهوة بالذات.

كل شيء من حول سيروغلو يوحي انه متحمس غيور لأستيعاب الحياة الاوربية. وشعر ماك - غريغور بالارتياح في هذا الجو البهيج الشرقي رغم اهتمام رب الدار باوربة الحياة.

جلس الاثنان على كراسي وثيرة عميقة. اما سيروغلو فقد غاص في كرسية تماماً وتناول في حديثه الكلام عن الطلاب ومظاهراتهم مساء أمس هنا في آفينيا والقائهم أكياساً بلاستيكية مليئة بالماء على سياح الملجأ الكاثوليكي للأطفال. واضاف يقول:

- يا له من كرنفال ماركسي. فالضجيج يصل حتى عنان السماء. ولكنه ماذا سيستفيدون من وراء ذلك؟

جاءت البنت بفنجانين من القهوة على صينية واسعة. واجب ماك - غريغور ان يتناول الصينية منها الا ان سيروغلو قال:

- لقد مرضت الخادمة. إلا أن ابنتي تدير بنفسها شؤون البيت. انها عندي مثل البنت الانكليزية.

لقد صنعت البنت القهوة ممتازة. وبدأ سيروغلو الحديث في أثناء أحتساء القهوة حيث قال:

- يبدو لي، أنني واياك سنستطيع مناقشة قضيتنا مناقشة حكيمة وذلك لأنها مفهومة بالنسبة لنا وليست مثل مسائل أخرى مشابهة... - ثم ألقى باللوم المرير على جميع المتعاملين

المجهولين معه الذين لايعرفون الصعوبات التركية.

- ما هو جوهر قضيتك؟ - سأله ماك - غريغور.

- انه نفس جوهر القضية الكردية - انه الحجر الثقيل الدائم في عنق تركيا.

انها لعنة متعبة على مستقبلنا. والاتراك كلهم يدركون هذه النقطة، ولكن الأكراد كلهم لايظهرون اي تفهم لذلك.

- ما هو التفهم المطلوب منهم؟ - قال ماك - غريغور واضاف - فأنتم تتعاملون معهم تعاملاً سيئاً، وكذلك - مع اعتذاري - بقسوة.

- لربما تجاوزنا طريقنا نحو الهدف أكثر مما ينبغي - أقر بذلك سيروغلو واضاف - ولكن هل تهيأ لك ان كنت يوماً في الجزء الكردي القديم من تركيا ؟

- لم أكن هناك منذ زمن بعيد.

- ولكنك كما تعلم...

عرف ماك - غريغور ان لسان سيروغلو سينفلت، الا أن هذا الشخص التركي قد ضغط على نفسه متحفظاً بالكلام وقال:

- ان حياة أكرادنا تتبدل. وان نمط العشيرة القديم يتلاشى مع تلاشي الأستهتار والطيش. واننا نعمل على تعويدهم على حياة الاستقرار بدلاً من البداوة. ونهيء لهم بالأخير حياة حضرية صحية. وانهم يتحولون الى اتراك، وهو ما ينبغي ان يكونوا عليه. وكذلك فان عندنا في اسطنبول عمال ميناء. هم أكراد باكثريتهم. انتظر ماك - غريغور متى يقترب سيروغلو من صلب القضية، متجنباً معه الآن الشرعية التاريخية لحل القضية الكردية.

- العدو الحقيقي للأكراد، ليس جمهوريتنا مطلقاً - قال سيروغلو واضاف - اما جميع الأجانب الآخرين الذين ينقبون عن النفط والغاز في الجبال الكردستانية فان قسماً منهم هم من الاتراك. وهذا هو جوهر السؤال، ولهذا فأننا نسعى قدر ما نستطيع للاتفاق معكم.

- وما هو هذا الاتفاق بالتحديد؟

- يا مستر ماك غريغور - قال سيروغلو وهل يميل عليه من فوق كرسيه العميق ولكن بصعوبة مضيفاً - لماذا انت لاتعمل ما يدعو لتسهيل التفاهم المتبادل بنينا ؟

- انا لا أفهمك تمام الفهم - بدأ ماك غريغور الكلام، واذا بصوت يتناهي اليه من الباب الرئيس يشير الى انفتاحه. ومرة أخرى جاءت البنت راكضة عبر الدهليز ثم ظهر في الغرفة

دليل حي آخر على اعتياد سيروغلو على الحياة الاوربية، حيث دخل عليهم كلب من فصيلة كوكير الاسباني ثم طوى ذيله وتشمم بحنان صاحبه المحبوب. وبعدما احتضن سيروغلو الكلب قال:

آه منك يا حبيبي بوبي. هيا قدم التحايا للمستر الأنكليزي.

لكن بوبي لم يقدم التحية، بل انه تمدد عند اقدام صاحبه، ودلق لسانه من فمه دون ان يلتفت بانظاره الامينة عن حذاء سيروغلو بلونه البني. وسأله ماك - غريغور:

- ما هي الافكار التي كنت تود ان نتبادلها؟ واقصد ما بين الكرد والاتراك؟

- ولماذا لايكون مثل هذا - قال سيروغلو واضاف - فان دائرتنا حول هذه القضايا من الممكن ان تكون مستعدة لتأييد جمهورية كردية من نوع محدد.

- اهكذا اذن؟ فان السلطات التركية صارت في الواقع تتكلم عن جمهورية كردية؟- سأله ماك - غريغور منحنيا الى الامام بحالة من لايصدق الكلام.

- لقد قلت ان ذلك «من الممكن»، اذ ليس سهلاً استيضاح مواقفنا.

- اعتقد أنه سينبغي عليك استيضاح هذه المواقف استيضاحاً عملياً كاملاً - قال ماك - غريغور واضاف - فان ثقتي بذلك سيئة.

من الممكن أننا سنكون مستعدين على قبول اي حكم ذاتي مهما كان، في ايران أو في العراق ما حصلنا على تأكيدات بضمانات لاتحتمل التأويل، وانه مثل هذه الجمهورية الكردية سترفض المطالبة باي ادعاءات بالاراضي التركية.

ابتسم ماك - غريغور ناظراً الى عيني الكلب الاسباني البنيتين الرقيقتين، ومتذكراً ان الكلب الاسباني هو من كلاب الصيد الذي يستطيع ببساطة التقاط الطير باسنانه بليونه وجلبه كاملاً غير ممرغ الى صاحبه ويضعه عند قدميه. وقال:

- من هو ذلك الكردي الذي يوافق على التخلي عن مليون ونصف مليون من اخوانه الى مصير مجهول؟

- هيا نكن واقعيين - صاح سيروغلو وقال - انت بحاجة الى وثائق بحسب علمي، تلك الوثائق التي سلمتها لي المخابرات الفرنسية بعد موت مناف.

- اي التي تعود الى اللجنة الكردية - أشار ماك غريغور مؤكداً.

- انت ستتسلمها - قال سيروغلو. وبعد ان قلل من سرعة الكلام اضاف:-

انت ستتسلمها، اذا جلبت لنا من القاضي ضمان أكيد على أن الطموحات الكردية تنتهي حتى الحدود التركية.

- ليس بوسعي الحصول على مثل هكذا ضمانة ابداً. ولن اسمح لنفسي بالكلام حول هذا الشأن مع القاضي.

- فما هو الاقتراح الذي لديك اذن؟ - تكلم سيروغلو بحرارة وقال - وما هو الاقتراح الذي تراه؟

- أستطيع ان أعرض عليك اقترحاً واحداً فقط: هو ان تعيدوا الوثائق - اجابه ماك غريغور.

- لكننا لانستطيع السماح لما يجرى الآن ان يطول كثيراً. واستطيع ان أقول لكم عن الأجانب من امريكان وفرنسيين وبريطانيين وغيرهم:

وماذا يقترفون ضد الكرد مما لايعرفه الا الله.

- هناك تقترف الآن ما لايعرفه الا الله.

- والآن في جو تضاربت مصالح مثل هؤلاء السادة فان الطبخة ستكون أكثر خبثاً.

- هذه حقيقة لا جدال فيها - قاطعهُ ماك - غريغرز.

- ولهذا يجب علينا بفعل الحاجة ان نعمل معاً - ايده سيروغلو وقال - اننا باستطاعتنا حل هذه المسألة حلاً نهائياً لا رجعة فيه.

- لو انك يا حضرة العقيد تعطيني الوثائق فانني سأقنع القاضي بالالتقاء مع اي مبعوث منكم لمناقشة المسائل التركية - هكذا قدم ماك غريغور اقتراحاً مقابلاً.

- ليس هذا ما أقصده.

دست البنت رأسها من خلال الباب وسألت ما اذا كانوا بحاجة الى فنجان ساخن آخر من القهوة. وكانت لهجتها الفرنسية تتردد بخفوت ورخامة متوترة مثلما لدى الاولاد الفرنسيين.

- أذهبي الآن ولاتشوشي علينا يا حبيبتي - قال سيروغلو.

- وماذا تقصد انت بالذات؟ - سأله ماك غريغور بعدما توارت البنت.

- اننا لانستطيع مناقشة المسائل التركية مع القاضي. ولايمكن ان يدوم كلام حول هذا الموضوع.

- وحول ماذا يمكن ان يدور الحديث انذاك؟ - سأله ماك غريغور.

- يمكن ان يدور الكلام حول المنطقة كلها بشكل كامل.

- من دون التطرق الى ذكر اكرادكم؟

- من اي ناحية. لا حاجة لزيادة حدة المسألة. واذا كنتم موافقين على ذلك، فاننا سنساعدكم بشأن الوثائق. وخذ بنظر الاعتبار ان الجميع يتابعونك يا مستر ماك غريغور. انت يتابعونك المنافسون لك ويتابعك الأجانب. ان جميع العيون تترصدك مركزة عليك. لأنك بالذات تتعلق عليك كثير عن الأمور.

- أبداً ليس هكذا. وكل ما في الأمر ان الجميع يعرفون سبب وجودي هنا - اشار ماك غريغور بيده علاقة الرفض.

- آه... - صف سيروغلو كفيه كمن يتوجه بالدعاء الى الله بالصلاة وقال - لعل هناك من سيريد قتلك عاجلاً أم آجلاً - قال ذلك بمرارة واضاف - من الواجب تذكيرك بأسرتك واولادك.

نهض ماك غريغور، غير عابئ حتى بالتفكير في ما اذا كان هذا الكلام تهديداً أم ان سيروغلو قال ذلك من منطلق الشعور العائلي، وقال:

- ما ان تبدأ بالقلق حتى تصبح مضطرباً - تكلم ماك غريغور بلهجة مرحة عند الباب الرئيسي ناظراً الى ابنة سيروغلو وهي تفتح الباب.

- أرجو منك التفكير باولادك - قال سيروغلو بعيون مفتوحة متوسلة.

- ليس هناك ما يهدد أولادي - أجاب ماك غريغور واضاف - فقط انهما يهددهما خطر ليس أكبر مما يهددك أيها العقيد سيروغلو - اضاف هو ذلك أملاً منه في أن تكون هذه الكلمات توحى بالتأثير الكافي.

لكن ماك غريغور، بعدما ضغط على يد التركي الضئيلة ورأى نظرته العطوفة أعتقد تقريباً ان كلمات سيروغلو التي خرجت من فمه هي تعبير عن شعور عائلي فقط، تتوخى بحرارة سلامة الاطفال. الا ان ماك غريغور، ما ان خرج الى الطريق حتى توجه سيروغلو بصوت عسكري وسياسي واحد، فأخذ ماك غريغور بنظر الاعتبار ان خطر الاتراك في الدفاع عن مصالحهم يقابل خطر الكرد في هذا الدفاع.

الفصل الثالث والعشرين

رغم كثرة التحذيرات التي سمعها ماك غريغور حول التهديدات الاستفزازية والأخطار الموجهة اليه، فأنها كانت غير متوقعة بالنسبة له عندما حصل منها شيء ما فعلاً.

فقد وصل ايسيكس وقت الغداء بسيارة تاكسي وطلب من السائق ادخال السيارة عبر البوابة دون ان ينزل منها، الى ساحة الدار وقال الى ماك غريغور:

- رأيت منظراً شديد الغراب. فان هناك رجالاً مدنيين عند بوابة داركم بباريس.

خرج ماك غريغور والقى نظرة. الا ان الشارع كان خالياً. وقال ايسيكس:

- لابد أنهم قد ذهبوا.

بعد عشر دقائق ظهر في غرفة المائدة مارين لاهثاً وحاملاً بيده قنينة زجاجية مكسورة وافاد ان مشاجرة تدور وراء البوابة. وتوجه ماك غريغور راكضاً نحو البوابة وازاح المزلاج وخرج. ورأى هناك جماعتين يتقاسمان الرصيف وشعور رؤوسهم سوداء وملابسهم رثة، ويتبادلون عبارات تنضخ بالشر والغضب. وكانوا كلهم ثمانية أشخاص. وكان الزقاق مزروعاً بنثار الزجاج.

- ادخل بساحة البيت - صاح أحدهم على ماك غريغور. وعرف به ماك غريغور، انه جاغيز الفتى الدرويش الذي وصل مصادفة مع طه. وسأله ماك غريغور بصرامة:

- ما هذا الذي تفعلونه؟ وماذا تفعل وماذا تفعل انت هنا يا جاغيز؟

- اننا سنسوي الامر ما بيننا - قال جاغيز واضاف - اما انت يا حضرة الدكتور فأدخل الى الدار.

ان أثنين من الأكراد كانا يقفان الى جانب جاغيز وانهما حضرا يوم أمس مع طه. اما على الجهة الأخرى من الرصيف فكان خمسة من الغرباء يقفون بهيئة عدائية، وانهم أكراد أيضاً وذلك بحسب ملامح وجوههم وعيونهم وشعر رؤوسهم وملابسهم الاوربية المهلهلة، باستثناء

واحد منهم حيث كان يرتدي بدله جيدة الخياطة.

- غداً سنرجع عليك - صاح احد الغرباء على ماك غريغور، وأشار باصبعه السبابة على نفسه من جبهته حتى الورك ثم بالعكس وقال - طاق! طاق!

وفي هذه الاثنان ايسيكس من البيت من خلف ماك غريغور وقال:

- ماذا يجري هنا؟

ومن دون ان يرد ماك غريغور عليه توجه بالسؤال الى جاغيز:

- من هؤلاء؟

- هؤلاء هم نفسهم الذين هاجموا غدراً طه لقتله - قال جاغيز.

وتصاعدت الشتائم والصراخ من جديد، يصاحبها التذكير المعتاد بامريكا وروسيا والنذالة والجبناء والكلاب والحمير. وفي هذه اللحظة، وبينما وصلت الى الاسماع صافرة الانذار من سيارة بوليس، تفرق الكرد مندفعين نحو الازقة. ورمى واحد منهم وهو يركض قنينة زجاجية بقيت بيدة، نحو باحة الدار صارخاً:

- ما أسهل علينا تسلق مثل هذا الجدار.

عندما قفز من سيارة البوليس رقيب شرطة وعدد من الجندرمة كان أثر الأكراد قد أختفى. ولم يبق الا جاغيز عند البوابة يتحدث مع ماك غريغور برباطة جأش.

وسارع ماك غريغور الى شرح ما جرى هنا كان مجرد شجار بين عدد من الطلاب. وتدخل ايسيكس بالحديث فقال للرقيب مشيراً الى ماك غريغور:

- انكم مسؤولون عن ضمان سلامة هذا الانسان.

شتم الرقيب الحاضرين والغائبين ثم صعد الى سيارة. وبعدما أختفت سيارة البوليس الزرقاء، وضع جاغيز يده على قلبه أحتراماً واستئذاناً ثم أختفى ايضاً.

وعبر ايسيكس عند ارتياحه العميق بقوله:

- انه لشيء رائع ان تتسبب انت في ان يتبادل الاكراد الآن قذف القنائي بعضهم على بعض في شوارع باريس. انه أمر مدهش...

وبعدما ايسيكس عند ابتهاجه بالغداء راح يتذكر الأيام التي قضوها معاً في موسكو وطهران. ثم سأل:- وماذا كانت ستفعل كيتي بهذا الوقت وكم هي التعقيدات التي تواجهها في حياتها لو لم يجلب معه الى موسكو ماك غريغور؟ وقالت كيتي:

- كنت سأموت من السأم.

- ولكن أنت سعيدة بهذه الصدامات المروعة عند سياج داركم؟

- ولماذا لاتكون كذلك... فأنها صدامات مسلية - أجابت كيتي.

وأنتظر ماك غريغور ان توقف كيتي هذه المداعبات المملة التي يمارسها ايسيكس معها.

ولكن هذه المداعبات لم تجرح كيتي بتاتاً، فهي قد أفرحتها كما لم تفرح بها من قبل، فهي تتشاطر حياتها مع ماك غريغور. وفي الأخير أغلق ايسيكس فمه وغير موضوع الحديث، ثم قال:

- عندما قمت بآخر زيارة للعمة جوس هنا، فان زوجها بيير وهو عمك كان مايزال على قيد الحياة. انه أحياناً يمضغ التبغ ويضعه في صحن...

قف وبصقت كيتي وقالت - انها بشاعة ولا اريد سماعها.

- ولكن هذه مدبرة شؤون البيت. انها فلاحة...

- انت تقصد مدام مارين - أكدت كيتي على ذلك بقوة.

- نعم، نعم... وأنني يدهشني دائماً في باريس تكاثر النساء العواجز من أمثال مدام مارين وكأنهن ينتظرن مرة أخرى تعريض الارستقراطيين للمقاصل:

تنفس الصعداء ماك غريغور الذي ليس له صلة بهذه الذكريات العائلية المشرقة، عندما سمع طرقات على الباب الخارجي الرئيسي وأعلان اندريه في الصالة - لمعلومات اشباح المنزل:

- انا قد رجعت.

- الحمد لله - انطلقت هذه العبارة فوراً من كيتي.

توقف اندرية عند ابواب غرفة المائدة، متسخ الملابس من الطريق ومتضجراً وهادئاً كما هي عادته وأسلوبه ثم قال:

- سأستحم واجيء عند تقديم الحلوى.

بعدما استحم اندريه واستبدل ملابسه جلس الى مائدة الطعام قال عنه ايسيكس ان اندرية يحمل ملامح رائعة مشتركة من ابيه وامه، لكن أغلبها من امه، وهنأ الوالدين ان عندهما مثل هذا الولد، ثم استفهم من اندرية عن عدد اللغات التي يجيد بها الكلام.

- بثلاث لغات - أجاب اندرية باقتضاب مثلما كان حديثه يدور حسب العادة.

- انك تتكلم الانكليزية والفرنسية والفارسية - قال ايسيكس.

- نعم.

- لقد سمعت أنك تملك قابليات عالية جداً.

نظر اندرية نظرة عتاب نحو امه التي قالت:

- انا لم أتحدث عنك باي كلام.

- مما لا شك فيه انك اصبحت مهيئاً للخدمة في السلك الخارجي - قال ايسيكس واضاف - فلماذا لاتلتحق للعمل في هذا القطاع؟

- كلا، شكراً - رفض اندريه العرض بأدب.

- ولكنك لماذا ترفض ذلك - قال ايسيكس بالحاح واضاف - ولاينبغي لذلك أكثر من ان تعبر عن رغبتك حتى احققها فوراً.

سكبت كيتي القهوة في الفنجان وكأنها لم تسمع شيئاً.

- يا ماك غريغور! - التفت ايسيكس مستنجداً برب العائلة الذي قال:

- ان اندرية حر في ان يختار ما يريد.

- كلا على العموم - تدخلت كيتي بالكلام وقالت بحدة - انه لن يذهب معكم للعمل في وزارة الخارجية. ولهذا فلا تحاول ذلك يا ايسيكس، فانت تهمل الأب لتفوز بالأبن بدلاً منه.

- ولكننا لم نظفر بالأب في جميع الأحوال - قال ايسيكس واضاف - ان ماك غريغور كان مجرد عالم حفريات في أيام الحرب.

- ورغم ذلك - قالت كيتي ذلك مما آثار دهشة ماك غريغور بانها تنظر الى الموضوع نظرة جدية، رغم انهما يعرفان ان اندريه وماك غريغور نفسه لن ينخرطا في السلك الدبلوماسي باي حال من الاحوال.

- انا ارى انكما أسرة صغيرة متصافية - ذكر ايسيكس هذه الملاحظة.

ومن بعد ذلك وجه سؤالاً الى ماك غريغور لمن يكرس معارفه العلمية في الوقت الراهن.

وهل تسنى له ان قرأ موررياك وكامو وتشيستيرتون وايلوت وكيوستلير وسارتر وديوتشير وتوماس مان...

انه قرأ ذلك طبعاً - قالت كيتي - وهل أظنك تفكر يا ايسيكس بأننا من مخلوقات الكهوف؟

- ارغب ان أعرف ببساطة ماذا يختفي الآن وراء صموت زوجك قال ايسيكس.

التزم ماك غريغور بالصمت مدركاً ان زوجته ليست في موقف الدفاع عنه فحسب بل وهي تحمي نفسها من استفزازات ايسيكس.

- نعم، وعلى ما اتذكر فان عندكم مكتبة في البيت - التفت ايسيكس بالكلام نحو ماك غريغور وقال - انطلاقاً من لغة الذكريات، الا تقبل ان نتفرد خارجاً هناك لنتبادل الكلام لوحدنا ؟

- من الافضل لكما الانفراد في الغرفة الصباحية - قالت كيتي واضافت - فهناك لا وجود حتى لرائحة العفونة من الاوراق المتيبسة وأشجار الغاردينيان القديمة.

ان الغرفة الصباحية هى الغرفة الوحيدة التي تحظى باعجاب ماك غريغور في الدار إذ يستشعر الراحة عند الولوج فيها في الصباح لتبادل الحديث وتناول الشاي وقراءة الصحف أو الاستماع الى ما لدى الاولاد من كلام. فهو كان يشعر هنا وكأنه بمنزله.

- يا ماك غريغور، دعنا نتحاشي الثرثرة الفارغة - تكلم ايسيكس وهو يعدل باصبعين الباخة العريضة لقميصه الوردي وقال - ولهذا ارجو السماح لي بتوجيه سؤال مباشر اليك: هل ان اصدقاءك الكرد يأملون فعلاً بنجاح هذه الخطط الجديدة لتحقيق الاستقلال؟

- ولماذا لايمكن ان تتحقق. فأنهم سيحققون عاجلاً أم آجلاً اي نوع من الحكم الذاتي أو الاستقلال. وان تحقيق ذلك أمر حتمي.

- كل شيء يحدث في العالم آجلاً أم آجلاً - تكلم ايسيكس طاوياً ذراعيه بقوة على بعضهما، كما هي عادته القديمة وقال - ولكن هل من الممكن في الظروف الراهنة ان يصبح استقلال كردستان حقيقة واقعة؟

- طبعاً.

- وانت تريد تسريع ذلك بقوة السلاح والثورة؟

قال ماك غريغور في جوابه مذكراً ايسيكس ان السلاح والثورة ليست أكتشافاً جديداً في هذه البقعة من العالم.

- مفهوم. ولكنك لماذا انت بالذات ظهرت فجأة مشاركاً في قضايا كردستان والكرد ؟ - بعد ذلك مال ايسيكس على رأس ظهر الكرسي القديم ورفع يديه بعلامة السؤال.

- لا حاجة الى توضيح ذلك هنا ابداً - قال ماك غريغور واضاف - فأنني مشارك بهذه القضايا طوال حياتي. وليس هناك من جديد في هذه الناحية.

- ورغم ذلك فهناك ما يدهشني - ظل ايسيكس منفعلاً وقال - فلنأخذ على سبيل المثال هذه الاموال. فمنذ متى سمحت لنفسك بالغوص بمثل هذا المستنقع؟

- انا ما ازال منتصراً منك ان تخبرني عما ترغب ان تعرفه مني - قال ماك غريغور.

- ماذا نحن راغبون به؟ - جذب ايسيكس حسرة وتململ بسأم في الكرسي وقال - اسمح لي أولاً ان أشير الى ما لا أكترات لنا به. فنحن غير مكترثين في استغلال النفط الكردي والغاز ولا في المداولات السياسية الخفية التي تشغل كثيراً جداً فكر الامريكيين.

- لا في النفط ولا في المداولات الخفية - كرر ماك غريغور ذلك بتركيز.

- ان جميع ما نسعى اليه هو تسوية الاتصالات - واصل ايسيكس الكلام وقال - ومن المفيد القول مثلاً، لو أنت تستطيع ان توضح لنا بماذا يفكر الاكراد وماذا يريدون.

- عفواً.

لكن ايسيكس سارع للقول:

- أننا نريد تسوية اتصالات متبادلة صادقة حقيقية مع القاضي. ومن المفهوم انك الشخص الانسب للقيام بهذه المهمة. وهذا كل شيء.

- لماذا تريدون انتم ذلك؟ وما هي حاجتكم مع القاضي؟

- لا شيء في الواقع - أكد ايسيكس وقال - اننا بحاجة الى وسيط فقط وهو الوسيط الذي نثق به والذي وثق به الكرد اي اننا بحاجة اليك.

تناول ماك غريغور نتفة ملح من مملحة فضية قديمة موجودة دائماً فوق غطاء المائدة ونثرها بين اصابعه وسأل:

- هل انتم تعطون للأكراد نوعاً ما من الاعتراف؟

- انا لا أعطي لهم اي شيء بتاتاً - قال ايسيكس واضاف - يجب ان تتذكر ان الدبلوماسية لاتبدأ بهذا بل تسير نحوه نتيجة لمباحثات وجهود صعبة.

- ولكنك هل تريد القول ان املاً موجوداً بشروط للاعتراف؟

- انا لا اعدك حتى بهذا، أجل وكيف استطيع اعطاء هذا الوعد؟

ولكن صاحبك القاضي اذا كان يعرف ما هي الدبلوماسية، وارى انه يعرفها فانه سيدرك ان الآفاق المستقبلية تبشره بأكثر مما في الصفقات التجارية قصيرة الأمد أو الصفقات السياسية مع الفرنسيين أو الامريكيين. فهل انت موافق؟

- لربما - قال ماك غريغور ذلك بحذر.

- رائع. وليتك تسافر الى لندن وتشرح الموقف لشخص ما من خبرائنا، وليتك تفصح عن كل ما تفكر به. وانهم يودون تماماً الاستماع اليك.

- انا لن أفعل مثل هذا - قال ماك غريغور.

- ولكن لماذا؟

- اذا كنت تريد الاقتراح على القاضي شيئاً ما محدداً تماماً، فانا سأبلغه به. الا انني غير متهيء لأكون وسيطاً لكم.

نهض ايسيكس، وتناول تفاحة من صحن بللوري فوق البوفية وهو الذي تدعه كيتي مليئاً بالفواكه دائماً.

- من المستحيل ان يكون هذا سبيلاً للقضية - قال ايسيكس وصمت ومن ثم اضاف:- لا بأس، فبإمكانك الاقتراح على القاضي ولكن بدون تحديد.

- ما هو بالذات؟

- النقود - قال ايسيكس.

- اي نقود؟

- ربع مليون جنيه استرليني. وهو المبلغ الذي يحاولون انقاذها اصدقاؤك الأكراد. اليس هذا هو المطلوب؟

- تقريباً.

- اننا باستطاعتنا ان نمو لكم بهذا المبلغ غداً تماماً - قال ايسيكس - بامكانك ان تنقل هكذا الى صديقك القاضي.

- ولكن ماذا تريدون لقاء ذلك؟

- لا شيء، ان المسألة تعتمد عليك.

- اي انكم تعطون هذه الأموال الى الكرد شرط ان أكون أنا عميلاً لكم؟

- ان تكون وسيطنا - صحح له ايسيكس.

- لكن هذا ليس أكثر من عمالة - تكلم ماك غريغور بهدوء.

- هذه ليست عمالة - اجابة ايسيكس - ان هذا ابتزاز. فكر انت، في ما هو بانتظاركم بحالة الرفض.

- انها فئة واحدة أو فئتان لا أكثر، فالفرق ليس كبيراً.

- انت تقول الفرق ليس كبيراً؟ وهل انهم لم ينتزعوا منك جواز السفر؟

وهل لم يجمدوا حسابك في المصرف؟ وهل لم يطردوك من فرنسا؟ وما شاكل ذلك. ان كل من لديه سلاح من هذه الفئات يمكن ان يستخدم السلاح ضدك اذا توفرت الرغبة.

- تفضلوا واستخدموا اسلحتكم - قال ماك غريغور.

- يالك من بشر! لماذا أبقى انا اركض وراء مواقفكم المضحكة؟ فضلاً عن انني أعرف ان موقفك في ايران صار موقفاً غير مريح. وانني لأرغب اقصى رغبة في تخفيف الصعوبات التي تحيطك هناك.

- ارم ما بيدك هناك - اشار ماك غريغور الى سلة مهملات من الورق السميك.

بعدما انتهى ايسيكس من تناول التفاحة مسح يديه بمنديل كبير احمر اللون وقال:

- مهما سيحصل هناك، عليك ان تفكر بما قلته لك. ولو كنت بمكانك لأنجزت هذه المهمة وأنتهيت منها بهدوء وسرعة واننا سنساعدك اذا ما ابديت ولو قليلاً من التعقل.

- مفهوم - قال ماك غريغور في اثناء مرافقته لهذا الذي يعتبر من أكثر الناس تعقلاً ممن فهم الحياة. اما هو ايسيكس فانه صاح بصوت عائلي تماماً:

- الى اللقاء!...

- الى اللقاء... وصل صوت العمة جوس من أعماق الدار.

بعدما ودع ماك غريغور المستر ايسيكس نادى على اندريه وسأله عن سبب سفرته الى مدينة ليون مع طه، وما هو غرضها خصوصاً؟

- ان والدتي وافقتني أصلاً. ولماذا انت تنفعل عبثاً؟ - رد عليه اندريه.

نظر ماك غريغور نظرة استفسار نحو كيتي التي دخلت على أثر ابنها وقالت:

- انه يلتزم الصمت بعناد.

قلص اندريه كتفيه وقال:

- اسألوا طه وهو سيجيبكم.

- أجبنا انت بنفسك. طلب منه ابوه.

- لكن هذه القضية ليست قضيتي في جوهرها.

- لديك مع ابيك تصرفات رائعة. فأنتما تنكمشان كالقنفذ وتتوسلان في لحظة مناسبة بعبارة (هذه ليست قضيتي). فاذا لم تكن هذه قضيتك، فلماذا سافرت معه؟

- ان طه يغامر بنفسه في مجيئه الى فرنسا. فهو يبدو مثل شخص جزائري، اي مثل بيكو (صفة وضيعة تطلق في فرنسا على الجزائري)، ولهذا قررت انا شراء تذكرة سفر الى هناك ذهاباً واياباً مع طه.

- ولكن لأي غرض؟ - سأله ماك غريغور مرة ثانية، علماً منه ان المعاملة اللينة مع ولده لربما قد ينتزع بواسطتها جواباً منه. وبدأت كيتي تلوم ولدها الشاب الذي ظل هادئاً وقال بثقة:

- ان طه اراد القاء نظرة مجردة على عربات السكة الحديد. انه اراد البحث عنها. الا انه عجز عن ذلك. ومن بعد ذلك التقى مع أكراد، أي مع أولئك الطلبة الكرد الذين يدرسون بجامعة ليون. هذا كل ما حصل.

- يجب عليك عدم ممارسة مثل هذا العمل - قال ماك غريغور واضاف - فانت ستعرض للخطر ليس نفسك فحسب بل وستعرضني معك ايضاً.

- حسناً، سوف لا أفعل.

- هل هذه الموعظة هي كل ما لديك - تدخلت كيتي بالكلام وقالت - أطلب منه انه يجب عليه في المستقبل ان لايجرؤ على تبني قضية مع أي واحد من الاصدقاء.

- سوف لاتكون على هذه الدرجة من التصلب - تكلم والده واضاف - ان اندرية يفهم ماذا نريد نحن منه.

ويجب عليك ان تفهم ايضاً - التفت هو نحو ولده وقال - انك ستضعنا كلنا تحت التهديد بالضرب.

- حسناً، ولكن لاتلقوا ذنباً على طه، فهو لم يستدعني للسفر معه.

- هل انت دفعت أجور القطار والفندق؟ - سألته امه.

- نعم، انا.

- ومن اي نقود؟

- من نقودي الخاصة. دفعتها طبعاً من منحتي الجامعية.

بعدما قبل اندريه والدته بلطف، خرج الى فناء البيت نحو البوابة لأدخال طه. لم يرغب طه

بفتح حديث في البيت المزروع بادوات التنصت، وبعدما خرج مع ماك غريغور الى الفناء شرعا ينقلان خطاهما لوحدهما فوق اوراق الشجر اليابسة التي تتكسر تحت اقدامهما، وقال ماك غريغور:

- انت قمت بعمل احمق.

- كان يجب ان أرى عربات القطار - قال طه باللغة الكردية.

- لكن لماذا؟

- كان يجب التأكد من وجودها هناك. ولكن المضحك في الأمر، أنهم ساقوها الى مرسيليا.

- الست مخطئاً في ذلك؟

- بامكانك ان لاتشكك في ذلك. فان عربات القطار في مرسيليا.

- عندئذ ينبغي الافتراض، انها صارت تحت سيطرة اناس آخرين - قال ماك غريغور ثم اضاف - ولكن باي صورة؟

- انهم الامريكيون. فانهم دفعوا بالتحديد، المال الى نفس أولئك التجار، بدل الاسلحة في العربات وأعطوها ملكاً خاصاً الى دوباس مع ايلخان.

- لربما انك ما كنت تعرف...

- انها بهذه الحالة بالتأكيد.

- لعلك انت على صواب.

- هيا ننتظر التالي - ضغط طه على يد ماك غريغور وقال - يبدو لي ان من المهم الآن التفكير ليس حول النقود، بل حول عربات القطار المحملة بالسلاح.

- ان ما يهمني هنا هو أمر واحد، وهي النقود. واذا كنت تخطط لتفجير العربات، فانصحك باعادة التفكير - حذره ماك غريغور وقال - ان مثل هذه المغامرة بفرنسا ستكون مثل الانتحار.

- لماذا؟

- - أنتم في فرنسا تحت المراقبة.

- لا أجادل في ذلك. ولكن الخطة لايحول هذا السبب دون تنفيذها.

- وحتى لو حالف النجاح خطتكم، فأنهم سيلقون القبض عليكم - أكد له ماك غريغور

واضاف - وبامكانك ان تثق انهم سيلقون بكم في السجن مدى الحياة.

- انت نفسك مستهدف مثل هذا الاستهداف - ضحك طه واضاف - ورغم ذلك فلا تتخلى انت عن هذا الهدف بأي شكل من الاشكال. وهكذا انا، اذ قد تعلمت منك ذلك.

توقف ماك غريغور عن الايغال بالكلام الفلسفي وقال:

- أرجوك الحذر من أحد الجوانب.

- ما هو؟

- لاتضلل اندريه معك.

- لدي اندريه رأسه فوق أكتافه. وحتى هو يدهشني بالذات أحياناً.

- ان اندريه قد ادهش عمتك كيتي. الا انني لا أريد له ان يكون متورطاً بالقضية الكردية.

- احتمال حدوث هذا، قليل جداً - طمأنه طه.

- اسمع يا طه - قال ماك غريغور - انتظر انت الآن تنفيذ خطتك، ودعني استوضح اولاً حالة القضية مع هذه العربات، ومن بعد ذلك تصرف انت كما تشاء هناك.

سكت طه مستغرقاً في التفكير، ثم قال:

- سأنفذ ما تريد. وسأنتظر. ولكنني لا أستطيع الانتظار الى الابد.

رسم ماك غريغور ما ينبغي عليه انه يفعله، حتى صباح اليوم التالي. ولرغبته في تحاشي أي أسئلة تناول فطوره مبكراً،وخرج من البيت بهدوء. وكان هو يتوقع حصول مصادمة خلف سور البيت مع المضاربين من التجار الأكراد المسلحين الذين يتواجدون يومياً كما هي العادة. ولكنه وجد هناك رجال شرطة، ادوا له التحية بصفته شخصاً معروفاً لديهم. ولربما ان العمة جوس او كيتي قامتا ببذل المساعي لدى موزيل من أجل ارسال حراس يحرسون الأمن - هكذا خطر على باله باستغراب.

ذهب ماك غريغور الى المقهى بزاوية الطريق، حيث يتواجد هناك باستمرار سيبليغ وسترونغ. وهناك سألته المرأة المقيمة لويزا من يريد ان يقابل منهما:

- هل تريد مقابلة الانكليزي سترونغ أو مسيوسيبليغ الهولندي؟

- اي واحد منهما - أجابها ماك غريغور، ثم جلس الى منضدة ذات غطاء بلاستيكي لامع.

وجلبت لويزا له كأساً من شراب الفيرموت. وقد احتسى هو النبيذ بارتياح كامل حتى حضور الانكليزي.

- لقد تذكرتك قبل ايام فقط، عندما كنت محلقاً في الطائرة فوق جبال الالب. - قال سترونغ واضاف - ان الذي في الجبال يبهج النفس. وهنا حدثوني عن الكرد. وانا لم اعرف في السابق الا القليل عنهم. بل وحتى الآن لا أعرف الكثير. الا انني صرت افهم اهتمامك بهم. ومن الملفت للنظر ان الانكليز هم الشعب الوحيد القادر على أعطاء هؤلاء الناس شخصيات مثل لورنس وغوردون واونغينت أو الشجعان من أمثالك.

- لا ارى لي علاقة بذلك - أبدى ماك غريغور ملاحظته هذه متطلعاً بتركيز في كأس النبيذ.

- لا عليك - لاتقل شيئاً - زمزم سترونغ زمزمة ذات معنى لهذا الصامت بعيون ضاحكة وقال - انا شخصياً قاتلت في الحرب ضمن المدفعية - هكذا أعلن سترونغ عن نفسه باطمئنان.

- اما انا فقد قررت بحسب تصرفاتك، انك من هيئة الاذاعة البريطانية (BBC).

- ان هذه مجرد واجهة مهنية - ثم ضحك سترونغ نافخاً وجنتيه وقال - يجب عدم المساس بالواجهة في قضيتنا.

فكر ماك غريغور بدلاً عنه «ما هي حقيقتك خلف واجهتك».

- انا انسان بسيط - واصل سترونغ الكلام وقال - وانا معجب بالجنود الشرفاء. وبالنسبة لي فانا ابصق على عدد الاتراك الذين ظفرتم بهم هناك. فانا لا احب الاتراك.

- انا لم اتعمد قتل الاتراك. فانا لست جندياً ولا قاتلاً - قال ماك غريغور

- لاتضطرب فانا اثق بك. فانت محايد، وهو ما عليه الجزارون القتلة في مسألتنا. انظر الى السويديين والهولنديين والدانماركيين. فهؤلاء كلهم هم نوع من المرتزقة، اي اولاد كلبة. ولكن ما هو مثير ان الانكليز لربما انهم آخر السفلة من بين هؤلاء ذوي الشعور الشقراء، اي انهم مأجورون من حيث المعنى.

عميل شريف أكثر من الالمان.

- لكنني لا صلة لي بذلك كما ترى - ذكره ماك غريغور وقال - ان قضيتي قضية أخرى تماماً.

- نعم أعرف، انا أعرف ذلك - ابتسم سترونغ وقال - انت انسان مبدئي. ولهذا فاننا نلاقي معك كل هذه التعقيدات.

- دع هذا جانباً. قل لي الآن، ما هو غرضكم من ارسال عربات القطار الى مارسيليا؟ -

سأله ماك غريغور.

- وكيف عرفتم ذلك؟

- هل أن أحداً ما آخر قد أشترى منكم الاسلحة - شدد ماك غريغور بالالحاح. لأن حمايتها تكون أكثر سهولة هناك. وان مارسيليا هي الميناء الذي نريده، والاحتفاظ هناك بهذه الشحنة بعيداً عن الخطر. وبعدما التفتا الى ضجيج قهقهات من اثنين من خدم المقهى، طلب سترونغ منهما الذهاب الى المطبخ.

- ولكن من هو الذي دفع لكم الثمن؟ - واصل ماك غريغور مُلِحاً بالسؤال.

- ومن اين لي ان أعرف. من هم المشترون الحقيقيون؟ - قال سترونغ.

- لكنك تستطيع التخمين كما أرى، وتعرف من هو الذي يقف وراء هذه الصفقة؟

- التخمينات عندي متزاحمة كثيرة.

- هل تحس ان هناك أكراداً في الصفقة فضلاً عن القاضي؟

- هذا طبيعي - قال سترونغ بعدما صفر بفمه.

- الى اي جهة سترسل هذه الاسلحة؟

- الى هنا، كلا - ضحك سترونغ وقال - انا لن اتناول مثل هذا الطعم شرط ان لم يصلنا منك شيء عملي ما.

- اسمع مني ما يلي - تكلم ماك غريغور وقال - هل توافقون على الالتزام مبدئياً بالأتفاق مع اللجنة اذا استحصلت لكم جميع الثمن الذي تطالبون به؟

- كيف تتمكن من استحصاله؟

- هذه مشكلتي انا. فهل توافقون على امهالي وقتاً حتى نهاية الشهر؟

- لا حماقة في كلامك - دمدم سترونغ. وقلص ماك غريغور كتفيه بلا تسرع وتنحنح... - وبالغ سترونغ في تردده وتقلب وقال بصوت خشن - حسناً موافق. وانني سأعاني كثيراً من اولئك الناس. ولكنني اذا أعطيتك مهلة حتى نهاية الشهر، فسيكون ذلك مترافقاً مع شرط يقضي بان اتخذ الآن اجراءات بشأن العربات.

- ماذا تقصد انت بذلك؟

- توجد هنا حفنة من العابثين الأكراد يريدون نسف العربات بالقنابل. فهل انت تعرف شيئاً عن ذلك؟

- نعم.

- لن أحاول ان أسئلك من هم هؤلاء. ولكنك هل بامكانك التأكيد عليهم ان لايتعرضوا بسوء للعربات؟

- سأعمل كل ما بوسيعي من أجل ذلك؟ ولكن لدى هؤلاء وجهة نظرهم، ولايحبون التلاعب.

نهض الاثنان من حول المنضدة. وشد سترونغ مع نفس عميق على يد ماك غريغور.

- انت اول من اثق به خلال عشرين سنة - قال سترونغ، وابتسم ابتسامة الطيار العسكري مثل الأيام الماضية البعيدة واضاف - ولكنك اذا نكلت بالوعد معي فانت ستقتلع ثقتي الطيبة بالناس.

الفصل الرابع والعشرون

«كلما أكون أكثر ابداعاً في الحب - بحسب تأكيد صاحب الشعار - كلما أكون أكثر تعطشاً للثورة، وأكثر ابداعاً للثورة وأقوى تعطشاً للثورة».

حال خروج ماك غريغور من المقهى فانه اشترى جرائد الصباح بشارع بابل، وسار الآن متوجهاً الى الدار عبر نفس ذلك الشارع، ويقرأ الشعارات الطلابية على جدران دير القديس فينسين دي بوليا للنساء. وفي خلال طريقه ماشياً قرأ بصحيفة «فيغارو» خبراً من طهران، هو عبارة عن خمسة اسطر، عن حدوث مصادمات قبل يومين بين قوات الحدود الايرانية والمتمردين الاكراد، قتل خلالها اربعة أكراد.

عندما كان قد خرج من الدار، فان الجميع كانوا نائمين. اما الآن فان كيتي قد أكملت ارتداء ملابسها وانشغلت بترتيب حاجاتها في الحقيبة. ومن دون ان تسأل عن سبب خروج ماك غريغور مبكراً جداً، فقد اخبرته بانها ستسافر الى لندن، وقالت:

- ان غي سيوصلني الى هناك بالطائرة. وأحب زيارة الاطباء في مستشفى سانت توماسوفسكي. فانا لا أثق بالطب الفرنسي. وسأعرض نفسي على الدكتور تيبلو، وسأستمع الى ما سيقول.

- ما السبب، هل تشعرين بتدهور؟ - سألها ماك غريغور.

- لا أعرف. فان تيبلو حذرني من ان شعوراً بالاعراض سيحصل مع الايام، ولكن ماذا سيحصل فيما بعد وهو كعربة كسيح في البطن فانه لم يتطرق الى ذلك.

- لربما انه توتر من الشعور بالذنب - واصل ماك غريغور الكلام بتردد.

- اي توتر؟

- كل هذا التوتر في الجهاز العصبي.

- ان عندنا ما يكفي دائماً من مثل هذا التوتر - قالت كيتي واضافت - وعلى العموم

ليس عندي شيء جدي. فانا أحب السفر لاجراء الفحوص.

- اذن فانني سأهيء حقيبتي لأسافر معك فعلاً. وانت كما أرى تريد البقاء هنا، فابق كما تريد. وسأصطحب سيسي معي. فمن الأفضل لها ان تكون بعيدة عن هذا المرجل الفوار، فضلاً عن عدم وجود دراسة بالنسبة لها في المعهد. ويجب عليك ان تراقب اندرية.

توقف ماك غريغور عن المجادلة، لأن كيتي كانت قد أتخذت قراراً نهائياً باصرار.

وفي الساعة الثانية حضر موزيل بسيارته الروفير، من أجل كيتي وسيسي. فلذلك فلا يوجد معنى الآن للسفر من هنا». ومن ثم همست سيسي لوالدها: «انها لاتريد من قلبها ان اسافر معها. انها تريد ان تكون لوحدها، فدعها تسافر. فان هذه السفرة مفيدة لها». وبعدما أجلس كيتي في السيارة وأخذها باطمئنان تحت جناحه قال موزيل لماك غريغور:

- لدى اخبار تفيدك. أنا سأعود عند الساعة السابعة أو الثامنة: وانت تعال لي لتناول العشاء في الساعة التاسعة ببيتنا القديم. وان سيسي تعرف العنوان. وانت يا سيسي تعالي أيضاً - وجه موزيل الدعوة الى سيسي وقال - تعالوا لتفرح بكما تيريزا.

- انا مشغولة - أجابت سيسي.

- في جميع الأحوال يجب ان تجلبي والدك.

انطلق موزيل بالسيارة من البوابة مسيطراً بدقة بيديه السمراوين غير الكبيرتين. وفي هذه اللحظة لاحظ ماك غريغور انه افترق عن كيتي بلا وداع، سوى انه طبع على وجنتها قبله صامتة. ثم ظل واقفاً وسط فناء الدار يعاني من رغبة في ان لايفترق الآن عن سيسي وقال:

- سأذهب معك للاطلاع على ورشتك.

- هل انت معافى صحياً؟

- انا معافى. ما الأمر؟

- مجرد سؤال. هل انت غير قلق على والدتي - قالت سيسي واضافت - ان مثل هذا يحصل مع النساء، اذ تشعر برغبة في ان تكون منفردة لوحدها...

يا عمتي جوس! - صاحت سيسي منادية بنظرة متطلعة الى مكان ما أمامها.

- نعم يا سيسي يا حبيبتي...

- سيذهب والدي معي ليرى ورشتي. واذا ما جاء اندريه قولي له ان يأتي الينا.

- حسناً يا عزيزتي.

كانت سيسي قد استأجرت الورشة مع خمسة من الطلبة الآخرين. وفي طريقهم إلى هناك

اضطروا الى تجاوز حواجز ومتاريس اقامها الطلاب والبوليس في مواجهة أحداها للأخرى. وكانت جامعة السوربون والازقة المرصوفة بالحجر والطرق الظليلة والدروب حول الجامعة مليئة بحطام. الخشب والازبال والمناضد وصناديق الخضراوات والقطع المعدنية من شبكات القضبان المستديرة التي توضع حول سيقان الاشجار وانتزعت احجار الرصيف الغرافيتية مظهر لون ارضية الرصيف بيضاء مثل جلد الوليد.

- اسمعي يا سيسي، كوني اليوم في المساء أكثر حذراً - نبهها غريغور وهو ينظر الى تحت من خلال النافذة المحكمة الاغلاق في الورشه نحو ساحة المعركة - واضاف يقول - من الواضح ان معركة رئيسية يجرى التحضير لها أكثر ضراوة من التي جرت أمس. ان هذا نوع من الجنون.

- لكن البوليس أنفسهم هم الذين يتحرشون - قالت سيسي واضافت - من الأفضل للبوليس الانسحاب بهدوء بعيداً عن منطقة الحي اللاتيني.

التفت ماك غريغور نحو سيسي وأخذ اليها وهي تضع علامات على صفحة من الكارتون لتخطط شعار يقول: «٥٠٠٠٠٠ عاطل في الحي اللاتيني». ثم سألها:

- لأي غرض يأتي خمسمئة الف عاطل الى الحي اللاتيني. فانا لا أرى لهم أي ارتباط هنا.

- يجب ان يكون لهم ارتباط هنا.

- الأمل ضعيف في هذه الناحية.

- لكن يجب ان تنتظر لترى ان لم يكن اليوم فغدا، ان فرنسا كلها تشترك في ذلك.

جلس ماك غريغور قرب النافذة مصوباً عينيه نحو ابنته وطارداً من ذهنه الذكريات الحزينة حول رحلة كيتي المفاجئة. وبعدما شعر ان الحزن لم يضعف لديه نهض وقال لسيسي:

- انا أذهب الى البيت. اما انت فأرجعي بلا تأخير.

- سأكون في البيت عند الساعة الثامنة والنصف، لأجل ان اوصلك الى بيت موزيل عند الساعة التاسعة - قالت سيسي ذلك في اثناء مرافقتها لوالدها الى السلم واضافت - انني أحس بما يدفعني لأنقلك الى مكان غير هذا المكان تماماً.

- والى اين؟

- الى اي مكان مناسب - صاحب عليه في اثره وقالت - باستثناء غي موليه.

في الساعة التاسعة، أوصلت سيسي. والدها الى موزيل، حسب الموعد.

كان بيت موزيل عبارة عن بيت باريسي قديم منفرد ضخم. اما البيوت الأخرى التي تنتصب

بين شارع فوش العريض المشجر وشارع الجيش العظيم المشجر الواسع هي اقرب الى الفيللات في الضواحي من البيوت الكبيرة في المدن. الا ان بيت موزيل كان بيتاً عائلياً كبيراً متطرفاً، اقيم في بداية الثلاثينيات من القرن الماضي، قبل ان يقوم تيور ومكماهون باعادة اقامة هذين الطريقين وكان هذا البيت - وهو وفق الطراز الانكليزي - مشاداً بالطابوق الأحمر وبسياج قديم من الطابوق العادي مع أشجار السدر الجبلي وفسحات العشب الانكليزية التي خضرتها شعشعت الآن في ايار/ مايو مع زهرة الثلج والقرنفل الأصفر والزعفران وخناق الذئب. وعلى الجدران العتيقة الصماء تشبثت ورود مزهرة، وهي زهور مدينة غير فواحة. والبيت في الريفيرا هو على طراز فيللا جديدة. وهناك بيت في جنيف وفي نورماندي وبيت في بينياكور. اما هذا البيت فهو البيت «الباريسي» القديم لموزيل... والبوابة هنا تنفتح وتنغلق اوتوماتيكياً مثل بيوت الاثرياء في باريس. وضغطت سيسي على زر ونادت من خلال كوة مشبكة ان مسيو ماك غريغور قد وصل. وتعالى ازيز المزلاج وانفتحت البوابة. وقالت سيسي: «الى اللقاء ولاتطل الجلسة الى وقت متأخر» ثم استقلت سياراتها. اما ماك غريغور فقد سار نحو البيت عبر درب ساطع الانارة مزروع بالحصى.

وسمع نباح كلب، وانصفق باب، فرأى فتاة ذات قامة غير طويلة جاءت لاستقباله بمشية فرنسية مبتذلة تشير الى الشبق في كل خطوة.

- انت زوج المدام كيتي؟ - تكلمت البنت كما لو انها تكلم نفسها باللغة الفرنسية، ثم انتقلت الى اللغة الانكليزية وقالت:- ولكن اين سيسي؟ وهل انها لم تدخل حتى الى الفناء؟

ادرك ماك غريغور ان البنت التي امامه هي تيريزا ابنة موزيل. وقال لها:

· لقد غادرت سيسي فوراً. فأنها كانت على عجلة من أمرها.

- ان سيسي مستعجلة دائماً عندما تعرج علينا - تكلمت البنت بنوع من الابتئاس وقالت

- ان سيسي لاتطيق والدي.

- عفواً، ولماذا - اعترض عليها ماك غريغور.

- ان والدي الآن بانتظاركم - رحبت به تبريزاً وقالت - والكلب لن يمسسكم.

كان موزيل منتعشاً لدى استقباله ماك غريغور في الصالة واخذه من يده بروح ودود، وأخبره ان كيتي قد اوصلها بسلام. وكان بانتظارهم في المطار أحد السيارات. وهو قد رافقها الى دار الوالدة جانباً، وسحب من الجيب الصغير العلوي زاوية المنديل، وفك زر السترة. وقال له موزيل مبتسما:

- من العبث انك لم تجعل تسريحه شعرك مناسبة أكثر لوجهك. وان يكون رباط الحذاء غير مربوط. واعترف انني أشعر بما يجري دائماً لاتجرى بنظري هكذا - وفي نفس هذه اللحظة صوب نظرته الى حذاء ماك غريغور.

سار ماك غريغور صامتاً وراء موزيل عبر القاعة الحريرية نحو المكتب النظيف. وبعدما قدم موزيل لضيفه «شراب المارتين على الطريقة الامريكية» قال انه انشغل في هذه الاثناء بقراءة جميع مجلات الطلبة، وهي منضودة الى جانبك على المنضدة: وهي «زوم» و«الرتل الخامس» و«كاميرا ١١١». وواصل غي موزيل بصورة انسيابية:

- ما يدهشني هنا، هو غياب اي منطق ثقافي. وهو غير موجود مطلقاً فيها، وانها تفتقر تماماً الى الرصانة. وهذه المجلات لاتقيم البراهين على ما تقول، وتطرح المسألة بصورة اعتباطية ومبتورة وبلا اسلوب ولا صيغة.

- انها تفضل التصريحات الصاخبة التي هي الاسلوب المتبع الآن - ابدى ماك غريغور هذه الملاحظة.

- اي، نعم - قال موزيل بتركيز متجهم واضاف - الا ان هذا يدهشني. فمن المعلوم ان ماركس يعلم المنطق، ويعلمه بامتياز، ولكن هذه الكتابات ليس في اي مكان منها اثر لمنطق الماركسية، سوى عبارات منفردة مكررة فقط كالاختام منقولة من ايام ما قبل الثورة. واعتقد انه حتى اصدقاؤك الأكراد فأنهم أعلى تطوراً في الفكر السياسي مما لدى هؤلاء الصارخين.

وفتحت تيريزا الباب ودعتهم نحو المائدة لتناول الطعام.

- أنهم شبان بورجوازيون - واصل موزيل الكلام وهو يقود ماك غريغور نحو غرفة المائدة واضاف - هذا «كشف للبرجوازية تحت الضوء».

لقد جلسا في غرفة المائدة البيضوية حول مائدة بيضوية صغيرة هادئة الأنارة، وبدأوا بتناول الصحن الاول من الطعام (بحسب قواعد آل موزيل المتبعة فان الناس الاصحاء الاغنياء لايأكلون الطعام بل يتقبلونه) أما في هذه امرأة بثوب قطني منزلي ابيض هي التي قدمت الطعام بما يتناسب والاسلوب العائلي. ووجه موزيل سؤالاً الى تيريزا التي كانت تجلس منصتة معتدلة باستقامة ماذا تناهى الى سمعها في كلية العلوم الانسانية. واجابت تيريزاً ان جميع الطلبة يلصقون الشعارات الداعية الى البدء باضراب عام يوم الاثنين سينظمه الطلاب واتحاد المعلمين والاتحاد العام للعمال والاتحادات المشابهة.

- حضر عندنا في سانس خمسون من نشطاء «حركة ٢٢ آذار» وأحتلوا كليتنا - قالت

تيريزا وأضافت - ولكنني عندما غادرت الكلية صار عدد هؤلاء حوالي ٥٠٠ شخص.

- بالمناسبة، فقد عاد لتوه من أيران بومبيدو - أخبر موزيل عن ذلك وقال - وأعترف في حديث خاص انه متألم من الاحداث في باريس. وهو يتأهب للاعلان عن افتتاح السوربون يوم الاثنين.

- سيقوم بعمل احمق - قالت تبريزا.

- ولماذا؟ - سألها ماك غريغور.

- فهو، للعلم، هل سيدعو البوليس للانسحاب من الحي اللاتيني - سألت تيريزا والدها.

- اني أشك بذلك - أجابها أبوها.

- وهذا يعني ان اليساريين لن يسمحوا باستئناف الدراسة، وستجري مرة أخرى مصادقات في الحي كله - قالت تيريزا.

نظر ماك غريغور الى تيريزا محاولاً ان يفهم عدم حب سيسي لها.

- الى اي جهة انت تميلين يا تيريزا - سألها ماك غريغور. لكنها التفتت بعينيها صوب والدها. الذي قال لها:

- كوني جريئة ولاتخشي من اعتراضي. عبري بصراحة عما تفكرين به.

- انا رجعية - قالت تيريزا - وقد سئمت من هذا العنف. وانا أكره الشيوعيين وجميع هؤلاء الفوضويين والتروتسكيين من نانتيرا. ليتك تنظر اليهم في تصرفاتهم. انهم مثل الوحوش المفترسة. وهم في الواقع غير مكترثين بفرنسا ويبصقون عليها وعلى الجامع. وفضلاً عن ذلك دعني أقل لكم انهم كلهم يكرهون كرهاً مسعوراً للامتحانات وللخريجين وما شابه ذلك. وفي هذا العام سوف لايستطيع اي واحد منهم الحصول على المستوى الذي يؤهل للبكالوريا. فان المتحمسين النشطاء قد شوهدوا. ولكنهم بكثريتهم ادوا الامتحانات في السنة الماضية وحصلوا على درجات النجاح. وهكذا هم دائماً... - ثم عدلت تيريزا تسريحة شعرها باصابع مرتعشة.

- لا حاجة للخوف من ظواهر الاشياء - قال موزيل.

- ان مظهرهم الخارجي ينبيء عن جوهرهم - أعترضت تيريزا وقالت - فأنهم لايلتفتون الى من يعاني ولا مما يعاني.

- حسناً، أهدائي - تكلم موزيل بلهجة رقيقة.

كانت سيسي قد تحدثت الى ماك غريغور في الطريق الى هنا حول تيريزا وقالت له أنها تلقت تربيتها في أحد الاديرة، وانها ضعيفة الاعصاب كما هو الشأن بالنسبة للدير، وانها في البيت كما في الدير وكذلك ثروتها وسلطة والدها هي مثل جدران الدير حولها.

وطلب موزيل منها جلب القهوة. فنهضت وقالت: «هل الآن يا أبي». ورغم ان صوتها لم تظهر به طاعة بنت ذات تربية كاثوليكية طيبة طاعة كاملة، الا ان ماك غريغور لاحظ ان موزيل لايرغب بهذا الاذعان من حيث طبعه وما كان هذا هو الذي يريده من ابنته.

وبعدما تناولوا عشاءهم عادوا الى المكتب وأدلى موزيل بسؤال حذر:

- هل يعني ان النار قد أطلقت على صديقك القاضي وانه جريح؟

- كلا، لا أعرف - قال ماك غريغور في لحظة ارتباك - فقد قرأ صباحاً بجريدة الفيغارو، ان اربعة أكراد قتلوا، وليس هناك ما قيل أكثر من ذلك.

- انا لم اقرأ الفيغارو - واصل موزيل الكلام - الا ان تيليكس قد وصل الينا في الصباح من ايران ان نزاعاً قد نشب بين الأكراد أنفسهم، وأضطر القاضي للفرار وهو الآن بحالة أختفاء. فكيف انت ترى ذلك في الواقع؟

- لكنني أشك في ذلك.

- وان صديقك زاتكو قد سقط في الاشتباك. وبحسب الاخبار فيمكن القول ان الجبهة الكردية قد انهارت كلها.

- الاخبار توحي بالشكوك - قال ماك غريغور - فالجبهة الكردية غير موجودة على كل حال فان ما صار يصل اليكم هو بسيط جداً.

سكب موزيل له قدحاً من الكونياك وقال:

- انا شخصياً جاهل في هذا الأمر. وانا لا أمتاز عليك في القضية. وكل ما عندي هو تكرار حرفي لنص الاخبار الواردة. أو ما ترى أنهم سألونا من طهران هل انت ماتزال في باريس. وأما الاكثر غرابة فانهم يسألون اما تزال انت على قيد الحياة. ولهذا السبب أحجمت انا عن الاشارة الى هذا الموضوع في الصباح امام كيتي. فلم ارغب باثارة فزعها.

- من ذا الذي استطاع ارسال هذا الاستفسار المتوحش - مد ماك غريغور كفيه علامة الاندهاش بحسب الطريقة الشرقية.

- لا أعرف فأننا لانشير عادة الى العملاء في تقاريرنا بالتيليكس، ولا نعطي حتى شفرة الارقام.

مسح ماك غريغور حاجبيه باطراف اصابعه وارنبة اذنه وقال:

- ان شخصاً ما يفترض انني قد تعرضت للقتل. ولكن هذا كله يبدو وكأنه تمثيل مسرحي...

- ولا غرابة في ذلك فان المنافسة مسعورة تماماً بين أكراد باريس - قال موزيل واضاف - وانت نفسك قد تأكدت من ذلك قبل ايام.

- أليس بمبادرة منك قد وضعوا البوليس عند المداخل؟ - سأله ماك غريغور

- كلا. ان كيومون شعر بالقلق. فأنني معه قلقان على كيتي.

فان هذا الجو من العنف قد بدأ كله يرهقها. ولهذا فأنني ايدت بمغادرة هذا المكان مؤقتاً.

- ان مثل هذه الاجواء ليست غريبة علينا انا وكيتي - أعترض عليه ماك غريغور وقال - ولهذا فلا جدوى من تركيز الالوان.

- وبالاضافة الى ذلك فانا افترض انني مصيب في رأيي - تكلم موزيل بلهجة التأكيد وقال - وان عنفاً أهوج قادر الآن بالذات - ان يكون مريعاً جداً بالنسبة لها.

- لاتحكم على كيتي من خلال حكمك على ابنتك - قال ماك غريغور.

صمت موزيل مندهشاً من هذه الملاحظة اللاذعة التي أبداها ماك غريغور الا انه ابتسم من بعد ذلك وقال:

- أجل ان لدى تيريزا أعصاب مضطربة. ولعل ذلك يؤثر على وجهات نظري في الواقع. ان تيريزا بحاجة فعلاً الى الأم التي تقدم لها الدعم العاطفي الذي يفضي بمشاعرها نحو الاستقلالية. ولكن والدتها قد توفيت قبل ثلاث سنين وفي هذه اللحظة قد ضج جرس التليفون وكأنه قد جاء في حينه. ورفع موزيل السماعة، وحجبها بكفه، ومن بعد ذلك قال: «الو - كيتي».

ارهف ماك غريغور اذنيه ونهض متطلعاً ببشاشة الى كعوب كتب موزيل.

ليوي دي برويل، «الميكانيكا الجامحة ونظرية الذرة». اليس دي برويل هو أول من أكتف فكرة الميكانيكا الجامحة في العلم المتعلق بالطاقات النووية؟ وما هي حاجة موزيل لهذا الكتاب؟

- كلا يا كيتي - قال موزيل واضاف - انا لم أرَ سيسي لم تدخل الى البيت. نعم، انه مايزال هنا.

وناول الى ماك غريغور السماعة التي سخنت من يده واذنه. وكرر صوت كيتي نداد «الو... الو» كأنما الاتصال قد انقطع.

- هذا انا - قال ماك غريغور ثم سكت منتظراً الجواب وجاهلاً الى اي جانب ستحيل كيتي في حديثها معه الآن.

- لماذا لم تبق معك سيسي في بيت غي موزيل؟

- قالت انها مشغولة.

- وهل انت تركتها للاشتراك في مظاهرة أخرى؟

- كلا. انها ذهبت الى ورشتها.

- وعن اندريه، اين هو؟

- لا أعرف. لربما هو في الورشة أيضاً... هل راجعت الدكتور تيبلو؟ - سألها شاقاً نحوها حواجز عبر مسافة خمسمئة ميل من اسلاك التليفون الشائكة.

- كلا، لم اراجعه بعد.

- تلفني لي فوراً.

- ولكنني لا اتوقع من زيارتي للطبيب تيبلو اي شيء مفجع.

- ورغم ذلك اتصلي بي تليفونياً...

- حسناً، سأتصل بك... وأغلقت السماعة.

- انت لاتفزع بشأن كيتي - تكلم موزيل بلهجة واثقة وقال - انا أؤكد لك ان كل شيء عندها على احسن ما يرام.

لم يتكلم ماك غريغور ثم جلس قليلاً مجاملة وبدأ يتهيأ للوداع.

- أتريد سيارة؟ - أقترح موزيل عليه.

- كلا، كلا سأمشي قليلاً ومن بعد ذلك سأستقل سيارة أجرة - قال ماك غريغور.

- كن حذراً- قال موزيل

- سأكون كذلك.

وعند البوابة تبادلاً المصافحة. وبعد خروجه الى عتمة منتصف ليل باريس.

الغارق في ظلام سديم ازرق لاحظ ماك غريغور في بقعة من خليط ضوء زئبقي رمادي مع ظلال أشجار الكاستناء ان خيال شخص غير واضح يتحرك. ولم يكن لديه شك في ان هذا الشخص يقترب منه. وتوقف متطلعاً من حوله لينظر الى اي جهة سيهرب منه؟ كانت جوانب

الشوارع تتوقف فيها السيارات، وفي وسط شارع خوش ينطلق تيار من وساط النقل السريعة. اما السابلة المشاة فلا أحد منهم ابداً في كل مكان.

- هذا انا...

وظهر ان هذا الهيكل كان هيكل ابنه اندريه. وعرف ماك غريغور مع تهلل قطرات العرق على جبينه مدى توتر اعصابه وقال لأبنه:

- أعمل معروفاً، ماذا انت تفعل هنا بمنتصف الليل؟

- لقد فكرت ان من الأفضل ان أئتي من أجلك - قال اندريه.

- ولماذا؟

- ما كان ينبغي لك ان تسير منفرداً.

- سوف لانخلق مأساة - تكلم ماك غريغور ولكن بشعور من الارتياح والفرح.

- لقد ارتجفت انت بحيث صرت كمن يبدو مستعداً للهرب - قال اندريه.

- انه مجرد توتر عصبي

وبعد أن سارا بمحاذاة جدارين من السيارات المتوقفة، أخبر اندريه والده ان أحدهم قد قذف على فناء البيت قنينة من حامض الكبريتيك وقال:

- لقد دخلت من الشارع الى فناء البيت وكنت اتحدث مع العجوز مارين وفجأة سمعنا دراجة نارية تمر بالبيت. وفي نفس هذه اللحظة سقطت قنينة في الفناء وانفجرت بصوت شديد!

- هل هي قنينة حامض؟ - قال ماك غريغور متشككاً واضاف - الم تتعرض الى اصابة؟

- ان الرائحة أكيدة. وقد غسلناه بسرعة بواسطة انبوب ماء الحديقة المطاطي. ورغم ذلك فان الطلاء في البوابة سيتآكل حتى الصباح.

- إن هذه العملية ليست من أعمال الأكراد - قال ماك غريغور واضاف - الحرق بالحامض؟ لم اسمع عن الاكراد انهم تصرفوا هكذا.

أجتاز شارع خوش، ولاحت من خلفهما بقعة غابة بولونيا المظلمة وقال اندريه:

- عند رمينا الأنبوب المطاطي انا ومارين في الغناء فأن الدراجة النارية رجعت مرة أخرى. وسقطت قنينة في هذه المرة داخل الفناء على بعد مترين من مكان وقوفنا.

- يا الهي...

- الا انها لم تنفجر. فان السائل الذي بداخلها لم يكن حامضياً من حسن حظنا.

- ولكن اين كان رجل البوليس المكلف بحراسة البيت؟

- انه جاء فيما بعد. ورد على سؤالي بان هناك في الزاوية من كان يدعو الى النجدة، وهو قد أسرع لتقديم المساعدة.

- ولكن الحامض... - تكلم ماك غريغور وقال - أن هذه دناءة

عندما وصلا الى ساحة يليسي قال ماك غريغور من الأفضل لو أنهما يجلسان بأي مكان. وأختارا واحدة من المقاهي على الرصيف امام مبنى الخطوط الجوية البريطانية، وبعدما جلسا على كرسيين من الخيزران المنسوج تحت سقيفة منيرة، أخذا يحتسيان البيرة المثلجة من أكواب ندبة وقال اندريه:

- يا ولدي، الا تسجل انت في هذه المدينة؟

- بالعكس - اجاب ماك غريغور مازحاً وقال - انا الآن باريسي حد الاشباع وقطعت الاتصالات مع الجميع ما عدا باريس.

وجلس الاثنان ناظرين الى العربات الظلماء غير المجنحة المنطلقة من قبل حقول يليسي (هذه اشارة الى بيت شعر حول عجلة الوقت المجنحة من قصيدة اندريه مارفيللي. وهو شاعر انكليري من القرن السابع عشر). وبعد ذلك دفعا الحساب وغادرا الى الامام تحت الاشجار.

- إن المأساة تكمن في ان الوقت قد صار حرجاً جداً. - تكلم ماك غريغور متنفساً بحسرة عميقة وقال - ان هناك من يريد قتل القاضي. ولهذا فان الابطاء غير مسموح بالنسبة لي.

- وكذلك فانت لاتحتمل التسرع ايضاً - قال اندريه:

- نعم. الا انني ارى الآن ان الطريقة العقلانية هنا غير مناسبة. فقد حلت اللحظة التي تستوجب التصرف السريع.

- كن حذراً - قال اندريه.

- تقضي الضرورة باللجوء الى الفرنسيين ولايوجد لي طريق آخر.

- الى الفرنسيين؟

- الهدف الوحيد للفرنسيين هنا هو التجارة - أوضح ماك غريغور لابنه معترفاً انه يدير هذا الحديث معه، لأنه ليس باستطاعته اجراء هذا الحديث مع كيتي، وقال - انني لا استطيع الثقة بأي أحد من الآخرين. نعم بأي أحد...

وسار الاثنان مباشرة عبر ساحة ايسيلاند الواسعة بينما ظل اندريه ملتزماً بالصمت مدة طويلة. الا انه قال فيما بعد:

- قل لي اليس من الدناءة ان الاطماع الاوربية ماتزال تمسك بخناق العالم. وان هذا يصل بي الى حد الكراهية. وهذا هو الواقع. فكلما يتقدم بي العمر في أوروپا يزداد حدة الشعور انني لست اوربياً.

- هذا الكلام غير لائق - تكلم ماك غريغور وقال - فان والدتك تريد منك ان تكون اوربياً من حيث أسلوب التفكير. وهي على صواب في ذلك. فان مستقبلك هو في أوروپا وليس باي مكان غير هذا. ودع عنك الإرتباط بتعقيدات الحياة الشرقية مثلي. لا ضرورة لذلك.

لم يرد عليه اندريه باي كلام، وسار الاثنان صامتين حتى البيت، وكأنهما لايريدان قلب ذلك الذي لم يجلب لهما الهدوء.

الفصل الخامس والعشرون

في الساعة الثامنة صباحاً اتصلت كيتي به تليفونياً من لندن وقالت له انها ستذهب غداً عند الساعة الحادية عشرة لتأخذ صوراً شعاعية في مستشفى سانت توماس لدى الدكتور تيبلو، وقالت:

- فاتني يوم امس ان اذكرك ان دوباس ابن ايلخان يريد ان يراك. وانا كنت قد تناولت معه الغداء قبل ايام، ومن ثم تلفن لي حول الموضوع وقلت له ان يتفق معك على اللقاء. وهو يقيم مع فلانديرس.

- اي فلانديرس هذا؟ «هل هو ذاك الذي انقذ الاطفال؟».

- ومن هناك غيره أيضاً؟ - وأعتطته كيتي رقم تليفون فلانديرس.

- ولماذا تناولت انت الغداء مع دوباس؟ - سألها ماك غريغور.

- لم ارغب ان يكون هو لك عدواً شخصياً آخر يكن لك الضغينة - اجابته كيتي.

صدح صوت كيتي بهدوء مفتعل، الا ان ماك غريغور لم يقنع بهذا الهدوء. ففي يوم أمس، عندما سافرت كيتي، كان قد قرر السفر الى لندن وراءها بعد الالتقاء مجدداً مع الفرنسيين، وتبادل الآراء مع كيومون.، والا فانه لايتمكن من تجاوز النزاع معها. وكانت سيسي واندريه ما يزالان نائمين. وبعدما تناول الأفطار لوحده خرج ماك غريغور نحو البوابة ليطلع بنظره على البقعة التي حصلت بفعل تأثير الحامض. ولما سمع من رجل البوليس، ان هذا التصرف هو من عمل الماويين والفوضويين والشيوعيين الذي يغلي بهم الحقد ضد البيوتات المشهورة، قال ماك غريغور على سبيل المجاملة:

«هكذا اذن؟» - ثم استدار راجعاً الى البيت. وان العمة جوس قد تعرضت بسببه الى مخاطر جدية الآن ولهذا فلا بد من الكلام معها بهذا الصدد. ووقف في قاعة البيت ونادى قائلاً:

- يا عمة جوس...

- نعم، من؟ - جاءه الصوت من خلال الجدار.

- أنا أحب الكلام بشأن ما حدث مساء يوم امس - صاح ماك غريغور

- ولكن ماذا حدث؟

- ان أحدهم قذف حامضاً على البوابة.

- لقد أخبروني عن ذلك. وماذا بعد ذلك؟

- ارى، حسبما أظن، انك ستكونين أكثر أمناً لو انتقلت انا الى مكان آخر.

التزمت العمة جوس بالصمت «فهل هذا السكوت من الرضا؟» - هكذا فكر ماك غريغور. الا ان في اللحظة قد وصله صوت عبر الجدار وباب السلم:

- اذا كنت تريد الانتقال الآن، فأنني لن أغفر لك ذلك ابداً، انتظر عودة كيتي. وعند ذاك ستكون حر القرار.

ابتسم ماك غريغور نحو السقف وقال:

- حسناً يا عمة جوس.

في الساعة العاشرة اتصل تليفونياً مع كيومون، وكان اليوم يوم أحد.

ردوا عليه من وزارة الخارجية انهم لايعرفون اين يوجد كيومون. الا ان ماك غريغور ذكر اسمه. وبعد خمس دقاق اتصل به كيومون نفسه بالتليفون ودعاه للقاء في فندق «اوتيل فولتير» في شارع فولتير على النهر.

- كنت منتظراً منك نداء تليفونياً - قال كيومون واضاف - وأشعر انك تحمل لي اخباراً تخصني أليس كذلك؟

- متى يمكنني المجيء؟

- تعال الآن تماماً. وانا بانتظارك.

خطف ماك غريغور من السترة في الدولاب التخويل المخفي الذي اعطاه له القاضي وأنطلق متوجها عبر الشارع الدائري السابع نحو السادس اللذين تغطيا بشمس الأحد الشهباء، ليتجاوز شارع النهر الصاخب غير المأمون والمرصوف كله بالاسمنت وبسيل لاينقطع من السيارات.

في «اوتيل فولتير» القديم، يبدو انه ماتزال تقف حتى هذا الحين السرر النحاسية الضخمة. الا ان قاعة الاستقبال ظهرت حديثة وثرية. وجلس كيومون في زاوية القاعة المخصصة لتناول الافطار. وكان يحتسي القهوة من فنجان، وكان يبدو اليوم سيداً قرويا جافاً. وفي يده اليمنى بين أصابعه النحيفة ذات البقع الناجمة عن كبر السن علق سيكاراً في الهواء، وبدأ كما لو انه ضغط أصابعه أقوى قليلاً فأنها ستهشم وتتطاير. وبعدما أجلس ماك غريغور قال كيومون وكأنه يتكلم بالمناسبة:

- الا تعرف انت اين يقيم الآن شرام صديقنا المشترك؟

- كلا.

- انه في كردستان. ولكن هذا سر حساس في ما بيننا. فأننا ارسلناه الى هناك يوم أول أمس.

- كيف تهيأ لذلك، أي الحصول على فيزا لضابط فرنسي لدخول كردستان؟ - سأله ماك غريغور باستغراب.

- ستعرف عن ذلك بعد قليل - قال كيومون.

جلب نادل المقهى ابريق قهوة وسكر وملاحق ونثر مناديل الايدي البيضاء فوق غطاء المائدة. وانتظاراً منه لابتعاد النادل عنهما قال كيومون انه مستاء بسبب توعك صحة زوجة ماك غريغور، وسفرها الى لندن للعلاج هناك.

وذكر ان موزيل هو الذي نقل اليه الخبر وهو مضطرب بشأنها.

التزم ماك غريغور بالصمت.

- ها انت تؤيد الاتصال مع القاضي؟ - سأله كيومون.

- كلا. لا ضرورة حتى الآن حول هذا التحرك.

- ألم تسمع؟ فانه جريح.

- نعم. ولكنني أظن ان هذا لايغير من الأمور شيئاً.

رفع كيومون حاجبيه دلالة عدم الفهم وقال:

- انا سأفرح بهذه المناسبة لو أعرف لماذا عبرت عن الرغبة في الالتقاء معي.

هذه هي الرسالة والتخويل المطلوبة قبلكم - قال ماك غريغور، ووضع فوق المائدة الاوراق

- هل هذه هي وثائقكم؟

- نعم. فأنتم قد ذكرتم، ان هذه الوثائق اذا كانت تقنعكم، فستوافقون حول ما يتعلق بالعربات أو ترفضون.

- نعم. نعم. هذا طبيعي.

لقد أحسن ماك غريغور ان شيئاً ما جديداً قد حدث، ولهذا فان كيومون يمارس اسلوب ضبط النفس. فقال:

- أعتقد انني سأستطيع اقناع القاضي واللجنة بالموافقة على أقتراحاتكم.

- مفهوم، مفهوم.

- لقد قلتم ان القوانين الفرنسية لاتجيز للبنك حجز الاموال الكردية. ومن الممكن استعادتها. وانتم بنفسكم قدمتم هذا الاقتراح.

- نعم، نحن اقترحنا ذلك - قال كيومون موافقاً واضاف - الا ان أخباراً قد جاءت منذ ذلك الوقت مباشرة من القاضي. ولهذا فأنا اسأل فيما اذا كنتم قد تسلمتم بنفسكم شخصياً اخباراً منه.

- هل وصلت اخباراً من القاضي اليكم في باريس؟ وهل عن طريق شرام؟

- كلا، كلا، لقد اجرينا حديثاً مع شاب كردي من كردستان اسمه دوباس.

دوباس؟... - ضحك ماك غريغور ضحكة يوحي بها وكأنه فهم كلام.

كيومون وكأنه من قبيل النكتة، فان دوباس ليس من أعضاء اللجنة، ام انه أكد انتماءه لهذه اللجنة؟

- كلا ابداً. الا انه يحمل وثيقة من اللجنة مع تخويل. وفيها نص يقول خصوصاً ان جميع الوثائق الأخرى، ومنها الوثيقة التي تحملها انت هي وثائق لاغية.

- من غير الممكن ان يعطي القاضي اي نوع من الوثائق، ولايمكن فضلاً عن ذلك ان يلغي وثيقتي - تكلم ماك غريغور محاولاً الاحتفاظ بهدوئه واضاف - ان هذا مستبعد تمام الاستبعاد.

- هذا محتمل. الا ان الوثائق الي لدى دوباس هي من واحد من أفراد اللجنة. واؤكد لك انها ليست مزورة.

- كيف بامكانك ان تكون متأكداً بصدق هذه الوثائق؟

لم يجب كيومون مباشرة على السؤال المباشر الحاد لماك غريغور.

- اننا لدينا وسائلنا الخاصة في التحري. وهي وسائل مأمونة كل الأمان.

- وتملكون أيضاً وسائل التحري عن دوباس كونه صنيعة من؟ - سأله ماك غريغور بانزعاج.

وضع كيومون فوق المنضدة يديه الشائختين اللتين يغطيهما القمش وقال:

- نعم. اننا نعرف معرفة فائقة ان من يقف وراء دوباس هو الانكليزي فلانديرس. ولكن فلانديرس، كما هو معروف لديك، هو عميل لشركة احتكارية انكليزية امريكية.

ما كان ماك غريغور يعرف هذه الناحية الا انه كانت تساوره الشكوك. ونظر نظرة مركزة في عيني كيومون الذكيتين وسأله كيومون:

- هل وصل الى علمكم في نهاية المطاف من ذاك الذي يدفع لرجال الاعمال ثمناً لهذه الاسلحة؟

- كلا.

- انه فلانديرس بالذات.

-انه ممثل جمعية «أطفال آن المحدودة» أليس كذلك؟

-أجل وهو كذلك. وانت ترى عملياً تضارب المصالح - واصل كيومون واضاف اننا نجهل بأي يد الآثمن المجموعات الكردية توجد السلطة. فقد سمعنا ان القاضي قد أختفى في الجبال. وان دوباس يؤكد ملحاً على ذلك من أجل ارسال الاسلحة الى والده. وهذه المسألة هي غير واضحة كما انت ترى هنا. ولهذا فاننا ارسلنا شرام الى كردستان. والى حين عودته فانا غير مستعد لأن ادخل في النقاش حول هذه القضية.

- لايجوز الثقة بدوباس - تكلم ماك غريغور ضاغطا على الكلمات وقال - انه لايمثل اي احد سوى والده.

- ان موضوعنا ليس هو بدوباس او سوف لانثق به - دمدم كيومون واضاف - سنتأكد من ذلك مع الايام - وانتظر كيومون ريثما يهدأ ضجيج سيارة شحن اجتازت شارع النهر وقال - بحسب رأيك هل يستطيع شرام ان يبحث عن القاضي؟ مع الافتراض طبعاً ان يصل شرام بسلام الى منطقة كردستان.

- من الممكن ان يحقق ذلك. ولكني اشكك بذلك - هكذا أجاب ماك غريغور.

- ولكنك بذاتك، الا توافق على السفر الى هناك لتوضيح الموقف؟

وسكت كيومون ثم أضاق - اي ان تبحث عن شرام وتعثر عليه وترافقه الى القاضي. وعند ذاك فاننا سنستطيع حل هذه المسألة بدون تأجيل.

- انا غير متأكد، هل اني فهمتك؟ ولكني أقول أليس من الممكن التحقق من الموقف بوسيلة أخرى.

- لا أعتقد بوجود وسيلة أخرى. والا لأتخذت الاجراءات بان لاتغادر الشحنة الاراضي الفرنسية حتى ذلك الحين. فلو أنك تسافر الى هناك... - نظر كيومون نحو ماك غريغور الذي لم يعبر عن الموافقة لا بالاشارة ولا بالكلام - ... واضاف كيومون - على ان تعود حتى الحادي والثلاثين من ايار/ مايو، طالما انني لا استطيع بعد هذا التاريخ عمل اي شيء.

- الوقت بات ضيقاً.

- بإمكاننا ارسالك غداً بالطائرة الى طهران في الساعة الخامسة صباحاً، اذا كنت ستلحق بالاستعداد للسفر.

- ليس من السهل بالنسبة لي السفر في الوقت الراهن.

الفصل السادس والعشرون

عندما قال ماك غريغور لسيسي انه ينوي السفر الى ايران لمدة اسبوع او اسبوعين، فانها اعترضت عليه فوراً:

- وماذا ستقول الوالدة حول ذلك؟

- انها ستفهمني. فهناك مختلف الاسباب.

- الست تبالغ انت في الاعتماد على هذا التسبب - حذرته سيسي وقالت - من الصعب اقناع النساء باي اسباب مهما كانت.

وبذلك ادرك ماك غريغور ان رأي سيسي صحيح. وفي الساعة الثانية نهاراً اتصلت كيتي بالتليفون عن لندن وأخبرته ان الدكتور تيبول لم يشخص لديها اي شيء عدا اجهاد عضلي. استبشر ماك غريغور لهذه الاخبار. الا انه لم يخبرها عن نيته بالسفر. فقد عرف انه لن يحصل بينهما نقاش هادئ، ولا امل لديه في حصول ذلك، ولهذا فانه لايدري ان يضعها امام الأمر الواقع وسمع هو من خلال سماعة التليفون:

- اسمعني، فانك ستذهب مساء اليوم مع جيزي مارغوز الى «اوبرا كوميك»

- مع من؟

- ستذهب مع شقيقة غي موزيل. ولاتبتدع الاعذار، فانت تتذكرها جيداً.

- نعم، نعم اتذكرها.

- أنني منذ وقت بعيد قبلت دعوتها، ومن بعد ذلك غاب عن ذهبي ان اعتذر لها عن عدم حضوري بسبب السفر. وانني قد اتصلت بها الآن بالتليفون وقالت جيزي لا بأس في ذلك. فان زوجها يقوم الآن بسفرة أيضاً، وانتما الاثنان ستذهبان معاً.

- وهل هذا على هذه الدرجة من الضرورة؟

- نعم انها ضرورة. ام انك مشغول جداً؟

- كلا.

- ولهذا ارجوك تنفيذ هذا الطلب.

ورغبة منه في عدم مواصلة الحوار حول هذا الموضوع الذي هو تافه الآن، فقد سألها اين يجب عليه ان يلتقي مع جيزي.

- اذهب اليها في الدار في الساعة السادسة. فهناك حفلة كوكتيل.

لم يكن في صوت كيتي ما ينم الانزعاج، فان معنويتها قد ارتفعت. الا ان ماك غريغور عرف ان ما بينهما الآن هو حالة التحفظ المتسم بالسكوت. وغادر الدار وراح يتجول في شوارع يوم الاحد ليقرر ما يجب عمله بشأن السفرة الى كردستان. ولكن باريس يوم الاحد، لم توح له بأي شيء. ولانه لم يتخذ اي قرار، فقد عاد الى الدار لاستبدال ملابسه، اذ قد صار الوقت يقترب للذهاب الى جيزي مارغوز لاصطحابها الى المسرح.

لقد أكمل ارتداء ملابسه عندما صاح اندريه منادياً عليه من القاعة بان احد الأكراد المدنيين اسمه دوباس ويريدك ان تراه وارتدى ماك غريغور سترته ونزل الى تحت.

- صديقي العزيز! هذا انا في باريس - أعلن دوباس بلهجة فرنسية لا لكنة فيها وباسلوب الاولاد اللعوبين الدقيق. ولم يكن لديه الآن سوط، ووقف بوسط القاعة بمظهر فتى باريسي منطلق نحو مدخل طريق رياضي «نمر امريكي».

قادهُ ماك غريغور الى الغرفة الصباحية حيث استفسر دوباس منه هناك عن صحة مدام كيتي ومحاولاً استخدام الفاظ يتقصد المصالحة من خلالها. اما ماك غريغور فقد انتظرة متى ينتقل في كلامه الى القضية. وقال دوباس:

- انظر الى ما جئت به اليك - قال ذلك وعرض على ماك غريغور الوثيقة المعطاة له من قبل اللجنة. وقرأ ماك غريغور نص الوثيقة بانتباه دقيق جداً وامعن النظر بستة تواقيع تحت ختم اللجنة. ولم يكن من بين هذه التواقيع توقيع القاضي وعلي.

- القاضي مريض. فهو جريح - شرح له دوباس وقال - ولهذا فهو لم يتمكن عن التوقيع. وانا مرسل اليك لغرض ان انزع منك هذه المسؤلية الثقيلة بشأن البحث عن الاموال الكردية. خذ واقرأ.

سلم دوباس الى ماك غريغور وثيقة أخرى مكتوبة بحبر احمر ومعنونه الى القسم الايراني

في وزارة الخارجية الفرنسية. وتتضمن الوثيقة تنبيهاً بأسلوب أدبي لرجل دين - إمام أو عالم اسلامي ان جميع التخويلات والوثائق المعطاة من قبل اللجنة الكردية تعتبر لاغية.

- ان هذا كله لا قيمة له عندي - قال ماك غريغور وهو يعيد هاتين الوثيقتين الى دوباس.

- اذا كانت هذه لا قيمة لها عندك، فهي ذات شأن لدى الفرنسيين - قال دوباس

- انا لست على استعداد لأخذ هذه الاوراق بنظر الاعتبار - قال ماك غريغور ولا تساوى لي شي. وانت نفسك تفهم ذلك.

- القاضي المريض - مصاب بجروح - كرر دوباس الكلام.

- ان الذي حصل للقاضي انا على علم به. ولكن والدك اذا كان يفكر بالسيطرة على اللجنة بقوة السلاح...

- اتقِ الله! - صلح دوباس.

- إن والدك لن يحصل على هذه السلاح. وسأكرس كل جهدي كي لايحصل عليها.

- ولكن لأي غرض انت بحاجة الى جبالنا الكردية القذرة الجرداء، اي انت الذي تعيش هنا حياة أسرية في راحة وبلا خوف؟ - تكلم دوباس واضاف - ولماذا تتدخل انت بهذا العناد في قضيتنا الشائكة يا صديقي؟ انا عاجز عن ان افهمك تماماً.

- لا جدوى من اجراء هذا الكلام - قال ماك غريغور وتوجه نحو الباب وتابعه دوباس مُكرها. وخرج ماك غريغور الى فناء البيت وفتح البوابة. وكان المساء الباريسي دافئاً ومشبعاً قليلاً برطوبة المطر. ولاحَ له في نهاية الزقاق سيارة صغيرة من الطراز الامريكي. واتكأ عليها شخصان مجهولان. وتوقف ماك غريغور متطلعاً اليهما بنظره وسأل:

- هل هؤلاء اصدقاؤك؟

- انهما اقربائي من جنيف - اجابه دوباس واضاف - ان البوليس لم يسمح لهما بالاقتراب. فممن انت تخاف يا صديقي؟ - تكلم دوباس ساخراً.

أشار له ماك غريغور الى اللحظة في الطلاء المحترق على البوابة وكانت فاتحة اللون مثل أثر صلعة أو جرح على جلد انسان وقال:

- هيا أنظر الى هذه الحسنة - تكلم ماك غريغور مراقبا تعابيرا على وجه دوباس. ولكنه رغم كونه لم يلاحظ استياءً مصطنعاً عليه، فانه لم يلاحظ علاقات على وجود صلة له بهذا العمل.

- حرب المدن - قال دوباس ذلك باستخفاف.

- وداعاً يا دوباس - قال ماك غريغور.

ابتسم دوباس وقال:

- ان تعيش في هذه المدينة الغنية الرائعة - أغلق ماك غريغور البوابة بالمزلاج. اما دوباس فقد صاح من الشارع يقول:- سأسافر في الاسبوع المقبل الى لندن. فهل بالامكان زيارة مدام كيتي؟

- تفضل كما تشاء - قال ماك غريغور، وأنتظر حتى غادر سيارة دوباس المكان ثم خرج من البوابة.

ورغم ان ماك غريغور لم ينس كيف كانت جميلة جيزي مارغور، الا انه نسي وراء اي نوع من الحواجز. والآن، فهو واياها لوحدهما منفردان فقد تأكد بعد اطلاعه على وجهها الغريب المكتمل كم كان رأى غي موزيل مصيباً. فان الفهد الاسير يقيس القفص بالخطوات وعيناه لاتريان الناس الذين ينظرون من الخارج عبر شبكة الحدي. ان هذا الانعزال بالذات هو الذي يحس به لدى جيزي.

وقالت له بعدما وضعت كأسين من الشمبانيا على منضدة مطعمة داخل غرفة الضيوف:

- انا لا أحب الكوكتيل الامريكي. ولا أفهم كيف يحتسونه. فهي تجعل الظهر مكتنزاً باللحم والوجه بالعرق والنطاق على الكروش الكبيرة. ويخيل لي ان البيوت الامريكية عديدة الشقق هي في صيف حار.

وقدمت له الكأس. وشكرها هو. ثم جلست هي وقالت:

- أقول لك فوراً انني بقيت افكر حولك بعد زيارتك وحاولت ان افهمك. ومن بعد ذلك قررت ان من الافضل عدم التفكير.

- انا اتعبني التفكير حول الموضوع - قال ماك غريغور متذكراً بنفس الوقت ان زوجها هو الآن في كاراكاس، وسألها عن العاصمة الفنزويلية هل انها تستحق هذا المجد.

- ان المديح الذي تخطى به كاراكاس لايساوي قرشاً - قالت جيزي واضافت تسأل فجأة - ماذا حصل مع كيتي؟ ماذا يحدث لكما انتما الأثنين؟ بينما الجميع تحدثوا لي ان زواجكما مثالي.

- لم يحصل بيننا اي شيء - تكلم ماك غريغور متسامحاً بهدوء مع حتمية الضجر الذي يثيره هذا الكلام.

- كيتي لديها مغازلة ظاهرة على شقيقي غي فكيف انت تنظر الى هذا - قالت جيزي.

- لم أنظر الى هذا ابداً - قال ماك غريغور.

- لاتتهرب. لو كنت في مكانك لما وثقت بـ غي في هذه العلاقة.

وبينما التفت ماك غريغور الى جهة ما اطاح بكأس الشمبانيا.

- كن حذراً من غي وخذ الاحتياط في اجراءاتك - ظلت جيزي مضطربة.

- وماذا ستفيدني اجراءاتي؟

- لا أعرف. ولكن زواجكما يبدو ناجحاً في الظاهر. اما غي فانه يستميل في الحياة نحو كل ما هو ناجح فقط. ولهذا فهو يجتذب كيتي نحوة.

- أما حان الوقت لنذهب الى المسرح - سألها ماك غريغور.

- آه، لن يفلت منا المسرح الى اي جهة - تكلمت جيزي وقالت - انا أريد ان اتكلم. واستطيع الكلام معك لانني أعرف ان ما سأقوله لك لن يذهب أبعد منك.

اما الآخرون غيرك فلا اثق باي واحد منهم. وانا استطيع مع ابنتي فقط تبادل الحديث، ولكنها في العاشرة من عمرها، وما تزال صغيرة حتى الآن ان تقول لها كل شيء. وانت، هل تتبادل الحديث مع أطفالك؟

- يحصل أحياناً، وأقوم بذلك - قال ذلك تعاطفاً غير مقصود مع جيزي.

- ولكنك مع كيتي لاينبغي لك تبادل الحديث كثيراً. وهذا شيء محزن، اليس كذلك؟

سكت هو، ومدت جيزي اصابعها الطويلة نحو وجهه كما لو انها كانت ترغب في انتزاع شيء ما، وقالت:

- لماذا لاتنظر انت نحوي، اي في وجهي؟

ونظر الى وجهها مع قليل الحيطة.

- وجهي لايعجبك. اليس كذلك؟ هل هو وجه منفر عندك؟

- انت تتحدثين بسرعة كبيرة بحيث من الصعب ان أفهم ما تقولين بلغتكم الفرنسية - أجابها محاولاً وتهرباً من الموضوع الزلق.

ولكنها كانت تبدو وكأنها بانتظار هذا الجواب. وقالت:

- انا كنت قد تهيأت لأسئلك عن اشياء كثيرة. ولكنني لم أحقق نجاحاً في ذلك - وبعدما قالت له انها ستعود بعد خمس دقائق، غادرته خارجة، بينما ظل هو منتظراً تطوح به فكرياً

غمامة كثيفة قاتمة. ثم عادت جيزي وكانت ترتدي فستاناً من الحرير - بليسية وقالت - هيا بنا نذهب. وهب الاثنان واسرعا في النزول الى تحت عبر قلب البيت الحلزوني. وفي الطريق تأبطته جيزي. وأستقلت القسم الاضافي في السيارة التكسي. وبدأت جاذبية تمارس قليلاً تأثيرها على ماك غريغور، رغم انه ما كان ليستطيع القول ما مقدار هذه الجاذبية.

زودهما في المسرح بكراس يحتوي على شرح لاوبرا غوته المأساوية. وجلست جيزي صامتة الى جانبه. وبعدما قرأت الشرح الحزين عن قران البيرت وشارلوت الالمانيين لغوته، ظهرت وكأنها حلقت بمشاعرها بعيداً في هذه المسرحية. «دع تبحر» ترنمت شارلوت بحسرات فرنسية. وقالت جيزي هامسة «انني ذلك، فهذا يؤلمني» ومن ثم وامام ماك غريغور من رموشها دمعتين كبيرتين قبل ان تتدحرجا وتشوها زينتها.

وظلت صامتة طوال طريق العودة، واحس ماك غريغور الآن باللغز الخفي لهذه المرأة الذي ينطلق باستماتة نحو علاقة حيوية من خلال صفحة وجهها.

وأستأنفت جيزي الكلام، بالذات في اثناء ما قامت تغلي القهوة داخل مطبخها الزجاجي اللامع:

- كان قران شارولت مجرد حماقة وغير متوافق - قالت ذلك وكأنها تريد اعطاء تفسير سبب لبكائها على عشق الماني تاريخي، أخرج على موسيقى فرنسية ثم أضافت - وانا على ثقة بان هذا هو ما اراده غوته.

- لدى قراءة كراس الشرح تصورت ان غوته يشن الهجوم على العشق الرومانسي، وليس على عقد القران - حاول ماك غريغور التعبير عن افكاره.

- لماذا تتكلم بهذه الطريقة - قالت جيزي واضافت - فكما هو معروف فان الالمان حتى وغوته هم دائماً ينظرون للحب بعواطف جامدة.

- هذا ممكن. وانا لعلى خطأ - قال ماك غريغور واضاف - ان الحياة الزوجية على العموم كانت طيبة بحسب روحية غوته، ولو انه لم يرتفع بالحب كثيراً الى اعلى.

جلس ماك غريغور الى جانب منضدة ممسوحة نظيفة جداً، وراح يفكر في اثناء ذلك بهذه النظافة المبالغ فيها، بانها تبدو علاقة أصيلة من علاقات التربية لآل موزيل وهو قد لاحظ مدى اناقة فستان جيزي الذي هو من جيفانشي وهي تقوم برشاقة تنفيذ عمل الخدم، اذ انها تطحن البن وتضع القهوة في ابريق زجاجي، وتمسح وترتب وتوقد الغاز. لقد كانت غارقة في عملها حتى اذنيها بحيث بدا له كأنما هي نسيت وجود الضيف.

- انني صرت الآن لا أعرف نظرة غوته الى الحب - تكلمت هي بالأخير وقالت - الا انني ادرك ان ذلك القران بالذات كان حماقة. فانا قد تزوجت عندما كان عمري عشرين سنة عن حب. والحب الفرنسي يمارس بواسطة الفم. وهذا أكرهه شديد الكراهية. فان لدى الرجال الفرنسيين شفاه وايد بارعة. ولكنني لا اطيقها. وفي بعض الأحيان فان هذه الممارسة تكون قادرة على التحول الى حب، اي الى حب هادئ وبدون اذرع. وعند ذلك يصبح كل شيء جيداً في الحب ويدوم طويلاً ولن ينتهي. ولكن هناك حبا يظل هكذا في مرحلة الاذرع والشفاه، وعند ذاك يظهر نوع من الكراهية الساكنة. وهذه الحالة ظهرت عندي. وان كل ما تراه ظاهراً عندي... - مررت جيزي يديها على بدنها الى تحت وقالت - اما ماذا يضطرم في نفسي فهذا لايعرفه اي أحد بل وحتى زوجي. انا امرأة سوية. وامتلك مظهراً فرنسياً جيداً. أليس ذلك حقاً؟ - وانتظرت جيزي. انها انتظرت مطالبة بالجواب.

- هذا صحيح - قال ماك غريغور.

- انا سعيت ان أحب زوجي حباً هادئاً. اما هو فقد اماتني بيديه وفمه. ليته يمارس هذا الحب مع أخريات وليس معي.

وجلست هي في مقابل ماك غريغور، فشعر هو انه ليس من الصعب عليه النظر اليها والتطلع والاستماع. ان جيزي الحسناء المثارة شهوتها الى درجة عالية لم تكن راغبة عموماً في ايقاظ هذه الشهوة ولهذا صار من السهل عليه معها. ولكن ماذا كان هي تريد منه؟

- يقولون ان الزواج عند الانكليز يقوم على شيء آخر - واصلت هي الكلام بينما كانت تملأ كأسه بالقهوة بخفة وعناية وقالت - وهذا ما لا افهمه بالنسبة لكما انت وكيتي. فها يا ترى تعيشان انتما بعيدين روحاً عن روح؟ أجبني الآن.

- الزواج بجميع لغات العالم هو كلمة قضاء - قال ذلك وابتسم

- لايبدو انه بهذه الصورة. وانا ارى انها لو تحبكم فهذا يعني انه حب بسيط خال من جميع انواع العذاب الذي لايطاق. فانت ما ان تريدني فسأكون عاشقة لك وبلا تسرع. وسأكون هادئة جداً. ولن يعرف عنا أحد وحتى كيتي.

نظرت جيزي نحو ماك غريغور نظرة تتحداه بتهور الى ان يتفهمها وتتفهم رغبته الخاصة الى شوقه نحو علاقة حيوية انها لم تقترح عليه اي شيء فهو، ولم تفكر تفكيراً كاذباً. وجال في ذهن ماك غريغور قول لموزيل «أجل ان موزيل مصيب عندما قال جيزي تندفع بشغف من خلال الحواجز».

- هل سببت كلاماتي ازعاجاً لك؟ - سألته جيزي.

- انتبهي، التفتي - واشار ماك غريغور الى ابريق القهوة الذي كان يغلي. وظهر ان مرفق جيزي كان تحت تيار البخار المتدفق. فتحركت وسحبت يدها ثم عادت الى الطاولة، وجلست من جديد ماسحة مرفقها دون ان تزوغ بعينيها عن ماك غريغور.

- هل انت لم تفهم ضجرى من ذلك الحب؟ - سألته جيزي.

هزّ هو رأسه.

- أجل، انه غير مفهوم لك، كيف ان ذلك الحب قد شوه شبابي. انه قتلني قتلاً مباشراً. وللعلم فقد فكرت انذاك ان ذلك الحب هو الطبيعي. انه قتلني... - كررت جيزي الكلام وقالت - اما الآن فانا قد فكرت كثيراً بشأنك. وراقبتك مراقبة مركزة. ومن ثم قررت اننا فيما اذا تقاربنا في وقت ما فسوف لايحصل اي شيء مميت. واما انت الا يبدو لك، اي ان الحياة تتفتح لك؟

- إن هذا متأخر جداً بالنسبة لي يا جيزي - رد عليها مع ابتسامة خفيفة معبراً فيها عن رفضه الجدي لأقتراحها.

- هل هذا متأخر بالنسبة لكيتي؟

- نعم.

سحبت - جيزي عيونها اللامعة.

- ولكنها سوف لاتعرف. وكذلك فما الحاجة الى ان تعلم بذلك؟ وانا سوف لا اسبب لها اي ألم. وكذلك انت. واننا سوف لانقوم بعمل مشين ضد الآخرين. وانا قد انتظرت طويلاً. ولا اتكلم عن الحب - هزت كتفيها وقالت... بل ابحث عن المشاعر الرائعة التي تتملكني الآن ما أطول الوقت التي أنتظرت خلال هذه المشاعر التي هي انبعثت الآن بالأخير في داخلي... لحظة واحدة -

- قالت جيزي حوض فولاذي لامع. وفتحت الحنفية نهضت من مكانها، وشرعت تمسح وجهها بصابون المطبخ. نظر ماك غريغورنحوها فرأى خيوطاً شعاعية طلاء الزينة تسيل نحو الحوض. وانتزعت جيزي منشفة معلقة الى جانبها ثم رجعت نحو المنضدة وهي تمسح وجهها بعنف.

- سوف أزين وجهي بالمساحيق بعد ذلك اضافت اليس ذلك أفضل؟

كان ماك غريغور مندهشاً لا ارادياً من هذا التحول من جمال الى جمال آخر. فقد بدا وجه جيزي مصاباً بنمش خفيف مثل نثار تبلات زهرة صغيرة ساقطة على وجنتين صحراوين صافيتين. ومن ثم خرجت الى النور كامرأة مرتبكة قلقة ساذجة ناضجة. ولعلها كانت الآن أكثر سحراً بجمالها من السابق.

- اما تقولين لي لماذا قمت بهذا ؟ - سألها ماك غريغور - وفهم من قهقهتها مدى جدية جيزي في تصرفها.

- اردت انا ان ابدو كما انت تبدو. ومن ثم، وبعدما وضعت كفيها على وجهها تكلمت بانزعاج من خلال اسنانها المطبقة" - اقسم لك انني لن اضع في المستقبل ابداً مساحيق الزينة - ومن ثم سألته:- ألم تحس بالجوع.

- أعترف اني. قد جعت - اجابها شاعراً انه قد يتملص بسهولة.

- ولماذا لم تستظفني انت للعشاء بمكان من الامكنة؟ ولكنني اقول لك بصدق انا لا اريد ذلك باي مطعم مهما كان - وواصلت الكلام دون ان تفسح له مجالاً للجواب - فانا التي أحببت العودة الى هنا معك.

توجهت جيزي نحو ثلاجة ضخمة تنتصب مرتفعة مثل محراب في وسط مطبخ مشرق البياض. واستخرجت من هناك دجاجة صغيرة مشوية وزيتوناً ووضعت ذلك على منضدة الصحون ثم وضعت محارم النظافة. وجلست بعد ذلك، وبدأ الاثنان يمصمصان العظام بشهية ويحتسيان القهوة. وتدحرجت فجأة دمعتان كبيرتان ثقيلتان مثل حبات العنب، من عيني جيزي على سطح المنضدة اللامع.

- لاتلتفت الى ذلك - تكلمت جيزي وقالت - ان هذا حصل عندي بلا سبب.

فانني كما تعرف، أفهمك تمام الفهم. فانت تعيش... - وقامت بمسح الدموع بالمحرمة من فوق المنضدة... - فأنت تعيش عيش نكران الذات. أليس ذلك صحيحاً؟ ويجب بالنسبة لي ان أعيش هكذا. ولهذا، كما يبدو، كان يعجبني دي. فيني - وأنتقلت بالكلام الى اللغة الفرنسية وقالت - يقول اخي غي، انك ستسافر الى كردستان الجبلية، وستموت هناك مثل قديس فقير في اثناء الصلاة. اتمنى انا لو كنت هكذا، لو كنت رجلاً. انني أقسم على ذلك. بل واتمنى لو ذهبت معك الآن، وما عليك. الا ان تطلب مني ذلك.

- ولكن لماذا يعتقد أخوك انني سأموت في جبال كردستان؟ - سألها ماك غريغور مبهوتاً من كلامها، وشاعراً انها تريد مساعدته بحسب طريقتها.

قلصت جيزي كتفيها وقرقعت اصابعها.

- انتم هذا النوع من الانكليز كما يقال. وبحسب رأيه، ان السبب في ذلك هو علاقتك غير الطيبة مع كيتي. ولكن، ما صحة رغبة كيتي في العودة الى هنا والعيش في هذا المكان؟ والتفتت جيزي نحو البريق اللامع المحيط بالمطبخ.

عرف ماك غريغور ان كيتي قد فتحت قلبها حتماً امام قلب موزيل، وان هذا قد نقل ذلك بلا حذر الى شقيقته.

- نعم انها تريد الرجوع الى أوروبا:

- ولكن لماذا؟ - قالت جيزي باستياء واضافت - يا الهي، فأنا مستعدة لأعطاء كل ما في اليد للتخلص من كل هذا. ان هذا قد أثار اشمئزازي.

بعد ذلك بدأت جيزي تخلع عنها الحلي الثمينة، اي انها تنزع من الاذن.

وتخرج من الاصابع. وكان في هذه الاشارات العميقة نوع من الحرية. وكانت قد القت بالاقراط والخواتم في الصحن من عظام الدجاج. وقالت جيزي:

- ها انني اروي لك ما يلي عن كيتي.

- لربما ان هذا عديم الاهمية.

- كلا، انه ذو أهمية. ان كيتي مريضة بذلك المرضى الذي اصاب الجميع هنا. فان كل من فرنسا الآن يعتني بخلل يعانيه نفسياً أو جنسياً. ولكن بضع كلمات بارعة ستهدئ الموقف! وان كيتي تمارس ما تمارسه جميع النساء أمثالها فهل انت توافقني؟- لا أوافقك بتاتاً - أجابها ماك غريغور.

- ولكن لماذا تريد كيتي حالياً الرجوع؟ وسيبدو ان هذا سيكون لغزاً دائمياً. اليس كذلك؟

- لايوجد هنا اي الغاز

- اذن، لماذا تريد الرجوع؟

- لقد ظلت كيتي زمناً طويلاً مقطوعة عن الحياة الرغيدة المحلية هنا، وان العيش في ايران كان طوال السنين بالنسبة لها غير بسيط ومحفوفاً بالاخطار وقليل الراحة، وللعلم فان اي واحد هنا لايعرف ماذا ضحت كيتي وتحملت خلال هذه السنوات العشرين في ايران.

اما عيون جيزي فقد كانت تنظر اليه بهدوء وقالت:

- انت تجهل النساء جهلاً تاماً.

- ان هذا ممكن.

- آه. كن حذراً - قالت جيزي واضافت - ان غي يفهم النساء فهماً عميقاً جيداً. انه فرنسي، وانه سيفهم كيف سيغازلها حالما ستسافر وتتركها هنا.

صار الجو في مطبخ القهوة هادئاً وساخناً. واعترض عليها ماك غريغور:

- انت تقللين من شأن كيتي. فأنها لن تلقي بنفسها في احضانه كأي فتاة ساذجة.

- لاتكن على هذه الدرجة من الثقة.

نهض هو من مكانه، اذ حان وقت الذهاب. والتفتت هي نحوه بوجهها الذي ازاحت عنه المساحيق بوجنتيها المبثوثتين بنثار النجش، وخطر في ذهنة مثال فارسي يعتمد الاستعارة في الكلام حول ان الحياة التي تعاش بتكبر وثراء هي حياة قد ذهبت سدى. وان كنت لاتصدق ذلك فاقرأ الكلمة الفارسية «السعادة» بالعكس وستحصل على معنى «مضطرب وتائه».

- أرجوك ان تبقى - قالت هي.

- ان هذا ليس بهذه السهولة - أجابها هو اجابة ناعمة.

- آه، كلا، هذا خفيف وبسيط. فانا لعلمك لا أريد الحب... اريد شيئاً آخر مثيراً للدهشة. اذا انهار وكل شيء بينك وبين كيتي بشكل لايمكن أصلاحه...

- سوف لاينهار عندنا اي شيء - قال هو وأضاف - ان كل شيء عندنا وبخير.

- ولكن اذا انهار؟ فمن الممكن أن يتداعى.

انتزع هو يده من يدها التي سحبتها تلقائياً الى ما تحت مرفقها المنثني الى الحد الذي ينتهي عنده الحرير وتنكشف البشرة العطرة. وعند ذاك قادته جيزي الى تحت متباطئة عبر سلم الشقة نحو باب الخروج وقالت:

- اتعرف ماذا قال فاليري حوا «الحزن»؟ ان القلب انذاك يحترق تعطشاً للألم الحاد وذلك لأن الألم شر ولكنه قصير الأمد وأخف وطأة الى حد كبير من الحزن المتواصل.

- هل هذا موجه لي أم لك؟ - استفسر هو بصيغة نكتة.

- أعتقد انه لي. ومن الممكن انه لك أيضاً - أجابته وقالت - على كل حال فانا وانت لا نشبه الآخرين. وغير مصابين بالمرضى الاوربي.

اما هذا هو الواقع؟

ودعها ماك غريغور وخرج سالماً يحمل معه فقط لمسة من شفاه جيزي. وسار يقطع الشوارع

غير ناظر للسيارات المنطلقة بسرعة عند فوق نقاط العبور ويفكر بكيتي هل تعرف هي ما ينتظرها لدى جيزي مارغوز، أو انها هي التي دبرت هذا اللقاء عن قصد.

مشى ماك غريغور غير حثيث الخطى حتى دائرة البريد، المفتوحة طوال اربع وعشرين ساعة يومياً خلف البورصة التي هي مأوى المشردين من أبناء باريس الذين ينامون الليل على الطرقات، وبعدما فكر ان من الأكثر ضماناً من كل شيء الاتصال من هنا تليفونياً مع كيتي بلندن في بيتيرس، رغم ان الوقت كان في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. وعندما سمع صوتها توقفت انفاسه وقال:

- هذا أنا. لاتفزعي. كل شيء على ما يرام. احب ان أقول لك انني سأسافر جواً بالطائرة في الخامسة صباحاً.

مرت فترة صمت طويلة. بعدها سألته كيتي بصوت يبدو بعيداً:

- ولأي سبب؟ وماذا حدث؟

- لا شيء، عدا انني اريد ان انهي القضية، وبدون ذلك سوف لاتنتهي .

- وماذا ستفعل الآن؟ هل ستسافر لمدة طويلة؟

- لمدة عشرة ايام لا أكثر ولا أقل.

- وماذا بشأن الاولاد ؟

- لا خوف عليهما. وسيتصرفان جيداً اثناء غيابي، فأنهما الآن ليسا صغيرين.

- كيف تقول انهما لا خوف عليهما ؟ - اضراباً عاماً تقرر ان يعلن غداً في باريس. ويجب منع الاولاد من الاشتراك فيه، وخاصة سيسي.

- سأكلمها بهذا الموضوع. وكل شيء سيكون على ما يرام. وسيرعاها اندريه.

- ولكن من سيرعى شأن اندريه؟ انني سأعود صباحاً الى باريس.

- لا حاجة الى ذلك. سيمر كل شيء بسلام. فأنهم لن يبقوا الى الابد تحت ايدينا. ولن يحصل لهما اي شيء.

- لا ادري ما العمل. سافر انت - تكلمت كيتي بصوت متعب، قالت - ولكنك بعد رجوعك لاتتشكى من العواقب.

- اي عواقب؟

- يجب عليك ان تعرف شخصياً اي عواقب.

- هكذا كنت وهكذا هي انا - ردت عليه كيتي.

- ان هذه الرحلة ستتحقق، وهي بكل الاحتمالات ستكون الأخيرة ووداعية - وعدها بذلك ماك غريغور.

صارت تسمع الانفاس من خلال سماعة التليفون الا ان كيتي ظلت صامتة ومن ثم سألته:

- ألست مسافراً الى كردستان؟

- الى هناك بالذات. والقضية كلها هناك.

- ولكن هل انت متأكد من أنهم لم ينصبوا لك فخاً هناك؟

- هذا محتما. نعم فخ. ولكن ذلك مشكوك به.

- اذن يجب ان لاتسافر لوجه الله. ليتك تتصرف ولو مرة واحدة في الحياة بتعقل:

- يجب ان اسافر - قال ماك غريغور واضاف - لقد تأشرت الخريطة بنجاح من أجل تسوية جميع نقاط الاختلاف ما بيننا فيما بعد.

- لا بأس، سافر انت - قالت كيتي واضافت - سافر! ولكنك سوف لاتلوم إلا نفسك.



القسم الثالث

الفصل السابع والعشرون

ما كان ماك غريغور يتوقع فعلاً، بعدما فتح بوابة القلعة القديمة في ماراديش ان يرى في الفناء هناك شرام الذي كان جالساً بين الاكراد على المقاعد فوق الارض القذرة. ومن حول شعلة نار الحطب يتبادل الحديث بصوت واطيء ويتضاحك على الصناع وسواق من الحمير. وقال شرام:

- يبدو انك اضطررت للبحث عني في المنطقة كلها.

- كلا - قال ماك غريغور - فالغريب من امثالك ما ان ينزل عميقاً في هذه الجبال حتى تطير اخباره فوراً بين السكان كلهم.

- أستأجرت انا سيارة في الرضائية، وغادرت ذلك المكان قبل اربعة ايام مع غالا هذا النموذج - اشار شرام برأسه الى كردي كان مضطجعاً قرب النار وقال - الا ان غالا لايقوم الا بأخذ النقود في للبنزين والطعام والرشوة، ولكن بدون فائدة. ويبدو لي أنه يكرس جهده لغرض ان يمتص كل ما موجودة عندي، اي حتى آخر قميص والسكين الميكانيكية. واحد هؤلاء الاكراد يعرف قليلاً من اللغة كما يبدو لي يتحدث كل واحد منهم بلهجته الخاصة.

- هذا مفهوم. ولكن كيف ظهرت انت هنا ؟ - اشار مام غريغور الى القلعة القديمة غير المسكونة.

- ولكن اين انا على وجه الخصوص؟

- انت في العراق، وعلى مسافة عشرة اميال من حدود ايران - اجابه ماك غريغور.

ضحك الفرنسي وضرب نفسه بعنق الجزمة المغبرة.

- انها نكتة حقاً! ولكننا ما تجاوزنا اي نقاط حراسة حدودية.

نعم، فهمت انا بنفسي من هم المسيطرون هنا في هذه الجبال.

اشار ماك غريغور الى الاكراد بطرف عينه حذراً من وجود أحد بينهم يفهم اللغة الفرنسية. وقال ماك غريغور:

- لقد حصل ما حصل، ولكن حرس الحدود العراقيين سيطلقون النار عليك فوراً ان القوا القبض عليك.

- وبالنسبة لك؟

- انا لست ضابطاً فرنسياً بزي ملابس مدنية ولا أحمل في الجيب الخلفي مسدساً.

- ومن اين وصل الى علمك انني أحمل مسدساً.

- من خلال هذين اليومين صار معلوماً لنا ليس فقط اين حللت بل واين تسعى لأن تحل هناك - قال ماك غريغور واضاف - بل ونعرف كيف تحاول ان تحفر لنفسك حفرة لأجل قضاء الحاجة، وكيف تتطفل بحذاقة ولو مع الخطر في استخدام الخريطة ودفتر الملاحظات مع «مكتبكم» الفضي الذي به الحلقة في القبضة، انت هنا شخص ملحوظ - ثم توجه ماك غريغور نحو شعلة النار حيث استلقى السائق غالا.

- لقد حاولت اقامة اتصال مع اصدقائكم في اللجنة - قال شرام وهو يسير من خلف ماك غريغور واضاف - ولكن لا وجود لأي أحد منهم هنا. فاين هم موجودون؟ وهكذا فاني على هذه الحال لم أفعل اي شيء. ولا أعرف عن السيارة اين هي الآن.

- انت التقيت مع ايلخان - قال ماك غريغور - وكنت مع رجاله قبل يوم امس عندما هجم أولئك على رجال القاضي.

- هكذا اذن، مع من كان الصدام - تكلم شرام مع ضحكة متشنجة وقال - يمكنني القول انني التقيت مع ايلخان ليس عن قصد.

- كلا ابداً. فانت قد بحثت عن اللقاء معه، ونقلوك اليه.

تبادل ماك غريغور السلام مع الأكراد وعرف نفسه لهم وسأل غالا:

- لماذا انت نقلت الفرنسي الى ايلخان؟ فهل ان الاكراد يتصرفون هكذا؟

- الفرنسي دفع لي أجرى، وانا نقلته- رد غالا وقلص كتفيه.

وتذكر ماك غريغور من هو غالا فوراً. فان غالا كان في عام ١٩٤٦ قد قاتل مع الملا مصطفى البرزاني ضد الجيش الايراني. الا انه في وقت متأخر من ذلك صار مهرباً جبلياً محترماً ودليلاً لمهربين آخرين ولعملاء المخابرات ولكل من له رغبة على العموم. وشاعت

حكايات عن غالا انه يشترى جميع حرس الحدود برشوة السكاير وراديوات ترانزستر والمكواة الكهربائية، وانه في بعض الأحيان ينقل اخباريات سرية مجهولة الاسماء ضد المهربين المنافسين له الى حرس الحدود العراقيين أو الايرانيين. وهو ينقل البضائع على الحمير ويسمونه سارق الحمير، الا انه لايحمل سلاحاً معه.

- كيف استطعت ان يغريك المال بالقبول بهذا العمل؟ - عنفه ماك غريغور واضاف - ولماذا نقلت الفرنسي عبر الحدود؟ ان هذا تصرف أحمق اخطر.

- ولكنه كان يريد الالتقاء مع القاضي - افاد غالا بجوابه وقال - ولكن القاضي موجود هنا في العراق بمكان قرب. ولهذا فاني جئت به الى هنا. وهو قد دفع الحساب...

- اين هي سيارتك الآن؟

- استعارها مراد مؤقتاً. فهو قد عاد لتوه من الحج. وهو قد صار انساناً ورعاً الآن، اي انه حجي.

- خداع - واجهه ماك غريغور وقال لشرام - هيا تهيأوا وخذوا حوائجكم وكيس النوم وتعالوا معي.

- الى اين؟

- يجب الخروج من هنا تحت جنح الظلام - قال ماك غريغور - انهض يا غالا. هيا بنا! - ومن ثم حال خروجهم من بوابة القلعة سار بهم ماك غريغور في طريق وعرة شديدة الانحدار نحو الاسفل نحو سيارة «مرسيديس».

- ولكن هذه هي سيارتك، يلعنك الشيطان، فكيف عثرت عليها؟- قال شرام.

- لقد جئت بها الى هنا.

- ولكن بأي صورة؟

- القضية ليست الآن بهذا الموضوع. أجلسوا في السيارة - وبعدما جلس ماك غريغور في المقعد الامامي الى جانب غالا، أمره بالسير في الجبل نحو النهر، ومن هناك يستدير نحو الطريق الاسود لينقلهم الى الكهوف في قرية قديمة متناثرة البيوت.

وغفا ماك غريغور مع اهتزازات المطبات والعثرات اغفاءة قلقة. وايقظته حفنه من الطين ورشقة من الاوساخ، وهذا يعني ان السيارة اجتازت فوق طريق طيني رطب حاد الاستدارة يبدو لونه تحت نور مصابيح السيارة لوناً رمادياً ازرق. وتوقفوا عند طرف قرية كبيرة، حيث

كان هناك اثنان من المسلحين الأكراد - وهما كما يبدو ومن رجال زاتكو - وأمرهم المسلحان بالنزول من السيارة. وبعدما تعرف ماك غريغور على واحد منهما سأله هذا الكردي عما اذا كانوا يحملونه سلاحاً.

- أعطني مسدسك - قال ماك غريغور الى شرام. وناول المسدس الى الكردي الذي أخذه منه ودسه بحزامه كما لو انه أغتصبه اغتصاباً. ومن ثم قال لماك غريغور ان يذهب معه بينما يبقى شرام ينتظر هنا.

ما كان الدرب طويلاً، ولكنهم في سيرهم في الجبل بالظلام كانوا يتعثرون حتى وصلوا الى كوخ من الطين، حيث جلس هناك كردي آخر يغفو عند مدخل الكوخ على قطعة فراش. وانهم أوقدوا الضياء، وأجتاز ماك غريغور واحدة من الغرف ثم ثانية يكاد سقفها الواطيء يلامس رأس ماك غريغور، وفي الغرفة الثالثة رقد القاضي فوق سرير خشبي على حصير قديم وتغطى ببطانية عسكرية رمادية اللون. واعتدل بجسمه جالساً فوق السرير وتدثر بالبطانية وعلى ساقيه كانت تمتد جوارب سميكة من تلك التي يعطونها في الحرب للطيارين الانكليز.

- أهلاً وسهلاً بك - تكلم القاضي ضاغطاً يد ماك غريغور. واعتذر له عن حاله وعن رداءة هذه الدار وفقر اللقاء. ومن ثم قال:- لقد نقلوا لي انك ستسافر الى هنا.

- يسعدني سماع ذلك - تكلم ماك غريغور وقال - لقد بعثت بالخبر عن طريق كل من أمكنني الابلاغ عن ذلك.

صار القاضي نحيفاً وتغطى وجهه بلون ترابي رمادي، ويبدو شاحباً مع لون البطانية وكانت رقبته ملفوفة بضماد وسخ ونمت اللحية المحلوقة بخشونة. وكان رأسه المحلوق ملفوفاً بالضماد ايضاً. وسأله القاضي بصوت ينم هن التعب:

- كيف هي صحتك؟

- شكراً لك. انا معافى - قال ماك غريغور واضاف - ولكن كيف حالك انت؟

فان منظرك ليس حسناً.

- الان، لا بأس بالنسبة لي ولكن في وقت مضى كنت فيه بحال سيئة.

- انا حزين لما حدث لك ايها القاضي.

- ليست مصيبة. في الحقيقة انهم اربكوا الخطط. فان ايلخان يحاول دائماً أخذي في الأسر وهو يطاردنا من مكان لآخر ويرسل لي الرسل ويدعي ان هدفه الوحيد هو الدفاع عني.

- نذل.

- واضح انني ضروري لايلخان من أجل حفظ ماء الوجه. وهو لايدع مجال هدوء لزاتكو لايدعه يتوطد، وينصب الفخاخ لاغتيال زاتكو. هذه قضية ليست هينة - وهي قضية الالتزام عن الرد على استفزازات ايلخان.

- ولأي هدف ألتزام بعدم الرد ؟ هل هو يستحق ذلك؟

- - نعم يستحق. فالنضال تلزمه المبادئ - وصمت القاضي متلمساً الضماد حول حنجرته واجاب - ربما ان مبدأنا هو الوحدة، فيجب التمسك بهذا المبدأ.

وهذا يعني انه يجب تجاوز الخلافات، والا فان قضية حرية الاكراد ستتبدد فالتراجع عن المبدأ لن يجبرني عليه حتى ايلخان.

- ولكنه سيقتلك عاجلاً أم آجلاً - أعترض عليه ماك غريغور.

- هذا غير وارد. فهو يريد ان يجبرني على الانصياع لنهجه السياسي، ولمفاهيمه حول القومية الكردية. ولكنني لن أوافق الى الابد. وسيحيق اليوم عندما سيضطر هو الى تبني وجهة نظرنا وأهدافنا الحقيقية، واني لن أقتل هذا المستقبل ولا اقدم الآن على الصراع مع ايلخان.

نادى القاضي على احد الحرس المقاتلين"

- رافق ضيوفنا الى كهف جاف - أمره القاضي وقال من بعد ذلك لماك غريغور:- هناك في الكهوف المرتفعة سيكون أحسن لكم. اما في الصباح، قبل اللقاء مع الفرنسي يجب ان يكون لي كلام معك.

- اين زاتكو؟ - سأله ماك غريغور.

- انه ركب الطريق تحت خالدشت - وأمر القاضي مقاتلاً آخر بالانطلاق الى هناك والبحث عن زاتكو.

- وكذلك اين علي العراقي؟ - سأله ماك غريغور من بعد ذلك.

- علي موجود هنا - قال القاضي - لكنه مصاب بحمى - وأستلقى القاضي على الوسادة وقال - سنناقش كل شيء غداً، اذ لابد لك ان تأخذ قسطا من الراحة. فالطريق ليس قصيراً من باريس. وانا بقدومك أيها الصديق وشكراً لك.

في الصباح الباكر حضر ماك غريغور عند القاضي الذي ارتدى جلباباً نظيفاً وعمامة نظيفة

وانتظر ماك غريغور بأحد الكهوف. وهناك قد كنسوا المكان ونصبوا منضدة قديمة من خشب الصنوبر وكراسي. وفي الزاوية تحت فنار أصفر «البرق» ظهر جهاز راديو اسود اللون. وفكر ماك غريغور مع ادراكه ان هذا كله انما هو ديكور: «يمكن أن يؤثر على الفرنسي ويذكره بكهوف أخرى لمقاتلين بملابس كردية قومية ملطخة مع احزمة الرصاص المتصالبة بدوا مطمئنين، رغم ان ماك غريغور شعر ان هؤلاء الحراس انما يقومون بدور تمثيلي. وان القاضي وحده مع علي العراقي هما هزيلان على حقيقتهما قد أعطيا حالة اللقاء المظهر اللائق به. وقال علي العراقي:

- كيف الحال هناك في باريس؟ هل حصلت متاهة؟

- انا سأروي لكم الآن، وبامكانكم ان تحكموا - تكلم ماك غريغو، وبدأ يروى خطوة بعد أخرى جميع مراحل نشاطه في اوروبا. وأصغى علي العراقي والقاضي بلا مقاطعة وهم جالسون حول المنضدة في صمت متوتر. وعندما انتهى ماك غريغور من الكلام، لم يستطع القاضي التستر على ارتباكه المدهش، وتكلم القاضي!

- ما أشدها من بلبلة معقدة. أوضح لنا الآن، ماذا يعني هذا كله بحسب الغرب.

- ليس سهلاً فك هذا الالتباس - تكلم ماك غريغور وقال - فان جميع الحكومات في الغرب ابدت فجأة أهتمامها بمستقبل الاكراد وهي كلها لاتتورع عن التدخل.

- هذا ليس بجديد - تكلم علي العراقي بسحنة حزينة على وجهه المريض. - نعم، وان جميع هذه الحكومات تأخذه جدياً بالقبول بفكرة الحكم الذاتي للأكراد بل وحتى فكرة سيادة الأمة الكردية. وان هذا لشيء جديد تماماً.

- نستنتج من ذلك اننا نحقق نجاحات - تكلم القاضي واضاف - ولكن اين تكمن المشكلة اذن؟ ولماذا لاتساعدنا هذه الحكومات، اي انها لاتفسح لنا المجال لامتلاك السلاح؟

وعبر ماك غريغور عن اسفه، ان ليس عنده ايضاحات أكثر من تلك التي بدت جلية في أوروپا، الا انها غير واضحة وغريبة هنا في هذه الجبال. وذهبت صباح اليوم الى شرام اثنتان من سكان الجبال مع طفل مريض ظناً منهما أن شرام هو طبيب (طالما انت غريب، فبحسب رأيهم، انت دكتور)، واوضح الفرنسي لهما بأسف حزين انه ليس طبيباً وعاجز من مساعدتهم. وردت عليه المرأتان بالبصاق الغاضب وبكلمات مهينة شديدة. وتكلم ماك غريغور وهو يتكئ بمرفقيه على المنضدة المغطاة بالغبار وقال:

- المشكلة تنحصر في أنهم في الغرب سيقبلون فكرة الثورة الكردية في حالة ما اذا

استطاعوا فقط ضمان منفعة لهم من هذه الثورة.

- وباي وسيلة: سيضمنون ذلك؟

- باي وسيلة: بواسطة المال والسلاح أو بالوعود وبالدسائس السياسية وشراء الذمم. لايتورعون عن أية وسيلة شرط ان تعطي لهم ذلك الذي يريدونه. فالفرنسيون أولئك، يرتضون بالمنافع التجارية النظيفة من النفط والغاز. ولهذا فأنني قررت ان الفرنسيين سيكونون أكثر فائدة لنا من الآخرين.

- هل الفرنسيون شرفاء؟ - سأل القاضي.

- كيف توجه مثل هذا السؤال أيها القاضي - تكلم ماك غريغور مع ابتسامة حزينة وقال - الفرنسيون أكثر ضعفاً من جميع أمثالهم. هذا هو كل شيء.

- من الصعب فهم طبيعة تكوين الفكر الاوربي - تكلم القاضي بنفس منقبضة.

- ان أوروبا تتغير بسرعة - قال ماك غريغور واضاف - ففي الايام السابقة لم يكن من الصعب عليهم ان يمدّوكم بمساعدات من الطائرات القاذفة والقوات العسكرية. ولكن هذا الأسلوب لم يعد من السهل ممارسته الآن. فأنهم في داخل بلدانهم بالذات تحيط بهم. من كل جانب أخطار الهزات السياسية.

- ولكن بالنسبة للسلاح، فبيد من قد وقع؟ - سألا لقاضي.

- ولم يقع بيد اي أحد لغاية هذا الوقت.

وبعدما سمعوا صوتاً وضجيجاً (السيارة قادمة)، توقع ماك غريغور ان القادم هو زاتكو. وبعد دقيقة على ذلك دخل زاتكو في الكهف مع طه.

وأخذ ماك غريغور، بعدما استسمح القاضي، يتحدث عن طه، بينما يصغي زاتكو متصابراً (انه مثل اليوم دور الصبور). وحالما اورد ماك غريغور ذكر دوباس لم يحتمل زاتكو ذلك وصرخ:

- اذن هذا صحيح ان ابن ايلخان هناك ايضاً!

وتحدث له ماك غريغور كيف ان دوباس قد عرض على نظره التخويلات...

- انظر ايها القاضي - قال زاتكو واضاف - لقد صاروا الآن يختمون الوثائق... وهل أنت ذكرت لماك غريغور أنهم يطاردوننا مثل الارانب في مواطننا الجبلية؟

- نعم. قلت له. ولكن ليست هناك حاجة لتكثيف الالوان. لنبدأ المحادثة مع الفرنسيين -

تكلم القاضي، وأمر أحد الحراس بالذهاب لأصطحاب شرام.

- انتظر لحظة - استوقف ماك غريغور ذلك الحارس واضاف - يجب ان أحذرك مقدماً أيها القاضي ان هذا الفرنسي ينظر اليك من وجهة نظر حربية، فضلاً عن انه قد خابت ظنونه من جراء ما راه بعينه.

- وكيف ينبغي علينا ان نتصرف معه بحسب وجهة نظرك؟ - سأله القاضي.

- أظن ان الفرنسيين سيصغي اليك - تكلم ماك غريغور وقال - وفضلاً عن ذلك ارى ان يقوم زاتكو بالتأثير عليه بشيء ما أكثر فاعليه.

- ولكن هذا لأي غرض؟ - امتعض زاتكو وقال - لماذا ابذل قصارى جهدي أمام الفرنسي؟

التفت القاضي التفاتة متسائلة نحو علي العراقي الذي كان صامتاً.

- ان هذا الفرنسي لايعجبني - قال علي.

- وماذا تقول بذلك يا ماك غريغور.

- أقول لكم انني جئت مسافراً من باريس الى هنا من أجل هذا الفرنسي.

- حسناً - قال القاضي وهو يضع يده على حنجرته المضمرة، والملتحفة من فوق بلفاف صوفي. ومن الواضح انه كان الكلام مؤلماً بالنسبة له وقال - اننا سنقوم بعمل ما ستقدر عليه - ومن ثم بعث حارساً نحو شرام.

اما شرام فانه كان قد نظف جزمته من الاطيان والروث. ومع انه لم يتشرف بمعرفة الأكراد، إلا انه انتصب واقفاً وقفة تحية ومستوعباً لهم بنظرة حذرة، وقال ماك غريغور باللغة الفرنسية وهو يقدم شرام، ان القاضي وعلي يتكلمان الفرنسية.

- انا احمل رسالة الى القاضي - تكلم شرام وسلم مظروفين.

قرأهما القاضي بسرعة وركنهما جانباً وقال:

- انت تريد ان أشرح لك قضايانا، مسيو؟ ام انت تريد توجيه اسئلة؟

- احب ان أعرف فقط ما هي السلطة التي تتمتعون بها وما هي خططكم القريبة للعمل

- دخل شرام في صلب القضية بحماسة.

فكر القاضي قبل ان يجيب وقال:

- ان لديكم وسيلة واحدة لتعرفوا مدى السلطة التي نتمتع بها. أسألوا اي كردي، ودعوه

يتكلم لكم من الذي يمثل الشعب فعلاً، بحسب رأيه.

- انا لا أستطيع فعل ذلك - تكلم شرام وقال - فانا غير متمكن بتاتاً من لغتكم.

- انك بهذه الحال سوف لاتحصل الا على القليل من المعلومات عنا - قال القاضي.

- لربما ان الأمر هكذا - اجاب شرام اجابة رصينة واضاف - ان ما يهمني عملياً الآن أكثر من غيره هو خططكم الحالية.

حرك القاضي يديه حركة خفيفة وقال:

- هذا من غير الممكن الافضاء به فوراً - عبر القاضي عن رأيه وتبع ذلك اسئلة جريئة سريعة واجوبة سريعة حذره. ومس زاتكو ذراع ماك غريغور وسأله عن الموضوع الذي يتحدث عنه القاضي باللغة الفرنسية.

- يحاول الفرنسي ان يعرف مع من يدير الأكراد القتال بالذات - اجابة ماك غريغور.

- وما معنى مع من؟

- هو يرغب ان يستوضح ضد من انتم توجهون نضالكم الحاد. اي هل ضد ايلخان ام ضد السلطات العراقية، ام الايرانية أم غيرها.

- نعم. نعم...

- وهو يريد ان يعلم هل لديكم اتصالات مع الروس - واصل ماك غريغور الترجمة لزاتكو.

- قل له ان عندنا اسلحة روسية.

تجاهل ماك غريغور ذلك كما لو لم يسمع. ولكن زاتكو كرر بالحاح:

- قل له ذلك. ولماذا انت ساكت؟

- ولماذا أقوم فأقول له كذبة مفتعلة؟

ورد عليه زاتكو بان أشار الى كردي - حارس تتعلق على عنقه بندقية كلاشينكوف جديدة مع اخمصها البني الناعم وحزامها العريض المنسوج.

- من اين حصلتم عليها؟ - سأله ماك غريغور.

- سرقناها من العراقيين - اجاب زاتكو.

- من هو الذي سرقها.

- انا سرقتها - اجاب زاتكو وقال - وسواء قلت أم لم تقل فان الفرنسي عرف البندقية

الاوتوماتيكية، وما عليك الا ان تشوش عليه النظر، وتدعه يفكر بان عندنا الافاً من هذا السلاح - وهنا انتقل زاتكو الى الهمس في كلامه وقال:- دعنا نخرج قليلاً فان عندي لك قضية مهمة.

وتردد ماك غريغور مدركاً ان شرام لايرفض ان ينفرد مع القاضي وعلي العراقي ثم خرج مع زاتكو من الكهف نحو وقء الشمس. وقال له زاتكو:

- ها هو القاضي يفكر حول الوحدة، ويتخفى من أجل ان يمنع ايلخان عن قتل الأخوة الأكراد. ولكنك هل تعلم عما قام به ايلخان هذا العجوز القديم خلال الاسبوع الماضي؟ انه أعطى اخباراً عنا للشرطة الايرانية ومن ثم قتل واحداً من حراسي بمقر حراسته.

- أخبرني القاضي عن ذلك - قال ماك غريغور.

- لقد انتقلت يوم أمس الى الجانب الايراني - واصل زاتكو الكلام وقال - انه يتجسس وراءنا ويتصيدنا وبموافقة الشرطة الايرانية.

- وما هو السبب؟ وماذا حدا به للقيام فجأة بكل هذا؟

- هناك من الخارج من يحرض ايلخان على ذلك - قال زاتكو واضاف - قبل اسبوع مضى كان ايلخان بقرية جوري، وهز من فوق السطح باذنيه اللتين مثل اذني حمار ولوح بمسدس الماني وصرخ بالفلاحين انه سيطلق النار ويقتل جميع رجالي وكل من يتجرأ على أخفائهم. وانه سيقتلني مع القاضي اذا لم أقم بقتله أولاً.

- وماذا يقول القاضي.

- يقول ان هذه هي استفزازات الاجانب.

- لربما هو على حق - تكلم ماك غريغور بعدما جلس الى جانب زاتكو على دكة بنيت من الحجر بمكان جاف. ومن هنا كانت القرية كلها تلوح لعين الناظر، ثم قال - اذا بدأتم القتال ما بينكم الآن فان الفوائد من وراء ذلك ستكون لصالح الاجانب فقط.

استدار زاتكو بظهره نحو الشمس وقال:

- لكنني لا أعرف. وفي بعض الاحيان يبدو لي ان رأي طه صحيح عندما يريد ابادة جميع الاقطاعيين.

- رأي طه ليس صحيحاً - تكلم ماك غريغور بصلابة.

وأشار زاتكو بيده الى اردبيل وهي مدينة صغيرة لاترى الا قليلاً في الأسفل، وقال:

- هناك كانوا يعيشون في الماضي وفق النمط القبلي الكردي. منهم في الصيف يرحلون من هناك الى سولاف هرباً من الغبار والحر. واردبيل مدينة عريقة وبها عدد كثير من البيوت الكردية رالقديمة وقلعتان عسكريتان متهدمتان. ومن حول المدينة سور عال به بوابات على طراز البناء الاسلامي. انها كانت حصنا كردياً قديماً. واما في الوقت الراهن فهي مدينة حرفيين وذات طرق معبدة، واسواق، ومقاه ومسجد (جامع) كبير. ان هذه هي التبدلات الملحوظة التي تحصل كل يوم في الحياة الكردية .

- انا أعرف ذلك.

- ان الأكراد ينقطعون عن جبالهم، ويعيشون الآن عيش الفقراء على جوانب الطرق وفي كراجات السيارات، ويمارسون عمليات البيع والشراء، وينفذون أعمالاً شاقة في حقول البترول، ويقودون حافلات نقل الركاب وسيارات الشحن، ويطلقون دورهم الصغيرة بالاصباغ... والى كم من العمر سيعيشون هكذا في فقر أسود كالزفت؟

- أعرف، أعرف ذلك - كرر ماك غريغور الكلام وقال - ولكن هذه التبدلات حتمية لابد ان تحصل، ثم أن لديكم في الوقت الراهن اهتمامات أخرى،

- ولكن هذه التبدلات لماذا هي حتمية؟ - سأل زاتكو بامتعاض واضاف - ولماذا يجب ان لايكون هناك فرق بين الشتاء والصيف كما هو عليه الحال في اردبيل حالياً؟ وهل انت تشعر كيف أننا نتبدل؟ اذهب انت الى الفرنسي وناقشه حول هذه القضية التي غالباً ما لايعرف حتى الأكراد ما يجرى لهم. ان رأي طه مصيب. اننا نصبح سكان مدن، وهذا يعني اننا يجب علينا خوض الصراع باسلوب مدني.

- أنا مستوعب لهذا كله...

- ولكن كيف سيفهم اي اجنبي آخر ومتى، ما هو جوهر الخلاف؟ وكيف سيفهم هذا الفرنسي ما نريد نحن، وباي مستقبل نحلم؟ عندما سافر طه الى باريس قلت له يا طه: «منذ الازل لم يخرق امل واحد الشرائع الكردية ويجب عليك ان لاتلطخها باي شيء». اما طه فقد رد مجيباً «من المضحك ان اسمع كلامك». ولكنني للعلم اردت القول فقط ان الأكراد اذا أخذت منهم الشرف فسوف لايبقى عندنا اي شيء. واردت القول انه لاينبغي لنا الآن وفي المستقبل ان نكون عملاء. وان يتذكر هو ذلك في باريس. ولكن اي فرنسي مهما كان لن يعرف ذلك. وكذلك من اين له ان يفهم ذلك؟ ان مفهوم الشرف غريب على الاوربيين.

- هذه حقيقة - قال ماك غريغور.

- أنا أعرف جميع المآسي الحزينة في الحياة الجبلية - لوح زاتكو بيده طاوياً الأفق بها وقال - الا اننا سنخسر كل شيء اذا لم ندافع عن جبالنا وقرانا. وهذه هي رغبتي في قتل ايلخان هذا الحمار المخصي العجوز. فهو يدمر قضيتنا كلها.

وعاد الاثنان الى مدخل الكهف، وتوقف ماك غريغور دقيقة هناك متكئاً الى صخرة ناتئة خشنة بسفح الجبل ومتطلعاً الى صخور السفوح الجبلية التي قد تغطت الآن بصفرة الخلن الطحالب الجبلية، ومن اسفل القرية تصاعدت روائح الفحم الطري ووصلت اصوات صفعات طرية. وهي ناجمة عن غسيل النساء للملابس في بركة ضحلة بمكان ما. وكان تصل الى الاسماع ضحكاتهن الرنان الذي يستدعي بذاكرة ماك غريغور الضحك من النكات الفاجرة وعن الوجوه المكشوفة، وعن مشاعر المساواة الضارية مع الرجال.

وفجأة ارهف زاتكو سمعه وضغط على مرفق ماك غريغور. فقد انفجرت اربع رصاصات واحدة بعد أخرى.

- هيا انظر. فهكذا يحدث بكل مكان حيثما نكون هناك.

- ولكن ما هذا ؟

- هذا احمد يعطي اشارة ان جنوداً عراقيين يسيرون فوق الطريق الاسفلتي الأسود. انهم من اردبيل احتمالاً.

- انا أعتقد أن السلطة العراقية لاتتحرش بكم.

- ماذا ينبغي ان أقول - دمدم زاتكو واضاف - انت ناد على القاضي من الكهف وعلى الفرنسي، اذ يجب علينا اتخاذ اجراء ما...

دخل ماك غريغور الى الكهف وعاد مع القاضي. ووجه زاتكو امراً الى غالا ان ينقل القاضي وعلي العراقي الى طريق في الأعلى فوق الجبل. ومن ثم بعدما أجلس الفرنسي بسيارته الجيب الزرقاء على المقعد الخلفي انحدر من وراء القرية وأمر الحارس هناك ان يطلق رصاصات تحذيرية: ان ينذر بها جميع الآخرين المترصدين على المنحدرات. وجلس ماك غريغور الى جانب زاتكو وهو يمسك فوق ركبتيه بندقيتين.

- ماذا قد دبر؟ - صاح به شرام.

- انت تمسك بثبات - رد عليه ماك غريغور صارخاً وقال - اصمت!

وبعدما اندفع زاتكو وناور بمحاذاة الشقوق والنتوءات الصخرية أوقف سيارة الجيب عند

حافة ناتئة وأطلق أمراً قصيراً جهورياً الى جهة ما وراء المنحدر، ومن ثم أطلق رصاصاً تحذيرياً للأكراد المتموضعين واندفع بالسيارة التي تزمجر بصعوبة الى الخلف نحو سفح جبلي شديد الانحدار. ومن هناك انكشف في الأسفل الطريق الاسفلتي وفوقه اربع سيارات ناقلة وسيارة مدرعة. واعطى زاتكو اشارة أخرى باطلاقه رصاصة ايقظت الصدى في الجبال.

- اوضحوا لي ما الذي يحدث - قال شرام الى ماك غريغور.

وأشار له ماك غريغور صامتاً الى الطريق: فهناك على بعد عدة خطوات من مقدمة المدرعة العراقية تصاعد دخان انفجارين من لغمين. ولاحظ شرام قائلاً ومبتسماً.

- كان يلزمنا نظام اتصالات أكثر تعقيداً لأجل التنظيم الفوري لأطلاق نيران مدافع الهاون.

- بدلاً من نظام الاتصالات المعقد يوجد هنا في الجبال تفاهم متبادل بسيط - اجابة ماك غريغور.

لم يحاول الرتل الالي الاختفاء من النيران. وكان واضحاً ان الضابط يتفحص السفوح بالمنظار المقرب من فوق المدرعة.

- يا محمود!... - نادى زاتكو... آمراً بصوت جمهوري، بحيث ان الصدى طوى الوادي كله.

وانفجرت قنبلة هاون أخرى، ولكنها في هذه المرة كانت من خلف الرتل وصار مسموعاً كيف ان الجنود العراقيين يصرخون بغضب متشاجرين. الا انهم قد توقفوا كلهم بمكانهم. وفي هذه اللحظة أطلقت المدرعة صلية رشاش، ولكن ليس باتجاه مدافع الهاون بل نحو زاتكو الذي وقف امام نظر العدو. واصطدم الرصاص الثقيل بالسفح الصخري مفتتاً الصخور ناثراً اياها على الأرض من حولها.

- لماذا هو يعرض نفسه لنيران الرشاش؟ - أبدى شرام اندهاشه.

- كفاك ذلك. أنتظر قليلاً - تكلم ماك غريغور بتوتر وقال - فبعد دقيقة سيتضح كل شيء من نفسه.

وقف الضابط العراقي وزاتكو واحداً مقابل الآخر بشكل مكشوف وصارا يتشاتمان بغضب باللغة العربية التي يفهم بعض الشيء منها ماك غريغور. وصاح عليه زاتكو ضاغطاً على حنجرته:

- ما هي حاجتكم هنا؟

- نحن ذاهبون الى الجبل - صاح الضابط العراقي.

- هيا انكصوا على أعقابكم - صاح زاتكو وقال - لماذا تضايقوننا. ولماذا تمارسون الخباثة معنا.

- ولماذا تقصفون بنيران مدافع الهاون؟

- استدر الى الخلف، وابق هناك في ارضك بهدوء مدة يوم او اثنين.

- صاح عليه زاتكو وقال لايجوز لك المجيء الى هنا.

- سوف لا اتراجع تحت نيران الهاون.

- هل انت خائف يا حبيبي؟ - ضحك زاتكو مقهقهاً وقال - لن تصيبك قنابل الهاون.

- انت عضو اعوج - رد عليه الضابط بشتيمة.

صفق زاتكو نفسه على فخذه بكفه راضياً وصاح:

- تعال الى هنا بعد يوم غد فأننا سنغادر المكان ايضاً. وهذا وعد مني لك.

التفت الضابط الى داخل المدرعة متباطئاً، وأصدر أمره الى طاقم المدرعة. وظل ماك غريغور منتظراً بتوتر صلية أخرى من الرشاش. الا ان زاتكو صاح:

- لاترتكب حماقة. فان عندي. وراء الطريق من خلفك خمسين مقاتلاً لي.

- ليس لديك هناك اي احد - رد عليه الضابط وقال - وانت لاترتعب وكل ما في الأمر فاني سألت السائق اين يمكنه الاستدارة هنا.

- حسناً، ولهذا فاني أحبك لأجل هذا!.

- ولكنني سأعود يوم الجمعة. وسأجلب معي عدداً أكثر من الجنود والمعدات - واصل الضابط الكلام وقال - وبناء على ذلك فاسحب رجليك من هنا يا زاتكو.

- اما انت فلا تخف. واني سوف لا انتزع منك معداتك. فهل سأعطيها الى الشيطان؟

بدأ الرتل يحاول الاستدارة، الا ان المشاجرة تواصلت، وتزايدت حدة، وقهقهه زاتكو وصفق نفسه على حوضه مثمناً تثميناً مناسباً حذاقته وحذاقة خصمة اللفظية.

جلس ماك غريغور فوق صخرة وتنفس الصعداء. ثم قال لزاتكو.

- اذن لقد نجحت الآن.

- وماذا في ذلك؟

- للعلم انه كان يكفيه ان يتراجع قليلاً الى الوراء، ليستطيع بكل بساطة ان يغربلك بالرصاص.

- باي مناسبة يريد ذلك؟ واننا ليس لدينا شجار مع العراقيين.

وقف شرام ينظر الى الرتل يتراجع الى اسفل مع هدير المحركات فوق الطريق الاسفلتي وقال:

- لماذا هم استداروا هكذا وذهبوا؟ وماذا هو قال لهم؟

- انه أشار لهم ان التفوق هو الى جانبنا - اوضح له ماك غريغور.

- انها تمثيلية اوبريت لا أكثر - قال الفرنسي باسماً.

تسلق الأكراد. الآن الى فوق بعدما كانوا منتشرين على المنحدرات وسحبوا معهم الآن مدافع الهاون ورشاشات ذات القائمتين وصناديق الحديد الخاصة بالعتاد، وهم يتضاحكون كالاطفال كما لوأنهم ينقلون لوازم السيرك. وسأله شرام:

- هل انت جاد في حسابك ان تصنع من هؤلاء جيش تحرير كردي؟

سكت ماك غريغور، مدركاً ان الجدال سوف لايؤدي الا الى ما هو اسوأ وقد تجسدت للنظر حقيقة غير ملحوظة بشكل كبير. ولكن من ذا الذي يناقش شرام وكيف يناقشه عن الأكراد، كيف يتنفسون وكيف يعيشيون؟

وعادوا الى السيارة الجيب، وهنا ربت شرام على كتف زاتكو، كما يربتون من قبيل التشجيع على كتف صديق ثمل وقال:

- لأجل النفس الكريمة اتمنى لو أقضي عندك نصف سنة هنا أيها الصديق.

- ماذا عنده؟ - سأل زاتكو متوجهاً نحو ماك غريغور.

- يقول انه سيكون سعيداً لو امضى هنا معكم نصف سنة.

- على الرحب والسعة - تكلم زاتكو. ثم جلسوا في السيارة وعادوا الى القرية وانتظروا حلول الظلام عندما سيعود القاضي وعلي العراقي من مكان أختبائهما في الجبل.

لم يعد ماك غريغور يخفي عن القاضيما تركه الصدام من انطباع على الفرنسي.

- القضية واضحة. انه عسكري - قال القاضي - وهو ينظر الى الاشياء نظرة عسكرية.

دار هذا الحديث بغرفة صغيرة للقاضي. وفيها سريران منتصبان قرب الجدران. وفي الوسط شوكة مدلاة من السقف تحمل مصباح لوكس يبعث ضياءً ابيض. وجلس على السريرين كل من

القاضي وعلي واحداً قبالة الآخر وكأن توزيع النور الساطع قد ضغطها على الجدران.

- مع الأسف - تكلم القاضي بحزن في ختام الكلام.

- هل هذا على هذه الدرجة من الأهمية؟ - سأل علي العراقي ماك غريغور

- لربما انه مهم - قال ماك غريغور.

ان الغرفة الفقيرة الكئيبة والاكواخ والقرى ونباح الكلاب السائبة في أماكن متفرقة على الجبال، والاوحال في كل مكان من امطار الجبال والظلام الكثيف والنباتات الاستوائية السوداء التي غطت سفوح المنحدرات الجبارة، إن هذا كله القى بثقله على روح ماك غريغور.

- لاتكتئب - تكلم القاضي وقال - لقد قمت انت بكل ما استطعت. وليكن ما يكون منها انا قد كتبت رسالة الى فرنسي آخر منهم في باريس هو كيومون. لربما ان كيومون سيفهم ما لم يفهمه هذا العسكري.

- لعل هذا هو كل ما نستطيع ان نعقد عليه الامل ايضاً، وأعنى بذلك الفرنسيين - اضاف ماك غريغور يقول.

- ماذا تظن، هل تستحق منا على العموم مواصلة المحادثات معهم؟ - سأل القاضي

- انا شخصياً اوجه هذا السؤال لنفسي - اجابه ماك غريغور واضاف - ولكن ليس لدينا خيار، فضلاً عن الوقت راح ينفد. والفرنسيون في جميع الاحوال يريدون الفراغ، من هذه الاسلحة حتى نهاية هذا الشهر، ولايهمهم بيد من ستقع هذه الاسلحة شرط ان تخرج بعيداً عن فرنسا.

- بعبارة أخرى، انها ستقع بين ايلخان اذا لم نستطع اقناع الفرنسيين؟...

- مفهوم طبعاً.

- حسناً - قال القاضي واضاف - سنؤيد الفرنسيين طالما نستطيع ذلك. - ومد القاضي يده مناولاً الرسالتين الى ماك غريغور. واحدة منهما صدقت التخويل الحالي الذي أعطته له اللجنة. اما الثانية فانها ترحب بآفاق الاتفاق التجاري مع الفرنسيين وبالعلاقات الطيبة معهم لسنوات طويلة. استغل انت هذه الاوراق قدر ما تستطيع.

- المأساة انني دبلوماسي سيء كالسابق - تكلم ماك غريغور وهو يتسلم الرسالتين وقال - انا شفيع غير جدير بالاكراد، وذلك لأنني ببساطة لا أمتلك قدرة مسة جنونكم وقال:

- مهما ستقول فأنهم سيصدقون باقوالك. وعندي ثقة بذلك.

ساد الصمت الجميع. ونهض ماك غريغور بعدما فهم ان وقت الذهاب قد حان. الا ان علي العراقي قد استوقفه من يده وقال:

- الأمر الرئيس، هو ان لاتقع هذه الاسلحة والعتاد بيد ايلخان، وحتى لو حصل ايلخان على قسم منها فاننا سنكون قد تراجعنا الى الخلف سنين وسنين.

- انا أفهم ذلك - قال ماك غريغور...

- لاتقم باي عمل تهوري، ولاتعرض نفسك وأسرتك للخطر - قال القاضي واضاف - ارجو منك ذلك.

فتح زاتكو من الخارج ستارة الكتان وتوقف عند الباب وقال:

- الفرنسي يتهيأ للمغادرة سراً. وهو قد اشترى بغالاً.

- هل ترغب انت في ان نحتجزه؟ - التفت القاضي بالسؤال الى ماك غريغور.

- لا، ابداً - قال ماك غريغور واضاف - في جميع الاحوال انا استطيع ان أكون أكثر تأثيراً عليه. ولهذا لا مبرر لاحتجازه.

- واذا كنا سنتركه يذهب مع غالا - اعترض زاتكو غير راغب بتاتاً كما يبدو في افلات الفرنسي من اليد وقال - فأنت كيف ستذهب من هنا؟

- لا أعرف - اجابه ماك غريغور واضاف - ولكن من الأفضل بالنسبة لي ان لا أعود بصحبة شرام. وانا بالذات عقدت الأمل عليك في ان تنقلني الى ايران، الى مدينة كارباس الحدودية الصغيرة. ومن هناك سأنتقل بسيارة باص الى طهران.

- حسناً - قال زاتكو - اذن حالما سيسافر سنتحرك انا وانت تتوادع ماك غريغور مع علي العراقي ومن ثم فان القاضي قد احتضنه بحنان وقال

- اذا ما سمعت ان هجوماً قد وقع علينا، وانهم قتلونا او ان ايلخان قد توصل الى اتفاق مع الاجانب، فعليك بجميع الاحوال مواصلة عمل ذلك الذي تراه ضرورياً. وعليك ان تواصل بقوة العمل والكلام باسمنا حتى تنتهي هذه القضية.

- مفهوم - قال ماك غريغور.

وعند مغادرته لاحظ ان القاضي يتناول من تحت السرير صحنا بلاستيكياً لأجل ان يغسل الجرح في عنقه. وهناك تحت السرير توجد عنده كتب وحقيبة من الفايبر وراية صفراء قديمة للثورة منذ عام ١٩٤٦.



القسم الرابع

الفصل الثامن والعشرون

قادت سيسي سيارتها الستروين بينما كان ماك غريغور يراقب بنظره الجو الانكليزي الرطب الشامل الذي ينزلق ويجري على الجانبين نحو افق انكليزي غامض. وكان مرفقا سيسي مع ركبتيها تعمل جميعاً بحيث اشاعا الثقة بماك غريغور، رغم ان مِقود (ستيرن) السيارات الفرنسية موضوع في جهة الشمال الأمر الذي يشكل ازعاجاً لحركة السير من جهة اليسار وقد تمتع ماك غريغور بجو الربيع الانكليزي الهادئ الذي كشف عن نفسه على جانبي الطريق، وتزينت الحدائق الصغيرة بضواحي لندن بزهور الكاميلياوغيرها، ووصلا الى روتشيستر وفيها ازهر التفاح. ومن ثم لاحت لعيونه العقبان التي بللها المطر والغربان المحلقة على مستوى واطئ.

- انا نسيت شراء صفيحة بنزين أخرى - قالت سيسي واضافت - فان الى محطة لوقود البنزين لاتعمل في فرنسا. ويجب ان لاتنسى ذلك في الدوفر.

لقد شمل فرنسا كلها الطلبة. وتوقف بها كل شيء. فلا يجرى بيع في البلاد ولا شراء، ولايتسلمون ولاينتجون. وحتى الطائرة النفاثة التي حلق على متنها ماك غريغور الى باريس اضطرت الى الهبوط في لندن، وتبين ان سيسي هناك في البيت في بيتيرس وليس كيتي. وشرحت كيتي عبر التليفون من باريس لماك غريغور، انها رجعت الى هناك للاشراف على الاولاد، ومن ثم ارسلت سيسي الى لندن وذلك لأن الصدامات كانت عاصفة في الشوارع مع البوليس، وانها ظلت بالذات في باريس مع اندريه والعمة جوس. ولما أخبرها ماك غريغور انه يصطحب معه سيسي الى باريس فان كيتي فضلاً عن أكبر توقعاته، لم تبد معارضة وقالت فقط:

- حسناً، اصطحبها معك. فهي بهذه الصورة أو تلك لن تجلس خانعة وانها ستعود في جميع الأحوال.

وأكدت لها سيسي التي تستمع للمكالمة من سماعة التليفون الأخرى:

- انت رأيك صحيح تماماً. فانا غير مستعدة للبقاء ولو يوماً آخر أكثر من ذلك في لندن. وانني أقسم لك على ذلك.

- ليتك لا تتحدثي لأمك هكذا - قال والدها ماك غريغور واضاف فانا سأصطحبك، وان المسألة حسمت، ولا حاجة لاثارتها.

- انها تنفعل الآن من كل شيء - قالت سيسي.

كانت فارغة، الباخرة التي نقلتهما مع السيارة عبر المانش. فان اي احد لم يجازف بالذهاب الى فرنسا. وأشارت سيسي لوالدها الى عنوان بجريدة «يفنينغ ستاندارد»: «احتمال استقالة ديغول ايضاً قبل الاستفتاء العام».

- قبل اي استفتاء عام؟ - سألها ماك غريغور.

- هناك ممن مع الدستور او ضده. والمعارك متواصلة الآن في الشوارع كل يوم.

خلت الطرق في فرنسا لدرجة ان سيسي قادت سيارتها القديمة الستروين في وسط خطوط طريق السير بسرعة سبعين ميلاً في الساعة ولم تخففها حتى وهي تجتاز القرى التي لفها السكون. وكانت باريس كلها مغمورة بحطام المتاريس والاكشاك محترقة والنفايات المتروكة والاشجار الساقطة وبأكداس كاملة من الصحف الملوثة ومخلفات الكارتون.

وفتحت البوابة لهما. كيتي وسألتهما مذعورة:

- اين تأخرتم؟ فانا انتظركم منذ عدة ساعات.

- الباخرة تأخرت. ومن ثم فاننا قد ضللنا الطريق في غابة بولؤي - تكلم ماك غريغور وهو يفتح المزلاج الثاني للبوابة ليسمح لسيسي بالدخول مع السيتروين.

- ولماذا قمتم بالانعطاف عبر بولوني؟

- ما اردنا المجازفة بالحركة عبر المركز - قال ماك غريغور.

قبلته كيتي بوجنته قبلة قصيرة. وأغلق هو البوابة، وفي اثناء صعوده عبر السلم الخارجي سأل كيتي:

- أخبرني، كيف حالك هنا؟

- كل شيء جيد.

- انا اسأل عن صحتك...

- انا معافى صحياً تماماً اجابته كيتي. انا هو فقد سكت بارتباك.

بعدما اغتسلوا و جلسوا للعشاء الذي حافظته كيتي ساخناً سألها ماك غريغور عن اندريه، اين هو.

- بعثته انا يرافق جيزي مارغوز وسيبقى عندها، فهي هناك لوحدها مع الخادمة. ففي الليلة الماضية حطموا نوافذ الواجهة عندها في البيت كلها. فان زوجها في روما حالياً يراقب الاحداث.

تناولوا هم العشاء بلا محادثة. ومن ثم ذهبت سيسي للنوم. اما هما فقد جلسا صامتين واحداً قبالة الآخر من حول منضدة خشب البلوط، وكأنما هما يدركان ان الوقت الآن والمكان ليس مناسباً لاستيضاح العلاقة بعد فراق عشرة ايام. وسألته كيتي:

- لماذا لم تتصل بي من طهران في التليفون؟

- لقد اردت ان لايعرفوا عن وجودي في ايران الا القليل فقد كان من الضروري ان يكون وصولي الى هناك ومغادرتي غير ملحوظ قدر الامكان.

- هل التقيت مع جميل جناب في شركة النفط الوطنية الايرانية؟

- كلا فانا لم اذهب اليه.

- وهل كنت قد ذهبت الى بيتنا ؟

- هز ماك غريغور رأسه صامتاً.

- وهل ان الفرس قد علموا انك كنت في جبال كردستان؟

- لا أظن ذلك. فانا قد استخدمت سيارات الباص في الوصول الى هناك.

وشعر هو انها تريد ان تعلم باي شيء قد عاد من الاكراد. وانتظر ذلك بتوتر. ومن بعد ذلك فان التحكم داخل كيتي قد انفجر بالفزع، فقالت:

- انهم حتى الآن يعقدون الأمل عليك. اليس هذا صحيحاً؟ بل وحتى أكثر مما كان قبلا. واوقعوك في الأحابيل من جديد. اليس كذلك؟

- ان كل هذا لن يستمر طويلاً - قال هو.

لقد جلست كيتي منصبة القوام ومالت بذقنها الى الامام قليلاً، وهي بتلك الهيئة قد ظهرت سلطتها الغريزية وقوة روحها وقالت:

- وهكذا فانت تنوي ان تواصل في المستقبل خطتك بعناد وبدون الالتفات الى اي شيء.

- طبعاً.

أحس برغبة ان يسألها باي شيء شغلت نفسها خلال هذه الأيام العشرة. الا انه احجم عن الكلام معترفاً بأنه كان مستعداً لاستقبال الجميع وكل ما في الكون تقريباً وحتى موزيل شرط ان تحافظ كيتي على الهدوء والتفكير السليم الى ان ينفذ القضية التي عهدوا بها اليه.

- انا ذاهبة للنوم - قالت كيتي.

- سأنتظر اندريه - قال ماك غريغور - ثم بقي في الصالة. وكان هو بأقصى درجات الاجهاد، بحيث انه قد غفا جالساً فوق كرسي جلدي عتيق.

وبعد نصف ساعة ايقظه اندريه بلمسة خفيفة على ذراعه وقال:

- لو كنت استلقيت على السرير.

- لقد انتظرت: اردت ان اسمع عما يجرى هنا - تكلم ماك غريغور وهو ينهض.

- في هذه اللحظة يحدث، كما يبدو، شيئان بوقت واحد. وهما متناقضان - تكلم اندريه وقال - فما يتعلق بالطلاب فان الذي يحدث هو ثورة ترفيه، اما ما يتعلق بالاتحادات النقابية فهو اضراب عام.

- ولكن اليس هذان هما الجزءان المكونان لذلك الأمر الوحيد؟

- على العموم يبدو كما لو انهما الجزءان المكونان، وان الجميع يناقشون ذلك على هذا الاساس. الا انه يحسب جوهر القضية فانهما منفصلان عن بعضهما.

- وماذا سيعقب ذلك فيما بعد؟ - سأله ماك غريغور بعدما اطفأ النور.

- ليس لدي فكرة عن ذلك. وكذلك فلا أحد يعرف ايضاً... وبالمناسبة فها ان والدتي قد اخبرتك؟. اننا قرأنا بجريدة موند انهم أطلقوا النار ثانية على القاضي، وبنفس الوقت الذي كنت فيه هناك في الجبال.

- كلا. لم تقل لي امك شيئاً.

- انها قد ضاقت بها الدنيا ذرعاً من الخوف.

وقف الاثناء فوق ساحة السلم يتحدثات بصوت خفيف. وعندما تذكر ماك غريغور ان اندريه قد عاد لتوه الآن من جيزي مارغوز سأل ولده، كيف حالها هناك.

- انها جلست طوال المساء في المطبخ - رد عليه اندريه وقال - انها صرفت الخادمة، وانا واياها جلسنا حتى نتحدث عن ايران والاكراد وعنك، ومن بين كل سكان فرنسا، فأننا كان

عندنا، كما يبدو، ولوحدنا، كلام لايدور عن الموقف في البلاد. وقد ظننت انها لاتريد النوم بسبب النوافذ المحطمة. وشرعت أؤكد لها لأقنعها ان لاتخشى شيئاً وان نستلقي للنوم. ولكنها قالت رداً على ذلك، انها غير مكترثة باي شيء وليتحطم البيت كله. وفي هذه اللحظة تلفنت امي وسألت أليست هي تشعر بالفزع لو بقيت وحدها لكن جيزي أخبرتها كلا! ونهضت ورافقتني الى تحت وبعثتني الى البيت.

- هل كانت تضع على وجهها طلاء الزينة؟

- كلا، كما أظن، كلا. ولماذا هذا السؤال؟

- لاشيء - قال ماك غريغور ثم ذهب الى غرفة النوم.

الفصل التاسع والعشرون

منظر باريس في الصباح يثير الدهشة. فأنها تذكر الآن بمدينة محاصرة في مرحلة حرب. فالمخازن مقفلة، وحافلات نقل الركاب لاتتحرك في الشوارع، والمترو لايعمل. وكذلك فان عند مداخل محطات المترو ومكاتب البريد والبوابات ومداخل العمارات، بل وحتى على سلالم المخازن غير المكنوسة «مئة الف قميص تقف حارسة». الاعلام الحمراء مرفوعة على الشرفات وفوق البيوت وعلى الاشجار، ومعلقه على قضبان فوق حافلات نقل الركاب المقلوبة مثل زنابق السوسن المكسورة.

وعبر طرق محاذية للنهر خالية، وشوارع مشجرة وصل ماك غريغور الى وزارة الداخلية. وهو مقدماً، كان قد تلفن الى هنا، ورغم انه لم يتصل تليفونياً مع كيومون الا انه كان قد استدعى الحضور. واستطاع ماك غريغور المرور عبر باب الدخول الى الفناء، حيث هناك افراد الحراسة باسلحتهم الاوتوماتيكية، ومن ثم الولوج في البناية بعرضه مجرد جواز سفره. ومن هناك اصطحبوه نحو الأعلى الى مكتب كيومون. بل الى غرفة المكتب العفنة، حيث يجلس المتشفعون منتظرين في جميع الوزارات الفرنسية.

- تفضل بالجلوس - قال الفرنسي الجالس وراء منضدة المكتب الى ماك غريغور، ونظر اليه، ثم مرة أخرى بتركيز الاوراق وقال - مسيو كيومون غير موجود. وهو غائب. ولربما استطيع انا مساعدتك. واسمي فوري.

- ان قضيتي يرعاها مسيو كيومون - تكلم ماك غريغور وقال - هل سيعود قريباً.

- يصعب بالنسبة لي ان اقول لك. الا ان عندي هنا جميع المعلومات - اشار الفرنسي باصبعه الى محفظة اوراق وقال - وكذلك فانا منشغل بقضيتك معه.

القى ماك غريغور نظرة على المحفظة وقال:

- انا لا أعتقد ان بامكاني مناقشة المسألة مع اي شخص عدا مسيو كيومون

- أؤكد لك - قال الفرنسي - انني مخول تخويلاً باتاً في ترتيب قضيتك ذات الصلة بكردستان. وهذه القضية هنا - وصفق فوري المحفظة بيده. وظن ماك غريغور ان قيام السيد فوري بقرقعة اصابعه يؤكد انه مخول بلاجدال تخويلاً تاماً.

- هذه القضية معقدة جداً. واستطيع مناقشتها مع مسيو كيومون بالذات فقط.

- قال ماك غريغور وادرك بنفس اللحظة هذه المصيدة في مستشارية الوزارة.

وفهم متنكراً كيف انه قبل ثلاث وعشرين سنة مضت قد الح عليه بموسكو اللورد ايسيكس:

«اذا اراد أي أحمق من الوزارة، مهما كان، ان يستصغر شأنك، ويوجهك الى مرؤوس عنده، فعليك ان لاتناقش القضية، اي انه يجب ان تمتنع عن ذلك فوراً».

- ان هذا غير ممكن التنفيذ الآن - قال فوري.

نهض ماك غريغور وقال:

- في هذه الحالة لا مجال بعد للكلام عن اي شيء.

أغلق فوري الملف لأجل ان يستوقف ماك غريغور وقال:

- انا خولت من قبل...

الا أن ماك غريغور قاطعه:

- كلا. اعتذر يا مسيو فوري.

- انتظر دقيقة - بعد ذلك نهض من وراء مكتبه مسرعاً نحو ماك غريغور وقال

- للاسف ان مسيو كيومون غير موجود. وانا كنت مستعداً لأبلغك خصوصاً، ان من المحتمل ان لايستطيع اللقاء معك بجميع الاحوال.

- اجابه ماك غريغور رافعاً صوته وقال - هذا هو كل ما عندي من كلام.

- ولكن انتظر لحظة - تكلم فوري بلا تراجع وقال - انت تفهم يا مسيو ماك غريغور ان فرنسا في الوقت الراهن، يضع الجميع فيها قبعاتهم مائلة على رؤوسهم.

- افهم ذلك.

- اننا كلنا الآن ترهقنا مشاكل صعبة. وبعد بضعة ايام عندما يهدأ كل هذا ستأتي لحل قضيتك...

- من المحتمل ان يكون الاوان قد فات عند ذاك - قاطعه ماك غريغور وقال - فان مسيو كيومون بالذات قد حدد الوقت النهائي وهو نهاية الشهر.

- نعم. انا أعرف ذلك - تلعثم فوري وقال - سأنظر غداً بما سأستطيع عمله. الا انني لا اعدك باي شيء.

شكره ماك غريغور وصافحه معه وخرج بسرعة شاعراً انه بعد دقيقة أخرى سيتمزق من عبارات الاسى الودية لفوري. اما هو فسيكون من الخطأ بالنسبة له انه يكشف عن أسراره.

ولكن عندما صار في الطريق فان الاسى قد سيطر عليه تماماً. فقد كان من الواضح ان فرنسا ليست في حال تسمح لها الآن ان تعالج القضية الكردية. فان البلاد الفرنسية مشغولة الى ابعد الحدود بمشاكلها الخاصة. وان هذا لظاهر من الشعارات بكل مكان. الكساد والجمود والوضوح، هذه هي الكلمات التي تتردد من معجم الحرية. وبعدما أجتاز سولفيرينا رأى طالباً مع حقيبة من قماش الأشرعة مليئة بعلب الطلاء. وكان يكتب على جدار محطة مترو الامتياز الوحيد وعندما نفدت بيده علبة الطلاء استخرج الشاب من الكيس علبة جديدة. وفي هذه الاثناء هجم عليه رجل عجوز فرنسي وبيده محفظة نقود بلاستيكية. وينشغل هذا العجوز برجليه حذاء منزلياً وبنطروناً مهترئاً عند الركبتين. وأخذ هذا العجوز ينتزع من الطالب علبة الالوان ويصرخ بغضب:

«جزويت!» لكن الطالب واصل الكتابة. واراد العجوز مسح الشعار بردن يده الا ان الطلاء قد جف. وصاح العجوز وهو يدفع الطالب.

- هذه فضيحة. انت وحشي حقيقي!.

كان من الواضح ان الطالب يتحاشى ايقاع أذىً بالعجوز، فخطف حقيبته وذهب والقاها بفرح عبر كتفه وقال:

- لاتنزعج ايها العجوز. ان كل هذا انما نفعله من أجلك. انت لاتفهم.

وحاول العجوز طمس حروف الكتابة بواسطة المحفظة، الا ان محاولته لم تثمر ايضاً ومن ثم صاح مسعوراً في اثر الطالب:

- انتم كلكم مأخوذون بالكلمات بيد ان الكلمات فارغة. ولا فائدة من الكلام معكم!...

لم يعرف ماك غريغور الى اي جانب منهما سيكون اي هل يكون الى جانب العجوز ام الى جانب الطالب. الفرنسيون كانوا يتشاجرون في جميع تقاطعات الطرق حول فرنسا. واجتاز ماك غريغور بمحاذاة معهد الهندية المعمارية العالي، وكانت واجهة هذا المبنى الحجرية الجديدة

المشرقة مطلية بيد الطلاب من تحت الآجر الاحمر بشكل فيه سخرية من المدارس البرجوازية. وان الطالب الذي وقف يحرس عند البوابة بقبعة اسطوانية قد اشار ساخراً الى ماك غريغور:

«بيتر أو - تول وهذه العبارة تعني شيئاً ما، ولكن لم يكن واضحاً الى ماك غريغور الى ماذا كانت تعني. فهو ما كان ملماً بمعاني هذه المقاطع المتطايرة التي كان لها معناها في عقول الآخر كلهم. فهو قد عرف فقط ان فرنسا ليس فيها الآن من يستطيع الحديث باسم فرنسا للكرد حتى ولو بضع كلمات ضرورية، وذلك لان فرنسا غير موجودة في هذه اللحظة الحالية.

ولهذا فان غي موزيل كان يجلس فوق الكرسي الجلدي بغرفة الطعام لدى العمة جوس ويقرأ جريدة «موند». وهو قد صافح ماك غريغور وعاد لجلسته. اما كيتي فانها سارعت الى القول ان غي جاء لتناول العشاء. وقال له موزيل:

- ان شرام قد افشل القضية عليك. مع الاسف، مع الأسف.

- هل لهذا السبب ان كيومون لم يرغب بالالتقاء معي - سأله ماك غريغور في اثناء ما تناول كأساً لفتح الشهية من يد كيتي.

- التقيت يوم امس مع كيومون - قال غيرني موزيل - وهو اخبرني بأن لجنتكم على حد بلاغ شرام، قد تشتت، ومن المستحيل عليها ان تنهض من جديد. وبناء على ذلك فان كيومون يرى انه لاجدوى الآن ان يرتبط بتعهدات مع هذه اللجنة.

جلسوا للعشاء المؤلف من لحم بارد وسلطة. ومن ثم قال له ماك غريغور:

- ان شرام غير مؤهل لفهم حقيقة الاوضاع بكردستان. فهو قد ثمن كل شيء بحسب المظاهر الخارجية المجردة.

- اذن، عليك ان تقنع كيومون حول ذلك.

- كيف استطيع اقناع كيومون؟

- مفهوم. - قال موزيل، وواصل الاستفسار عن اللجنة، وهل انها قد انحلت فعلاً، وفقدت نفوذها، كما يفترض شرام. واضاف موزيل - اذا كان هذا ذا فائدة بحسب رأيك، فانا سانظم لك لقاءً جديداً مع كيومون.

التفت ماك غريغور بطرف عينه نحو كيتي، الا انها اشاحت عنه بعينيها وواصلت تحركها كربة بيت، اذ سكبت القهوة ودفعت السكر واستبدلت الصحون بالنسبة له ولموزيل، بحيث

انها عملت بمهارة على وضع مسافة «محايدة» ما بينهما على المائدة. وقامت بكل صمت كما لو انها تترك لهما الفرصة ان يحلا بنفسيهما مسألة علاقاتهما القديمة المتبادلة. وقال ماك غريغور مستأنفاً:

- من الطبيعي ان هذه المساعدة ستكون في مكانها.

- عندئذ سأتفق، ومن ثم سأتصل مع كيتي بالتليفون.

- قال موزيل. الا ان كيتي خرجت تاركة اياهما لوحدهما بينما اضاف موزيل - ولكن ماذا ستفعل لو انك لن تفلح في تسلم تلك العربات؟

- عند ذاك سأنسفها - قال ماك غريغور.

- هذه ستكون حماقة - تكلم موزيل لاوياً وجهه.

- لا اجاول في ذلك. فان الموقف احمق بذاته...

- لو انت قادر على التأثير على هؤلاء الحمقى فقل لهم ان ينتظروا. فالوزارة ماتزال قوية فيها، الجماعة الراغبة باعطاء هذه الاسلحة الى لجنتكم، ولو نجحت في زحزحة كيومون عن النقطة الميتة واقنعته حول ان شرام مخطئ، فعند ذاك سيكون بامكانك التوصل الى تحقيق النجاح.

عادت كيتي مرتدية معطف المطر وقالت موزيل.

- انا تهيأت للذهاب الى «اويون». ولو انكم جذابون جداً، الا ان اندريه ومن هم من امثاله قد رسموا لي صورة لما يجري هناك.

- انا سأوصلك - تكلم موزيل بعدما نهض واقفاً.

- وكذلك سأذهب انا معك - تكلم ماك غريغور وخرج باثرهما بعدما ارتدى معطفه المطري في الصالة واضاف - انا وكيتي باستطاعتنا شخصياً ان نذهب سيراً على الاقدام - انه توجه بهذا الكلام الى موزيل وقال - فان هذا المكان غير بعيد.

خرجوا من البوابة. وجلس موزيل في سيارته الصغيرة قليلة استهلاك الوقود: من طراز «رينو» غير الملفتة كثيراً للنظر وغادر. اما ماك غريغور وكيتي فانهما سارا صامتين عبر شارع باربيدر - جوى تحت مطر خفيف.

- الى اين سنستدير الآن - سألها ماك غريغور.

- لقد حسبت انك تعرف الطريق.

- «اوديون» انه وراء سان جرمان دي بري - تكلم ماك غريغور وهو يدس كفيه في جيوب معطف المطر.

- هل هو بعيد الى هذا الحد؟ وانا ليست عندي رغبة في ان يبللني المطر في الطريق - تكلمت كيتي وتوقفت.

- ولكن من الصعب العثور على تكسي الآن.

- ولهذا فكان ينبغي ان نذهب مع غي موزيل. فما هي حاجتك لأن نذهب سيراً على الاقدام؟

شعر ماك غريغور انه صارت تقترب على الابواب نهاية العلاقة الباردة الآمنة.

- آه منك. هيا بنا نواصل السير - استأنفت كيتي الكلام بانفعال وقالت - انت قررت بصورة واضحة ان توجه لي توبيخاً. وهكذا عليك ان تتصرف.

وسار ماك غريغور جنباً الى جنب مع كيتي التي واصلت الكلام:

- ان موضوع التوبيخ سيكون غي موليه. فهو عندك مثل اكليل الشوك على الجبين ولكنك لاتريد مشاجرة فعلية. اليست هذه حقيقة؟ انت تريد ان تستدعيني للصراحة. ومن اجل ان أقوم انا بذاتي بان احمل لك كل شيء على راحة يدي.

- لا بأس في ذلك - قال ماك غريغور واضاف - الصراحة أفضل من علاقتنا الحالية.

- ان عليك ان تلوم نفسك وحدك. واذا كنت انا قد بقيت عديمة الاكتراث بخصوص قضاياك فذلك ناجم عن تصرفاتك انت. وليس هناك من شيء تلومني عليه.

سارا هما جنباً الى جنب وقد التفا باحكام كل بمعطفه المطري، وكانا يتحاشيان ان يصطدما او يمس احدهما الآخر.

- لقد حذرتك مما اذا كنت ستسافر مرة أخرى الى ايران، فأنني سوف لا أكون مسؤولة عما سينجم عن ذلك من عواقب.

- وكيف يمكن تفسير ذلك؟

- وهل انت بحاجة الى تفسيري؟ وهل انت بحاجة الى استيضاح؟

- أريد ذلك - قال ماك غريغور - هيا تحدثي.

- ولكن هذا سيكون حماقة الآن. والافضل ان لانتطرق له.

- ولماذا اذن، عباراتك هذه، المليئة بالتحدي؟

- انا اريد ان أكسر عنادك بالتقريع والصدمة.

تجاوزا هما مجموعة من الطلاب يظللهم علم الفوضويين الاسود وقسم منهم يمشون فوق الرصيف وآخرون فوق اعشاب الشارع. وتكلم ماك غريغور:

- نعم، ان هذا يعتبر صدمة بالنسبة لي. ولكن لماذا تقومين بذلك، فانا لا افهم ذلك على كل حال.

- لانك تشبه كلب مسسز فازي الاحمق (مسسز فازي هذه كانت جارة لهم بطهران، وان كلبها اذا انشب انيابه بشيء فلا أحد يستطيع أجباره على فتح فكيه مهما يلاقى من ضرب ورفس ،مهما يصب عليه من الماء) - وانا كما هو واضح لن اجبرك هكذا على التخلي عن هذا التهريج الكردي اليائس. ولكنك حتى انت لاتعرف كامل الخيبة في هذا التهريج.

فكر ماك غريغور مع نفسه: «لابد ان غي موليه قد تحدث الى كيتي عن شيء هو أكبر مما حدثني به». ثم قال لها:

- انا لا استطيع التخلي يا كيتي. لحد الآن لايجوز التخلي.

- يا آيغور (اي ماك غريغور) انا احاول ان افتح عينيك على الثمن الذي انت تدفعه من وراء عنادك. كن صاحياً...

- ولكنني كنت فعلاً قد أخبرتك، انني حالما سأنهى هذه القضية فسأبقى دائماً في أوروپا. فلماذا تعتبرين ذلك قليلاً؟ ولاي هدف يتواصل الالحاح على ما يجبرني على الانكماش وترك كل شيء الآن عندما أخذ كل شيء يسير نحو النهاية؟ وكل ما ينبغي لذلك اسبوعان أو ثلاثة أخرى...

- أنت تعرف جيداً جداً ان ما يقف بيننا ليس هذا لوحده.

- أعرف ذلك. ولكنني قد أعلنت عن موافقتي على البقاء في أوروپا. فما هو المطلوب مني أكثر من ذلك؟

- المطلوب منك ان تسعى لأجل ان تفهمني.

- ولكنني أفهمك.

- كلا انت لاتفهمني...

وأجتاز كلاهما بمحاذاة «القردانش حيث انبثت محاور كثيفة من المناضد ينفق فوقها الناس أموالاً طائلة هائلة للتأكيد على أهميتهم بواسطتها. وقالت له كيتي:

- ،اذا كان ينبغي لانقاذك من هذا الخضوع المزرى للأكراد، ان يضاجعني غي موزيل، فأنني سأضاجعه.

- كفى. انك تعبرين كل شيء بسهولة - تكلم ماك غريغور بانزعاج.

- نعم ساقبره. ولكنك ماذا ستتخذ من اجراء غير ذلك؟

- ولكن باي شيء يفكر هو الا انت؟ وماذا تريدين مني يا كيتي؟ ما هو؟

- اريد شيئاً واحداً - ردت هي عليه وقالت - اريد منك ان تكون انت مرة أخرى مثلما كنت في يوم ما من قبل: ان تكون انساناً بسيطاً ومتفرداً وشخصية. وعند ذاك سأكون انا مرة أخرى مثلما كنت انذاك.

- آه، ما أشد عذابي من هذا التفرد. فانا لن اصبح ابداً شخصاً محلياً هنا.

- قال ذلك ملوحاً بذراعيه ومشيراً بهما الى المدينة.

- من المؤسف جداً هذا. - قالت كيتي جافة وتسلقا في هذه الاثناء درجات تحت صفوف اعمدة مسرح «اوديون». واستوقفتهما عند المدخل صبية شعرها مثل «ذيل حصان» مع قطعة حمراء ملفوفة على عضدها وقالت:

- اذا كنتم من جماعة المتثائبين - الأجانب، فانصحكم بعدم التدخل في الجدل. فان سيغان نفسه كان واجهوه بالصغير قبل ايام. انظروا واصمتوا.

وسار ماك غريغور من خلف كيتي داخلين في هذا المسرح القديم الجميل بلونه الأحمر الوثير الذي اعطاه جان لوى الآن الى الطلاب ليكون تحت تصرفهم. وكانت البسط الحمراء في «اوديون» مغطاة بالازيال. وفي البحث عن مكان لوقوفها فأنهما استداراً عبر دهليز دائري من خلف المقصورات وانحشرا بأحدى هذه المقصورات. ومن عمق هذه المقصورة أخذا ينظران الى تحت لمدرج المسرح بانارته الكئيبة.

كان المسرح محاطاً بسد محكم من رجال الحريق عرضه امتدت قطعة قماش على شكل خيط تحمل عبارة: «الاوديون» السابق هو الآن «منبر حر». ومثل هذه المنابر ما كانت موجودة، والمناقشات حول الثورة كانت تدور مباشرة من القاعة في الاسفل ومن جميع صفوف المقاعد. وهناك صرخت أحدى المتجاولات: «احذروا الاستفزازيين!» - وجاوبتها أخرى وسط الصغير: «انهم رشاشات لنا اذا دعا الداعي. انا أعرف. وانا من مصنع الافرشة». ورأى ماك غريغور في الصف الامامي ابنته سيسي. وهي تجلس جنباً الى جنب مع طه. وكانت تصرخ بين آونة وأخرى:

«صحيح!»، «كلا غير صحيح!». وأشار ماك غريغور منبهاً كيتي اليها.

- اراها - قالت كيتي - لقد لاحظتها فوراً.

ولكن اين اندريه الآن؟ وفي خلال بحثه عن ولده أكتشف ماك غريغور مكانه. فكان اندريه جالساً متكئاً بذراعيه على المسرح ويطوي بالذراع الأخرى وبلا تكلف كتفي فتاة كانت تميل بجسمها نحوه بحنان، وتمسد برقة شعر رأسه من الخلف.

- ليتك لاتدخن -قال جار لجاره الملتحي الطالب في الثلاثين من عمره الذي ملأ المقصورة بدخان غليون واضاف - فانت ستسبب حريقاً.

واجاب الملتحى:

- (ممنوع، يمنع).

اضاع ماك غريغور بوقوفه مدة نصف ساعة في الزحام، خيط الجدل الدائر، لأن مع كل تبدل لواحد من الخطباء يتغير مفهوم الثورة. الا ان كيتي كانت تصغي بانتباه... وفي الأخير بدأت تتذمر وقالت انها تعبت من الوقوف، وخرج الاثنان الى الشارع عبر باب الطواريء للخروج. وقالت كيتي:

- ينبغي عليك الآن ولو في هذه المرة ان تعير انتباهك الى سيسي. فان طه سيورطها بالتأكيد.

- كلا يا كيتي لن يحصل هذا.

- لاتعارض. فان طه متحدث غيور. وهو لايتردد في استغلال سيسي. وهو سيسعده استغلال اي واحد. اما سيسي فهي ماتزال غير عديمة الاكتراث نحوه.

- انها تعافت من رعونة السنوات الماضية - قال ماك غريغور بينما كان يتجه تلقائياً نحو شارع مابيون عبر الشارع البولغار باسم سان جرمان. وكانت المدينة كلها تبدو في نظر ماك غريغور. يلفها العداء والخلافات ولهذا فهو ما كان يرغب بالنظر الى الجوانب من حوله.

- انها تعافت بحسب رأيك؟ انت لاتعرفهم. وهل انت تفهم، يا ترى، اي نوع من المشاعر المضنية تهيمن على فكر ونفس فتاة في الثامنة عشرة من عمرها؟ وخاصة فتاة هكذا مثل سيسي.

- لقد رجوت منها شخصياً ان تقول لطه انني بحاجة للالتقاء به... هذا هو كل الأساس لهذا اللقاء بينهما.

– يا رب، يا رب – شهقت كيتي بانفاسها وقالت – أغبطك على عمى بصيرتك وثقتك التي بلا حدود.

واستدار الاثنان الى زقاق اعوج هو زقاق زين. ولاذت كيتي بالصمت. الا انه عرف ان هذا صمت أعطى له فسحة قصيرة لالتقاط الانفاس. وتوقف انهمار المطر. وصار الوقت الآن في السادسة مساء، وانتعشت الشوارع الخالية: ففي هذه الساعة عاد الى بيوتهم أولئك الذين كانوا يشاهدون «المنبر الحر» ليكلموا مشاهدة الاحداث من خلال التلفيزيون. وتكلمت كيتي فجأة:

– انت لم تسألني هل خنتك انا أم لم أخنك.

– هذه العبارة عقيمة الفائدة يا كيتي. فانت بجميع الاحوال لن تجعليني بذلك استشيط غضباً.

– ولكن ليتك سألتني – الحت كيتي عليه وقالت – هيا اسأل.

– اذا كنت قد خنتني فسوف لن تقولي لي على كل حال. فلماذا اسأل؟

– وهل هذا هو كل رد فعلك الغاضب؟

– «اذهب انت كل ليلة لتقضيها في المقصورة مع الحبيبة – تكلم ماك غريغور مستشهداً باللغة الفارسية واضاف – ولكنها اذا أغلقت جنينتها بوجهك، فعند ذاك لابد ان زهرة ستذبل وستصبح من لهيب الشوق مجرد حطام الخزف الناجم عن تحطم قارورة».

– كيف تجرأت على القول لي هذه الكلمات المرعبة؟

– مع ذلك فانها تتضمن الحقيقة. فانت لاترغبين الآن ان اضاجعك.

– ماذا بامكانك ان تعرف عن رغباتي؟ وعليك ان لاتتكلم معي أكثر من ذلك عن هذا.

– ولكنك حالما ان ابدأ بالكلام حتى تُسارع فوراً بالاستهزاء مني. اما اذا صادفت لحظة نادرة، للمغازلة، فعند ذاك لن تجدي نفعاً حتى هذه المغازلة.

– اللعنة عليك!... – تكلمت كيتي وقالت – لا أصدق ذلك حقاً. فبعد ثلاثة وعشرين عاماً من الزواج أنطلق بالأخير لسان زوجي الخجول. يبدو انني أحقق نجاحات غير قليلة.

– ما هو صح فهو الصحيح.

– هل انت تتذكر انني في يوم ما لم أكن استطيع عكس ذلك – قالت كيتي ولاح في صوتها عبرات الدموع واضافت – فانا في بعض الاحيان كنت بكل روحي وجلدي أكرهك.

انك انت... والذنب ذنبك...

- انا أفهم كل شيء. وأعبر عن أسفي - تكلم ماك غريغور وقال - ولكنك لماذا تقرعينني وتغيضيني بأي واحد من أمثال غي موزيل؟

- الجواب، لأنه يوجد لكل شيء وقت وحدود ، وحتى بالنسبة للعشرة الزوجية. وانت تسير باتجاه هذه الحدود . وانا اريد منك الاعتراف بذلك. افهمني أخيراً.

انهما كادا ان يصلا تقريباً الى البيت. وانبغى للجدل ان يتوقف عند المدخل، وذلك لأنه قد تأصلت عندهما منذ زمن بعيد عادة اخفاء المشاجرات بينهما عن اطفالها وعن الخدم من الايرانيين. وقالت كيتي:

- يجب ان تفهم انك بحاجة الى المساعدة في تعريضك لصدمة.

وطالما انت لاتتذكر وتصحو لنفسك، فانني سأواصل اغضابك وافقدك توازنك. فأنت ان كنت معي أو بدوني فستحتاج الى المساعدة...

- ليس بهذا المعنى.

- وهل انت لاتحتاج الى المساعدة حتى بالمعنى الجنسي؟

- انا طبيعي تماماً.

- ان هذا يعني انني مقصرة بكل شيء.

- كفى يا كيتي. فانت تريدين مني ان أعطيك ذاك الذي لا استطيع اعطاءه. وسوف لا أستطيع طالما انت هكذا.

وبعد دخولهما البوابة تكلمت هي من خلال دموعها التي انهمرت مرة أخرى:

- انا أكره طبيعتك هذه الباردة الكتومة الغريبة العنودة نعم أكرهها صراحة... أكرهها...

الفصل الثلاثون

في وسط ضجيج الخلافات التي يعج بها فرنسا التقى كيومون مع ماك غريغور في بيئي فيلي بأحدى الغرف الوثيرة النظيفة في الدائرة المصرفية لموزيل. واعتذر كيومون عن عدم تمكنه انذاك من استقبال ماك غريغور في الوزارة وقال:

- ها ان الموقف قد نضج الآن بحصول تغيرات قوية منذ ذلك الوقت الذي التقينا به.

- ولهذا السبب بالتأكيد اردت منك ان تسمع ما عندي - اجابه ماك غريغور.

- لقد سبق وتحدثت مع شرام. وعلى هذا الاساس فانني الآن عندي معلومات أكثر مما كانت من قبل. فان شرام مقتنع ان لجنتكم الكردية لاتمتلك قوة حقيقية.

- قد يمكن ان تكون معلومات شرام خاطئة.

- هذا طبيعي وممكن - ايده كيومون.

- فان شرام لم تكن لدية امكانية التقرير هل ان اللجنة تمتلك أم لا تملك قوة حقيقية في كردستان. فهو قد رأى الاشياء من وجهة نظر عسكرية فقط. وفضلاً عن ذلك فانه رآها في ظروف صعبة معقدة للغاية.

كان ماك غريغور مستاءً، وكان كيومون يرتشف عصير التفاح، وبصبر العجوز جال ببصره على الجدار والمنضدة والكأس مع العصير بين اصابعه الصفراء المشوقة.

ثم قال:

- انا أعرف ان شرام يحكم على الاشياء من وجهة نظر عسكرية. ولكن وجهة نظره هذه بالذات هي التي تهمنا الآن طالما انها تعطي المقياس الوحيد الفعال لتقييم مستقبل لجنتكم.

ادرك ماك غريغور عجزه عن اقناع كيومون بعقلانية وعدالة القضية الكردية، ولهذا فهو لايعرف ما هي نتائج ذلك بالنسبة لثقلها الحالي لدى الاوربيين. وتكلم يقول:

- ارجو ان تأخذ بنظر الاعتبار ان القرارات التي تتخذها، ستظل في ذاكرة الأكراد لسنوات طويلة.

- هذا طبيعي - اجاب كيومون وقال - لكن فرنسا لاتستطيع ابداً ان تربط نفسها بتعهدات في ما يتعلق بذلك الذي من المحتمل ان يظهر بعد عشرات السنين.

- لماذا لاتستطيع اذن؟

- لأن هذه ليست ممارسة عملية. وفضلاً عن ذلك... - نهض وتوجه نحو منضدة صغيرة قرب النافذة وصب لنفسه عصيراً من قارورة ورجع وقال - هناك حضور في هذه القضية لجوانب من منافسين آخرين. وليس في مستطاع فرنسا تجاهلهم. واني ألفت انتباهك الى ذلك.

- ما هي هذه الجوانب التي تعينها ؟

- انه لمن الواضح لنا أكثر من السابق قوة تلك الرقابة والتأثير الذي يمتلكه الامريكيون والبريطانيون في هذه المنطقة حتى بين الكرد ذاتهم.

- هل تقصد ايلخان بذلك؟

- انا اتكلم عن فرنسا في وسط الظروف الحالية ليس في وسعها ان تذهب بعيداً لوحدها، فان المجازفة ستكون أغلى من النتائج ونطق ماك غريغور مندفعاً بعبارة ذات مدلول على الخيبة وقال:

- أعتقد انكم من الصعب عليكم الاهتمام بموضوع عدالة القضية الكردية.

- من الممكن ان تهمني هذه القضية، ولكن العدالة، ما اسوأها من برهان على مسرح السياسة العالمية. واعتقد ان هذا معروف لديك - تكلم كيومون بلهجة لينة.

- حسناً - تكلم ماك غريغور - سنفهم موضوعاً آخر. ففي مارسيليا توجد عندكم هذه الاسلحة، وهي تحت يدكم، فاذا سمحتم لها ان تصل الى يد ايلخان، فان اللجنة ستصم بالعار الى الأبد فرنسا بصفتها دولة تسلح فئة معادية.

- ان هذه الاسلحة تواصل طريقها عن طريق فرنسا فقط - اعترض عليه كيومون وقال - وليس لفرنسا دخل أكثر من ذلك.

- ولهذا هيا صادروها أو دمروها - واصل ماك غريغور الكلام، مدركاً بصورة مفاجئة ان مثل هذا النوع من المتاجرة قد جاء بمحله تماماً، وبصورة خاصة في هذه الغرفة المصرفية الصغيرة المضاءة باللون الازرق.

- لا املك منطلقاً قانونياً للقيام بمثل هذا الاجراء - قال كيومون.

- من الواضح ان لدى الجميع ومن أجل كل شيء يوجد هنا حق قانوني لبعض الكرد فقط وليس لكلهم - تكلم ماك غريغور واضاف - ان الجنون الاوربي هو هكذا...

- الحقوق الوحيدة المتخذة هنا من قبلي هي بنظر الاعتبار، حقوق فرنسا.

نهض ماك غريغور من مكانه وقال:

- في هذه الحالة لم يبق امام الكرد الا ان يتصرفوا حسبما يرون بشأن هذه العربات.

- اسمح لي ان أترك عباراتك هذه بدون جواب.

- كما يحلو لك.

- انني أعبر عن الأسف الشديد جداً يا مسيو ماك غريغور - قال كيومون واضاف - وانه اسف غير مفتعل. ولكننا عاجزون ان نسير في مثل هذه المغامرة على الضد من مصالح اطراف أخرى أكثر قوة بما لايقاس وأكثر حرية في التصرف اثناء نشاطهم.

- وداعاً - قال ماك غريغور.

- لاتستعجل - تكلم كيومون وقال - بقيت وسيلة واحدة للمساعدة بهذه القضية.

أمسك ماك غريغور من مرفقه بقوة واصطحبه عبر غرفة غير كبيرة مفروشة ببسط وثيرة مخصصة لاجتماعات ادارة مصرف موزيل وغرفة الضيافة الصغيرة الملاصقة لها. وهي مخصصة للراحة والاستراحة ما بين الجلسات. وفي هذه الغرفة توجد مقاعد وكراسي وثيرة ومناضد زجاجية عليها فناجين قهوة وفواكه. ورأى ماك غريغور هناك قبل كل شيء غي موزيل الذي نهض وسار نحوه لأستقباله. ومن ثم رأى اللورد ايسيكس. وكان جالساً في اشراقة شمس عند النافذة، دافعاً برأسه كما لو انه يتشمس على ساحل بحر. وجلس الى جواره الامريكي كيسبيان الذي القى بثقله على الكرسي حتى كاد يصل الى الأرض. وكان على ركبتي كيسبيان خريطة مبسوطة. ورفع كيسبيان نظره عن الخريطة وغمز الى ماك غريغور. وجلس ببساطة وبحالة تهيؤ واستعداد لخدمة الخبراء شخصان غير معروفين لدى ماك غريغور ويضعان امامهما ملفات على منضدة صغيرة لاحتساء القهوة.

- هل القضية لم تصل الى حل؟ - سأل موزيل همساً. وقلص كتفيه تعبيراً عن الأسف وقال - على كل حال انها ليست كارثة. لربما ان بديلنا هو الفضل.

حيا ايسيكس ماك غريغور رافعاً يده بتكاسل، كما ان كيسبيان فعل ما فعله ايسيكس

بنفس الاستهزاء، اي انه رفع بتكاسل اصابعه.

- هذان منغر فان كلوب وغير دويتلير - قدم موزيل هذين الشخصين وقال · انهما من سكرتارية صندوق النقد الدولي.

أجلسوا ماك غريغور على كرسي جلدي احمر الى جانب منضدة زجاجية طويلة تحت نظرات صامتة من قبل الحاضرين الذين كان امامهم الآن اقداح شراب «مارتين» وقدم موزيل الى ماك غريغور قدحاً بارداً لفه الندى. وظل الصمت مخيما. وصفر كيسبيان اغنية فارسية، بها نصيحة الى ماك غريغور: «الزمهرير في الجبال والذئاب الجائعة تنظر لي بنظرات جليدية...» وبدأ الكلام ايسيكس:

- اقتراح اننا معك يا ماك غريغور ان من الافضل لنا من كل شيء ان نعالج المسألة بلا لف أو دوران. وبهذا فأننل نرغب ان نعرف هل انت تملك كالسابق تخويلات من اللجنة الكردية. وهل انت محق بالتحدث باسم اللجنة؟

- طبعاً.

- باي شيء يمكنك ان تؤكد ما يثبت هذا الحق؟

- برسالة اعتماد من القاضي، اذا كان هذا يناسبكم.

- هل هي مكتوبة باللغة الفارسية؟

- كلا. انها باللغة الفرنسية

- كفى. ودع كل هذه الصغائر جانباً يا هارولد ايسيكس - تكلم كيسبيان وقال - ان باستطاعتي شخصياً ان تعهد لك بمصداقية تخويل ماك غريغور.

لذا يجب الانتقال الى جوهر الموضوع.

- ممتاز، هيا بنا نواصل الى الامام - تكلم ايسيكس وقال - من المعروف لنا جميعاً يا ماك غريغور الموقف الحالي في الجبال، واننا هنا وضعنا مسودة خطة اولية ما للفيدرالية بالنسبة للأكراد...

- هل وضعتم خطة؟...

- نعم. واذا كنتم موافقين فستنقل انت فكرتنا الى اصدقائك. واذا كانوا هم سيقبلون بها من حيث المبدأ، فأننا سنكون مستعدين لتنظيم حملة مساعدات مالية فعلية وتمويلية باعتبار ذلك جزءاً لايتجزأ من الاتفاقية.

- ولكن، من وضع هذه الخطة بالتحديد؟ - سأل ماك غريغور وشمل غرفة الضيوف بنظره.

ستة من الجالسين فيها التزموا بالصمت. كما لو ان كل واحد منهم يتراجع اكراماً منه لآخر ان يقدم الجواب.

- انت معروف بانك طاهٍ اسكتلندي - تكلم كيسبيان وقال - وتعرف كيف تطبخ مثل هذه العصيدة.

- ان كيسبيان يبالغ الى حد ما. - تكلم ايسيكس وقال - اننا كلنا هنا معتبراً اطرافاً لنا اهتمامنا بالموضوع.

- ولكن اين الايرانيون والاتراك؟ فانا لا ارى منهم أحداً.

- انهم يستفقون مع جميع ما سنقترحه هنا - قال ايسيكس.

- وماذا انت تقترح؟

- الخطة في غاية البساطة - تكلم ايسيكس واضاف - فهي تنص على تأسيس نوع من الفيدرالية للجنتكم الكردية، غير متصلبة وستكون شاملة لغالبية الأكراد في العراق وايران ومن المحتمل تركيا ايضاً، ومن الطبيعي، وكما هي الحال دائماً، فليس من السهولة اتخاذ قرار من اين يجب ان تدار هذه الفيدرالية الاعتيادية، الا اننا نرى ان من الممكن ان تكون اي مدينة كردية في ايران هي المركز التنظيمي والاداري. أرجو ان تسمعني... - (كاد ماك غريغور ان يفتح فمه ليطرح سؤالاً) - ونحن نفكر باتفاقية تسمح للكرد بان يملكوا النظامين السياسين...

- هذا كلام لا طائل من ورائه - قال ماك غريغور.

وواصل ايسيكس الكلام:

- من أحدى النواحي ان الكرد كلهم سيبقون يمثلون اقلية في الدول التي هم الآن موجودون فيها. وان الأكراد سيراعون في المستقبل قوانين وقرارات هذه الدول. الا انه بنفس هذا الوقت سيحصلون على مركزهم المستقل الخاص بهم الذي يستطيع الاشراف على المسائل السياسية والاقتصادية والحديث باسم الاكراد كلهم. واننا في هذه الحال سنكون فعلاً قادرين على تقديم مساعدة كبيرة تماماً في الميادين التكنيكية والمالية.

- أنتم تريدون ان انقل هذه الاقتراحات الى اللجنة؟

- نقول في الواقع، نعم.

- لقد جئت انا الى أوروبا قبل كل شيء للبحث عن أموال سرقت من الاكراد. ومن هذه النقطة كان يجب علينا ان نبدأ.

نظر ايسيكس الى موزيل ومن ثم الى كيسبيان.

- هذه النقطة عقيمة يا ماك غريغور. ولا فائدة من الكلام حولها.

- اذن لنترك هذه النقطة - اقترح عليهم بلهجة حازمة ماك غريغور وقال - دعونا نتكلم عن العربتين المحملتين بالأسلحة والمدفوع ثمنها من هذه الاموال.

- وهذه النقطة عقيمة أيضاً - قال ايسيكس.

- وفي هذه الحال فانها لعقيمة ايضاً خطتكم المسماة «فدرالية». وفضلاً عن ذلك فان الاكراد صار لهم مئة مرة يسمعون كل هذا.

- انتظر لحظة - تكلم كيسبيان مستوقفاً الجالسين للرد على ايسيكس وقال - على من نريد هنا ان نستغفل يا هارولد ايسيكس؟ ففي الواقع ان ماك غريغور قد احسن التلخيص بان قضية قذرة مثل هذه تتطلب حلولاً قذرة، فالأسلحة ستصل الى العجوز ايلخان لأن الجميع هنا يريدون ذلك. ثم اليس من الافضل ان ندعك تنظر الى الحقيقة وجهاً لوجه من محاولات ابتزازك بمواعيد كاذبة.

من بعد ذلك، شعر ماك غريغور مع الشكر لكيسبيان، ان نهاية قد حلت لمرحلة كاملة من حياته. وقال هو لكيسبيان:

- ان هذا، مهلاً، لاتغرق في الحزن - تكلم كيسبيان بلهجة ودية وقال - أشغل فكرك بمقترحاتنا. فهي مع جميع خشونتها وتوفيقيتها اكثر من جميع التعويض الذي يصل الى ايلخان من مصنوعات الخردة.

- هذا ممكن. ولكنه لايتجاوب مع امال الكرد.

- انا موافق على ان هذا لايشير الى سمو - تكلم كيسبيان وقال - ولكننا في آخر المطاف نقترح ان تستكمل العمل مع لجنتكم فيما اذا هي وافقت على تنفيذ العمل معنا. وان هذا ليس على تلك الدرجة من السوء يا ماك غريغور. انه فعلاً لم يعد على تلك الدرجة من السوء.

- ليس لهذا تأثير على القاضي - أعترض ماك غريغور.

- ولكن لماذا؟

- لأنكم تقترحون كل شيء عدا قرار حل المسألة «السايغوني»

- مهلاً، واسمعني - تكلم كيسبيان داعياً ماك غريغور الى حكمة العقل وقال - ماذا ترون انتم بديلاً آخر مهما كان، للأكراد ؟

اسأل نفسك بنفسك ولكن بشرف.

- لا أعرف... الا ان أي كردي لن يحسب نفسه مستقلاً، اذا كان سيجد فوق رأسه يداً توجهه، او اذا رأى نفسه سيخضع في المستقبل الى القوانين التركية أو العراقية التي تستعبده دائماً. والكرد لن يقبلوا حتى بالاصغاء لمثل هذه الاقتراحات، وانكم تعرفون فوق ذلك.

- حسناً. لنفترض اننا لسنا الها يعلم كل شيء، ونحن لن نقدم القمر على طبق. ان هذه مجرد بداية.

مد ماك غريغور يده نحو القدح الفارغ عندما ملأه بالعصير له موزيل. وفكر ماك غريغور ان لايشرب العصير، والقى نظرة على موزيل وقال مع نفسه، هذا ايضاً رجل شريف من أمثال كيسبيان. من الممكن انهم شرفاء كلهم. ولكن الذي يمتلك القرار الحاسم، بهذه الصورة أو تلك، هو كيسبيان لوحده، ومن المريح للنفس بعد كل هذه السنوات الطوال ان يرى كيف ان ايسيكس محصور بالاخير ومستصغر القدر من قبل بدلائه التاريخيين. وقال ماك غريغور لكيسبيان:

- هل تعرفون انتم الى اين تضرب جذور مقترحاتكم؟ فأنتم تحسبون ان الكرد يأكلون فوق مائدة واحد مع الذئاب المفترسة للدجاج الذي ينقر عيون الاطفال - قال ذلك منتحلاً اياه من اللغة الفارسية.

- لقد نسيت انا هذه المقولة - قال كيسبيان.

- اليست الحقيقة هي هكذا ؟

- بالطبع هكذا. - قال كيسبيان واضاف - المأساة هو انك ماتزال سابحاً بالاحلام فقط يا ماك غريغور. ان من المستحيل تحقيق استقلال كامل للأكراد. فهذا المشروع في الظروف الراهنة عديم الأمل، ومعرفتك انت بذلك ليست اسوأ مني.

- نعم، ولكننا لن نستكين لهذا ابداً - تكلم ماك غريغور وهو يشعر ان هذا الامريكي مقبول لديه، ومن الممكن الكلام معه بثقة وامانة، وقال - ان القضية هي أوسع من اطار الواقع.

- يجدر بك، شئت أم ابيت وكأجراء أخير ان تسافر مع هذه الاقتراحات الى الشيخ القاضي.

- لا استطيع ذلك - هز ماك غريغور رأسه بالرفض.

- لماذا؟

- انا ادرك ان الاقتراح هو واقعي.

- انت تعترف خطأً - أكد له كيسبيان وقال - لربما انهم سيقبلون الاقتراح.

- من الممكن ان يقبلوا. ولكنني لن أكون مساهماً في ذلك.

- انظر بامعان وادع - الح عليه كيسبيان وقال - اننا سنحقق ما نريد سواء بهذه الطريقة ام تلك. وليس من الصعب علينا عزل أو سجن القاضي حتى الموت في الجبال الجرداء.

- لن تكونوا واثقين كل الثقة بذلك - اعترض ماك غريغور واضاف - انهم يعيشون هناك في ضنتك الآن، الا انكم لاتستطيعون السيطرة هناك على كل حرش وكل سفح حتى لو كان معكم رجال ايلخان.

- توجد وسائل أخرى - التفت كيسبيان نحو موزيل وسأل:- اين هذا الاغريقي أو من هو هناك؟

- لحظة واحدة - تكلم موزيل وفتح بابا جانبياً ونادى. وظهر «الاغريقي» وهو رجل قصير القامة وممتليء الجسم وضخم الرأس، ويتضح منه انه ليس يونانياً.

- مسيو، مسيو - انحنى هذا نحو جميع الجهات مثل لعبة البتروشكا.

- هذا هو سليمان - قال كيسبيان دون ان ينظر نحو سليمان واضاف - انه واحد من الموقعين على الامتياز الذي منحته لجنتكم لشركة «ليبانكو» وهو الذي دفع للجنتكم تلك الاموال التي تنشغل انت في البحث عنها. فهل لك علم بذلك؟

- لي علم بذلك.

- وبناء على هذا - واصل كيسبيان الكلام - فأننا اشترينا منه قسماً من الامتياز لقاء هذه الاتفاقية التي تعطي حق الاشراف على جميع منطقة الامتياز، مع الالتزام بجميع الجوانب القانونية...

- هل الى هذا الحد؟ - دمدم ماك غريغور.

- نعم الى هذا الحد - اطال كيسبيان مقاطع هذه العبارة مع المبالغة في اللكنة الامريكية.

نهض ماك غريغور من فوق الكرسي وقال لموزيل:

- ان لي معطفاً مطرياً في مكان ما هناك

- مهلاً يا ماك غريغور واسمعني - هذا من غير الجائز ان تتهيأ هكذا أو تذهب.

ارتدى ماك غريغور معطفه المطري والتفت الى كيسبيان وقال:

- اعذروني حالياً. فما بيننا وبينكم... ولكن على اي حال...

رافق موزيل ماك غريغور حتى الباب وقال بصوت واطيء:

- انا شديد الأسف، انه لم يعد من الممكن تجاوز هذه النهاية. ورغم ذلك فانت صمدت بصلابة يا ماك غريغور، بل وبصلابة شديدة.

الفصل الحادي والثلاثون

عندما أبلغ ماك غريغور زوجته كيتي ان القضية انتهت بالاخفاق فان كيتي تنفست الصعداء وقالت:

وهذا يؤكد ان الصينيين على حق. فلو أن الاكراد سينجحون في يوم ما بتغيير الموقف، فهذا لايحدث الا حين سيبدأون العمل بقواهم الخاصة وبدون مساعدة من الخارج. وهكذا فان نجاحك او اخفاقك قليل الاهمية في جميع الاحوال.

- لقد تحررت الصين بعدما تحطمت اليابان بواسطة قوة خارجية وبفضل مساعدة قدمت لها غير قليلة - اعترض عليها ماك غريغور.

- حسناً - قالت له - انا لست مستعدة للبدء في جدل سياسي، ولن استأنف مرة أخرى فتح حديث حول هذه القضية طالما انها قد انتهت.

كان الوقت في الساعة الثامنة مساء، وهي قد ارتدت ملابسها استعداداً للذهاب الى جيزي موزيل لتناول العشاء. ورفعت كيتي جوربها نحو الضوء الذي ينبغي توجيه نظرة فاحصة نحوه، الا انها توجهت بهذه النظرة نحو زوجها. وقالت:

- هل انت ترى انك قد انتهيت من القضية انتهاءً كاملاً؟

- وما زلت لا أعرف تماماً - رد عليها وقال - ولكن هذا يذكرني بسهولة عن الحالة في فرنسا فان الناس كلهم في الشوارع، ولاتنزل من السن الطلاب كلمة «الثورة» الا ان الوضع باق على وجه الدقة كما كان عليه من قبل.

- انا لا أرى سبباً لحشر فرنسا في الموضوع.

- ان نضالنا يشبه نضالاً ضد عدو غير مرئي أو ضد عدو غير معروف صعب المنال.

- لقد منيت انت بالاخفاق والقضية انتهت - قالت ذلك باصرار، ثم استأنفت استكمال لباسها وقالت - لنوضب الحقائب ونعد الى لندن يوم غد بالذات.

- كلا، فانا ما ازال لا استطيع السفر.

- ولكن لماذا؟ ومن أجل اي شيء ستظل متشبثاً هنا؟

- ليس من اجل التشبث بالقضية، بل لأن هذه الاسلحة ماتزال في ميناء مارسيليا وستصل الى ايلخان اذا ما غادرت وتركت كل شيء. انا لا استطيع...

- كلا، انك تستطيع - قاطعته كيتي وهي توسع وتسحب الجوارب بحقد وكانه ليس من النايلون بل من الحديد وقالت - انا اعرف خطتك. ولكنه يجب عليك ان تنسى التفكير بشأنها.

- ليس عندي اي خطط - أكد لها هو.

- لقد صار في علمهم ماذا ينوي طه - كلمته كيتي مخدرة وقالت - وعليك ان لاتورط نفسك. اسمع كلامي. وانا لم أعد اسمح بذلك.

- لنفترض ان الأمر هكذا - قال هو - ولكنني لا أرى امامي مخرجاً آخر. ولكن كيتي ما كانت تنوي الدخول في مناقشات.

- لا، لا، اتركني ولاتلمستي - قالت ذلك بوضوح واضافت - ثم اني لا أريد الكلام حول هذا الموضوع. القضية انتهت ولا ارغب بمزيد من القلق.

- حسناً - تكلم ماك غريغور وهو خارج للنزول الى تحت انتظاراً لكيتي في فناء الدار. وهناك في الاسطبل السابق وببرميل حديدي يوجد لدى سيسي خمسون لتراً من البنزين الاعتيادي. وكانت سيسي مشغولة بخزان الوقود.

- تفو. مقرف، بصقت سيسي البنزين الذي اندلق الى فمها.

وظلت مستمرة بالبصاق والسعال عندما وصلت كيتي اليهما.

- كان يجب ان تكون ولداً - قالت كيتي لماك غريغور.

- لا بأس وستنجح رغم انها بنت - اجابها مدركاً ان من الافضل الالتزام بكلام محايد تستحسنه كيتي.

قادت سيسي السيارة عبر الشوارع الخالية لضفة النهر اليسرى. فان عندهم كان يوجد توقعات محتملة بكوارث منتظرة. فان الحي كله كان مهجوراً تماماً مثلما يحدث بعد السوق الشعبية، وكانت الرياح تتلاعب بالنفايات وقطع الورق في شوارع يوم الاحد النهرية والشعب يتطاحن بالجدالات على شكل مجموعات، كأنما لايعرفون ما سيقررون وماذا ينتظرون.

- انا سأكون في مشغلي - تكلمت سيسي متجهمة وأختفت الستروين بعدما زعق محركها. كانت سيسي منزعجة. فهي قد انتظرت من أجلهم، بينما كانت مستعجلة للرجوع

الى جماعتها ، فضلاً عن ان والدها ووالدتها ملتزمان مع بعضهما البعض بصمت ينم عن الحذر ، وان هذا قد اعتبرته سيسي تفاهة وحماقة.

وفي البيت بشارع جان كوجان انتظرتهما عند قفص المصعد جيزي التي رفعت يدها الى وجهها الخالي من المساحيق وقالت لماك غريغور:

- الا ترى؟

كانت جيزي ترتدي فستاناً اسود بخطوط منحرفة عند الخصر بفصال وخياطة باذخة. وبعدما وضعت خدها على خد كيتي تناولت يد ماك غريغور واخذته من ابطة ثم صعدوا الى الصالون الياباني، ثم همست له باللغة الانكليزية:

- هذا العشاء ليس من تدبيري. فأنا لا اطيق الصحون النباتية الفرنسية عموماً وهذا من تدبير غي اذ هو اراد ان تبقوا كلكم اصدقاء رغم تصرفهم معكم اليوم. ويقول غي انه يريد التسوية، ولكنني لا اصدقه. انظر. فقد جاء زوجي الينا.

ارستيد ماركوز كان فرنسياً نحيفاً تبدو عليه سيماء الامان الخفيف مع نظرات بعيون مفتوحة نحو كل شيء وبخطوات متأرجحة. وصافح ماك غريغور بلا اكتراث ثم الضيوف الآخرين الذين التحقوا مع الآخرين وهم موزيل واللورد ايسيكس وكيومون ومدام كيومون. وامامهم اصطفت الاقداح مع الكوكتيل. وان جيزي أجلست كيتي بين كيومون وزوجته. اما ماك غريغور فقد جلس الى جانب موزيل. وجلبت الخادمة فوق صينية قدحاً مع «المارتيل القوي»، الا أن جيزي قالت لها:

- المسيو لايشرب «المارتيل» لذا صبي له شراب النبيذ نوع فيرموت رفع موزيل حاجبيه. ورفع ايسيكس من فمه الغليون الجديد قبل ان يشعله، وقال:

- انا ارى ان جيزي تحميك من شراب الجن الشرير.

- كما يبدو نعم - ايده ماك غريغور

وضعت على منضدة صغيرة امامهم قدح نبيد فيرموت، بينما راح ماك غريغور يصغي صامتاً الى الفرنسيين وهم يتناقشون عن الهيجان الذي شمل البلاد كلها. وهو قد سمع كيومون وموزيل وكذلك سمع صوت ارستيد مارغوز الأجش وسرح به الفكر عن الشخصيات الغريبة المتباينة في فرنسا.

فهم كل واحد منهم يتحدث عن فرنسا ، وفرنسا تتحدث بفم كل واحد منهم عن نفسها فان الجيش، بحسب اقوالهم، قد سيطر على باريس بعدما طوقها. وان ميتران غبي ومنديسفرانس متى يسوقون الحصان الابيض نحوه. وقال كيومون:

- ان كل شيء مرهون بيد الشيوعيين.

- ولكن أيلعب الطلاب مثل هذا الدور؟ - اضاف ايسيكس.

- ذلك لأنهم منذ سنين عديدة يناضلون من أجل الاصلاح في نظامنا العتيق حول التعليم العالي. - اجابه موزيل.

دعتهم جيزي الى مائدة الطعام، وهنا رأى ماك غريغور انه اخذها مرة أخرى تحت جناحه، اذ هي أجلسته على يمينها. وبمواجهتها جلس المزعج ايسيكس ثم كيتي وكيومون، وفي الطرف جلس ارستيد مارغوز بوجهه الحزين. وهمست جيزي لماك غريغور:

- انا أجلست كيتي مع غي فهما اما سيضطران للحديث عبر المائدة كلها أو سوف لايتبادلان الحديث.

- كيتي ليست من النسوة الضعيفات - اجابها ماك غريغور وقال - لاتقلقي بشأنها.

في البداية قدموا الكمثري، وان جيزي غرزت ملعقتها الحادة الطرف في هذا الصحن الاستوائي وكأنها تغرزها في شجرة. وقالت جيزي:

- ان كيتي بحاجة الى حماية ايضاً. لان حضور الرجال يغري على الزنا دائماً ومن الافضل لك لو تعود الى لندن وتأخذها من هنا.

- لا استطيع ذلك. ينبغي ان ابقى في باريس الآن.

- ولكنني ارجو منك ان لاتتأخر طويلاً. فانا اشعر ان غي يتهيأ لشي ما.

كانت هي تتحدث ضاغطة على لماك غريغور وهي تطوقه بعينيها ووجهها وجسمها تاركة الضيوف الآخرين بلا اعارة اي انتباه نحوهم. والقى ماك غريغور نظرة من طرف عينه على ايسيكس الذي كات يتحدث مع زوجة كيومون ببشرتها البرونزية التي لوحتها الشمس، اما هو نفسه فكان ينظر بفضول نحو جيزي. وفهم ماك غريغور ان ايسيكس يحب ان يعرف ويتحقق عما هو مشترك بينه وبين هذه الحسناء الفرنسية البعيدة المنال. ان جيزي اثرت على ايسيكس مثلما هي تؤثر على كل من يراها، تأثيراً قوياً بجمالها الساحر غير المألوف وانه ما كان يدرك لماذا يتمتع ماك غريغور بهذه الخطوة.

- انهم سيبدأون الآن بمناكدتك - قالت جيزي لماك غريغور واضافت - كن واعياً.

- لا سبب يوجد عندهم لذلك. فلم يبق من شيء الآن - اجابها ماك غريغور.

- انهم يعثرون على سبب ما - تكلمت جيزي وقالت - انهم ينتظرون اللحظة المناسبة. وحدوث فترة صمت. اما انت فعليك ان لاتمنحهم هذه الفرصة وتكلم معي، نعم تكلم.

- عماذا نتكلم؟ - قال ماك غريغور مع ابتسامة.

- حول اي شيء بلا تمييز.
- لدى الفرس مثل يقول: «الكلام لمجرد الكلام يجعل الانسان فراشة ضعيفة»
ضحكت جيزي وشملت المائدة بنظرة جافة وقالت:
- هذا هو زوجي يجلس صامتاً، ولاتستطيع الفراشة ان تطرحه ارضاً...
ان ادرك كيف انت ستكون سعيداً بالسفر مبتعداً عن حياتنا الحالية الحمقاء.
- عبثاً تقولين ذلك يا جيزي - تكلم ماك غريغور وقال - انت قاسية جداً تجاههم .
- انت لاتفهم - اجابته جيزي وقالت - انني سأنهى كل هذا غدا، فأنت قد اقنعتني. وانا ادركت بانك ستقنعي.
رأى ماك غريغور ان ايسيكس يتنصت باذنه الى حديثهم بدون وازع من ضمير.
- باي شيء يمكنني ان أقنعك؟ - سألها ماك غريغور وقال - وبأي نوع من الكلمات؟
- بدون اي كلمات. فانا اثق بك، وهذا كافٍ بالنسبة لي. ففي يوم غد ساتوادع انا مع هذا الى الابد - ومست هي باصابعها الطويلة شعرها المصفف تصفيفاً جميلاً.
- هل يا ترى ستجلعينه؟ ماذا ستفعلين يا جيزي!
- كلا. كل ما في الأمر، فلن اتردد من بعد ذلك على الحلاقين ولا اعمل تضعيفاً، ولا اذهب الى احد ابداً. نعم انا لست بحاجة اليه اليس ذلك صحيحاً؟
- صحيح. وحتى انت لو حلقت الشعر كله، فانت على كل حال ستظلين هكذا حقاً. مدت جيزي يدها خطفاً ولاطفته بها بفرح على يده وقالت:
- كم يعجبني سماع ذلك منك. اما من غير فساراه كريهاً.
- ولكن هذا هو الواقع - قال ماك غريغور
- عن ماذا انتما تتحدثان؟ - سألت كيتي أخيراً مما ادى الى ان انتبه لنفسه ماك غريغور.
ارجأ جميع الحاضرين حول المائدة قضاياهم وانتظروا ماذا سيجيب على سؤال كيتي. اما هو فقد ثبت نظره على السمك الموضوع امامه في الصحن. وكيف حصل وصول هذه القطعة هنا؟ واين المقبلات؟
- أننا نتحادث حول شؤون سياسية مثلما يقوم الجميع هنا بذلك - ردت جيزي.
- وعن اي شيء بالذات؟ - سألت كيتي.
- عن قناعاتي السياسية.
- هذا هو الذي ما كنت اعرفه انه موجود عندك - تلكم ارستيد مارغوز.

- لا تتحاذق يا آرو

- ولكن ما هي قناعاتك السياسية؟ - عبرت كيتي عن اهتمامها بذلك.

- أن لا أشبه اخي بأي شيء - اعترضت جيزي وقالت - ولا بأي شيء بالتأكيد.

- ان جيزي خارج السياسة نهائياً - اوضح غي وقال - وهي كانت كذلك من قبل وحتى الآن.

- هذا غير صحيح ابداً. ولكنني على كل حال لست ملكية، وكذلك انا لست حتى مرتبطة مثلكم كلكم.

- حسناً! ولمن كنت تؤيدين في الانتخابات السابقة؟

- ما كنت وراء ديغول.

- قبل اسبوع يا عزيزتي جيزي قد رأيت بكون - بينديت - ذكرتها بذلك مدام كيومون وقالت - اليس هذا موقفاً ارتباطياً؟

- لاتضحكيني. يا ماري جوز انا اكره كون - بينديت. ومن هناك من يرتاح منه؟ ولكن الموضوع ليس انكم كلكم تصطفون في ذلك الاصطفاف السياسي اما انا فاسير عارية.

- انه رداء مدهش - قال ايسيكس واضاف -وانا واثق ان هذا يعجب ماك غريغور.

ضحك الجميع، وادرك ماك غريغور ان جيزي صرفت عنه اهتمام الجميع، الا ان ايسيكس. تشبث متقصداً مرة أخرى بالكلام حوله. وقال غي موزيل:

- ان ماك غريغور بالذات غير مرتبط سياسياً. انها التوفيقية الانكليزية المؤيدة للهرطقة الاسكتلندية الضيقة. انه استئجار معنوي.

- كلا، كلا - أحتج ايسيكس وقال - ان ماك غريغور يزدري السياسة اليس هذا صحيحاً يا ماك غريغور؟ هيا اجبنا.

- انا لست ازدري السياسة مطلقاً - قال ماك غريغور.

واصل المستمعون النقاش بصمت. وهنا سأل كيومون:

- وهذا هو كل ما سنسمعه منك؟ انت أتعرف هذا...

- انا لا ازدري السياسة - كرر ماك غريغور مؤكداً بقوة ومحاولاً الاحتفاظ بالهدوء وقال - وانكم كلكم تعرفون ذلك.

- ينبغي تقديم ايضاح يا ماك غريغور - قال ايسيكس - ولاتتكتم على شيء!.

- لماذا اراك تقول مثل هذا الكلام! - وجهت جيزي الكلام بصرخة نحو ايسيكس تقريباً

وقالت - وبأي مناسبة ينبغي عليه ان يقدم ايضاحاً هنا ؟

- ولكن المعروف ان الكلمات ليس مجرد اصوات فارغة يا جيزي، ولهذا ينبغي التوضيح - تكلم ايسيكس بما لم يتوقعه هو بالذات ان يكون مضطراً لمخالفة هذه المرأة الرائعة وهو منفعل بالكلام.

- كان باسكال قال ايضاً ان من الافضل للانسان الشريف السكوت عن الافضاء عن توجهاته السياسية.

اسقط موزيل الشوكة والسكين على الصحن وقال يلوم أخته:

- جيزي! لم يقل باسكال اي شيء من هذا.

- اذن، ان من قال ذلك هو لامارتين.

- سخافة.

- ولكن من قال ذلك اي كان، فما هو الفرق بذلك؟

- لا فرق هناك يا عزيزتي بشأن هو الذي قال ذلك - تكلم ايسيكس بلهجة ودية وقال - انا احاول فقط استيضاح الموقف السياسي.

- ان ماك غريغور لايعمل الا ذلك الذي يجب ان يعمله - ردت جيزي على ايسيكس وقالت - وفي هذا يتلخص موقفه.

- وما هو الذي يقوم بعمله تحديداً؟ - سألها ايسيكس مع ابتسامة.

- انه يقوم بعمل ذلك الذي انت لاتستطيع القيام به - ردت عليه جيزي وقالت - وهذا واضح الآن.

- اي انه يطلق النار على الاتراك - أكد ذلك ايسيكس بفرح.

- وماذا في ذلك! - تكلمت جيزي بتشكل وقالت - انه اذ يطلق النار فلن يخطيء الهدف، ولايثرثر عن ذلك فيما بعد حتى التبلد.

- وفضلاً عن ذلك فان مثل هذه الاشياء ينبغي استيضاحها - اعترض ايسيكس وهو يشعر بوضوح بطعنة في بطنه واضاف - الا اراك موافقاً يا ماك غريغور ؟

لم تسمح جيزي لماك غريغور برد الجواب وقالت بكلمات محددة واضحة:

- ان اي توضيحات حول وليمة عشاء لابد ان تقود الى الكذب.

- وهكذا، دعيه يكذب بنفسه - اعترضت عليها كيتي، فانتفضت جيزي استعداداً لحماية ماك غريغور حتى من كيتي، والدفاع عنه بكل ما في ترسانتها من رماح اصابعها واجفانها

غير المكحلة والعقد السريعة في الخطاب الفرنسي. الا ان ماك غريغور قد سبقها وتوجه بالكلام نحو ايسيكس وقال:

- انا شخصياً لا أعرف لماذا هذا الجدل هنا.

- الجدل حولك يا عزيزي - تكلمت كيتي ولكن بخبث وقالت - فهل انت لاتسمع؟

ضحك الجميع مرة أخرى ما عدا مارغوز الذي يظهر عدم اكتراث تماماً.

- لاتقدم لهم اي ايضاح - قالت له جيزي بصيغة الأمر - ولا اي ايضاحات ولا في اي وقت من الاوقات.

- ولكن قولي لي من فضلك يا جيزي ما سبب دفاعك عنه؟ - صاحت كيتي وقالت - فهو لديه لسانه. يا ايغور (ماك غريغور) هيا دافع عن نفسك بنفسك.

قدموا صحون لحم البقر، اذ وضعوا امام كل واحد منهم قدراً صغيراً معدنياً انيقاً محكم الاغلاق. مايزال يغلي من الحرارة المضغوطة.

- انهم يستفزونني لا أكثر يا جيزي - تكلم ماك غريغور واضاف - دعيهم كذلك.

- انا لا استفزك مطلقاً - هاج ايسيكس وقال - انا اسألك بمنتهى الجدية

- حول ماذا؟

- انا لم امزح عندما اردت ان اعرف كيف يجرى بدمك هذا الانقسام الى شطرين، نصف غربي ونصف شرقي. او لنقل عن التعليم وعن اطلاق النار على الاتراك. فعن اي من هذين النصفين الدائميين يعبر جوهرك يا ماك غريغور؟ ثم على الخصوص، فاي من هذين النصفين منصرف الآن الى عربات السلاح العائد للاكراد؟ وماذا ستتخذ من اجراءات. فمن المعروف انت قد جئت بهذه الصورة او تلك من اجلها الى أوروبا.

- وماذا ينبغي مني ان افعل من اجراءات؟

- هذا السؤال لاتوجهه لي، بل انا اوجهه لك. وان جوابك سيعطي الجميع الذين نحن هنا المفتاح نحو وجهات نظرك الحقيقية.

نظر ماك غريغور نظرة متفحصة نحو كيومون ثم نحو ايسيكس وقال لهذا الأخير:

- ان العربات سلبت منا وانتم بذلتم عنايتكم حول هذا السلب. ان هذه القضية هي طوع ايديكم.

- ايدينا؟

- طوع ايديكم او فلانديرس. ولا فرق في ذلك. والكلام الزائد هنا حول هذا لا معنى له -

تكلم ماك غريغور حابساً الغضب بصوره.

- ولكنه طالما ان بعضاً من اصدقائك الاكراد يخطط لتفجير العربات، افلا تشاركنا انت بهذه الخطط؟

- انا لا أعرف عنه اي شيء - قال ماك غريغور واضاف - اما اذا كنت قد علمت بذلك فمن المستحيل ان اقضي بذلك هنا. وبهذا فانا ليس عندي ما أفعله.

- سعيد انا ان اسمع ذلك - تكلم كيومون مع ابتسامة وغلت مراجل جيزي مرة أخرى وقالت:

- الحقيقة ليست الى جانبهم فالحقيقة الى جانبك ولاتقل لهم اي شيء ولا بأي حين.

- ارجوك يا جيزي - تدخلت كيتي بالكلام بعصبية حادة وقالت - فكما نرى ان ايغور لايستطيع الكلام عما لايعرفه. فهو لايعرف اي شيء عن العربات.

- انا شخصياً- تكلم كيومون - لايهمني ماذا ستفعلون مع هذه الشحنة الشريرة من الاسلحة، انني ارجو فقط ان لاتحدث اي اعمال متطرفة على الارض الفرنسية.

كان ينبغي للكلام ان ينتهي هنا، وذلك لأن الجميع قد ادركوا من مظهر جيزي ان من الخطورة مواصلة ازعاج اللبوة في قفصها. الا ان ايسيكس لم يرغب باصرار ترك الموضوع. وقال لماك غريغور:

- بقدر ما استطيع الحكم فان امامك لم يبق الا ان تتخذ اجراءً اما بنسف العربات واما العودة الى ايران تجر اذيال الفشل.

لقد أكتوى لسان ماك غريغور مرتين من اللحم الساخن، فهو قد ركز انتباهه كلياً على شوكته. اما المحيطون الآخرون فانتظروا منه كيف سيدافع عن نفسه.

- انت محق تمام الحق - قال ذلك متوجهاً الى ايسيكس.

- آه، ان هذا كلام يدعو للضحك - صاحت كيتي منزعجة وقالت - ان ايغور لم يفكر بالرجوع الى ايران. فقد انتهى كل شيء مع ايران الى الابد.

- أحقاً؟ هل صحيح؟

- اننا سنبقى في أوروپا للعيش بها. ولنغلق هذا الموضوع وهيا بنا نستبدل موضوع الحديث.

تظاهرت جيزي بالدهشة على وجهها من هذا النبأ وقالت:

- انت تمزحين يا كيتي!

- لا مزاح عندي ابداً.

- رفع كيومون كأس شرابه وقال:

- وهكذا نشرب نخب نهاية هذا المنظر الجذاب الرومانسي!

وعند هذا كان من المفروض ان ينتهي الكلام. الا ان ايسيكس وكما يبدو ان يصون مصيرياً شخصيته المهمة العميقة من ماك غريغور، وقال:

- انا أعرف ماك غريغور منذ أكثر من عشرين عاماً، واعرف ايضاً ان ليس من عادته ان يتراجع هكذا بسهولة.

- انه يتراجع في هذه المرة - قالت كيتي.

- تماماً يا كيتي. وحتى انت تخشين ان تتركيه يتكلم عن نفسه - قال ايسيكس.

- لقد ابلغتك كيتي كل ما هو صحيح - تكلم ماك غريغور وقال - اننا سنبقى في أوروپا.

- دعونا. الموضوع - كررت ذلك كيتي وقالت - ولماذا نتحدث عما يمس قضايانا الأسروية؟

- انا مذنب - وأقدم اعتذاري - قال ايسيكس.

- نعم انت مذنب - تكلمت كيتي وقالت - لقد كنت خائفاً من ان يحقق ايغور في النهاية انتصاراً بشكل ما عليك.

- انا ارى انكم اغبياء كلكم... بدأت جيزي الكلام، الا ان ماك غريغور نغزها بعنف على موقفها، فأعتدلت بمنكبيها وقالت:- ولا اعتقد ان الشيطان قد توفق الآن، وكذلك فان غي لايعتقد. فهو قد قال لي...

- انا لم أقل لك اي شيء - تكلم موزيل بلهجة عنيفة واضاف - وان الشيطان قد نجح. وفي نهاية المطاف فان كلامنا قد انتهى. ولهذا الحد يكفي يا جيزي.

- اوامر كيتي هي أوامر مضحكة - همست جيزي لماك غريغور الذي اجال على موزيل وكيومون وايسيكس نظرة طويلة وقرر بفكره الآن انه سيذهب غداً ليبحث عن طه ويعين معه أحسن خطة عملية لتدمير عربات السلاح.

الفصل الثاني والثلاثون

ولكن طه قد أختفى. ولايعلم عنه كل من اندريه وسيسي اين هو الآن. ولم يكن له وجود حتى في غرفة طالب الطب الكردي، حيث وجد له ملاذاً هناك. وقد ذهب ماك غريغور في اليوم التالي الى هناك وعرف من طالب الطبية ان طه غير موجود في باريس. ولم يستوضح ماك غريغور اي ما يفيد عنه لدى الاكراد الذين يبيعون الكراريس في فناء جامعة السوربون المكتظة بالناس. وقال أحدهم:

- بحسب ظني انه سافر الى جنيف.

- كلا، كلا، انا اقسم انه في باريس - قال آخر.

فمن ماك غريغور ان طه في ميناء مارسيليا فعاد راجعاً الى البيت حتى يسمع آخر الاخبار في الساعة الثانية. فاذا كان طه قد نسف العربات فمن المحتمل ان يذاع النبأ في الراديو. الا ان الاخبار كانت مشحونة بموضوع واحد: هو الازمة السياسية التي شملت البلاد كلها. ففي مدينة تولوز لايوجد خبز، واضراب مرة أخرى في ميناء الهافر.

وعشرون الف عامل قاموا بمسيرة نحو مركز المدينة. ولاعبو كرة القدم الفرنسيون رفضوا الاعتراف بالمنظمة الحكومية لادارة شؤون الرياضة. ويضرب في فرنسا كلها الآن تسعة ملايين شخص. ومن المنتظر ان يعلن منديس فرانس أخيراً عن موقفه في هذا اليوم في اجتماع طلابي بملعب شارلوت.

عندما خرج ماك غريغور بعد الغداء للتنزه فوق حصى الفناء تصاعد من كراج العربة وقع خطى مارين وسلمه مظروفاً وقال:

- لقد وجدته تحت البوابة.

في المظروف كانت توجد قصاصة ورق مكتوبة باللغة الفارسية من طه يعين فيها لماك غريغور موعداً للقاء. في جامعة السوربون في الساعة الخامسة تحت تمثال فيكتور هوجو. من

أجل قضية مهمة جداً.

استثنى ماك غريغور عن العودة الى البيت لأخبار كيتي الى أين سيذهب، وخرج مستعجلاً من الفناء، وقبل عدة خطوات من شارع فانو تذكر، ولكن ليس بدون استغراب، انه لم يصادفه اي احد خلف البوابة. وكما يبدو كأنهم صاروا واثقين الى حد عال من الفوز، بحيث انهم حسبوا ممارسة مضايقات واستفزازات أكثر هي زائدة عن الحاجة، وتركوه بهدوء.

وعندما أجتاز شارع راين الخالي من الناس اتجه منحرفاً بطريقه نحو عبر جموع الطلاب الصارخين المتجادلين المتجمهرين عند مئات من اكشاك بيع الكتب المقامة امام الجدران. ولكل جماعة حزب كشكها، وسار هو نحو تمثال هوجو، فرأى تحت ابطي العجوز الحجري اعلاماً حمراء. وفي اثناء ما جلس متصابراً بالانتظار فوق سلالم التمثال رأى وسط مجموعة من الطلبة الثائرين شيئاً يحترق.

- يا عم ايغور!...

منظر طه يبدو عليه التعب، الا ان بعينيه يكتم كالعادة ابتسامة نحو كل شيء هي بالمقياس الروحي اقل شأناً منه طه، بل وحتى من حيث ملابسه المهترئة فانه صار أكثر شبهاً في كل شيء بمظهر المكافحين من اجل الافكار من حيث عدم أكتراثهم بملابسهم.

- قالوا لي انك لست في باريس.

- نعم، لقد سافرت... اقترح عليك. هيا يا عم أن نجتاز من خلال القاعة لأجل ان نضيع عليهم الأثر اذا كان هناك من يتعقب خطاك.

واستدار طه واجتاز الفناء بسرعة نحو المبنى، وسار ماك غريغور في اثره داخل الطابق الاسفل للمسرح الكبير الذي عمه الضجيج والمزدحم حتى الحد الاقصى بالطلاب المنتفضين والاجانب والكسالى وعملاء الشرطة السرية. وفوق منصة والمايكروفون بيده ويمتص حليباً مكثفاً بواسطة انبوب. وصاح تواً (لجنة الساخطين).

وهو يفيد:- (وهنا حمل الملتحي بيده ورقة النص بعيداً عن عينه وقال - «ان الثورة ستكتمل حالما تصبح التضحية ضرورية بالنفس من أجلها. الكلام عن الثورة والنضال الطبقي... - (وأطلق على المستمعين نظرة منزعجة ذات معاني كثيرة وصرخ قائلاً: «أطلب منكم الهدوء!»)

- بدون صلة وثيقة مع الحياة اليومية، وبدون ما يفيد ان الحب لايتضمن السقوط. اما الاضطرار الكريه فهو يتضمن التأكيد الذي لايستطيعه الا الاحياء الاموات. وهذا موقع من

قبل لجنة الساخطين وكذلك اصحاب المواقف الاممية.

أخذت القاعة تغلي. وأجتاز ماك غريغور مع طه القاعة وهي تغلي، وخرجا تحت قبة مظلمة، وسمه طلاب مسلحون بالهراوات يعرفون طه توحي لهما بالنزول الى تحت، نحو طابق ما تحت الارض. ثم اجتازا درجات سلم غير واضحة وتوجها عبر مجازات موحلة بمحاذاة مطبعة تفرقع وتخفق وتعطي صفحات مطبوعة من نتاجها (ان جدران المجازات كانت مغطاة على طولها باوراقها الملصقة) ثم بعد المغاسل والتمثال وصلوا أخيراً الى زريبة كبيرة تحوي تراث جامعة السوربون من تلال الاثاث والخزائن القديمة للكتب والكراسي والمناضد والتماثيل لعلماء منسيين ليس لأحد حاجة اليها. وأغلق طه الباب وسده بكرسي من الخلف وأشعل النور واخرج من جيب سترته مجموعة من اوراق. وتكلم مع ابتسامته الجافة:

- كيف استطعت يا عم اقناعهم؟

- كلا - تكلم ماك غريغور وقال - ان العربات والنقود آلت الى ايلخان وانني لم استطع تماماً ان اتوفق باي شيء.

- انا علمت ان النهاية ستكون هكذا - تكلم طه مع تحريكه لكتفيه.

- هذا مجرد كلام، ام انك علمت عن ذلك فعلاً؟

- علمت بذلك طبعاً، وكذلك فان الجميع قد علموا بذلك.

- عند ذاك من المفترض ان توجد لديك خطة للعمل - قال ماك غريغور.

- ما فحوى هذه الخطة؟

- لا أعرف. انا اوجه السؤال اليك.

- ان عندنا توجد خطة بالطبع ولكن هل انت مستعد بهذا المعنى لمساعدتنا؟

- لابد من ذلك - قال ماك غريغور - لم يبق لي الآن من طريق آخر. نظر نظرة قصيرة مركزة.

- ولكنني سأعمل كل ما في حدود العقل السليم - تكلم ماك غريغور وقال - ولهذا فلا داعي للتهكم يا طه.

- في الأخير وافقتنا - قال طه.

- لنفترض ذلك.

- ولكنك موافق الان معنا...

- انا غير موافق بأي مقدار - قاطعه ماك غريغور وقال - افهم انت ان هذا اقرب الى علامة اليأس، طالما لم استطيع انا ان أفعل اي شيء، ولكنه يجب ان نقوم بعمل ما.

وصل الى سمعهم تخبط خطوات فوق السلم المؤدي الى طابق ما تحت الارض. وبعد ذلك دفع احدهم الباب.

- المكان مشغول! - صاح طه باللغة الفرنسية. بعد ذلك ابتعدت الخطوات.

وبعدما جلس طه وراء منضدة حديدية بسط صفحات الورق التي اخرجها من جيبه وقال لماك غريغور الذي جلس الى جانبه.

- من المؤسف ان الوقت قد فات. فبالنسبة للعربات لم يعد بامكانك مساعدتنا. فقد نقلوها مرة أخرى الى مكان جديد.

- وهكذا انا فكرت ايضاً، ولكن الى اي مكان؟

- الى ميناء تولون.

- الى ميناء تولون العسكري - قال ماك غريغور واضاف - انك لاتستطيع التسلل الى هناك.

- قد يكون هذا ممكناً وقد يكون غير ممكن.

ازاح طه الاوراق نحو ماك غريغور الذي القى نظرة سريعة خامدة على الاوراق الخفيفة من ورق السكائر وهي نسخة من بيان شحنة بحرية وتعليمات الشحن معطاة من قبل سلطات الميناء الى قبطان الباخرة اليونانية «السكندر ميتاكساس».

- الشحنة سيرسلونها الى ميناء ايشيك على البحر الاسود. ومن هناك ينقلونها براً الى ايلخان

- عبر تركيا؟

- تماماً. والآن صار واضحاً لك من هو هذا الكلب العجوز ايلخان؟

- من هو ذلك الكردي الذي لايتقزز من التعامل مع الموظفين الاتراك؟

اما الآن فانهم يسمحون لإيلخان ان يعبر بالسلاح.

- من الصعب التصديق بهذا يا طه حتى عندما يدور الحديث عن ايلخان. فهل ان معلوماتك هذه أكيدة؟

هز طه بيده شاربيه الخشنتين كالاشواك. فهو لم يضيع الوقت ابداً على ابداء العواطف

المريرة بصراحة، ولم يسمح لنفسه بمثل هذه المساهلة. الا ان غضبه كاد ينفجر الآن الا قليلاً. فهو قد أمسك نفسه ولكنه ابتسم مرة أخرى.

- ترى هل أن الاكراد قادرون على ضبط السنتهم وكتم افواههم؟ فأنت لاتعرف أكراد جنيف هؤلاء، فهم ثرثارون. حمقى يركضون كالكلاب وراء دوباس.

وقد علم ماك غريغور: ان طه سيقدم الان نوعاً من اقتراح آخر ويسأل عما يختفي وما هو. وقال طه.

- اننا بحاجة الى مساعدتك ليس في هذا المكان بل في نهاية أخرى للخريطة.

- في تركيا؟

- كلا. انا اعني القاضي واللجنة.

- اتريدون ان اذهب مرة أخرى الى هناك...

- ارجو ان تسمعني - قال طه - صار في علمنا ان الاسلحة ستنقل عبر تركيا وينقلها دوباس نفسه عبر الطريق الجديد - ايشيك - شاهبور. ومن ثم تواصل طريقها الى ايران عبر وادي نهر كاتور. ونحن نريد ان ننصب له كميناً هناك.

ولكن باي قوة؟ هل بنصف دزينة من الطلاب؟ - تكلم ماك غريغور وقال - ضع في علمك ان ايلخان في الوادي هناك جميع رجاله المسلحين بلا استثناء.

- ولهذا فنحن بحاجة الى مساعدتك.

- وباي شيء استطيع تقديم المساعدة؟

- سافر انت الى القاضي وأقنعهم ان يشنوا هجوماً على ايلخان ولايفسحوا له مجالاً لاستقبال دوباس، اي لأجل صرف انتباه ايلخان.

- انهما سوف لايرغبان حتى بسماع كلامي - اعترض ماك غريغور

- ولكن لماذا؟

- لأن ذلك هو ما يريده الاوربيون، وهو تأجيج الكرد ضد الكرد. وانا لن أفلح بأية وسيلة لأقناع. ولهذا السبب فهو يتخفى في جبال العراق، ليتحاشى المصادمات مع ايلخان.

- أم انك تستطيع اقناع جماعتنا - اصر طه على رأيه.

- كلا. لا استطيع. وانهم الآن اكثر ضعفاً بهذه الصورة أو تلك للقيام بمثل هذه العملية الضخمة. فهم منهكون كل الانهاك يا طه.

- ولكن ارجو ان تسمعني يا عم ايغور. فانهم يعرفون معرفة جيدة ان ايلخان اذا ما تسلم الاسلحة فانه سيقضي علينا كلنا بسهولة ويذبحنا ذبح الجزار للتيوس. فاي خيار لدينا بهذا الشأن؟ قل لنا انت...

شعر ماك غريغور بتأثير العفونة على المخ في هذه الزريبة القذرة. وتصل اليهم من قاعة في الاعلى عبر السقف صرخات ونداءات غير مفهومة. وقال ماك غريغور.

- لربما انت مصيب في رأيك. انت محق طبعاً، ولكن لماذا انت تفكر بانهم سيصغون لي فقط ويهاجمون ايلخان؟ فانا لست جندياً ولا كردياً.

- ان القاضي يثق بك بما لاتقل عن ثقته بوالدي. فاذا ما اوضحت الموقف للقاضي، فانه سيفهمك. وفي الحقيقة فانت الوحيد القادر على اقناعهم.

- انا لا اتفق معك. وكذلك فماذا هم باستطاعتهم ان يفعلوا هناك بحسب رأيك؟ هل سيهاجمون رتلاً مسلحاً منقولاً؟

- انهم مطالبون بشيء واحد هو انه بتعاون جميع القوى المتوفرة ان يصرفوا انتباه ايلخان، وان يربطوا يديه لمدة يومين وذلك عندما تجتار الشاحنات منطقة الحدود. اما الباقي فاننا سنقدم عليه. وسنتفق على المفردات في مكانها. والخطة ابسط من بسيطة.- انها يمكن ان تكون بسيطة بالنسبة لك... - بدأ ماك غريغور كلاماً ولم ينته.

- انا اعرف يا عم. اعرف كم هي صعبة بالنسبة لك.

- هل انت تعرف ذلك؟ - أشك بذلك.

- ان العمة كيتي ستكون معارضة. وهذا واضح لي تمام الوضوح. فهي قد منعت سيسي من الاتصال معي، وكذلك منعت اندريه من ذلك ايضاً. ولكن العمة كيتي حتى نفسها تفهم ذلك.

- ان تفهم فالفهم شيء آخر، ولكن هذا لايغير العلاقة. ان العنف قد جعلها تتقزز يا طه، ولايجوز القاء اللوم عليها.

- هذا مفهوم - حرك طه كتفيه وقال - ان هذه من مزايا الاوربيين. فهؤلاء الفرنسيون ايضاً - اشار طه بعينيه الى السقف وقال - عنف. وعدم العنف. فهو كله بالنسبة لهم لعب. اما بالنسبة لنا فهو ليس لعباً يا عم.

- ولهذا بالذات فان العمة كيتي ستصم اذنيها الآن عن كل النتائج التي تتحدث عن أهمية القضية - تكلم ماك غريغور دون ان يسمح لنفسه بالتعمق بالتفاصيل اللاحقة.

- ولكنك ستقوم بذلك لآخر مرة. ومن بعد ذلك ارجع انت الى بيتك بل وبامكانك ان تنسى عنا كل شيء طوال ما بقي لك من حياة.

- وماذا سيبقى لي من حياتي بدون العائلة؟ - تكلم ماك غريغور. ثم سمعت خطوات قادمة من فوق. القى نظرة على ما حوله في المكان.

فهذه الزريبة المتجهمة ليست مكاناً لتقرير مصير القضايا الأسرية. ولكن اين يوجد المكان الآخر؟ فالمداخل المغلقة ارضيتها بالخشب اللامع ليست مفتوحة له. بل ما يفتح له هو فقط مدخل خلفي او سرداب خانق - وقال - حسناً - ثم اضاف - سأسافر وسيكون ذلك طالما الامر هكذا - والقى نظرة على فضلات طعام في الزاوية، وهي آثار من اقاموا هنا من المرتزقة العتاة الذين وجدوا لهم مأوى هنا لدى الطلاب ثم قال - لايوجد حل آخر كما يظهر. وعلى العموم فانا لا أرى ذلك.

- اذن انا اهنئك! - تكلم طه باللغة الكردية.

- لاتهنيء ولاتجند - تكلم ماك غريغور وقال - طالما ان الفشل كان سببي على هذه الصورة فينبغي مني ان اصحح الوضع بشكل ما. وان هذا هو كل ما يهمني هنا الآن.

- لايستطيع اي كان ان يحكم عليك بحسب النتيجة.

- من الممكن ذلك لو أنني كنت قد تصرفت تصرفاً أكثر ذكاءً...

- المشكلة لاتتعلق بك - قال طه مع ابتسامة.

- بهذه الصورة او غيرها فان اهتمامي الآن مكرس فقط ان لا أعطي ايلخان امكانية الاستحواذ على هذه الاسلحة. وان الجميع هنا واثقون من نجاح ايلخان، وان مسألة تخريب لعبتهم هي الآن بالنسبة لي مسألة كرامة.

رفع طه الكرسي من خلف الباب وتوجه الاثنان الى فوق نحو مكان الخروج عبر دهاليز مليئة بصرير الحصى من جراء المشاجرات. وبعدما خرجا من تحت الاقبية نحو نور النهار الساطع الذي غشي البصر في الشارع شاهدا مجموعة من الطلاب هم اربع بنات وولدان التفوا تحت لافتة تشير الى ان هذه المجموعة ذاهبة لإنتزاع مبنى البريد بشارع الكاردينال ليموان من يد الشرطة. وتوقف ماك غريغور وطه ونظراً الى هؤلاء الطلاب وهم يسيرون رافعين اعلاماً حمراء.

- انهم ذاهبون ليقعوا تحت هراوات البوليس - قال طه.

- ولكنهم سيحققون هدفهم بهذه الطريقة.

- اي هدف هذا؟ وماذا هم يتصورون - فهل هنا مبنى سمولني وان كون بينديت هو لينين؟

- ولكن شجاعتهم ليست طارئة.

- وكذلك فان شجاعة احمد بيسشاباش ليست مستعارة - اجابه واضاف - الا ان احمد وهو بهلول كردي معروف. وانه يحمل من الروح الثورية الحقيقية ما لايقل عما لدى هؤلاء الطلاب.

الفصل الثالث والثلاثون

بعدما عاد ماك غريغور الى البيت اصابته الدهشة عندما رأى بانتظاره جيزي مارغوز تجلس في المكتب امام جهاز التلفيزيون الذي استأجرته كيتي مؤقتا وهي تتابع ريبورتاجاً حول اجتماع في ملعب شارلوت، دخل ماك غريغور ونظرت جيزي نحوه ثم التفتت نحو التلفيزيون مرة أخر مثل من كان يريد هذا وذاك في لحظة واحدة. ومن بعد ذلك اغلقت التلفيزيون وقالت:

- لا أفهم الفوضويين لماذا يسيرون بزي اسود.

- هذا زيهم التقليدي - تكلم ماك غريغور وقال - ولماذا لايسيرون به.

- ولكن من المعروف انهم ضد الشكليات والتقاليد.

سكت ماك غريغور حائراً. وان جيزي قالت:

- انا جئت اليك لنذهب معاً الى بيتي.

- يجب ان انتظر انا كيتي - قال هو.

- كلا، لا وجوب لذلك - تكلمت جيزي وخرجت الى الصالة، وتبعها ماك غريغور راغباً أو عازفاً وقال:

- ولكن انتظريني، فانا بحاجة فعلاً الى كيتي.

- انها غير موجودة. فقد طارت الى كان مع غي. وعلى متن طائرته الخاصة.

- وصاحت من اعماق القاعة - يا عمة جوس اننا خارجان.

- حسناً يا حبيبتي جيزي.

تأبطت جيزي ماك غريغور من يده وتوجهت نحو باب الخروج.

- لاتقلق. من المحتمل انهما سيعودان في الصباح. فان كيتي تلفنت لي وقال انها حاولت البحث عنك بالتليفون. فهي لم تكن تعرف اين كنت. ورجت مني ان أخبرك انهما في كان.

والتمستني ان اقوم باطعامك، فان كيتي تعرف انني افعل ذلك بفرح ورضا.

وعند الباب وسألها متحسساً دفء اصابعها على مرفقه.

- ولكنها ألم تقل لماذا ذهبت الى كان؟

- انها مشغولة مع غي بقضية ما مهمة. والا لما غادرت بالطائرة هكذا. ولكنني كنت قد حذرتك كما تعلم...

عدل هو عنقه بحركة خرقاء، وانتزعت جيزي معطفه المطري من فوق المشجب وواصلت الكلام:

- انني اعلم فقط ان غي هو الذي رتب هذا كله، وهما صار لهما عدة اسابيع يناقشان مشروعهما.

- ولكن انتظري - استوقفها مرة أخرى وقال - واين سيسي؟

- ذهبت سيسي الى ورشتها مع جميع حاجاتها. وهي قد اشتركت نهاراً بالمظاهرة، واعتقلت من جديد، وامرتها الشرطة ان تغادر فرنسا قبل مساء يوم غد. وان كيتي لم ترغب بهذه المرة ان يتدخل غي لمساعدة سيسي.

- يا الهي، ما هذا الذي يحصل... وكذلك اين اندريه؟ فقد حان الوقت بالنسبة له ان يأتي من المدينة.

- ان العمة جوس ستقول له اين توجد انت. واذا اراد اندريه وسيسي فانهما سيجيئان ايضاً الى هنا على اثرك ماذا بقي لك. فتفضل بدون اعتراض.

توقف اخيراً عن الممانعة وارتدى معطف المطر. وبخروجهما نحو الفناء توقفت هي عند اسفل السلم تحت الضوء، وقالت بعدما قربت وجهها مشيرة الى شعرها الذي نظر هو اليه.

- انك حتى لم تنظر الى ان الشعر غسل وازيح عنه كل آثار الحلاقة، وهو متكدس مثل اوراق الخريف بترتيب مشوش وتوج وجهها بروعة الخريف ويثير الدهشة ورفعت جيزي اصابعها مستعرضة اظافرها الحادة التي قلمتها.

- ها. كيف تراها؟- سألته وهي تقف ملاصقة له بالوقوف.

- نعم، نعم، لقد لاحظت ذلك - قال ذلك بنوع من الارتباك طالما جيزي صارت أكثر جمالاً فقط وهو يريد استبعاد هذا الجمال.

- ابداً، انت لم تلاحظ، وهذا شيء حسن من جانبك انك لم تلاحظ ذلك. والآن بعدما القيت

بالغلاف فسأتعلم عدم التفكير عن نفسي. اي سأكون مثلك.

ثم خرجا من البوابة وجلسا بسيارتها «رينو»، وواصلت هي الكلام بلهجة متحفظة ذكية:- من البداية عندي كانت غبية بالطبع، بل وغبية جداً، الا انني ما كنت أعرف ان ابدأ بشكل آخر.

- كلا - تكلم ماك غريغور وقال - لقد حصل عندك كل شيء بشكل جيد.

- ان هذا بسبب كونك قد فتحت امامي جوهر نكران الذات - تكلمت جيزي وقالت والآن فانا أفهم...

- بذل ماك غريغور جهداً ان لايبالغ بالتطلع الى جيزي وهي تناور بين أرتال السيارات وقال:

- كيف علمتك انا يا جيزي ذلك، في الوقت الذي انا لا اؤمن بنكران الذات.

- انت لا حاجة بك الى هذا، فان نكران الذات سجية مولودة معك، وان حياتك كلها مترعة به.

لم يرد عليها. وصعدا مرة أخرى الى المطبخ اللامع متلاصقين متلازمين مثل زوجين برجوازيين صرفا الخدم في المساء. وسألها ماك غريغور:

- كيف استطاعا الطيران؟ فحسبما اظن ان المطارات كلها مقفلة.

- مدارج الطيران الخاص في مطار اورلي تعمل، كما ان المطار الذي قرب مانديل مفتوح ايضاً.

- وهكذا هو يستطيع بهذه البساطة ان يغادر باريس ويطير منها عندما يخيم الخطر هنا عليها؟

- لا شيء يحول دون اهتمامات غي - تكلمت جيزي وهي تغطي المائدة وقالت - وهذا فعله ليس الآن بل وفي المستقبل، ولاتسأل عنهما أكثر من ذلك. فانهما سيعودان. وهذا هو الشيء الوحدي الذي بامكانك ان تعقد عليه الامل. ولاتدع هذا يحزنك.

- تحدث امور غير مفهومة - دمدم ماك غريغور.

وضعت جيزي صحنا امامه مع سمك السلمون ومست باصبعها بشرة وجنته النظيفة الخزفية. وقالت:

- ما اروع هذه النظافة. أليس من المؤسف ان الناس يضيعونها بهذه السهولة ويتخلون عنها بطيبة خاطر؟ ولكن لماذا؟ وما هو هذا الفرح العجيب بالقذارة؟

حاول ماك غريغور الهاء نفسه بالطعام لكن لم يستطيع ذلك. وقال:

- اظن ان الحياة في زمنكم تدفع نحو التفريق التدريجي حتى مما هو عزيز عليك.

- ليكن الأمر كذلك، ولكن توقف انت عن ترديد كلمات بائسة.

- ولأي سبب؟

- بسبب انك خازن للكذب. انك ذلك الذي يظل أبداً حارساً لقلقل الحياة أعمل كل ما في وسعك عمله، ولكنك لاتتجرأ على السقوط الآن في اليأس. ولا أحب انا ان اسمع منك كلمات بائسة.

- انت تمنحيني أهمية مبالغاً بها.

- بالعكس، فانت لاتعطي لنفسك حق قدرها.

- دعك من هذا... فما هي هذه المؤهلات التي هي عندي؟ واي قلعة هناك للحياة اقف على حراستها.

نهضت جيزي واقتربت من خلفه ومست كتفه مسةً خفيفة بيدها - الا انه ظل جالساً دون ان يلتفت نحوها. وقالت جيزي:

- لا بأس في المحاولة كما تعلم، وان ما حصل لنا هو حسن. ولن يكون هناك ما يسيء لك من قبلي او يزعجك ابداً.

جلس هو جامداً باسطاً يديه على المائدة.

- ان هذا بلا هدف يا جيزي.

- ولكن هل يجب وجود هدف هناك لكل شيء؟ وكذلك ليست هناك خيانة، فيما اذا كانت هذه الفكرة تصبيك بالفزع.

- كيف ان هذه الفكرة غير موجودة؟

- ان ما بينكما لم يبق منه الآن شيء مما كان من الممكن اعطاؤه.

- لا اعرف - نطق بذلك وقال - ان هذا موجود عندي ولا استطيع الغاءه. والا فالموت لكل شيء.

- يعني انك لاتريد التصديق والاعتراف بالحقيقة المرة.

- انا اصدق بالحقيقة المرة والحلوة. ولكن التصديق بهذه او تلك هو منتصف التصديق.

- لكنك هل تعرف اين تكمن مأساتك مع كيتي؟

- لا حاجة للكلام حول هذه النقطة يا جيزي.

رفعت جيزي يديها من فوق كتفيه وقالت:

- في الواقع لا حاجة لذلك. وكذلك فانا وبالذات لا اريد الكلام حول ذلك. وبما انك لاتريد تناول العشاء فهيا انقلك بجوله في المدينة.

- الآن؟

- سنذهب الى مكان غير بعيد. ولاتوجد اي حركة في الشوارع. فأني قد تلفنت للحارس مسيو مورو لأجل ان لايغلق هناك قفص المصعد.

لبست جيزي سترة، ونزل الاثنان عبر السلم الحلزوني. وفي السيارة سألها ماك غريغور الى اين هما ذاهبان.

- الى بور - رويال دى شان - أجابته جيزي وضغطت على زر بدء التشغيل. ولم يسأل ماك غريغور عن سبب الذهاب الى هناك. وقادت جيزي سيارتها الرينو عبر شوارع فارغة وبدون بوليس ومراقبين سريين ومسؤولي الادارات. كانت باريس غارقة بالظلام ومفتوحة لكل التيارات. وبعدما اجتازا جسر سان - كلو ظهرت للعين على لوحات اشارات المرور عبارة الى الطريق «مانت» فصار تحت عجلات السيارة الطريق الغرب السريع. وتوجهت جيزي بهذا الطريق بسرعة شديدة مثل طيار يطير بمهمة عسكرية حساسة، ومن بعدما استدارت من الطريق السريع اخذت تسير عائدة الى الوراء بسهولة نحو غير فيرسال ومن ثم توقفت جيزي بطريق الغابة. وسار مشياً في الغابة يميناً وشمالاً الى ان لمحا خطوط مبنى غير واضحة. ومن بعدما دخلت القفص توقفت جيزي. فهنا تبدو رائعة من جميع الجهات احراش اشجار الزيزفون.

- ما هذا الذي هنا؟ - سألها هو.

- في يوم ما كان هنا دير بور - رويال - اجابته جيزي وقالت - ففي القرن السابع عشر قطن هنا في هذه البقعة الصغيرة هراطقة مرتدون تحت وصاية داعية الدير العطوف ماريا انجليكا.

وفي الظلام كانت مرئية اشجار الزيزفون التي طوت اوراقها. والليل الرطب حرث الارض بنجوم الندى.

- لماذا جئت بي الى هنا - سألها هو.

- اردتك ان ترى...!

الفصل الرابع والثلاثون

في الصباح ودعوا سيسي للرحيل. وكانت سيسي تبكي بدموع حارة. بل وحتى العمة جوس قد خرجت من مخبئها الذي فيه مثل البوم ووقفت عند الباب تلوح بيدها، كأنما سيسي ترحل في نزهة فرح. فان سيسي قد ذهبت بسيارتها الستروين، وعاد المودعون الى البيت. وعند ذلك خرج ماك غريغور وراء البوابة وتوجه عبر السين نحو فسحة ارض يليسي حيث مكتب الخطوط الجوية البريطانية ليستعلم عما اذا كانت هناك طائرات تطير الى طهران.

واخبره مسؤول الخطوط ان الطائرات الانكليزية تصل الى طهران من بروكسل. ويتم السفر الى بروكسل بالسيارة (الباص). وقالوا له:

- باستطاعتك حجز مكان. ولكننا لانتعهد بالطيران، واذا لم تستطع استعمال بطاقة السفر فان ثمنها سنعيده كاملاً بالتأكيد.

- مفهوم.

كان يوجد ملصق دعائي على الجدار فوق رأس موظف المكتب، وهو يصور لعبة اندونوسية على شكل عروس. والعبارة المكتوبة على طول الملصق تفيد ان شركة الخطوط الجوية البريطانية تنقلكم الى هناك ومن هناك. والشعار كان منطقياً ومختصراً. وسأله موظف الشركة.

- أتريد ان احجز لك مكاناً؟

- نعم.

- في اي يوم؟

- يوم الجمعة اذا كان ذلك ممكناً.

- هناك ثلاثة ايام ما بيننا وبينك حتى يوم الجمعة...

في خلال ثلاثة ايام قد تستطيع كيتي ان تفهم صدقية عمله. ومن ثم ففي خلال ثلاثة ايام ستسنح فرصة مناسبة ليخبرها عن سفرته.

- اعتقد انه يوجد مكان في يوم الجمعة - تكلم موظف المكتب ووجه الاسئلة المعتادة: الجنسية، اللقب، الاسم، العنوان. ثم سؤال عما اذا كانت توجد فيزا ايرانية؟

- انها موجودة - اجاب ماك غريغور. ثم ذكر اسمه. وبصدد العنوان فقد قال انه ليس لديه حالياً عنوان، وسيقدمه غداً عندما سيأتي لتسلم بطاقة السفر.

- اذا كنت ستأتي غداً فالافضل ان تبكر بذلك - قال موظف الشركة واضاف - فقد تقرر اقامة مظاهرة كبيرة غداً في هذا المكان. وستكون جميع الشوارع مزدحمة. ففي هذا اليوم تظاهر الشيوعيون في ساحة الباستيل. وفي يوم غد سيتظاهر الديغوليون هنا في حقول يليسي. وفي هذه المرة سيتقرر من سيكون الرئيس علينا.

- عبر ماك غريغور عن شكره وخرج. وبعدما عاد الى البيت سمع صوت كيتي تعلن من المطبخ الى العمة جوس:

- انا سأجهز الافطار بنفسي:

سارع ماك غريغور الى الصالة لتحذير ابنه اندريه فقال:

- انا لحد الآن لم أخبر امك عن سفري الى ايران. ولهذا عليك ان تلتزم بالصمت الآن.

- ولكن يجب عليك ان تخبرها شخصياً، ولاترجئ ذلك.

- لايجوز ذلك - هز ماك غريغور رأسه واضاف - انها متوترة حتى بدون هذا.

- ان طه يريد ان يراك - قال اندريه - انه سيشارك في هذا اليوم بالمظاهرة التي يقيمها اتحاد العمال العام مع النقابات. فهو عنده قضية معك. وانا أعرف اين نبحث عن طه. فهيا بنا معاً الى هناك.

- حسناً - تكلم ماك غريغور مستعجلاً عندما رأى كيتي تخرج من المطبخ. لكن كيتي كأنما ادركت باحساسها عن ماذا يدور الحديث بينهما، فقالت لأبنها.

- انت لاتذهب الى المظاهرة بهذا اليوم.

- لكن ما سيجري بهذا اليوم وغدا هو المؤتمر الحاسم. وكل ما جرى من قبل هو خارج الحساب.

- ان غي قد حذرني يوم أمس: انك مع طه تلتقيان مع اصدقاء السوء من الكرد

والايرانيين. واذا ما اعتقلوك كما اعتقلوا سيسي فسيصيبك ما اصابها وهو الطرد من فرنسا. اما انا فلا استطيع الآن ان أحرك ساكناً. وانت ستتحمل العقوبة بشكل كامل.

انحنى اندريه وقبل أمه، وقال:

- لاتقلقي يا امي. انا لست جميلاً بمقدار ما لسيسي، ولن الفت نحوي مثل هذا الانتباه.

- انا سأذهب معه - تكلم ماك غريغور.

القت كيتي نظرة فاحصة على زوجها مشوبة بالشكوك. والتزمت حول الفطور بصمت ذي معنى.

وفي الطريق نحو ساحة الباستيل قرأ اندريه الجريدة بصوت مسموع. وجاء فيها انه هذا اليوم هو واحد من ايام فرنسا الحاسمة. بل وحتى قد أرسل كون بينديت سراً الى فرنسا مرة أخرى. «الا ان جميع الطلاب ومن ضمنهم كون بينديت «حركة ٢٢ آذار/ مارس» سيحاربون اليوم ضد مظاهره اتحاد العمال العام طالما ان عمال النقابات يرفضون شعارات الطلاب.

- كلا، ان الطلاب لن يتقاتلوا - تكلم ماك غريغور وقال - انهم بحاجة الى النقابات أكثر من حاجة النقابات لهم.

- ويذاع ان ديغول غادر باريس امس في الساعة ١١,٣٠ صباحاً واصل اندريه قراءة الجريدة وقال - وانه لم يظهر في مكانه في كولومب الا في الساعة ٥,٣٠ مساءً. ولا أحد يعرف اين امضى النهار. اما الجيش فانه قد طوق باريس وينتظر».

وتوقفا بعدما وصلا الى الشارع البولغاريا - بومارس. فالطريق كان مغلقاً بطوابير المتظاهرين الذين تحركوا الآن من ساحة الباستيل نحو ساحة الجمهورية وهم يرددون أغنية «وداعاً ديغول، وداعاً»:

- لنتوقف هنا انتظاراً للطلبة الاكراد - تكلم اندريه واضاف - انهم في مكان ما قريباً من نهاية المظاهرة وان طه معهم.

ان الشعارات والرايات عبرت باختصار ودقة عن موكب المظاهرة. فقد سار الاطباء والصحفيون والمعلمون وسار الباريسيون... وفي الأخير التقوا مع طه. فهو بعدما خرج من بين الصفوف ركض نحو ماك غريغور واندريه وسحبهما بيديه نحو رتل المتظاهرين.

- لا - قال ماك غريغور.

- ولكن لي معك كلام يا عم ايغو. واين يمكن اجراء حديث آمن أفضل من اجرائه وسط الرتل؟

استقبلهما المتظاهرون وسط لجتهم. وهنا الذين كانوا يسيرون هم الكرد والفرس والعرب وحتى الاتراك، وانهم أخفوا بكل وسائل غربتهم المرتسمة بوضوح على وجوههم. وضاع اندريه هنا فوراً وسط الذين يعرفونه. وساروا يمشون بمحاذاة اعلان عن السيرك الشتوي، ثم ان احدهم قد صرخ: ديغول في السيرك!». وضحك الجميع. الا ان طه لم يبتسم. فهو لم يأت الى هنا من اجل الضحك.

- متى ستسافر انت؟ - سأل طه ماك غريغور.

- في يوم الجمعة.

- يعني بعد يوم غد؟

- لا استطيع قبل ذلك - قال له ماك غريغور.

- هذا يعني انك ستلتقي مع والدي ومع القاضي يوم الاثنين أو الثلاثاء.

- اذا لم يحصل تأخير.

- ومن الذي سيؤخرك؟

- الايرانيون. فيكفي لو انهم يصل الى عملهم الهدف الذي اسافر من أجله، وكل من له مصلحة في التأخير. بل وحتى في أوروبا. فان الجميع هنا قد فتحوا اذانهم يا طه.

- لغاية هذا الوقت فليس هناك من عرف سبب سفرك.

- انهم يسمعون الاخبار حتماً. وانت تعرف ذلك.

- هذا أكيد - سكت طه منتظراً الطلبة الذين في المقدمة ان ينتهوا من ترديد الشعارات باصوات عالية، ثم قال - لقد علمنا ان تلك الصناديق مع الاسلحة سيعيدون شحنها الى ميناء تركي يوم السابع من حزيران/ يونيو وان ايلخان سيستقبل الشحنة في اليوم العاشر بوادي كاتور، وليس هناك حيث كنت اظن، بل في المراعي الصيفية، وبناء على ذلك فان زاتكو يجب ان يصل الى هناك يوم التاسع من الشهر.

- ولكن ما مدى صحة هذه المعلومات؟ - سأله ماك غريغور وقال - انا لا اريد ان انقل اخباراً مشكوكاً بها الى القاضي. عليك ان تتحقق بدقة من ذلك.

- اصدقاؤنا الاتراك يؤكدون ذلك.

- اليس من الممكن انهم يزودونك عمداً بمعلومات كاذبة؟

- كلا. انهم لايكذبون علينا.

- حسناً. انا اصدقك القول. ولكن كيف سيستطيع زاتكو الوصول الى كاتور؟ فان هذا الوادي هو على الحدود التركية تماماً في الواقع. وسينبغي عليه الاجتياز عبر سلسلة كاملة من نقاط حراسة الحدود.

- سيكون سهلاً عليه ان يلتزم بالمرور عبر سلسلة جبال كييم داخل الاراضي التركية.

ازاح ماك غريغور بيده العلم الذي غطى وجهه وقال:

- ان زاتكو هو الآن اضعف من ان يستطيع القيام بهذه العملية الجريئة. الا يوجد هناك خيار آخر؟

- ان القضية محصورة به بالذات - قال طه - ولكن هذا ليس كل شيء. فقد اردت الآن ان أخبرك عنه. فأنهم قد ينقلون الى طولون الآن ثلاثاً من عربات السكك أخر محملة بالاسلحة والعتاد. وقد جلبوها من بلجيكا لحساب ايلخان. وسيشحنونها كلها على نفس الباخرة.

- كان ينبغي ان نتوقع منهم هذه الخدعة - علق ماك غريغور على ذلك بمرارة. وسكت منتظراً متى سينتهي الصراخ بترديد الحان الشعارات ثم سأل من طه - وانت متى ستسافر؟

- غداً أو بعد غد.

- وكيف ستصل الى هناك؟

- لاتقلق حول ذلك يا عم ايغور. سأصل الى هناك وسألتقي فوراً مع والدي. وما عليك انت الا تسعى لاقناعهم بان يكون في اليوم العاشر من الشهر في كاتور. ومن بعد ذلك سيعرف والدي ما يجب عليه ان يفعله.

توقفت المسيرة قرب مطعم «أوجينا». فقد حدث ازدحام. ومن فوق شرفة بيت صغير ظهر شخص مع آلة تصوير سينمائية قياس ١٦ مليم وركزها على الاجانب المشاركين في المظاهرة ولما رفع ماك غريغور بصره وجد ان الكاميرة كانت مصوبة بالذات عليه مع طه. وصاح احدهم نذل.

اندفع طه نحو مدخل البيت مثل الطير الذي يغوص في الماء لصيد السمك، بحيث ان الشخص حامل الكاميرا لم يستطع ملاحظته. وركض طه قفزاً نحو الطابق الثاني ونط نحو الشرفة، وبعد عراك، اتلف الشريط السينمائي بعد انتزاعه من الكاميرة وتعلق فوق حاجز الشرفة مثل شرائط الورق في الحفلات. وما كادا ان يتحركا مرة أخرى حتى رجع طه ثابت الجأش الى صفوف الرتل حيث استقبلوه بنظرات الارتياح. وقال طه ملتقطاً انفاسه.

- انت مهدد بالاخطار دائماً. ويجب ان تأخذ الحذر يا عم ايغور.

- ليتك تلتزم الصمت...

- ما العمل. سأسكت - قلص طه كتفه وقال - ولكنني كنت قد نبهت اندريه محذراً اذ يجب عليه ان يقوم بحمايتك.

- ولكنني كنت قد حذرتك من أجل عدم توريط اندريه - تكلم ماك غريغور بانزعاج.

- لا احد عمل على توريطه. ولكنه لو تعرضت الى حادث بسبب اهمال منه سيظل من بعد ذلك يلوم نفسه مدى الحياة؟

- لن يحدث لي اي شيء. ولاسيما في باريس.

ووصلوا أخيراً الى ساحة الجمهورية. وهي نهاية المسيرة. وكانت جماعة «حفظ النظام» بعلاماتهم الخضراء فوق اذرعهم الذين راصفوا الواصلين الى الساحة يبذلون الجهد من أجل تكديس عشرات الوف المتظاهرين في كتلة متلاحمة. وكان نداء الجبهة الشعبية تعالى من كل مكان، وتلته الأغان، وغطت على الاغاني من بعد ذلك مرة اخرى اصوا تصارخة بالشعارات وصراخ مسعور ضد الرئيس.

- انتبه لي... امسك اندريه الذي نبع من مكان ما، يد والده وقال له - هيا بنا نذهب، والا فسنحتجز طويلاً.

بقي طه هناك بعدما عرف انه سيبقى وقتاً آخر ليسمع «دەنگ و باس» وهو ما يعني «الاخبار» باللغة الكردية. اما الترجمة الحرفية لها فهي «الصحيح والرغاء». وقال طه الى ماك غريغور انه سيزورهم مرة اخرى قبل السفر. وقام ماك غريغور مع اندريه بشق طريق لهما بين الجموع المنشدة نحو حافة الطريق. وتعالى من أحد راديوهات الترانزسيستر الى اسماعهم ان منديس فرانس قد امتط في نهاية المطاف صهوة الحصان الابيض، اذ اعلن ان ديغول اذا ما تنح مستقيلاً غداً، فانه هو منديس فرانس جاهز لتلبية دعوة الامة.

ضحك اندريه ولكنه لم يتأخر السماع الراديو. فقد اندفع الى الامام عبر الزحام على الارصفة. ومن ثم اوقر اذنه من خلف ظهره مقاطع من اخبار: «شاهدوا ديغول اليوم يتنزه ببارك في كولومب... وتربض طائرة عمودية باستعداد كامل. والطيار بجاهزية دفاعية يمسك خريطة بيده... ولكن لسبب ما...».

- غداً سينتزع الفرنسون السدادة من البرميل - تكلم اندريه بالفرنسية عندما خرجا أخيراً من غبار وزحام الشوارع المؤدية الى الساحة.

وفكر ماك غريغور مع نفسه: «انه يجب عليه ان يخبر كيتي غداً عن السفرة».

لم يبدأ النهار مما كان ينتظره ماك غريغور، بل من نداء تليفوني من سيسي بلندن. «لقد وصلت بسلام. لكن هذه كلها حماقة...» وتناولوا الافطار وحول المائدة طالع ماك غريغور جرائد هذا اليوم المصيري بالنسبة الى فرنسا فقد عاد ديغول الى قصر الاليزي، واتحتد قوى اليسار يعقد اجتماعاً بدون مشاركة الشيوعيين. الا انه بحسب رأي الشيوعيين لايمكن الرجوع الى سياسة القوى الثالثة او الى ادارة سحرة المعجزات. وقرأ اندريه بصوت مسموع جريدة «كومبا» وهي لسان الحزب السياسي «كنار اينشين» وهي جريدة هزلية مختصة بالنكات السياسية، قرأ عموداً محشوراً هناك يفيد بان الخطوة الحاسمة تتمثل بالاختيار بين ديغول وبين الشيوعيين. وكل ما عدا ذلك هو من حيث الجوهر هي اتحادات ما بين الأول والثاني.

- في يوم الاثنين سأعود الى لندن - اعلنت كيتي ونهض من حول المائدة. نظر اليها ماك غريغور مع اندريه ثم تبعها الى فوق. وأغلق من خلفه باب غرفة النوم، كأنما يريد بذلك الانقطاع عن الآخرين.

- هل عندكم نقود؟ - سألته كيتي.

- هل بالنقد الفرنسي؟

- نعم.

- عندي مئتا فرنك.

- أعطيني اياها. يجب ان ادفع للعمة جوس من أجل شراء النبيذ والعصير ولكن الا يوجد عندك أكثر من ذلك؟

- سآخذ بهذا اليوم.

- الحاجة تقتضي ما لايقل عن مئة فرانك أخرى.

- حسناً.

- ان هذا القليل من المال صار لابد من دفعه - كانت لهجة كيتي توحي وكأن ماك غريغور ممتنع عن الدفع حتى الآن. الا انه عرف ان هذه اللهجة تريد من ورائها كيتي ان يجبره على الانتقال الى الدفاع كما كان عليه الامر في بداية الكلام. وقد تباطأ منتظراً كيتي وهي تبحث عن حذائها في رف خزانة الملابس فقال:

- لقد حجزت بطاقة سفر على يوم غد اذ سأسافر الى طهران. ويجب ان اسافر لانقاذ ما

يمكن انقاذه. ويجب ان اشرح للقاضي ما حدث هنا.

جمدت كيتي بمكانها مقدار لحظة واحدة فقط. ومن ثم خرجت صفعت الباب بوجهه. وهو قد خرج وراءها يقول:

- اسمعيني يا كيتي. ان ما بقي بالنسبة لي شيء تافه. اعطني الفرطة لأنتهي منه بهدوء. اما من بعد ذلك فسأكون سعيداً بالافتراق عنهم الى الابد. فانهم مجبرون على منع جميع ما بدلته وصول شحنة الاسلحة. وانا سأسافر فقط لاوضح لهم السبب، والا فان جميع ما بدلته من جهد هناك سيذهب ادراج الرياح...

نزلت هي الى فناء البيت من دون أن ترد عليه او توقف. وهو قد سار على اثرها صامتاً فاقد الحيلة، وخرجت هي من البوابة وهو قد اندس وراءها، الا انها دفعته. وكان وجهها وكذلك جميع حركاتها خالية من الصرامة والقسوة ولكنها تنم عن قطيعة نهائية، وعيناها اغرورقتا بالدموع. وقال:

- لا اريد ان أكون معك ببيت واحد أكثر من ذلك. وكذلك لا اريد الكلام.

- ارجوك باسم الله...

- انت من هناك، من الجبال، لن تعود حياً - قاطعته بالكلام بغضب ودموع وهي ترد عليه مصراع البوابة... - وطفت حشرجة على صوتها، وأغلقت البوابة بدفعة قوية وقالت - انت ستستحق ذلك - ومن ثم تصاعد صوتها من خلال السور القديم تقول - انت بالذات ستتذكر ذلك!

وقف يستمع الى صوت خطواتها السريعة المبتعدة. ومن بعد ذلك توجه راجعاً نحو البيت. وركض اندريه نحوه مسرعاً من السلم وقال:

- أنا جئت اخبرك يطلبونك بالتليفون من لندن.

دخل ماك غريغور في المكتب وتناول سماعة التليفون. وظن انها سيسي.

ولكنها ليست هي. فان عاملة الاتصالات من لندن تسأل عن مستر ايغور ماك غريغور.

- انا اسمعكم.

- أوضحت له عاملة الاتصالات ان النداء من طهران والخط مفتوح عن طريق لندن وذلك لأن عمال الاتصالات مضربون عن العمل، ولكن الخط الاوتوماتيكي يعمل بين لندن وباريس.

- هالو. هذا انا. - تلفن له جمال جناب من ادارة شركة النفط الوطنية الايرانية بطهران.

وكان مسموعاً كيف انه يضغط على حنجرته بمكتبه الزجاجي معطياً واجب الاحترام لما سيلي من الحديث.

- ماذا حصل يا جمال؟ وما هي القضية؟

- اريد ان انقل لك ما يفرحك - صاح جمال واضاف - فهل انت تسمعني؟

- نعم، نعم.

- لقد تم تعيينك بوظيفة الممثل الدائم لشركة النفط الوطنية الايرانية في جنيف في اللجنة المختصة بالاحتياطات العالمية والمصادر.

- هكذا. ومتي حصل التعيين؟

- الآن. بهذا اليوم. قل هل انت فرحان؟

- طبعاً.

- ولكن ما هو الاكثر أهمية غير هذا - واصل جمال الكلام بتوثب وقال - نحن نرشحك لتكون رئيساً للجنة. وطالما ان الجميع يعرفونك ويعرفون اعمالك النظرية فانك ستتسنم منصب المدير. وانا أقسم لك على ذلك. وان هذا يا صديقي سيكون في الأخير تتويجاً لخدمات عبر سنين طويلة.

القى ماك غريغور نظرة على ولده ممشوق القوام الذي يقف قرب النافذة. ثم نظر الى مزهرية ذات الاوراق الذابلة التي جفت على رف النافذة مدة عشرين سنة.

- هالو. هل تسمعني؟

- نعم. انها أخبار سارة رائعة - صاح ماك غريغور باللغة الفارسية - انها أخبار عظيمة! وأعرف لمن انا مدين بذلك. واني اضمك الى صدري مئة الف مرة يا جمال.

وفي جوابه بدأ جمال يطري خدمات ماك غريغور بكلام منمق.

- يا صديقي العزيز، يا صديقي - كرر جمال ذلك بانفعال، فشعر ماك غريغور بالأيمان الساخن الذي يتملىء به جمال نحو الأسرة والصداقة والاخلاص للصديق.

واضاف جمال - ولكن... - تلفظ جمال ذلك بلهجة مأساوية ثم صمت فترة حتى سأله ماك غريغور:

- ولكن ماذا؟

- ارجوك يا حبيبي عدم القيام باي شيء مما يمكن ان يقتل الفرحة. فلا تتصد يانت لنفسك.

لاتسمح لنفسك لأي شيء يدعك تضيع... عندنا في الجبال. انت تفهم ما اقول.

«عندنا في الجبال» وابتسم ماك غريغور ابتسامة حزينة. ولست واضحا له وحده بل ولألاف الاذان التي تنصت اليها الآن هذه الاشارة من جمال.

- انا قلق عليك - واصل جمال الكلام.

- سأجيء وسنلتقي - تكلم ماك غريغور واضاف - لاتبالغ في القلق يا جمال. وسيكون جيداً كل شيء.

- ارجوك! - ناداه جمال مرة أخرى وقال - احرص على نفسك رجاءً.

- هذا شيء طبيعي «سآتي قبل تغضن ورق الزهرة» - وعده ماك غريغور.

تبادل الاثنان اخبارهم العائلية. واخبره جمال ان ابنته الصغيرة قد صنعت حيوانات مفترسة مدهشة من الطين الانكليزي - بلاستيلين، وقال

- عندي من النافذة حديقة حيوانات كاملة. فلدى الفيل بخرطوم منسدل دائماً الى الاسفل اما لدى القرد فعدة ذيول. قال جمال ذلك وهو يضحك. ثم كرر التهاني مرة وأخرى، ثم في الأخير وبعد عدة مرات من تبادل العبارات الفارسية حول الحب المتبادل والاحترام والثقة وضع ماك غريغور سماعة التليفون بمكانها. وسأله اندريه

- قل لي. الم يحصل شيء ما؟ وكل شيء على ما يرام؟

- نعم. كل شيء على ما يرام - أجابه ماك غريغور باختصار.

الفصل الخامس والثلاثون

كان هذا هو آخر يوم له في باريس. فهو قد ذهب الى مكتب شركة الخطوط الجوية البريطانية لتسلم البطاقة. وذهب اندريه معه. وفي الليل دوى صوت انفجارين في نهاية الشارع. اما على الجانب الشمالي من النهر فلم يهدأ الضجيج الليلي.

في اثناء ما سلم موظف مكتب الشركة بطاقة السفر الى ماك غريغور قال له ان حافلة الباص ستتحرك الى بروكسيل في الساعة التاسعة صباحاً من فندق «كونتيننتال». وحذره قائلاً:

– وانصحك ان تأخذ عفشا أقل لأن المكان قليل في الحافلة.

بعدما عاد ماك غريغور الى البيت كتب رسالة قصيرة الى سيسي أمرها بها ان تنصاع الى والدتها. ورغم ان وقت الغداء قد حان الا ان كيتي ماتزال غائبة. وقام بسؤال ولده الذي يراقب صامتاً مجرى المشاجرة الأسروية.

– الى اين ان نذهب لنتناول الطعام؟

– الافضل من كل شيء ان ننتظر خطاب ديغول في «روتوندا» اذ عين لينين في يوم ما هذا المكان للقاء مع لونغ.

الا ان «روتندا» ظهر انه الآن عبارة عن نصف مطعم ونصف مسرح. ولهذا فهما قد ذهبا الى «كوبول» وجلسا هناك على المقاعد الجلدية للحفلات. وحانت الساعة الثالثة الا ان خطاب ديغول لم يظهر. ثم حلت الساعة الرابعة وبدأ «كوبول» يغلي من الانتظار.

– هل انت قرأت رواية زولا «باريس»؟ – سأل ماك غريغور ولده.

– كلا. ما عدا مقدمة غيوغو اذ اعطوها لنا بالمدرسة المتوسطة.

– لابد ان زولا استوحاها هنا في «كوبول» – قال ماك غريغور.

جلبوا لهم ما طلبوه من طعام. ونسي ماك غريغور ما طلب من طعام، وقد أخذه العجب عندما رأى امامه سمك الغاريل في الصحن. وكان الجميع من حوله يأكلون ويتحادثون ويتساءلون. اما اندريه فكان طول الوقت ينظر الى الساعة وجاء النادل وفتح جهاز الراديو. وانشد شانسون «ماري». ومن بعد ذلك صدح التشريف الكلاسيكي للنبأ الاحتفالي. وفي الأخير دوى الصوت القديم المحبوب الحديدي الغاضب لديغول الذي وجهه الى الفرنسيات والفرنسيين.

أعلن الرئيس انه لن يستقبل. وكذلك فان الادارة لن تستقيل، والخيار لدى الامة هو فقط بينه وبين الشيوعيين. الا ان طريق الشيوعية ليس لفرنسا. وهو يقترح انتخابات برلمانية واجراء اصلاحات. وفي حالة رفض ذلك فسيستخدم قوة السلطة لأجل استعادة النظام في البلاد. «قوة السلطة» عبارة قيلت متقطعة وبصوت مدوٍ. وجرى حل البرلمان في مرحلة ما قبل الانتخابات.

ووضع الرئيس نقطة النهاية الى هذا الحد.

ثارت ضجة في «كوبول». «الثامن عشر من تشرين الاول/ اكتوبر!» «الثاني من تشرين الاول/ اكتوبر!». «الثالث عشر من ايار/ مايو». وشابهت الضجة من حولهم الاضطراب المالي في البورصة. ولاحظ اندريه قائلاً:

- المجتمعون في كوبول غير راضين وممتعضون.

- ان يكونوا راضين أو غير راضين لا فرق في ذلك. فقد انتهى كل شيء

- قال ماك غريغور.

بعدما دفعا الحساب خرجا وتوجها تحت شمس صفراء شاحبة نحو الجهة الأخرى من النهر ليروا مظاهرة الديغوليين ذات المئتي الف متظاهر في ساحات الاليزي المغبرة وهم يرددون نشيد «المارسيليز». وقد احب ماك غريغور «المارسيليز» ولكنه عندما نظر الى هؤلاء الباعة والاعمال الخاصة ورجال الاعمال والنساء بمعاطف من وبر الجمال، لم يستطيع الاعتقاد ان ابناء الفلاحين والجنود الفرنسيين قد طوقوا باريس بالدبابات والمدرعات للدفاع عن الاعلام الورقية ذات الالوان الثلاثة المعلقة على قبعات الديغوليين. وقال اندريه:

- وبهذه الصورة وضع الصليب على ثورة باريس العظيم.

عاد الاثنان للشارع النهر من الطرف الشمالي. اما من خلفهم فكانت تسمع صرخات الديغوليين: «الحرية، الحرية، الحرية!» وعند هذا فارق ماك غريغور فرنسا. وخيم عليه الاسى

عندما اصطفقت البوابة الخشبية المرتفعة الملطخة بالحامض لتعزله عن باريس.

واندهش كل الدهشة عندما رأى العمة جوس في المكتب مشغولة بحديث مع كيتي وموزيل. وأخير حان الوقت لان ينزل العقاب بهذا الصوت الناعم وقبلت العمة جوس اندريه بوجنتيه ثم من فمه، وكأنها لم تلاحظ حضور ماك غريغور. ألا تقبلي الأب؟

- انا لا افهمه - انتصبت العمة جوس بشموخ وقالت - انه يخيفني...

- وهل ان ماك غريغور مخيف؟ يا رب العدالة.

- يا اندريه، أجلب لي القبقاب - تكلمت العمة جوس وقالت - اريد الخروج للتنزه.

لبست العمة جوس القبقاب الخفيف في خروجها من البيت بعدما أغرقت وجهها ورجليها بزيت الحوت اتقاءً من البعوض ومن الهواء النقي بحيث ان القدم دخل باكمله في القبقاب، واتجهت العمة جوس نحو الباب. ولكن ماك غريغور الذي لم تتكرم عليه بكلمة أو نظرة نهض احتراماً لها مع موزيل. وسمعوا في الصالة ما قالته لاندريه.

- رافقني يا صغيري. وادعو الله ان لا أعثر مرة أخرى.

- ان هذا منتهى الذوق بالنسبة للعمة جوس - قالت كيتي ذلك بلا اكتراث في هذه الملاحظة ولم تتوجه بها لأي احد بشكل خاص. الا ان شعوراً أحس به ماك غريغور، ان هؤلاء الثلاثة يحيكون هنا ضده مؤامرة عائلية.

- اننا بلهجة متوددة، بحيث لم يق اي شيء لدى ماك غريغور سوى التكيف ايضاً مع اللهجة الودية (لا حيلة له مع موزيل) وقال - اننا بحثنا عنك بشكل مخصوص. لأن الزوج مطلوب حضوره بحسب القوانين الفرنسية.

- لقد ذهبت مع اندريه الى الضفة اليمنى من النهر لرؤية مظاهرة الديغوليين.

- قال ماك غريغور.

- المظاهر الديغولية هي نموذج ليس رديئاً للأميين - لاحظ موزيل وقال - لقد القينا نظرة على «كوبول». وهو ينتعش - واصل كلامه واضاف - لقد رأيناك هناك مع اندريه. ولكن الحاجة اليك. في ذلك الوقت كانت قد انتفت. اما انتما فقد شكلتما ذلك الثنائي النادر الرقيق، بحيث قررنا عدم ازعاجكما.

أحس ماك غريغور ان شيئاً يدفعه لصد هذا المتملص الغريب الذي سيطر على مقدراته العائلية من حقوق وواجبات، الا انه ادرك ان الوقت هذا غير مناسب لذلك.

- آه. قل له يا غي - تمتمت كيتي على مهلها.

شعر ماك غريغور ببرد من الهواجس. فقد احس ان كيتي تذهب من يده، وسيخبره موزيل الآن عن ذلك بكلامه الساحر العملي الاعتيادي والفكر السديد، اي وفق ترتيب ما يوصف بانه تبادل بسيط نبيل للمعلومات بن اثنين من الناس النظاميين.

- سمعت انك ستسافر غداً الى طهران. بدأ موزيل الكلام مع ابتسامة، وكأنه قرر ان المناسبة مواتية لكشف الوضع هنا.

- نعم...

- وهل من الضروري جداً القيام بهذا السفر؟ هل هو مهم جداً؟.

- يجب القيام هناك باجراء بعض التنظيم - قال ماك غريغور.

- انت ترتكب خطأ بذلك - قال موزيل واضاف - صدقني...

- ولكن لماذا اصدقك؟

- وذلك لأنك لن تستطيع الحيلولة دون ايلخان لتسلم الاسلحة، وكذلك لاتفعل الا ما يسيء الى علاقتك مع الآخرين كلهم.

- كلا، ليس مع الجميع.

- بل وحتى الكرد سوف لايشكرونك على الموقف الراهن. وانت ليس بامكانك ذلك والامريكيون لايطيقون صبراً فضلاً عن الانكليز والفرنسيين، ناهيك كذلك عن الاتراك. فماذا ستحقق انت من سفرك؟

- لا أعرف - رد ماك غريغور وقال - اعرف فقط انه لايجوز السماح لمثل هذا التدخل الوقح من غريب.

- ولكن هناك خطراً يتهددك - واصل موزيل الكلام دون ان يصغي اليه وقال - يجب عليك ان تفكر بالخطر الذي يتهددك من وراء رجوعك الى هناك.

- كان الخطر يتهددني من قبل ايضاً - قال ماك غريغور واضاف - ولم افكر بأي شيء تفكيراً خاصاً.

- هذه حماقة وكذب! - تكلمت كيتي بغضب متوجهة بالكلام مباشرة الى ماك غريغور.

نظر ماك غريغور نظرة شديدة التركيز الى كيتي: فهل يا ترى هي التي رجت موزيل ان يأتي لاقناعه بالعدول عن السفر؟ هذا غير محتمل ولكنه حقيقة! وهي حقيقة اسعدته بصورة مفاجئة.

- شكراً على قلقك بشأني - قال هو لموزيل واضاف - لكنكم لا تعرفون فداحة الاخطار التي يحملها تدخلكم هذا بالنسبة للاكراد.

- لنفترض اننا لانفهم ذلك. ولكنني أفهم فزع كيتي. وارجوك ان تفكر مسبقاً تفكيراً حسناً. - (واعطى هذا معنى وكأن ماك غريغور ليس زوجاً بل مجرد صديق للعائلة) - ان مشاريعك الخيالية لاتملك أي خط من النجاح.

- اي مشاريع؟

- بحسب قول كيتي فأنت تنوي نصب كمين لتتربص للشحنة في مكان ما على الحدود الايرانية.

- كيف تنطقين بمثل هذا الكلام يا كيتي؟ وممن انت سمعت هذا الكلام؟ - صاح مندهشاً ماك غريغور.

- سمعته منك - اجابت كتي وقالت - انت الذي قلت ما يكفي تماماً. اما عن الباقي فأنني قد خمنت ذلك.

- وهل كان يجب عليك ان تثرثري؟

لقد تبخر فجأة الفرح الذي جلبته له كيتي قبل دقيقة سابقة. فانها قد ذهبت بعيداً جداً في ثقتها العمياء بموزيل.

- اهدأ - قال له موزيل بلهجة مهادنة واضاف - انا استطيع الاحتفاظ بسرية ما افصحت لي كيتي عنه، ولكن اليست هذه حقيقة يا ماك غريغور؟

لاذ ماك غريغور بصمت حزين.

- خذ بنظر الاعتبار - واصل موزيل كلامه اللين - ان الامريكيين يملكون في قاعدة بستان في تركيا عشرين طائرة عمودية تقوم بتحليقات فوق جميع الطرق الجبلية. والامريكيون لم يخبروا الايرانيين عما يجرى بشأن هذه الاسلحة. الا ان الاتراك يعرفون ذلك. وسيراقب الاتراك ذلك بانتباه. وانت لاتملك اي حظ من النجاح مهما كان قليلاً يا ماك غريغور. أمن الممكن انت لاترى ان القضية الآن هي حماقة؟

- انها من قبل ذلك كانت حماقة - تكلمت كيتي واضافت - ومنذ البداية الاولى، ولكنك اغمضت عينيك عن الحقيقة.

- بهذه الصورة أو تلك فان النهاية المأساوية الحتمية واضحة للعين بالنسبة لي - قال

موزيل واضاف - انها تسترعي النظر.

- وكذلك فأنهم فضلاً عن ذلك ليسوا بحاجة اليك - صاحت كيتي بغضب وقالت - لقد تأخر الوقت بالنسبة لسفرك الى هناك مع مستشاريك او مع غيرهم.

- انا لست مع مستشارين. انا اسافر لاخبرهم عما حدث، أي لأحذرهم. نهض موزيل من فوق الكرسي وقال:

- لاتفعل ذلك يا ماك غريغور. لاتسافر الآن. وقف جانباً بالنسبة لكردستان. كن مبتعداً عنها.

- لقد اعدوا لك استقبالاً هناك - تكلمت كيتي وقالت - فهل ان تحذيرات غي تحتاج الى شرح بالنسبة لك؟

- كلا. لربما لا حاجة لذلك.

- وهكذا قف انت جانباً - تكلم غي بلهجة عنيفة، الا انه ابتسم بنفس الوقت ابتسامة ودية.

لم يرد عليه ماك غريغور. اما موزيل فقد حرك كتفيه، ومد يده مودعاً ثم توجه نحو باب الخروج بمرافقة كيتي.

- انا لا استطيع الآن الابتعاد عنهم - تكلم ماك غريغور من خلف موزيل وقال - ان هذا مستحيل.

واراد موزيل ان يرد عليه بشيء ما الا ان كيتي مسته من كوعه وقالت:

- لأجل مرضاة الله لاتبذل الجهد والكلام بلا طائل. فهو على كل حال لن يصغي.

- اعبر عن الاسف يا ماك غريغور - قال موزيل - انا حاولت اكراماً لكيتي. وأعتقدت انك ستفهم ذلك.

- ماذا بوسعي ان اعمل - قال ماك غريغور.

عندما رجعت كيتي فهي لم تبكِ رغم كون عينيها تلتمعان بالشكوك.

وابقت نفسها في برود حصيف منذر بالشؤم وقالت:

- اذا كان الأمر هكذا فانا الآن عاجزة. وبأمكانك ان تفعل ما تشاء وباستطاعتك ان تذهب نهائياً. وان تتوادع الآن معي كزوجة.

لم يرد هو عليها.

- هل انت لاتصدقني؟

«لا اصدقك» - هز هو رأسه.

- اخرج - قالت هي له واضافت ولاتعد ابداً.

- آه يا كيتي - قال ماك غريغور واضاف - انا لا اريد الذهاب الى هناك. فانني في الواقع قد انتهيت من هذه القضية. ولكنني اؤكد لك مرة أخرى وهو انه لم يبق الا شيء وحيد يجب ان انجزه ايضاً.

- اذا كان يجب، فانجزه. اخرج هيا. والكلام معك بلا فائدة وستفهم انت عندما ستعود فقط. وعند ذاك ستعترف...

- ولماذا انت هكذا؟ - قال ذلك بصيغة العتاب.

ونظرت له مثل من ينظر من بعيد، وكأنه أختفى الآن وراء الأفق. وقالت بقوة:

- اذهب وهذا كل شيء. اذهب.

مد هو يده نحوها بحركة حنان.

- لا تلمسني - تكلمت بلهجة حادة وقالت - انت تفكر بأنني استجيب للمناسبة مثل زوجة حمقاء، كلا ابداً. ثم كررت وهي ترتقي السلم وبصوت عال - كلا ابداً، كلا ابداً، ولا لقاء اي شيء!


القسم الخامس

الفصل السادس الثلاثون

لقد نزل الثلج الآن على الجبال. وكانت يابسة في هذا الربيع شبكات جداول الانهار ذات اللون الضارب الى الحمرة الرمادية التي تجري عادة نحو الشرق فوق سفوح دلانبا. وما كان يبدو ان هذا الوقت هو نهاية ايار/ مايو بل في منتصف الصيف. الا ان ماك غريغور الآن على ذلك الجانب من السلسلة الجبلية. وبعدما اشار الى كتلتين طويلتين من الجبال تسمى باللغة الكردية كار وكاري (وهو ما يعني الأنيقين) قال لطه:

- ها هنا جفاف. ولكن انظر الى هناك نحو الجانب الغربي، فكل شيء يافع.

- ولكن ما هو سبب ذلك؟

- عند ذوبان الثلوج المبكر على هذه السفوح الطينية فان المياه تجري نحو السفوح الغربية بينما تبقي السفوح الشرقية جافة جرداء.

ما كانت تبدو للعين زهور الخشخاش الجبلية الكبيرة ونبات الاسطر واذان الدب والبندق الارضي وزهور خصى الذئب البرية والنباتات الطفيلية المتحدية. فالزهور ما كانت تشغل طه الذي قال ممتعضاً:

- اننا سنقضي هنا يومين آخرين ايضاً لاجتياز سلسلة الجبال. ولكن لا أعرف لماذا هذا بالنسبة لنا.

- انهم راقبوننا من كل مكان - تكلم ماك غريغور واضاف - يجب ان نتحرك بالخفاء باقصى ما يمكن لتجنب المرصد.

- ولكنني ايها العم اغور اسير كما ترى ابعد مما انت تسير ونحن ينبغي علينا ان نسرع. فلماذا لاننزل على الطريق ولا نأخذ الطريق المستقيم عبر قرية كيركي وقرية زارعاى؟

- نحن سرنا لحد الان متخفين. ومن الحماقة إن نكشف الان عن وجودنا - تكلم ماك غريغور بلهجة صلبة.

ان طه نفسه قد تصرف بسرية تامة منذ مغادرته باريس. فهو قد خدع الجميع، وحتى ماك غريغور. فقد ذهب الى فرانكفورت بحافلة باص. ومن هناك سافر بالطائرة الى اثينا عن طريق روما. اما في روما قد خرج وانتقل الى طائرة الخطوط الجوية البريطانية، وهي نفس الطائرة التي استقلها ماك غريغور متوجها الى ايران. وفي اثناء النزول على سلم الطائرة في طهران شعر ماك غريغور بنغزة خفيفة على مرفقه. ومن ثم وفي هذه اللحظة تعرف على طه وقال له:

- ليأخذك الشيطان. ما هذا الذي صنعته بوجهك؟

- لا شيء - اجابه طه بتواضع وقال - حلقت شاربي وقصصت شيئاً من الحاجبين، بحيث اكون شبيهان لما هو في جواز سفر.

- سيعتقلونك هنا، بسبب جواز السفر المزور - حذره ماك غريغور، عندما دخلوا في بناية المطار الخانقة.

- انه ليس مزوراً. فهو جاز سفر حقيقي - طمأنه طه وقال - فان احد الطلاب الفرس قد اعطاني جواز سفره في باريس.

- ولكنه ماذا سيفعل بدون جواز سفر؟- سأله ماك غريغور، وهما يستسمحان المسافرين للمرور نحو حاجز البولس للرقابة.

- بعد اسبوع او اثنين سيعلن بأن جواز سفره قد سرق منه. وأنني حتى ذلك الوقت سأحرقه. اما انا فمن ذا الذي سيتذكرني؟

- عند الحاجز اجتازا بدون اسئلة خبيثة. وبعدما استبدلاً بعضاً من نقودهما الى النقد الايراني خرجاً بدون عراقيل من المطار. وبواسطة حافلات الباص ما بين المدن ذهبا اولاً الى تبريز، ومن بعد ذلك اجتازا بحيرة اوروميا من جهة الشمال اي عبر باغام وماداد وميللوس. ومن بعد ذلك استقلا سيارات الشحن وحافلات الباص القروية والعربات. اما حالياً فهما يجتازان سيراً على الاقدام الوديان الكردية الضيقة بحركة التفافية حول جبل ديلاغ، متوجهين نحو تلك الزاوية من الارض التي تلتقي فيها الحدود الايرانية العراقية التركية. والقرار قد اتخذ من قبل ان ينطلق طه لوحده من هناك، لأجل تجميع اشخاصه الثائرين للنزول معهم الى وادي كوتور. الا ان طه قال مقدماً انهم بحاجة الى اخبار مؤكدة من القاضي وزاتكو. وطالما انه لم يصل منها لاحس ولانفس فان الفلاحين الكرد لايعرفون اي شيء.

- الجميع خائفون الآن. وكلما يمر الوقت فسيزداد الخوف - تكلم طه بتجهم. وتوجه الاثنان نحو قرية للرعاة تبدو فقيرة غير واضحة المعالم ملتصقة على سفح طيني اجرد.

- يجب طبعاً توجيه الشكر الى فلانديرس - قال ماك غريغور - فهو الذي جهز هنا هذه التربة لايلخان ودوباس.

انهما تحدثا عند سفوح الجبال عن ان الانكليز الذين يرعون الاطفال يتجولون بين القرى ويدعون سكانها ان يكونوا حذرين على اطفالهم. وكأن كارثة تزحف عليهم...

- لقد عجت اخبار مخيفة - تكلم طه يضغط قبضتيه.

لقد أخبرهم المختار في آخر قرية كانا قد وصلا اليها، ان القاضي قد قضى نحبه في العراق. وان زاتكو قد أعتقل في تركيا وشنق.

- ومن قال لك ذلك؟ - سأله طه بغضب.

- ذكر ذلك أحد قطاع الطرق الذي جاء الى هنا مصاباً بمرض قبل اسبوع. لا بل قبل عشرة ايام...

- ان ذاك كان خائناً وجبانا - تكلم طه. ولما رأى المختار انه يتعامل ليس مع انسان صغير، بل مع سياسي كردي مثقف ثقافة عالية، فقد أخذ يعتذر.

- انني لا ذنب لي هنا. ولاتغضب.

- ولكنه يجب عليك ان لاتردد كلاماً اخرق.

بعد صعودهما الى قرية أسناف نحو حفر ارضية مغلفة بقطع حجر على شكل نصف كهف حفرت على المنحدر الكئيب من الجبل فأنهما لم يجدا هناك سوى العجائز والاطفال واثنين او ثلاثة من الشيوخ بملابس متهرئة يكرزون البذور واستقبلهم الشيوخ باحترام غير متوقع انطلاقاً من شعورهم انهم هم الرؤوساء هنا في غياب الرجال رعاة الغنم. كان القاضي هنا قبل يومين لا أكثر حيث اقام مخيماً على ذروة جبل عال في المنطقة - ذكر ذلك احد الشيوخ.

- من اين وصل ذلك الى علمك؟ - سأله طه.

- اننا نعرف كل ما يحدث عندنا في الجبال - اجاب بلباقة.

- انتم أيها العاجزون لاتعرفون اي شيء - تكلم طه ثم التفت الى اطفال القرية الذين كانوا يطاردون الكلاب المحلية. وتعالت اصوات الاولاد مثل الديكة مقلدين الشيوخ بالكلام ويتضاحكون:

- انهم يخلصون بين الجميع عشوائيا. فهؤلاء هم اتباع ايلخان على سفوح الجبال يبحثون عن لصوص.

- اتباع ايلخان هنا ؟ - دهش ماك غريغور وسأل - وهل انتم متأكدون تماماًمن ذلك؟

- نعم. ولماذا نكذب؟ - امتعض الاولاد. وصرخ الشيوخ والعجائز متدخلين بالكلام. وارتفع الصياح والجدل ونبحت الكلاب.

- كفاكم ذلك! - صاح بهم طه.

- ضحكوا بلا قصد، وهذا هو («الهرج والمرج الكردي التقليدي»). وقال ماك غريغور لطه:

- هيا نبيت الليلة هنا. فأننا الآن على الحدود العراقية تقريباً. واذا كنا سوف لانعرف اي شيء من الرعاة عندما سيعودون في المساء، فعند ذاك سأذهب انا الى الجانب الآخر من الجبل لأكون على مسافة أكثر قربا من قرية عراقية.

- لأجل ان تعثر على مخفر عسكري عراقي - تكلم طه من أجل الضحك.

- ان القاضي وزاتكو يتحاشان كالعادة، الاصطدام مع ايلخان، وان هذا يعني ان البحث عنهما يجب ان يكون بالذات في ذلك الجانب - اجابه ماك غريغور.

رتبت العجائز لهما مكاناً في زاوية الكوخ. وتناولا عشاءهما من معلبات اللحوم التي حملاها معهما فضلاً عن الخبز الجاف. ومن بعدما عاد الرجال من المرعى مع النساء الشابات. وكان الرجال بقمصلات متهرئة وبعدد قليل. ان الجفاف وانعدام العشب يقتل الحملات والاجداء. هكذا اشتكى الرعاة، وقالوا ان هذه السنة ستكون سيئة. جلس الرعاة حول حوق نار بعر الحيوانات ويلقمون النار بالطحالب ويتبادلون الكلام عن مصائبهم. اما ماك غريغور فقد جلس متربعاً على كعبيه ويصغي الى طه يحثهم على التخلص نهائياً من حياة الخمول البدائية والانخراط في الثورة الكردية الحقيقية ضد جميع الاقطاعيين والاجانب، وقال طه:

- ان كل كردي يجب عليه ان ينفذ واجباً وان يرخص حياته له.

انساب المستقبل مع نسيم الليل. وراح ماك غريغور في اغفاءة. وعندما ايقظه طه كانت النار قد خمدت. وتفرق الرعاة، وخيم الظلام والجو الرطب والبرد. وتكلم طه يقول:

- يبدو انك محق في كلامك. فانهم يقولون ان القاضي وزاتكو في ذلك الجانب من الجبل. الا ان اتباع ايلخان يترصدون في المعابر الجبلية ويلقون القبض على جميع الاكراد من الذين يتوجهون الى العراق بدروب المهربين القديمة.

- كيف وصل اتباع ايلخان هؤلاء الى هنا ؟ - تكلم ماك غريغور واضاف - ومن هم الذين ساعدونهم هنا ؟

- بحسب اقوال الرعاة، فان الطائرات العمودية تحوم هنا باستمرار. وهي تنقل قسماً من الاكراد وتطلق النار على قسم آخر.

- ولمن تعود هذه الطائرات العمودية؟

- ليست معروفة عائديتها. ولكن الجميع واثقون هنا بانهم كانوا قد القوا القبض على زاتكو قبل بضعة اسابيع، ونقلوه الى تركيا واعدموه بالرصاص. ولكنني أظن ان هذه اشاعة كاذبة أطلقها ايلخان.

- ولكنها قد تكون صحيحة - تكلم ماك غريغور بلهجة كئيبة وقال - وفضلاً عن ذلك فان طائرات عمودية تحت تصرفهم.

اضطجع الاثنان في الكوخ. واسند طه رأسه الى يده وسأل:

- كيف نحمي انفسنا من الطائرات العمودية؟

- اصابة واحدة أو اثنتان بقذائف صاروخية لعلها افضل من كل شيء - تكلم ماك غريغور بلهجة مهزوزة وقال - لكن ينبغي استخدام سلاح صاروخي بل ومن الافضل استخدام عدة اسلحة.

- ينبغي علينا الحصول عليها - تكلم طه وفرقع سلاميات اصابعه علامة على الوضوء الاسلامي، وهو العلامة القديمة الخرقاء بحسب رأيه الشخصي.

ومن اين يتهيأ طه بالذات للحصول على الاسلحة الصاروخية، فان ماك غريغور بقي يجهل ذلك واستسلم لسلطان النوم.

وفي الصباح بعدما صعدوا مع الرعاة من الوهاد الحجرية شاهدوا في مكان العبور المؤدي الى قرية عراقية اثنين بلباس الخيالة الاكراد يحرسان المكان بالبنادق.

- هؤلاء من اتباع ايلخان يبحثون عنكم - تكلم راع شاب يلبس بقدميه جزمة عسكرية عراقية يجب ان تكون قد وصلت اليه من احد المهربين.

- ليأخذهم الشيطان - قال طه واضاف - يبدو انهم نصبوا شبكة عنكبوتية، ومن اين وصل الى علمهم اننا هنا؟

- لربما بواسطة الراديو.

- وهل انهم عندهم محطة اذاعة في سروج خيولهم؟ - ضحك طه بغضب.

- انها عبارة عن صناديق صغيرة.

- نعم انا اعرف ذلك - قال طه.

وبعدما وصلا الى مرتفع مناسب للمكوث توادعا مع الرعاة وشرعاً ينتقلان فوق السفوح الجافة نحو الذرى العالية التي تنقسم المياه عندها، باتجاه جسر معلق للمشاة كان قد اقيم منذ سنوات عديدة ماضية عبر فج مضيق.

- عبر هذا الجسر المتزعزع لن يستطيع الخيالة مطاردتنا - قال ماك غريغور واضاف - اما اذا يركضون للالتفاف علينا، فسينبغي عليهم لتحقيق ذلك يوم أو أكثر من ذلك.

- والى اين سنصل عبر هذا الجسر الصغير؟ - سأله طه رافعاً رأسه الى أعلى متطلعاً نحو القمة الصخرية، الى اين يجب عليهما ان يواصلا التسلق. وشعر طه بالانزعاج مرة أخرى من الحذر الذي يلتزم به ماك غريغور وقال - لنمكث على الجبل وينصرم علينا هناك قليل من الوقت حتى ننحدر من بعد ذلك الى جانب الآخر.

- اذا كان والدك مايزال على قيد الحياة فلابد ان يكون هناك رقيب تابع له خلف الجسر، ومن ثم فسنعرف نحن من الرقيب بالتأكيد كيف وماذا.

- كل هذا ليس بهذه الصورة أو تلك - اعترض طه بعنف.

- ماذا اصابك؟

- لوح طه بيده بحزن على الجبال البعيدة وقال:

- حماقة وقحط، وكل شيء قاحل. وعبر القرون لم نحصل على فائدة من هذه الجبال.

- انها وطنك - قال ماك غريغور وهو يتسلق متعقباً طه ويأخذ انفاسه بصعوبة واضاف - لاتحتقر وطنك.

- خواء وفقر - واصل طه الكلام. وان ماك غريغور لم يسمع منه فيما سبق مثل هذه العبارات المريرة.

- احس ان عندك طبيعة المدينة - جرب ماك غريغور ايراد نكتة واضاف - ولكنك رغم كل شيء لاتصعر خدك.

- كان ينبغي علينا من وقت بعيد النزول من الجبال. وان ننهض للنضال من المصانع وفي شوارع المدن.

- ومع أي من الطلاب؟ - عاكسه ماك غريغور وهو يتكيء على حجر ساخن من اجل استعادة انفاسه ولغرض ان يجف قميصه وسرواله من العرق.

- انا انحني احتراماً لكلامك الذهبي - شكره طه بعبارة لاسعة.

- انت بمزاج متعكر - تكلم ماك غريغور. ثم واصلا مرة أخرى تسلق سفوح اشد انحداراً وبدون اي معدات لازمة لتسلق الجبال وقال - اننا بواسطة انحرافات بسيطة نسعى فقط الى عدم الانزلاق فوق الأتربة المنهارة. ولكن طه، بعدما تقدم بعيداً عن ماك غريغور، جلس فوق كتلة من الحجر وقال:

- هؤلاء هم مرة أخرى - اشار طه الى السفح البعيد المقابل لهم. وتشبث ماك غريغور صاعداً نحو طه ثم نظر الى هناك فرأى الرجلين الفارسين كليهما. ورفع واحد من اتباع ايلخان بندقيته وسددها.

- ان هذا يظن ان بيده مدفعاً بعيد المدى - استهزأ طه ضاحكاً.

أسود دخان البارود حاملاً صوت الاطلاق ولكن لم يحصل صفير عن وصول الرصاصة.

- انه يعطي اشارة الى شخص ما - قال ماك غريغور.

- ولكن الى من؟ والى اين؟

لم يجبه ماك غريغور. الا انه أخذ انفاساً عميقة وهنا نظر اليه طه نظرة مركزة وقال:

- هل تعبت يا عم ايغور؟

- كلا.

- ار علامات التعب على وجهك.

- هذه ليست كارثة.

- ان عمرك لايناسب تسلق الجبال - تكلم طه بفزع.

وزحفوا صاعدين الى فوق. ولاحظ ماك غريغور ان طه أخذ يتعمد تقليل وتيرة الحركة فيتحاشى المنحدرات الحادة والمنزلقات. وعندما لم يبق الا القليل حتى مكان الخط الرمادي الذي يربط الاطراف المتقطعة لمنطقة الوهدة، جلس ماك غريغور على كومة من الطحلب الناعم. وتكلم طه مشيراً الى الفارسين في الاسفل:

- ان خطأنا هو اننا نسير في الجبال بدون سلاح.

- انا قطعتها طولاً وعرضاً خلال ثلاثين سنة، ولم أحمل معي سلاحاً حتى ولو مرة واحدة - قال ماك غريغور.

انك لم تقع بمثل هذا التشابك انهم يطوقوننا مثل الوحوش...

وقبل ان يسأنفا التشبث بالصخور للصعود الى فوق، خلع ماك غريغور القميص عن بدنه

مثل الحزام على جسمه، فصارت الحالة اخف عليه، وكأنما أخذ جلده بالذات يتنفس الآن ايضاً فيعاون بذلك الرئتين بالتنفس وزحف طه نحو الجسر بحركة استطلاع، بينما راح ماك غريغور يراقبه وهو يزحف زحف العنكبوت على المنحدر. وكانت الملابس التي على طه هي نفسها التي كانت عليه في باريس خفيفة غير دافئة. الا انه كان يتسلق بفرح التلميذ خلال العطلة، واغمض ماك غريغور عينية لحظة متسائلاً مع نفسه اين ذهبت حركة اقدامه الخفيفة وافكار الصبا البسيطة؟ وأي مصائب قد هوت عليه؟ وفي اي من الشوارع الشرقية وداخل اي من المكاتب الزجاجية وفي اي من الاكواخ الطينية قد ضيعت قواه نفسها؟ وعلى أي مناطق شاسعة من منحدرات الجبال التي لا حدود لها والمغلقة بالأصائل الخالدة الليمونية؟ وصاح طه بصوت يصم الاذان من الجسر:

- لايوجد اي احد في هذا الجانب.

صعد ماك غريغور الى فوق، وبعدما تشبث صاعداً في النهاية الى، والصخور التي كانت مثبتة عليها الاسلاك الصدئة للجسر اشار له طه الى قشور جوز والى كوم من البراز بالقرب منها.

- انهم كرد وعلى ارضهم.

- هذه الآثار هي من يوم امس أو أول امس. فهيأ بنا نعبر الجسر دون ان نضيع الوقت - تكلم ماك غريغور، مع نظرة مرتابة الى الحبلين الصدئين المعلقين اللذين يربطان بين ضفتي الوهدة، وفوقهما كانت موضوعة الواح من الخشب نصف متآكله. ومن تحتها تثاءبت هوة عمقها آلاف الاقدام مثل شدق طويل حاد الاسنان. الا انه لم يكن هنا مفر من العبور.

وظهر ان الزحف على الالواح المهزوزة المتهرئة كان بلا تعقيد. وفضلاً عن ذلك فان ماك غريغور حالما أمسكت يداه بالخشب حتى اجتاز الجسر. اما طه فقد استل قطع خبز كانت في الصباح أكثر طراوة وليونة ولكنها صارت الآن أكثر جفافاً من جراء جفاف جو الجبل. وبينما هما يمضعان اللبن الناشف الثقيل مع مزيج الرز البارد سمعاً اصوات ضحك فوق رأسيهما صادرة من اشخاص مجهولين في برج حراسة تركي متداعٍ.

- الذهب أم الموت! - تدحرجت نحوهما هذه العبارة الكردية.

قفز الاثنان من مكانهما.

- ها ها، لقد خفتم! - ضج ضحك بهيج. «هؤلاء معروفون يا ترى» - هكذا خطر على ذهن ماك غريغور.

- اخرج يا احمد - صاح طه.

ظهر كردي من فوق في خرائب البرج، يلبس قمصلة من نسيج منزلي وسروال منتفخ من نسيج كتاني وتنكب فوقها بندقية. وكان ماك غريغور قد عرف أحمد شاباً جريئاً، بحيث ترك انطباعاً مؤثراً على كيتي بجموحه الكردي المشاكس.

- انزل الى هنا وبسرعة! - أمره طه.

- لقد اخفتكم، نعم اخفتكم - أكد احمد ذلك بمرح. ورفع بندقيته فوقه وسأل:

- ولكن اين الهانم زوجتك؟ - سأل أحمد ماك غريغور متطلعاً بنظرات صبيانية طائشة وقال - واين الكيس المليء بالذهب؟ - ومن ثم حمحم ومد يده نحو الخبز.

- ان الهانم بعيدة. وكذلك الكيس - اجابه ماك غريغور الذي شعر بالسعادة بـاللقاء الجديد مع الجريء وسأله - كيف حالك يا أحمد؟ كيف تعيش ايها الصديق القديم؟

- انا أعيش هناك حيث ابحث عن عسل السنة الماضيـه - اجابه أحمد وهو يمضع الخبز بشهية. (فان النحل البري تعشش أحياناً في الوهاء الصخرية ومن ثم تبقى الخلايا المهجورة زمناً طويلاً سالمة بفضل برد الجبال) وقال - وانا اقوم بانتزاع العسل!

- ودع الكلام عن العسل الآن - قال طه - قل لنا اين زاتكو، وكذلك اين القاضي والآخرون؟

- ان والدك في ذلك الجانب خلف ميلادا - رد احمد وقال - انه بضيافة قبيلة غيرات. واننا نجتمع كلنا هناك الآن.

- هل هو سالم؟ - سأله ماك غريغور.

- اجل، وان الجميع يتفجرون احمراراً من الغضب، بحيث ان ارجلهم قد تورمت. هكذا صاروا - قال ذلك احمد ومد يده حول احذيته الممزقة.

- وهل كنت رأيته منذ مدة طويلة؟

- منذ اربع ليال كاملة مضت.

- وهل ان القاضي معه؟ - سأله ماك غريغور.

- نعم. القاضي محمد مريض مرضاً شديداً. ولهذا فأننا أختبأنا عند الغيراتيين.

بسبب ان ايلخان زرع مسلحين لأطلاق النار ببنادق امريكية جديدة. آه لو احصل على واحدة منها!

- وهل ان زاتكو صابر على هذا ؟ - سأله طه.

- جرب ان لاتصبر امام طائرات عمودية تحوم بكل مكان مثل بعوض اللحوم.

وانا اتخفى منها طوال النهار منتظراً زاتكو. ولكن زاتكو لم يأت. لابد ان حصل له حادث ما.

- ومتى وعدك ان يكون هنا ؟ - سأله طه.

- امس. اليوم. ولربما انهم في بيوتهم يقتلون الوقت بلعب الورق - ونخر احمد نخير الاطفال وتجهم من جديد وقال - كان هناك يوم امس تبادل لأطلاق النار مع الطائرات العموية. اما انا فكنت أجلس هنا. انا احمق اليس كذلك؟

لم يجبه ماك غريغور وقال لطه بعدما نهض هو:

- هيا بنا.

ربط طه صرة حاجاته. وأعطى الى احمد خبزاً ولبناً مكثفاً. وقال له:

- انتظرنا انت حتى نعود الى هنا، والا سأطلق الرصاص عليك. اختبئ. واين حصانك؟

- انه مربوط هناك فوق وجائع. فانه يتشمم الفضلات القديمة. وانا لا اطلقه الا في الليل لأن الرعي فيه ضجيج كثير. واسنانه كلها قد اندثرت...

ومن دون مواصلة الاستماع الى ثرثرة احمد عن حصانه الادرد، نهض كلاهما وراحا ينحدران مسرعين من القمة دون اعارة انتباه الى وجود من يلاحقهم أو عدم وجوده. ومن بعد مرور ساعة صارت تبدو واضحة للعين أقرب قرية غيراتية بين واديين ضيقين. وتوجه ماك غريغور نحو هذه القرية.

- ليس الى هناك - قال طه واضاف - اتجه الى اعلى نحو القرية القديمة الصيفية.

فسنعثر عليهم هناك حتماً. انهم لا خطر يهددهم هناك.

وسار سيراً حثيثاً بلا اي التقاط للانفاس وبصمت مدة اربع ساعات في دروب جبلية، ومن ثم وعندما مالت الشمس وانحدرت وراء قمم الجبال وصلا الى القرية الكسيحة الخالية المطلوبة التي تشبه أكثر ما تشبه محطة استراحة بدائية حفرها رجال الآثار.

- لا أثر لرجالنا - قال طه.

- ولا ظل لأي أحد هنا - قال ماك غريغور.

لم يكن اي أثر لأحد في القرية. وتوجد بكل مكان آثار لتبادل أطلاق النار:

ففي السواقي أغلفه الرصاص. والآثار التي حفرها الرصاص في الجدران الطينية منها والحجرية. وفي وسط الطريق حصان مصروع وسيارة جيب مهجورة ذات لون ازرق غامق.

- هذه سيارة زاتكو - قال طه واضاف - انظر ان بها آثار دماء...

انطلق الاثنان ركضاً عبر زقاق من الجدران الطينية ويلقيان النظر في جميع البيوت. وعثرا فوق عتبة احد الاكواخ على جثتين منطويتين. وقال طه:

- هذا ان حمزة ورشيد. فأنهما كانا دائماً مع والدي.

انهما قتلا فوراً. وتحطم في الكوخ الاثاث البائس وتبعثرت الحاجات والاغطية.

- كيف افسح المجال هذا للعدو ؟ وكيف امكن ان يحدث مثل هذا ؟

- انها الطائرات العمودية - تكلم ماك غريغور وقال - لقد رأيت في الارض الخلاء اماكن محروثة ومحفورة. اما زاتكو فهو لابد وان أختفى في الجبال وشرعا يصعدان على درب يؤدي الى خلف القرية. وما ان تجاوزا القمة تقريباً حتى سمعاً من ينادي عليهما بالاسماء من الاسفل الى فوق، اي من المرعى الشتوي.

- ان هذا هو علي العراقي، تكلم ماك غريغور واخذا يركضان الى هناك

- التزما بالحذر - صاح عليهما علي بصوت ضعيف. ووصلا ركضاً اليه بانفاس متقطعة.

- اين ضاع الجميع؟ - سأله طه.

اشار علي بيده اشارة تنم عن التعب نحو الجبال وقال:

- الفلاحون يختفون هناك من الطائرات العمودية. وهم يعودون في الليل.

- وكذلك اين زاتكو والقاضي؟ - سأله ماك غريغور.

كان علي يبدو عليه ان المرضى أكثر شدة من قبل. وبعدما اشار صامتاً الى كوخ كان هو قد خرج منه تمتم يقول:

- انتظر... انتطر...

الا ان طه قد ركض الى هناك وتابعه على اثره ماك غريغور.

رقد القاضي مقطباً حاجبيه مصغر الوجه، ملتحفاً بغطاء كثير البقع وهنا بنفس المكان رقد زاتكو مكوراً رأسه على رجليه بسروال كردي وقمصلة وحذاء محلي منسوج بقدميه المتورمتين.

- لقد قتلوا في الطريق - تكلم علي من مكانه واقفاً بالباب وقال - لقد حلقت هنا طائرتان عموديتان وانزلتا اتباعاً لايلخان. واراد القاضي وزاتكو الهروب بسيارة الجيب الا ان طائرة عمودية قد ادركتهما وأطلقت النار عليهما من فوق...

ضغط على اذنيه بكفيه، لغرض ان لايسمع بقية الكلام. واتكأ ماك غريغور على الجدار. ومن بعد ذلك انحنى طه على والده واغمض عينيه وغطى وجه القتيل بجريدة فرنسية كان يحملها لاشعال النار.

- لمن كانت تعود هذه الطائرات العمودية؟ - سأل ماك غريغور وقال - من الذي ارسلها؟

- ومن الذي يعرف ذلك؟ - اجاب علي وسالت دموع على وجهه، وقال - من الممكن ان تكون طائرات عمودية تركية أو عراقية أو امريكية. وأي فرق في عائديتها؟ ان اتباع ايلخان هم القتلة وهذا كل شيء.

وخرجوا الى الطريق ان عيون طه كانت بلا دموع. وكانت جافة ايضاً عيون ماك غريغور. لان الموت كان يترصدهما بكل يوم منذ زمن بعيد.

- بالنسبة لي فأنهم لم يرصدوني اذ اختبأ في حضيرة الغنم لأن السعال الخانق قد انتابني - تكلم علي العراقي واضاف - لقد سمعت صليات الرصاص. وكل شيء انتهى بسرعة خاطفة. لكنني بعدما غادرت الطائرات العمودية المكان، علمت بالفاجعة.

- لكن اين المقاتلين الذين مع زاتكو؟ - سأله طه.

- انهم اختفوا في الجبال. ولكنك لاينبغي لك ان تذهب اليهم الآن.

اسمع يا طه، فأنني قد أمرتم ان لاينزل أي واحد منهم قبل حلول الظلام. فان ايلخان يريد القضاء على جماعتنا كلهم وعلى كل من يمكن العثور عليه. وبحسب رأيي فان ايلخان ما كان يريد قتل القاضي. وان اتباع ايلخان فتشوا الطريق كله بحثاً عن القاضي وعندما عثروا عليه وقد اصابه الرصاص مع زاتكو، فان اولئك قد ارتعبوا وصاروا يلطمون على رؤوسهم.

أطلق طه نظره الى الوديان الصماء، حيث استقلت الظلال الزجاجية من القمم التي حجبت الشمس خلفها.

- هل تعرف يا عم ايغور ماذا أكتشفت انا في اوروبا - تكلم طه بعد فترة طويلة من الصمت وقال - لقد أكتشفت - الاوروبيين لايعرفون الا نوعاً واحداً من الظلم هو الانتقاص من الشخصية. وانهم يعرفون ان هذا الانتقاص هو الوحيد في مدنهم النظيفة ذات الجدران المطلية بالالوان الجميلة وفي الدراسة في المدارس وفي تربية الاطفال الذين اذا مرضوا او ماتوا

فان ذلك يحدث في فراش المستشفيات. اما هذا، واشار الى ما حوله من وديان وجبال، فهو مهزلة بالنسبة اليهم، ومن ثم فانه لمن الواضح ان نهاية حتمية ما لهذا الجهل المحلي ستحل. فيا ترى أي حاجة الى الغاز والمواد الكيمياوية والحديد والطائرات العمودية؟ ويا ترى هل الحاجة تدعو الى ان يهجم الجميع على رؤوسنا ؟

أخذ ماك غريغور نفساً عميقاً ثقيلاً بدلاً من الجواب وواصل طه الكلام:

- انهم يفوزون علينا بكل سهولة ولايتركون لنا اي شيء. بل وحتى لايتركوا الشيوخ المرضى. انهم يبيدوننا تماماً من الجذور.

نظر ماك غريغور نحو علي العراقي نظرة من يستفسر هل لن يعترض على هذا الكلام الا ان علي مال بظهره نحو الجدار الحجري متصارعاً مع اختناق الانفاس ليلتقط الهواء عن طريق الفم. ثم ان ماك غريغور فكر رغماً عنه حول عدة انتفاضات كان يقف على رأسها الشيوخ كبار السن المرضى الذين استنزفت قواهم المطاردات والكوارث. وليس من قبيل المصادفة ان وجه القاضي وجه ميت منذ مئة عام.

- يجب بجميع صفوف رجال زاتكو الذين يختبئون في الجبال - قال ماك غريغور:

- انك سوف لاتجد احداً منهم الآن، فانهم كلهم قد ذهبوا - قال طه.

- ولكن لربما قد بقي بعض منهم ينتظرون في الأعلى.

- ماذا ينتظرون؟ - قال طه -

- لايمكن ان الآن بأي شيء ان تسحب اكرادنا الخائفين من الجبال، فأنهم قد ذهبوا ولن يعودوا. وبهذا تكون النهاية قد حلت على قضيتنا المشتركة كلها.

- رغم ذلك هيا بنا الآن نبحث عنهم طالما ان الوقت لم يفت بعد. يجب ان تقنعهم فقط...

- ولكن بماذا ستقنعهم؟ - ضحك طه وقال - وماذا بقي لدينا هنا؟ كيف انت لاتفهم ان كل شيء قد أنتهى. فان رأسنا مبتور، اما الجسم فهو يركض مع جميع الارجل ولن نستطيع بأي شيء ان نوقف الركض.

- هل هذا يعني انك ستعطي كل شيء غنيمة لأيلخان؟

- انني سأقتله عاجلاً أم آجلاً. - اجابه طه وقال - ولربما ان هذا هو كل ما بقي عندي لأقوم به.

- كلا، كلا! - تكلم ماك غريغور - لايجوز ان نترك كل هذا يذهب ادراج الرياح لأجل انتقام دموي احمق عديم الجدوى.

- ولكن ماذا يجب افعل ايضاً؟ - صاح طه وقال - هل لنهجم على الشاحنات بستة من الطلاب مع سابعهم أحمد الأبله؟

- اسمعني يا طه - قال ماك غريغور - يجب الصعود الى الجبال، ويجب اقناع الاكراد والكلام معهم عما جرى وقيام ايلخان بقتل القاضي وزاتكو، وبعد ذلك سنرانهم يسيرون خلفك متجاوزين الفزع.

- انت لاتعرف نقطة الضعف لدى اهلنا الكرد - اعترض عليه طه وقال - الكردي يفقد الشجاعة في الغم اما الاستماته فتتحول الى نحيب الصبيان.

- وهكذا نقوم وننحب. هيا نذهب اليهم في الجبال.

- انا لا انتحب، ولكنني لا أريد مخادعة نفسي. دع هذا الكلب العجوز يأخذ الجبال غنيمة. ودعه يأخذ الاسلحة. فان المدن والمصانع هي التي فيها يتقرر النضال. هذه هي الحقيقة.

- تتجمع هنا في هذه المناطق وما بعدها باتجاه كوتور حوال اربعين قرية وفيها عشرون من القبائل الكردية - تكلم ماك غريغور بعدما فتح خريطة ونظر فيها وقال - واذا نحن لم نستطع ان نجمع في الطريق ما يكفي من الرجال، فعند ذاك ستعلن انت النهاية. فبعد ساعة سيحل الظلام. ودعنا نحاول اقناع الرجال المحليين. اما في الصباح فسنواصل الحركة في الطريق.

- انا لن اصل الى كوتور... - تكلم علي العراقي. وكان طه وماك غريغور قد نسياه جالساً الآن القرفصاء قرب المدخل جلسة طقسية بلا حراك وقال - انا سأتكلم مع ابناء القرية... ولكن طه محق في كلامه - التفت علي العراقي نحو ماك غريغور واضاف - انهم الآن مأخوذون بالفزع. ولكنك يا طه لست محقاً بكل شيء. أطلب انت ممن اصابه الفزع ان يسعل، فيحصل ان يتبدد الفزع من السعال.

- يحصل دوار الرأس من السعال أحياناً وقد يقتل الرجل نهائياً - ضحك طه واضاف - ان البديل الذي حصل لنا هنا هو الدوار.

- مهما كان الذي حصل، يجب علينا حتى حلول الظلام ان ندفن القتلى - تكلم علي العراقي وهو يقوم بصعوبة ليقف على رجليه وقال - ان الجثث ترقد لليوم الثاني. وباعتبارك يا طه ابن القتيل والقيم على الجثة فينبغي عليك القيام بالصلاة عليهم.

- كلا - رفض ذلك وقال - انا لن اقيم الآن مراسيم الدفن على والدي. فقبل ذلك يجب ان ادفن ايلخان.

- ولكنه يجب حفر القبر - قال - فلا يجوز ان نتركهم بلا قبور.

ووجدوا معاول في المساكن وحفروا قبرين ووضعوا أرجل القاضي باتجاه الجنوب في الارض ونزل ماك غريغور داخل الحفرة وادار وجه القاضي باتجاه مكة. ومن بعد ذلك رفع علي يديه وغطى اذنيه وردد: «الله اكبر» - واهالوا التراب والحجر على حفرة القبر. وفي الحفرة الأخرى دفنوا زاتكو مثلما دفنوا القاضي. ولم يضعوا اي علامة على مكان قبر كل منهما. وتلا علي العراقي فوق زاتكو دعاء «الله اكبر». الا ان طه لم يقبل ان يتلو اي كلمة من هذه التكبيرات التقليدية.

عادوا راجعين الى القرية وهما يعاونان علي العراقي بل يحملانه، ثم قال ماك غريغور لطه.

- انت حر في ان تقدم فيما بعد بما تريد، الا اننا سنتوجه غداً الى كوتور وفي دربنا سنأخذ معنا كل من هو قادر على ذلك ومن ثم سننفذ العملية بحسب ما خططنا لها من قبل.

- ولكن هذا تهور يا عم ايغور - قال طه:

- لنفترض ذلك. وان من الافضل المقاومة بحماقة بدلاً من الخضوع بحماقة.

- ولكن هذا بلا معنى ولا فائدة وعبث.

- وعلى رغم ذلك...

الفصل السابع والثلاثون

واصلوا الجدال ما بينهم في اثناء ما مروا على عشرات من القرى الجبلية. وحاول ماك غريغور ان يجند مقاتلين بينما طه يصغي صامتاً كيف يحاول اقناع الرعاة بملابسهم الممزقة والحصادة والجزازة، لأجل التصدي لأيلخان، خدمة لمصالحهم الجذرية.

- انت تتكلم الحق - واشاروا برؤوسهم الى ذلك، ومعه قتلت الآمال. فيا ترى هل انت لاترى ذلك يا ماك غريغور؟ وكذلك الا ترى ان مأساة عام ١٩٤٧ تتكرر علينا؟ ما الذي يعُصب القضية الكردية. ولماذا ينبغي البدء من جديد حالما تحين البداية؟

- لن تستطيعوا ان تبدأوا اي شيء اذ تسلم ايلخان هذه الأسلحة - اعترض ماك غريغور على شيخ عجوز من عائلة وعشيرة يعيش قسم منها في الاراضي التركية والقسم الآخر الايرانية. ان الاجانب يحبذون ايلخان ليدقوه بينكم مثل المسمار.

- وما بيدنا لنفعله - اجاب العجوز وقال - اننا بدون الاجانب لا نستطيع ان نتصرف ابداً.

- انهم الآن سيستعبدونكم لمدة مئة عام - صاح ماك غريغور.

لكن هذا العجوز رفع يديه بهياج مثل غالبية الآخرين الذين من قبله، وقال مع دموع من عينيه:

- الله ارحم الراحمين.

وفي مكان مرتفع فوق قرية للرعاة تقع على منتصف منحدر جبلي بارد تناولوا عشاء من اللحم بعلبة من الصفيح وزنها كيلوغرامان اشتروها من راعي غنم (وهذا كان قد استلمها على الارجح من سيارة نقل عسكرية).

- انتم تضيعون الوقت سدى - تكلم طه وهو يمضغ الطعام وقال - انت بهذه الأدلة البرلمانية لاتستطيع ان تشق لهم ثوباً. وماذا تعني هذه الأدلة بالنسبة لهم؟

نهض ماك غريغور من اجل ان يربض رجليه المتخدرين وقال:

- وانت بأي شيء تستطيع احداث هذا الشق.

- ولا أي شيء...

- وبناء على ذلك فما هو الذي ينقصنا ؟

- انني بحاجة الى قتل ايلخان. اما بعد ذلك سنترك مراع التيوس في هذه الجبال ثم نبدأ من جديد من شوارع المدن.

- انك عندما ستقتل ايلخان فانت لن تمنع وصول شحنة السلاح.

- وهل انت تستطيع منعها ؟

- لا استطيع ذلك كما ارى. اذا لم تجمع رجال زاتكو والآخرين.

ولهذا توقفوا عن المراوحة وجلسوا. وانا سأثبت لكم ان عندي بقي هدف واحد هو قتل ايلخان.

- لا بأس - قال ماك غريغور بعدما جلس على البساط وتغطى بالقمصلة وقال - اذا ما أثبت فعند ذاك سأحمل الكيس على ظهري واذهب معك.

- ان المأساة تنحصر في انك ماتزال لم تفهمنا - قال طه وهو يغطي ركبتي ماك غريغور بقطعة من جلد حزوف واضاف - ان عندك افكاراً هي من طراز البرلمانية الانكليزية المتنورة. ولكنك ينبغي عليك ان تنظر الى الاشياء هنا بعيننا وليس بعين انكليزية.

- انني أسعى منذ ثلاثين سنة الى النظر مثلما انتم تنظرون.

- اذن، هيا القِ نظرةً على الموقف الحالي. فاننا بلا رئاسة، ونحن بلا سلاح ولا مال وبدون مواساة من الخارج. فمن هو الذي يحتاج الينا. نحن شعب البشرة السمراء المتخلف الممزق المشاغب؟

- كفاك هذا الكلام اكراماً لله.

- انا اتكلم عما هو موجود. فها يستحق منك ان تنزعج بسبب اننا مضطرون لقتل احد الخانات؟ ثم بماذا تأمر ان نفعل يا عم ايغور؟ وكيف نقاوم الاجانب والسلاح الاجنبي؟ هل تأمر ان نبدي اهتماماً بماذا ستفكر نساؤكم الانكليزيات الرقيقات بقبعاتهن بعد صلاة يوم الاحد، عندما يتصفحن جرائد الصباح ويقرأن عنا بأننا قتلنا رجلاً؟ ولكنهم كم يقتلون هم بالذات طوال ما يتناولون الافطار من البيض ولحم الخنزير؟

- انت يا طه لاتريد ان تفهم بعناد. فما هو الفائدة التي ستجنى من وراء قتل ايلخان.

فانت بهذا العمل تزرع في اذهان الشعب فكرة ان لا حاجة للصراع ضده، لأن هناك من يصارع معه.

- انا لا اغرس اي شيء...

- انت تتصرف مثل طلاب باريس: طالما انا الصفوة فهذا يعني ان الثورة هي انا. ولكن هذا ليس كذلك بتاتاً.

اخذ طه نفساً ثقيلاً وكأنه يئس من الجدال وقال:

- انت يا عم ايغور تنسى دائماً شيئاً واحداً.

- ما هو؟

- انت تنسى ان ايلخان لم يقتل عندنا اثنين من رؤوساء الوزارات السمان الذين سوف لايذكرهم احد انه بقتله للقاضي وزاتكو فقد قتل كل قضيتنا السامية العادلة.

- انا سعيد كونك قد فهمت أخيراً.

- انا كنت أفهم هذا دائماً. ولكن كيف يجب ان تفهم ذلك لرجال الاعمال الانكليز واسياد البلاد الذين يقودون اولادهم من ايديهم الى المدرسة؟ وكيف نفهم المحاميين الانكليز والاطفال ذوي الجلابيب البيضاء؟ فان ثقافتهم هي ثقافة السلاح. ولكن كيف بامكاني ان افهمها لهم، هل بالسفر الى انكلترا وأطلق النار على سكان القرى المحليين من الاطفال النظيفين والزوجات والقساوسة والكسبة؟

فكيف سيرتاعون من هذا! ولكن هل هم قد ارتاعوا عندما قامت قواتهم الجوية في يوم احد انكليزي مقدس من عام ١٩٣٣، تعصف مئة قرية كوردية مسالمة بالقنابل؟... وانت يا عم ايغور كنت بالذات قد مارست هذا من قبل على ما أظن.

- انا؟

- نعم، اذا اردت ان تتذكر عندما قلت مرة انك لاتتردد اذا تطلبت القضية ذلك.

- انا لا اتذكر ذلك.

- ولكن اذا جعلتك تتذكر ذلك، فهل انك سوف لاتعارضني أكثر من ذلك؟

- لقد قلت لك اذا ما اقنعتني انت بصحة رأيك، فأنني سأذهب معك بنفسي. - اجاب ماك غريغور بعدما عاد جالساً وقال - هكذا على ان لاتسرع في المشي.

- انا لا أطلب منك ذلك.

- ولهذا فأنني اذهب وبرغبتي.

- كما تشاء. - قلص طه كتفية وقال - عليك الآن ان تتذكر كما كنت في الحرب في صحراء مصر عندما كنت قد خرجت لاداء مهمة مع ثمانية من الجنود وذلك لقتل روميل الجنرال الالماني.

- انت تتحدث عن هذا!

- فانت كنت تقودهم بصفتك من رجال المغاوير. فهل يا ترى لم تقتل انت معهم اربعة من الضباط الالمان دون ان تفسح المجال لأولئك الالمان ان يطلقوا النار؟ وكنتم ستقتلون روميل لو كان موجوداً هناك.

- ومن اين وصل ذلك الى علمك؟

- كنت انذاك قد رقدت مريضاً وان العمة كيتي قرأت لي صفحات من كتاب بصوت مسموع. لقد قرأت ذلك وهي تفتخر بك عالياً. فقد كرموك لقاء ذلك بوسام انكليزي.

- لقد تعبت انا. ودعنا نتوقف الآن عن الجدل - تكلم ماك غريغور عندما كان يندس داخل كيس صار رطباً من ندى الجبال وقال - وحتى لو انت قتلت العجوز ايلخان فلا فرق ذلك لأن دوباس سيواصل قضية ابيه.

- انني بقتلي الأب فانني سأقتل الابن ايضاً - قال طه.

- نم انت. هيا للنوم - قال ماك غريغور، ولكنه اضاف بعدما نهض نصف نهوض:- لا أريد اي اختفاءات في الظلام طالما انا غاف.

- ولكنني لن أختفي في اي مكان - قال طه - الا انه ينبغي عليك ان تقرر غداً ماذا ستعمل.

- حسناً... غداً... - فهمهُ ماك غريغور مدركاً من خلال النوم ان قرائن طه سوف لاتكون أكثر اقناعاً مما هي عليه اليوم. والفرق موجود فقط في انه سيكون مضطراً غداً بصفة من رجال المغاوير ان أقوم باختيار جديد لدور حيوي صحيح.

الفصل الثامن والثلاثون

عندما صحا ماك غريغور من النوم لم يجد طه الى جانبه. وكان هناك غرابان جبليان يحلقان عالية فوق رأسه لاستقبال شمس الصباح التي كانت ترتفع من وراء سلاسل الجبال.

- انه ذهب، فليذهب - تمتم ماك غريغور مستريحاً لحظة ومتأملاً انه سوف لايضطر الى مجادلة او اتخاذ قرار.

- يا طه! - ناداه بصوت عالٍ.

- انا هنا في الاسفل. فقد ذهبت للماء.

- وكيف عثرت على الماء؟

- انه يكفي لركوة قهوة.

وصعد طه على منحدر رطب من الضباب حاملاً علبة صفيح مطعجة من علب الحليب المجفف للاستعمال بدلاً من ابريق الشاي.

- ان الماء يشبه كوكا كولا من حيث اللون - تكلم طه واستدرك بالقول

- ان شربه ممكن.

وجمع هو عيداناً جافة من اغصان الحشيش لاشعال النار، وانتظر حتى يغلي الماء، واخرجوا لحماً من العلبة ونظروا الى الطيور المحلقة.

وتحدثوا عن القضية مع انتهاء الافطار ثم انطلقوا في الطريق، وقال طه:

- ستنزل انت الآن الى كيراج. وتستقل من هناك سيارة باص الى الرضائية. اما من هناك فتعود الى بيتك.

- هذا يعني ان لا فائدة من اقناعك؟

واشار طه برأسه علامة على ان لا فائدة من ذلك، وقال:

- انا سأذهب الآن الى كوتور واسير هناك صاعداً مع نهر الوادي حت مقر ايلخان. اعطني خرائطك عن المنطقة هذه، اذ من الممكن ان استفيد منها. اما انت فأذهب الى بيتك.

- كلا. انا سأذهب معك.

وضع طه الكيس على ظهره وقال:

- ولكن لماذا ؟ فأنت تقف بحدة ضد ذلك.

- ليس بهذه الحدة - تكلم ماك غريغور وهو يلبس القمصلة الكردية من الصوف الخشن التي اشتراها من احدى القرى المحلية وقال - انا ضد خصالي الانكليزية الاوربية البرلمانية، ولكن مع الحياة التي عشتها في الجبال. والشيء غير الواضح عندي الآن من هو الاقوى بينهما الآن.

- اعطني الخرائط يا عم ايغور ولاتحاول ان تكون كردياً.

- انا احاول ان أكون انا بذاتي - تكلم ماك غريغور وقال - اذا كنت قد قتلت انذاك لواجب حربي ونلت ميداليات في مدن التكريم فهل ينبغي لي الآن ان اتردد ؟ ولذا فمن الممكن ان اساعدك ضد ايلخان.

ولربما ان هذا هو المخرج الوحيد، لا ادري. ولكنني سأذهب معك مهما ستكون النتائج.

- اذن يجب علينا ان لانتماهل. - واشار طه الى طنين قادم من نقطة سوداء في السماء الصباحية فوق القمم الوعرة وقال - انهم يطيرون من جديد. واسرع الاثنان الخطى نحو الشمال فوق المنحدرات ولم يصلا الا في آخر النهار الى المنطقة الصيفية الغيراتية حيث قتل هناك زاتكو والقاضي. ولم يكن علي العراقي موجوداً في هذه القرية التي فرغت من السكان. الا ان سيارة الجيب كانت تقف حت الآن في الطريق، وظهر ان تحت المقعد فيها توجد بندقية رشاشة عيار سبعة ملليمترات.

- ستمر سنة أو اثنتان فان الاكراد سيبدأون على الأرجح بالقيام بزيارات حج الى هنا من بعيد، مثلما يسيرون في هذه الأيام نحو قبور الأبطال شهداء عام سبعة واربعين.

- انهم قادرون على زيارة المقابر وعلى دفن القضية. فان خلفيتهم العقلية قوية - قال طه.

وعكف الاثنان على معالجة السيارة الجيب التي انحشرت ميكانيكيتها على الحركة الثانية. وبالأرجحة والدفع استطاعا بالأخير تشغيل السيارة والحركة تحت الجبل وصاح طه: «اقفز بسرعة!» - وقفز ماك غريغور على المقعد الخلفي وجلس جلسة وطيدة. اما طه فقد ضغط

على عتلة التعشيق وبعدما نخر المحرك وارتجف بضجيج. وصاح ماك غريغور:

- الى اين نذهب الآن؟

- يجب اعادة طلاء السيارة. اما من بعد ذلك فالى وادي كوتور، ثم مع النهر الى فوق نحو الحدود.

- هل انت جننت - تكلم ماك غريغور وقال - ان جميع الحدود هناك تعج باتباع ايلخان.

- الطرق ماتزال حتى الآن ليست ملكاً شخصياً لأيلخان وهو سوف لايطلق الرصاص على كل سيارة جيب مستطرقة.

- انهم لايسمحون لنا بالوصول الى الحدود بأي حال من الاحوال.

- وكذلك لا حاجة لنا بذلك. فان هناك قرية كبيرة توجد في الجهة الشمالية. انها قرية هباشي اشاغ. فان مقر ايلخان هناك.

- ومن اين عرفت ذلك؟

- انهم هناك فقط يستطيعون استقبال القائد العظيم بما يليق به مع جميع مستلزمات الخان العائدة له. مايزال ماك غريغور لم يسأل طه عن خطة العمل التي سيعمل بموجبها، اذ هو ما كان يرغب في معرفة هذه الخطة، الا انه شعر الآن ان طه يريد تنفيذ الخطة بحسب الطريقة الكردية، اي بصورة مكشوفة: فان الثأر يجب ان يؤخذ امام الناس وان يكون مشهوداً من قبل الجميع، عندما تكون جميع الأفضليات حتماً الى جانب العدو الجبان.

- هل انت ستقتحم مقر ايلخان مباشرة؟ - سأله ماك غريغور متشبثاً تشبثاً قوياً بحافة السيارة الجيب السيارة التي تواصل القفز فوق الحفر. (ان طموح طه العارم لايقل عن طموح والده).

- سأدخل عليه مباشرة.

- لاتقم بعمل احمق يا طه اذ ستضيع بغباء.

- ولكنني اذا فعلت بحسب رأيك وبذكاء وبحسب المخادعات الانكليزية فان الكرد لايعتبرون ذلك عملة شريفة.

- ولكن يجب ان يكون هناك اقل حظ من النجاح.

لم يشأ طه حتى برد جواب. وقاد السيارة بطريق نزول نحو الشارع الاسود. وعلى بعد عشرة اميال منه نفد البنزين من السيارة. وتوقفوا حوالي الساعة الى ان حصلوا على غالونين

من البنزين لدى سيارة شحن قادمة. وكانت هذه الكمية من البنزن كافية لأن يصلوا الى الطريق السريع المتجه من الجنوب نحو الشمال. وفي مدينة رضائية ملأوا خزان الوقود في السيارة وأخذوا صفيحتين منه ايضاً وأشتروا نصف غالون من الطلاء البني وتزودوا بزمزميات ماء. وبعدما غادروا رضائية مسافة عشرين ميلاً انحرفوا عن الطريق وصبغوا بسرعة سيارة زاتكو الزرقاء بلون اسمر.

- هل ان الطلاء مشارك في قضية الشرف؟ استفزه ماك غريغور.

- بعكس ذلك نسير بعيداً - اجابه طه وقال - فأنهم سيتعرفون فوراً على سيارة زاتكو الزرقاء.

في رضائية تناولوا غذاءً لحد التخمة. وكان ذلك في مطعم أوربي وليس في مقهى واخذوا معهم احتياطاً من الغذاء والشاي لمدة اسبوع، ووضعوا كل هذا في اكياس الظهر. ومن بعد ذلك تحقق طه من سلامة عمل البندقية الرشاشة. وفرش مجلة ووضع السلاح فوقها بين المقعدين وغطاه بقطعة من جلد خروف.

- هكذا يعني انك ستتصرف بدون أي سرعة أو خطه؟ - تكلم من جديد ماك غريغور.

- أي خطة تكون سلفاً هنا؟ - اجابه طه.

بعدما عادا الى الطريق السريع، استدار نحو الغرب بعد ساعتين من الحركة وصلوا الطريق الجديد الذي يشق وادي كوتور نحو الحدود التركية. وجاءت للقائهم سيارة «بيجو» قديمة كان فيها ثمانية اشخاص اكراد كان يجلس احدهم على الآخر وهم من اتباع ايلخان بلا شك.

- انتبه كي تتمكن التعرف الى اين ستستدير - طلب ماك غريغور وأجتاز الوادي حتى اختفى الطريق عن النظر. ثم اوقف السيارة كما اغلق المحرك. ولاذ الاثنان في الصمت دقيقة وكأنهما وازنا ما سيختاران من بعد ذلك. ورفع طه كفه عن مقود السيارة والتفت نحو ماك غريغور وقال:

- انا ما ازال أرى ان من الافضل لو انت تنتظرني هنا.

- كلا، لايوجد سبب للجدل حول قضية صارت مقررة.

- ان هذه ليست قضيتك يا عم اغور. ثم انني لو توقفت بالذهاب الى هناك وافلحت فسأخرج من هناك حياً أيضاً. اما غير ذلك فاني لم اعقد أملاً على أي شيء.

- هذا هو سبب لأن اقود السيارة.

- من الممكن انهم سيتعرفون علينا خلال الطريق.

- زد على ذلك يجب ان نسرع في السير كي لاندع لهم فرصة الانتباه الينا - تكلم ماك غريغور وهو يبدي الحزم في أخذ زمام قيادة السيارة والجلوس وراء المقود وقال - هيا، الا نتحرك؟

- لا بأس. هيا نتحرك - قال طه مضيقاً - ما ازال رغم كل شيء احب لو انك تحافظ على نفسك.

قاد ماك غريغور السيارة عائداً نحو الطريق. وبحسب القياسات طرق الوادي الذي قطعه في السيارة تعمق لديه الاحساس القديم هنا بقوة بانك لن تصل الى الجبال بالمقاييس القديمة الجامدة، ولايوجد ما يستدعي العجب من تصرف طه الحالي، لان كل شيء هنا متشبع منذ القدم بالعنف. وان الجبال تحولت الى المسرح الطبيعي للصراع بين جيوش رقيقة الملابس تتقاتل وجهاً لوجه وليس بغير هذا، وبالأيدي. اما الآن فقد حان له ولطه وقت هذا الصراع، ولم يساور القلق ماك غريغور الا أمر واحد وهو غياب التحضيرات اللازمة.

امتد الطريق عبر وادٍ صخري بمحاذاة مجرى نهر، كان جافاً تقريباً. وفي طريقهما قابلتهما قطعان اغنام فصيلة كاراكول كانت تهيم بحثاً عن الماء. ومن ثم لاحت لهما اعداد من الناس على جانبي الطريق، وملأ كردي الجو ضجيجاً فوق دراجة نارية عندما الق نظرة متطفلة على السيارة الجيب. ومرت بهما سيارة شحن جلست بكل ثقلها الشديد على نوابضها الزنبركية، وتعال صراخ الكرد الاعتيادي. وصاح ماك غريغور يسأل طه وسط ضجيج محرك السيارة.

- لا افهم حول ماذا يصرخون.

- انهم يصرخون عن جنود بكلام ما...

ومن حين لآخر كان يلوخ رجال ايلخان على جوانب الطريق. وادرك ماك غريغور انهم سيوقفون سيارة الجيب عاجلاً أم آجلاً.

- يجب ان تهيء التوضيح مقدماً - حذر ماك غريغور طه.

- اذا ما وصل الموقف الى الاستيضاح، فاننا عند ذاك سنتلقى رصاصة لكل واحد منا - اجابه طه وقال - لاتتوقف لأي سبب كان.

وبعدما سارا في منعطف مستدير آخر، فانهما شاهدا على مكان مرتفع صاعد في الامام رتلاً ايرانياً كاملاً من سيارات الشحن العسكرية.

- لايجوز الاسراع باي شكل من الاشكال لتجاوز الرتل - تكلم ماك غريغور وخفف من سرعة السيارة.

- نعم لا حاجة لنا بتجاوزهم. التصق انت بظهر المقعد، وعند ذاك سوف لايستطيع اي واحد ان يقطع الطريق علينا.

ان التصرفات صارت الآن مرتجلة كلها بحسب المناسبة. وسيارة الجيب كأنما استوعبت بقوة اسلوب صاحبها القتيل فانها انطلقت لاتلوى على شيء بحركات سريعة، الا انها امتنعت عن الزحف الى السرعة الثالثة ولهذا فان المحرك كان يشتغل بضجيج غاضب.

- لاتدع المحرك يتوقف عن الاشتغال - صاح طه على ماك غريغور.

وكلاهما غطى فمه وانفه من الغبار باطراف العمائم بينما صاح عليهما الكرد يتراكضون في سباق مع سيارة الجيب على الطريق، ولكنهما اجتازا المكان ولم ينتبه اليهما أحد.

- ان عندهم، كما يبدو، اجهزة لاسلكية تعمل بالترانسيستر فتحوها كلها - قال ماك غريغور.

- وما هو الفرق في ذلك الآن؟ استدر انت عند ذلك العمود.

كان العمود العلامة على الطريق يحمل خدوشاً كثيرة وثقوباً من اطلاق الرصاص، والتوت على بعضها اللوحة المكتوبة، الا ان ماك غريغور كان يعرف من قبل هذا ان هذه عبارة تحذير ايرانية اي في الامام قاعدة عسكرية، لايسمح بالوصول اليها عبر هذا الطريق ولايجوز التصوير الفوتوغرافي، وحيث يجب التوقف بأمر من الحرس.

تحرك رتل السيارات ذاهباً الى امام. اما سيارة الجيب فقد استدارت وهي تهتز في ميلان على الجنبين فوق منعطفات الطريق الزراعية الوعرة.

- الآن كن على اشد الانتباه! - قال طه.

- كم بقي حتى الوصول الى القرية؟

لم يجبه طه لكنه اشار اليه بسرعة الى تلال بمحاذاة الطريق. ولوحظ هناك، فوق، اثنان او ثلاثة من المراقبين. ولوح لهم طه بيده، ورد عليه احد المراقبين بحركة من يده جواباً عليه.

- هل انتم ذهبتم بهذه الصورة الى جنرالكم الالماني؟ - سأله طه.

- كلا، اننا قمنا بذلك العمل بعقل وحساب وفي الليل - قال ماك غريغور.

- قتلة محترفون! - عبر طه عن امتعاضه بنكتة. وفكر ماك غريغور بان «طه لم يقل نكتة من مدة طويلة».

اما هؤلاء فهم الحرس - اشار طه الى سيارة باص صغيرة طراز «فولكس واغون»، كانت تقف في الأمام عند المنعطف. وان اربعة أكراد على جانب الطريق كانوا يغلون شيئاً على النار.

- اذا كان هؤلاء هنا فهذا يعني ان الكلب العجوز هنا - قال طه واضاف - المهم لاتقف ابداً. اضغط على البنزين وسر إلى الامام والا فيستعرفون علينا.

اثارت سيارة الجيب اهتمام الحراس بوضوح. ونهض اثنان منهم وركض واحد نحو «الفولكس واغون»، ولم يشاهد ماك غريغور اسلحة موجهة اليهما وكذلك لم يلاحظ ذلك على مقربة من الجيش الايراني يمنع عليهم حمل الاسلحة جهاراً.

- هيا بسرعة أكثر قبل ان يقفز من سيارة الباص مع بندقية - قال طه.

- زاد ماك غريغور من سرعة السيارة واندفعت السيارة الى فوق على المنعطف. اما طه فقد صاح على رجال ايلخان باللغة الكردية:

- اشتبك محمد هناك مع الجند في عراك ونحن ذاهبون للمساعدة.

- ماذا تقووول؟ اننا لم نفهم ذلك. ولوح طه بيديه واقفاً وصاح من جديد صياحاً عالياً حول محمد وشيء آخر غير مفهوم .

- هيا زد السرعة، زدها - ظل طه يواصل حث ماك غريغور ان يزيد السرعة. وانطلق ماك غريغور يستدير في المنعطف بتهور، اما طه فقد ظل واقفاً يواصل الصياح ويزيد الاشارة الى ان أختفى الرجال الاكراد عن نظره.

- من هو محمد هذا؟ - سأله ماك غريغور وهو يطوي المقود المتهستر بسرعة رشيقة للسيارة الجيب المتأرجحة الحركة.

- نعم، نعم، انهم سيعثرون دائماً على اسم اي محمد.

وفي الامام ظهرت لهم قرية.

- اضغط على زر المنبه (هورن) - طلب منه طه.

- وهذا ما الغرض منه؟

- اضغط على زر التنبيه!

ضغط ماك غريغور على زر التنبيه، فتردد صدى الصوت من سفوح الجبال.

- اضغط على الزر مرة أخرى...

وقال طه نفسه وضغط بأصبعه بقوة بدون انقطاع للصوت. وأخذت النساء يهرعن من بيوتهن الصغيرة.

- هناك انظر - أشار ماك غريغور الى اقصى نهاية الطريق وقال - الا ترى؟...

قرب احد الدور في ذلك الطرف الأخير تقف سيارة «شفروليت» وكذلك السيارة الثانية «فولكس واغون». وخرج من الباب المصبوغ حديثاً للدار اثنان مسلحان. وقاد ماك غريغور السيارة غير مسرع بذلك الاتجاه.

- لا تغلق محرك السيارة - طلب منه طه.

- مفهوم.

- ولا تتفوه بأي كلام. التزم بالصمت.

- واضح.

ومن مسافة اربعين خطوة صاح على هذين الرجلين.

- اين الخان؟

- انه في الدار - اجابه احد الرجلين.

- قولوا له انني اتيت وعلى عجلة من امري.

دخل الحارس الى الدار عندما وصلت سيارة الجيب. ووقف في الباب ثلاثة آخرون من المسلحين.

- قل لهم هناك انني مستعجل وليس لدى وقت - صاح طه معطياً صوته لهجة الانزعاج.

- ولكن ما الأمر؟

التفت ماك غريغور بنظرة سريعة الى الواقفين على عتبة الباب، ان أولئك الحراس متسلحون ثلاثتهم بالبنادق الرشاشة. «الى اين يفضي هذا الطريق؟

هذا غير معروف له. ولكن لا مفر من السير الا عليه». هكذا خطر في عقل ماك غريغور.

- اي شيطان هنا؟...

ظهر الخان على العتبة بجزمة سوداء طويلة العنق. ومن خلف البوابة كانت منشفة مرمية بشكل مائل على الطريقة الايطالية. واحمرت اذناه الكبيرتان الصاعدتان بشكل حاد الى فوق. وكان فكاه يمضغان شيئاً ما.

- يا خان، يا ايلخان - قال طه.

- ماذا تريد؟ ولماذا خلقت هذه الضجة؟

- ليس هناك من ضجيج. اين ولدك دوباس؟

- انه في رضائية. وماذا تريد منه؟

وبعدما ابقى يده امام الانظار، اي وضعها على زجاج التهوية قال طه:

- انت رجل عجوز، وأب عجوز. وسيكون الموت موتاً غير متكافيء.

- ماذا تريد انت؟ وعن ماذا تهذي؟

أنتظر ماك غريغور مذهولاً اللحظة التي سيتعرف فيها على طه وماذا سيجرى فيما بعد. فهو لم يستطع اغماض عينه عند اصابع طه غير المغسولة التي انغرزت في الزجاج بحيث بان لون عظام السلاميات الابيض من خلال الرسخ.

- يجب ان نضع النهاية اخيراً - قال طه.

- انا لا افهم كلامك ايها الاحمق.

- سنتجاوز بدون ان تفهم.

في هذه اللحظة تعرف ايلخان على طه، ونزع المنشفة عن رقبته، وأخرج النظارات ووضعها بصلابة على انفه الذي يتخمله كما لو انه ملكية خاصة به لايستحق الرأفة ولهذا يمارس معه هذه الخشونة العدوانية.

- لماذا جئت الى هنا؟ - هدر هو على طه وقال - أغرب من هنا!

ولكن صوت ايلخان كان به نوع من الأضطراب، فهو قد القى نظرة على الجبال التي كما لو ان زاتكو يختبئ بمكان ما فيها. ومن ثم نظر عبر نظارته الى ماك غريغور فأرتجف مثل ارتجاف الملسوع.

- لم يبق الا ان يتطاول جرو علي - صاح ايلخان متوجهاً الى الجبال والكون وقال - ثم انه يجلب معه ايضاً هذا الغريب ليدنس جميع ارضنا من حولنا... حسن! يا حسن!...

لم يتأخر ماك غريغور. فعندما شاهد حسن يمد البندقية فقد ضغط على البنزين وجعل السيارة تنطلق مندفعة باتجاه حسن واصاب رجله بضربة جانبية من انف الراديتر. اما طه فقد صاح على ايلخان بكلام ما، ثم أنطلقت طلقة من بندقية اخرى، واصابت الطلقة سيارة الجيب التي كانت عجلاتها تدور بجنون يحرث تراب الطريق.

- انتظر... - صاح طه بعدما انحنى باندفاع على البندقية الرشاشة.

ولكن ماك غريغور لم يخفض السرعة. واستدار طه فأطلق النار من المقعد. وحصلت ضربة جوابية أخرى كسرت زجاجة التهوية ثم تلاها دوي جديد من اطلاق رصاص البنادق من الخلف.

- انتظر... - صاح طه مرة أخرى على ماك غريغور وقال - لاتسرع.

ولم يتوقف طه عن اطلاق النار. اما ماك غريغور فقد شاهد امامه طريقاً يستدير خلف آخر مجموعة من البيوت الطينية، فوجه السيارة الى هناك واطلقها في الاستدارة ونظر بسرعة الى ما وراءه، فرأى ايلخان ملتوياً يرقد على الارض والحارس يزحف فوق الارض يتشبث بيده بالجدار. اما الحارس الثاني اي حسن الذي دهسته السيارة فقد امتد على وجهه... وركض ثالث الحراس نحو سيارة الخان «شوفروليه»، لا انه سقط في منتصف المسافة بكل قوة وكأنما عثر بشيء ما. وعرف ماك غريغور ان هذا الراكض قد اصطاده طه ولو انه لم يسمع صلية رصاص دورية.

- ولكن الى اين انت تسير؟ - صاح طه عندما صارت القرية وراء المنعطف .

- الى هناك، الى حيث يؤدي الطريق.

- انه يؤدي الى الجبال. وهناك رجال ايلخان بكل مكان.

- ولكننا لايجوز لنا الرجوع الى الخلف.

- لماذا انادي عليك وانت تسير بسرعة.

- وماذا كان علينا ان ننتظر؟

ضاق الطريق الزراعي وتحول الى درب للمشي يؤدي الى السفوح. والصعود الى فوق تحول الى جرف حاد والدرب صار دريباً.

- كان يجب ان نسير الى الخلف.

- لو عدنا لوجدنا انفسنا في مصيدة - قال ماك غريغور.

- وهل هنا نحن لسنا في فخ؟ اننا هنا كما لو كنا على راحة يد.

سنختبئ فوق.

وفي طريقهما شاهد واحداً من رجال ايلخان راكضاً فوق السفح. وكان طه سيصعد ووضعه في الهدف، الا انه صار واضحاً ان ذاك لايركض نحوهم، بل يهرب منهم. وخرج ماك غريغور عن الدرب وترك السيارة تنحدر على السفح مباشرة فوق الحجر عبر حرش واطئ.

- هل لم يصبك الرصاص؟ سأله طه.

- كلا، ولكنك هشمت انت زجاجة التهوية. وليأخذها الشيطان. وانني ما كنت أرى اي شيء، فان كل شيء كان يرتجف - تكلم ماك غريغور. وهو كان قد ساق السيارة متعلقاً على

جانبها. وان طه قد هشم باخمص البندقية زجاجاً متعدد الطبقات. الا ان محرك السيارة بدأت حركته تسوء هنا. فقال طه.

- لاتدعه يتوقف عن الحركة.

- ولكن بأي صورة. انه سيتوقف عن الحركة مع الدوران البطيء.

- حول المحرك الى السرعة الاولى.

انتقل ماك غريغور الى السرعة الأولى، ولكن السيارة الجيب جمدت بمكانها. وبطح نفسه مثل من خارت قواه على اثر كلب الصيد، وكذلك كان بلا فائدة لجوءه الى الضغط علي زر التشغيل. وقال له طه.

- دعني أحاول.

وصلت اليهم صرخات واصوات اطلاق نار وضجيج محرك سيارة. واستطاع ماك غريغور بالأخير تحريك السيارة، الا ان شيئاً ما فيها قد خنقها ثم سرحت لوحدها حتى توقفت وقوفاً نهائياً الآن.

- هيا نهرب!

تناول ماك غريغور الكيس وخطف طه الرشاشة مع البندقية وفي نفس هذا الوقت فتح عليهما النار من فوق. وكانت اصوات الطلقات تسمع بوضوح وهي تمر فوق. رأسيهما طلقة بعد أخرى.

- دعهم يطلقوا النار - تكلم طه واضاف - لا فرق في ذلك بالنسبة لنا لأننا يجب ان نصعد الى فوق.

وراحا يركضان الى الاعلى فوق منحدر عار حاد. وعلى مسافة خمسين ياردة من خلفهما حرثت اطلاقات الرصاص الارض وقطع الحجارة، ومن ثم ضرب الرصاص من امامهما.

- هيا بسرعة أكثر... وبسرعة أكثر... خطف طه ماك غريغور من تحت يده وسحبه فوق المنحدر.

- انت اركض. وانا سألحق بك - قال ماك غريغور واضاف - هيا اركض... أخلى طه ذراع ماك غريغور وتسلق نحو مخبأ وحيد على السفح هو وهدة مطوية بين صخرتين مكشوفتين. وصار طلق النار الآن اثنان من رجال ايلخان، الا ان طه الذي اختبأ وراء المتن الصخري استطاع ان يسكتهما بثلاث طلقات سددها تسديداً محكماً .

وتمكن ماك غريغور بعدما ركض من الوصول الى طه، وسقط خائر القوى في الوهدة.

- انهما امتدا على ذلك الآخر - قال طه.

- دعني التقط انفاسي.

- لايجوز التماهل يا عم ايغور. فانهم هنا بكل مكان. واننا عندنا امل واحد هو ان نتسلق حتى نكون اعلى منهم.

- حسناً... حسناً...

وأخذا يزحفان مبتعدين الى فوق. وأطلقت النار عليهما من جديد من مكان ما فوق الجبل.

- لاتتوقف وواصل الزحف - تكلم طه الذي هو نفسه صار يتنفس بصعوبة واضاف - اما انا فسأواصل الزحف الى الامام لأسكت هذا الذي يطلق علينا النار.

- هيا اذهب - تمتم ماك غريغور.

قذف طه الرشاشة امامه فوق منحدر صخري، ومن ثم تسلق هو نحو الرشاشة. وقذفها مرة أخر امامه على منحدر مائل امامه. «جبلي حقيقي» - هكذا فكر ماك غريغور حول طه، وذلك لأن الكردي الجبلي وحده هو القادر على القيام بهذا دون ان يصاب سلاحه بالضرر. وبهذه القابلية السريعة على التسلق سرعان ما أختفى طه عن النظر. اما ماك غريغور الذي وصل به التعب الى حد انه صار يزحف تلقائياً ويتشبث بيديه ويدفع نفسه برتابة وكلل.

- ليس بهذا الاتجاه... - سمع هو صوت طه دون ان يراه، والقى نظرة على الدرب المؤدي الى فوق بطول خمس مئة قدم وصاح:

- اين انت لعنك الشيطان؟

- ليس بهذا الاتجاه، بل خذ يميناً.

كز ماك غريغور على اسنانه وتوجه يميناً وقام طه بقيادته الى فوق بصوته. اما اطلاقات الرصاص فكانت تفرقع وتتحسس.

- الآن سيكون كل شيء على ما يرام تماماً - رفع معنويته طه من فوق.

الا ان ماك غريغور احس انه في غاية السوء، فهو مع كل خطوة يخطوها يصبح اكثر ضعفاً واستسلاماً لفكرة انه لن ينجو من هذا الموقف. فصاح على طه.

- قل لي اين انت الآن؟

- انا هنا. لم يبق اماك الا اقل القليل.

زحف ماك غريغور بآخر ما تبقى له من قوة عبر النهاية المرتفعة من الخلع الصخري. وكان هذا الخلع هنا ضيقاً جداً بحيث صعب التسلل منه. وثار الرصاص. وما كان هناك مكان للاحتماء به من هذا الرصاص، اذ كل مكان على السفح الصخري مكشوف. وثارت صلية أخرى من اطلاق النار فأحس بضربات من الخلف في رجله اصابته بالكلل، فقال وهو يتنفس بصعوبة.

- لا، لا!...

وضربه نثار الصخور بوجهه. ثم ثار صلية اطلاق نار أخرى من بنادق امريكية كان أحمد معجباً بها كل الاعجاب، فارتخت من بعدها يداه. وشعر ماك غريغور بنفسه يغوص في ظلام. وعندما صحا رأى فوقه شمساً كدرة النور وهو مستلق على ظهره فوق سفح صخري جاء الانحدار تحت سماء معتمة. وفي لحظة خاطفة احس بنفسه مسحوقاً مثل قشرة ضعيفة. وبالنسبة للألم فانه لم يحس به، بل ولم يحس بالحياة. فان كل شيء قد راح عنه وابتعد الى جهة ما.

- يا طه...

لم يرد عليه طه. واستدار برأسه نحو جهة بعيدة فرأى بشكل غير واضح قمصلة طه مرمية فوق الصخور. وكان من الصعب عليه بأي حال من الاحوال التمسك بالوعي هنا، فنقل نظره نحو السماء وكأنه يتشبث بحفرة بيضاء خوفاً من السقوط.

- يا طه ... - نادى من جديد مرتين عليه الا ان طه غير موجود. أجل، وما الفرق في ذلك من بعد هذا...

ومن جديد استدار برأسه بجهد كبير، فرأى طه يركض فوق سفح الجبل باحثاً عن دريئة يحتمي بها من الرصاص. واستلقى وراء صخرة وأطلق صلية من الرصاص من خلفها وصاح بصوت عال منادياً ماك غريغور:

- هل انت تسمعني؟

لم يكن هناك شيء من القوة لدى ماك غريغور حتى يرد عليه فحرك يده اليمنى جواباً عليه. وصاح عليه طه.

- انا سأشاغلهم باطلاق النار نحوي. اما انت فازحف لتختفي في حفرة الى يمينك.

اما الحفرة فكانت هي نفسها تلك التي زحف منها ماك غريغور قبل هذا. الا انه قرر الاستلقاء بلا حركة لاعادة الاحساس السابق ليديه ورجليه والاقتصاد بآخر ما بقي من قوة.

- انا عاجز عن الزحف -تكلم بصوت ابح.

- جرب ذلك! - طلب منه طه باللغة الفرنسة.

تدحرج ماك غريغور بصعوبة على بطنه، وضغط على اسنانه يجذف فوق الصخور حتى امسك أخيراً بشيء ما، وسحب جسمه نحو حفرة الانقاذ. الا ان قواه قد تبددت، ومن بعد ذلك تهافتت عليه ستائر سوداء واحدة بعد أخرى، فتغلف مخه بالظلام الدامس.

- يا عم...

ظل طه ينادي. الا ان الجسم التف بالملابس مثل قطعة حلوى بالورق.

- لقد سحبتك انا الى هنا. اما الآن فيجب ان تساعد نفسك.

رقد ماك غريغورعل اعلى المنحدر وراء حدبة صخرية عارية، ونظر مرة أخرى الى بياض السماء المتعكرة.

- كم الساعة الآن؟ - سأل ماك غريغور.

- لا أعرف، حوالي الخامسة كما يبدو. هل تستطيع الجلوس؟

- هل ما زالوا يطلقون علينا الرصاص؟

- كلا. نحن هنا ما نزال في امان.

يعني هذا انني كنت في غيبوبة...

- يجب القيام بتضميد رجلك. ينبغي لذلك اخراج قمصانك من الكيس. والا تخسر دمك - قال طه وهو ينزع عن ماك غريغور بنطرونه.

- ولكن اين حذائي؟ - سأله ماك غريغور.

- احذيتك موجودة ولن تطير بعيداً الى اي مكان. ولكنك يجب ان تعاونني.

- ساعدني على الجلوس.

طه سحب ماك غريغور الى اعلى واسند ظهره الى الحجر. وشعر ماك غريغور بألم حاد حارق في مكان الاصابة بالطلقة. ومن بعد ذلك نظر الى رجليه. وكانتا مضرجتين بالدم، ومن الصعب عليه ان يفهم ما بهما، الا ان طه نظفهما بمنديل رطب، فعرف ان الجرح اصاب المنطقة فوق الركبة من الرجل اليمين وهو عميق ونظيف ويثير العجب بجفافه والعضلات الرمادية كانت مكشوفة وكذلك الاعصاب والاوردة غير المصابة. وتحت الركبة هناك جرح آخر واصغر من ذاك الا ان حافاته ممزقة، وهو قد دخل في الساق وينزف نزفاً قوياً. اما على الرجل

اليسرى فقد اصيبت عضله بطة الرجل ولايمكن رؤيتها من فوق. وقال له طه.

- يجب لف الجرح بالضماد حتى يتوقف الدم وحجب الجرح عن البعوض والتلوث .

- اقطع القماش الى شرائط وضمد الجرح - قال ماك غريغور. ولكن طه عندما لف الجروح معاً وضغط طرف الجرح الذي فوق الركبة من أجل احكام الربط، شحب وجه ماك غريغور وغاب عن الوعي مرة أخر. وعندما نفذ شعاع الضوء تحت الاجفان كان طه قد انهى تضميد الجروح.

- يا عم ايغور، هل انت تسمعني؟

- انا اسمعك - تكلم ماك غريغور وهو مستلقٍ على ظهره.

- عندما سيحل الظلام، سأحاول النزول الى القرية للحصول على حصان او ثور فلا نستطيع فعل شيء بدونهما. فاذا احملك على ظهري فاني لن أوصلك حياً.

اطبق ماك غريغور اجفانه ثم فتحها مرة أخرى وقال:

- ان في القرية الآن هناك مئة من رجال ايلخان.

- ولكن ماذا بيدنا ان نفعل؟

- وكذلك فهل انت ستنقلني بعيداً من هنا حتى ولو على حصان؟ فان الجروح ستواصل نزف الدم. وحتى اذا وصلنا الى رضائية او خويا،. فانهم هناك سيعتقلونني ويلقونني خلف قضبان السجن المؤبد. ان حالتى لاتستحق النقل...

- اؤكد لك، انت لم يعرفك احد سوى ايلخان.

- وكيف افسر اصابة رجلي الاثنتين بالرصاص؟ - تمتم ماك غريغور شاعراً كيف ان انفاسه تتباطأ ويأخذها بصعوبة.

- لدينا اصدقاء في خويا.

حاول ماك غريغور ان يرفع جسمه للجلوس وقال:

- عبثا تفعل كل هذا يا طه: اذهب بدوني.

سمعت من جديد لعلعة اطلاق رصاص وكان اصواتها قريبة. فنهض طه.

- هل يبدو انك تريد البقاء هنا لتموت بطلاً؟

- لا مجال لخيار عندي في هذه المرة - تكلم ماك غريغور، وهو ينظر الى لفائف الضمادات تحت الركبتين بينما الدم ينزف تحتها تدريجياً.

جلس طه جلسة القرفصاء يتطلع الى ماك غريغور وقال:

- ان الضعف يعرقل عليك تركيز افكارك.

- هذه حقيقة - تكلم ماك غريغور أطبق عينيه مرة أخرى وسكت كالثمل من السكر. من جراء الألم الذي لايطاق، ومن الرغبة في ان يغيب عن الوعي ثم قال - ان هذا كله ما كان يجب ان يجرى على هذه الصورة، نعم ليس بهذه الصورة.

- ارجوك فقط ان لاتغمض عينيك يا عم ايغور.

- اننا كان يجب علينا ان نقتل ايلخان، انا اعرف هذا ولكن...

- نعم كان يجب علينا ذلك. فيجب علينا ان نخرج من هنا لأجل ان نبدأ كل شيء من جديد في شوارع المدن حيث المستقبل ينتظرنا هناك. لاتغلق عينيك وفكر حول هذا.

عرف ماك غريغور ان طه يحاول تهدئته مثل طفل. واراد التعبير عن الانزعاج بالقول، انه رغم الألم فهو بعقل صافٍ، وافكاره مترابطة الا انها قد تحجمت من التعب ثم غاب عن الوعي مرة أخر.

- يا عم ايغور... يا عم

خيّم الظلام على كل مكان.

- بالنسبة لي فيجب ان اذهب - قال طه.

- حسناً، اذهب:

- انا ابقيت لك هنا كل شيء. الماء والخبز واللحم في الكيس.

والبندقية مطروحة قربك من الجهة اليسرى، واضع لك الرشاشة من اليمين. هكذا.

- ولكن هذه حماقة. خذ انت الرشاشة معك.

- لاتفيدني الرشاشة بشيء. اسمعني يا عم ايغور. من المحتمل سأذهب عنك لعدة ايام. اما انت، فمن الممكن ان تجلس فيما بعد. فكن حذراً: وانا في ذهابي من هنا سأقيم ضجيجاً، كما لو اننا الاثنين ننزل من الجبل. فهل فهمتني؟

- فهمت.

- خذ بنظر الاعتبار انني لا أعرف الى متى سأبقى هناك.

- اذهب باطمئنان وهدوء. ولكن دعنا نتقاسم الطعام...

- انا سأعود يا عم ايغور. وسأوصلك الى البيت، واقسم على ذلك بقبر والدي. وما عليك

الآن الا ان تصبر وتثبت مثل نسر مصاب الجناحين.

- اذهب باطمئنان. اما انا فسأجلس هنا وافكر بما سيحدث مستقبلاً.

- فكر انت حول العمة كيتي.

- حسناً.

- انك ستعود الى بيتك. وسيكون كل شيء جيداً.

- حسناً، سأفكر حول ما هو جيد.

- هل هذا يعني ان بأمكاني الذهاب؟

أشار ماك غريغور له برأسه، وهو يحس انه قد غطى بكيس النوم، بينما وضع الكيس الآخر تحت ظهره، ولكنه قال لطه:

- اجلسني.

اجلسه طه واسنده الى الصخور وعدل كيس النوم وقال:

- يجب عليك ان لاتنسى: فانا عندما سأعود سأقوم بمناداتك صارخاً منذ بداية الطريق. ولهذا فيجب عليك ان تطلق النار على كل من يزحف بلا تحذير.

- انا لا أرى في الظلام...

- عند ذاك ركز افكارك فقط وكن متيقظاً. هذا هو مهم اولاً.

- حسناً.

خطا طه عبر الطرف الأخير من الحدبة الصخرية وذهب. وسمعه ماك غريغور كيف انه ينحدر من السفح بضجيج وصراخ. ولعلعت عدة طلقات نارية، وسمع صراخاً من جديد. وهذا كله يفعله طه من أجل ان يوهم رجال ايلخان الذين لربما يبلغ عددهم عدة عشرات قد ترصدوا من حوله.

- الى هنا انزل انت من خلفي - صاح طه من مكان بعيد في الاسفل.

ارتدت السماء ظلاماً دامساً، والنجوم بردت الى حد الانجماد، هذه النجوم التي كانت تثير دائماً لدى كيتي حنيناً حاراً الى هذه المرتفعات الخالية.

- الى هنا من ورائي - وصل الى ماك غريغور صوت طه ضعيفاً ضعيفاً.

ولعلع الرصاص مرة أخر، ثم خيّم من بعد ذلك صمت الجبال. اما الآن فما كان يجوز النوم.

فالنوم معناه الموت، ولهذا فيجب اسناد الظهر على الصخر من اجل الاستيقاظ عندما ينكأ الجرح. وعندما صار يئن بصوت من الألم تذكر بيت شعر لحيدري من تبريز كان قد سمعه في طفولته من والده «الحياة هي ألم، ولكن الألم ليس حياة».

ولكن الالم حماه الآن من الموت. فان الالم والمحنة هما شكوك معلقة غير حاسمه، وهذا هو ما ينبغي ان يعيش معه وليس مع بلابل الزهور والماء الوردي، وعن هذا تحدث الشاعر حيدري ايضاً الذي كتب ٩٨٦ مقطعاً عن الالم والحياة والحب «افصلهم اذا كنت تستطيع واحداً بعد آخر، وبابتعادك عن الثالث ستموت من الفراغ» «وهذا يعني انني لن اموت هنا من الفراغ. فان حزن كيتي وعذابها لن يدعاني. وكذلك الألم الصارخ لجيزي مارغوز التي هي في خريف العمر، وكذلك الشك المرتهن غير المحسوم كله...

ولكنه يجب عليك الآن الاحتفاظ بقوتك. وفكر بدقة حول طه، وفكر حول المهمة الصعبة التي تواجه الشاب. ثق بقوة شبابه الجريئة الوثابة، اعتمد على ايمانه الملتهب وعلى شعوره بقيمة الشرف وعلى الثقة بالرفيق وعلى الصمود في النضال وعلى العلائق البنوية وعلى العقل والمراوغة والشجاعة والصمود والقدرة. وعلى صدق وصايا الآباء...».

ومن حين لآخر كان هذا يبتعد أو ان الظلام الجليدي يفقده الوعي، فيضغط مرة أخر ظهره على الصخر، وعندما يحس بالألم الحاد النافذ يفهم انه ما زال حياً، وان طه سيظهر آجلاً أو عاجلاً مرة أخرى على المنحدر ويصيح انه قادم في الطريق ولربما سيتحررون في هذا الطريق. ولد طه عيون تتطلع الى ذرى الجبال وتحث على ذلك، والى بواكير الزهور التي تزين الجبال من اجل الحياة والفرح وليس من اجل مجازر الابادة الوحشية.

من انجازات المترجم صادق الجلاد عن اللغة الروسية:

١- يوميات صحفي شاب - كونستين سيمونوف.

٢- المسألة الكردية ١٨٩١-١٩١٧/ م.س. لازاريف

حملت هذه الترجمة اسماً سرياً للمترجم - اكبر احمد.

٣- هناك كتب أخرى مذكورة في بيبلوغرافيا الكتاب والادباء العراقيين من الروسية الى العربية وبالعكس.

٤- ترجمات مخطوطة جاهزة للطبع:

أ- الحصار - الكسندر تشاكوفسكي/ ستة اجزاء عن حصار مدينة لينينغراد السوفيتية في الحرب العالمية الثانية.

ب- يوم الفراشة - رواية رومانسية/ بقلم اوتكور هاشيموف اديب من اوزبكستان.

فهرست


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

ابو علي الكردي

مطبعة مؤسسة

أربيل - كردستان

Aras press
Kurdistan - Erbil